A Y M A N A L - O T O O M

رواية

أنا يوسف

أيمن العتوم

الطبعة الأولى 1

دار المعرفة للنشر والتوزيع

أنا يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٣٢٧١

الترقيم الدولي: I.S.B.N

978-977-764-124-1

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل الصوتي والمرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الطرق إلا بإذن خطي من الكاتب

دار المعرفة للنشر والتوزيع

خلف جامع الأزهر - بجوار مسجد عليش

ت: ٠١٠٠٨٥٨٤٨٢٠ - ٠١١١١٣٢٢٦٦٨ - ٠١١٤١٢١٢٨٠٥

Email.elmarefa@hotmail.com

أيمن العتوم

أنا يوسف

دار المعرفة
للنشر والتوزيع

(١)
لا جَزاء للصّبرِ غيرُ الفوْز

ظلامٌ كثيفٌ، ليلٌ عميق، بردٌ قارسٌ، كلّ شيءٍ هامدٌ كأنّما ينتظر قدرًا غامِضًا، ألقت الأشجار رؤوسها على جذوعها يائسة، وذرّ التّراب نفسَه على الأرض مستسلِمًا. الحُداة ضلّوا، العارِفون خُدِعوا، والأولياء غرقوا في بُكاءٍ صامت، ورُغاء الجِمال في القوافل السّيّارة لم يعدْ مسموعًا. لا صوتَ غيرُ صوتِ الرّيح. الموت يمشي حافِيًا. الذّعر بلا قدمَين. العَتَمة سيّدة الأشياء، وحدها النّجوم الخجلى كانت تتراقص مثل ذبالة مِصباحٍ يوشكُ أنْ ينطفِئ في الأفق البعيد.

في تلك اللّيلة تَذاءَبت الرّيحُ حتّى أشبهَ عزيفُها عُواء الذّئاب.

من أين تخرج الذّئاب، كيفَ تولد، من أين لها هذه القدرة على التّكاثر الجنونيّ، كيف يختبِئ ذئبٌ خلف كلّ صخرة؟! كيفَ ينقادون (للعسعاس) بهذه السّهولة؟! كيفَ يسمعون له كأنّما رُكّبتْ في طبائعهم ألاّ يخالفوا عن أمره ولو مرّة واحدة؟!

صعد (العسعاس) الجبل، ركض في خطٍّ مستقيم، لم يكنْ من ذئبٍ من قبله يُتقن الرّكض في خطّ مستقيم مثله، كانت كلّ الذّئاب فيما مضى تدور حول نفسها، تتذاءب من كلّ جهة، تجري في خطوطٍ مُتعرّجة، تركض إلى جهتَين في الوقتِ نفسه، تنكفِئ على نفسها، وتصل متأخّرة. (العسعاس) أسرع تلك الذّئاب، سابقَ الرّيح ليصل إلى القِمة، ووصلتْ من بعده بقيّة الذّئاب، أتتْ إليه من كلّ ناحية، تجمّعتْ حوله، لم يعدْ من

ذئبٍ في فلسطين ولا في الأردنّ إلاّ وجاء حاسرَ الرّأس، متوقّد الذّهن، حاضر القلب كي يسمع الموعظة، ذئاب (الزّرقاء) جاءت، وكذلك شهدت الموقعةَ ذئابُ (الكرك)، ذئاب جبال (صهيون) حضرت، و(قانا)، و(صفد)، و(الجليل). ومن (وادي القمر) وفدَ إلى الموقع عددٌ يَعِزّ من الحصر، أمّا تلك الذّئاب الّتي كانت تنام على ضفاف النّهر في أوقات السّلم فكانتْ أوّلَ الحاضرين، قال كلّ ذئبٍ لأخيه: «العَسعاس سيقول اليوم حِكمته، فامضِ بنا إليه نسمَعْ منه، فما من أحدٍ عركتْه الأيّام مثله، وما من ذئبٍ عاشَ ما عاشَ، وما عرف مِنّا أحدٌ من الدُّنيا شيئًا إلاّ به، ولا فَهِمَ ذاتَه إلاّ فيه، وما صدرَ عن رأيٍ إلاّ عنه، ولا أدركَ الغاية من وجوده إلاّ بسببه؛ أفمنْ يقضي عمره في تدبّر أسرار هذا الكون كمن يمرّ عليها وهو عن آياتها من الغافلين؟!».

ذئابٌ نَسَلتْ من كلّ صوبٍ، وتسرّبتْ من كلّ جهة، كانوا كالنّمل، لم يَخلُ منها مَفحصُ قَطاة، غطّت الجبل عن أكمله، كيفَ يُمكن لهذا العدد المُرعب من الذّئاب أنْ يجتمع في مكانٍ واحدٍ؟! مدّ (العَسعاس) عُنُقه وعوى عُواءً حزينًا كأنّما هو قادِمٌ من بئرٍ عميقة، فقلّدْته كلّ ذئاب الأرض، برزتْ أنيابه من بين فَكّيه، فلمعتْ نيوبٌ كثيرةٌ على ضوء النّجوم الخافت، والقمر المُحاق. مدّ (العَسعاس) عنقه أعلى، فطامنت الذّئاب كلّها أعناقها، وبدتْ جذوعَ محاربين يستعدّون لمعركةٍ كبرى. عوى (العَسعاس)، فعوى كلّ ذئبٍ في تلك النّاحية، ارتجفت الرّيح. استيقظت الأشجار، ورفعتْ رؤوسها المُسدَلة عن صدورها. نهضَ الرّمل، وكادت الصّخور تتحرّك. تصاعدتْ موجة العُواء الجماعيّ إلى السّماء، كانتْ جارِحة حتّى ليكادُ المرء يشعر أنّها

سِكّينٌ حادّ يقطع القلبَ إلى نِصفَين. ظلّ (العسعاس) يعوي؛ تراجع صوتُ الرّيح لصالح هذا العُواء. رويدًا رويدًا أكلتِ السّماء الصّوت، وتوقّف (العَسعاس) عن العُواء، ثُمّ خفتتْ أصوات الذّئاب إلى أنْ سَكَنَتْ تمامًا، وجمدتْ أطرافها في مواقعها، وتشوّفتْ إلى الذّئب الأغبر لتسمع. قال (العَسعاس): «ما قتلْنا أحدًا عن رِيبة»، فهرّتْ صدور القوم مُؤمّنة على القول، ثُمّ تابع: «ولا خُنّا عن عهد، ولا نكصْنا عن مِيثاق، ففيمَ يكذبُ البشر؟!». تحرّكتْ مجموعةٌ من الذّئاب القريبة من (العَسعاس) تريدُ أنْ تقول شيئًا، فأشارَ إليها بعينيَه أنّ وقتَهم لم يَحِنْ بَعدُ، وتابع: «الله يُعرَف بالقلب لا بالنّقْل، ولو كان للبشر قلوبٌ لما طاوعتْهم أنفسهم أنْ يفتروا على الله، ولو كانوا يعرفون الله كما نعرفه لما عَصَوه، ولو كانوا أُمَناء في التّبليغ عنه كما نفعل لما ضَلّوا، ولو كانوا يُدرِكون أنّ الأرزاق تجري على الأقدار لَمَا اقتتلوا، هل المحبّة إلاّ رِزق، وهل الفَهْم إلاّ رِزق، وهل الإيمان إلاّ رِزق؟! لكنّهم لمّا تركوا قلوبهم للحسد، وأرواحهم للطّمع، وعقولَهم للجهل، وأنفاسَهم للشّيطان ضَلّوا ضَلالاً بعيدًا». خفضت الذّئاب رؤوسَها وفحصتِ الأرضَ بأقدامِها كأنّما تريد أنْ تُدرك ما يرمي إليه (العَسعاس)، لكنّها انتظرتْ حتّى يُكمِل، فلعلّ الرّأي يكون في آخر القول، ذِئبٌ واحدٌ فقط ركضَ من قاعِ الوادي إلى القمّة، كان يبدو غَضًّا، لكنّه بِخلاف عمره ركضَ بخطٍّ مستقيم، وهذا لا يكونُ إلاّ للحُكَماء، حتّى إذا ما وصلَ إلى القِمّة، أذِنَ له (العَسعاسُ) بالقول لِما رأى من حُسْنِ مقصده إلى هدفه. «أنا الأطحل» قال الذّئب الغَضّ. ردّ عليه (العَساس) بابتِسامة أبدت النواجذ والنّيوب. تابع (الأطحل): «لكلّ مقالٍ غاية، فما غاية ما تقول؟

فإنّني تعلّمتُ أنّ القول إنْ لم يزدْ على عقلِ المرء فإنّه من الفُضُول».
ابتسمَ (العَسعاس): «العَجَلةُ تُورِثُ النّدم. لا خيرَ في مَنْ لم يُهذّبْ نفسَه بمقاومة جموحها النّابع من ثقةٍ مُضلِّلة. لقد تزبّبْت وأنتَ حصرم، الطّريق الطّويلة الشّائكة الّتي تُوصل إلى نصرٍ دائم خيرٌ من الطّريق القصيرة السّهلة الّتي تُوصل إلى فوزٍ خادع». سكت (الأطحل)، وألقى بنظره إلى الأرض خَجِلاً، وهمّ بالعودة، لكنّ (العَسعاس) استبقاه ليسمع، وليكنْ من بعده عونَ إخوته إنْ فارقَ هو الحياة: «أنا لا أدّعي الغيب، فلا يعلم الغيب إلاّ الله، ولكنّني أرى في ذلك الوادي...» رفع قوائمه الأماميّة وأشار إلى مكانٍ بعيدٍ، قليلِ البيوت، خافتِ الضّوء، تتصاعد من نوافذ الطّين فيه أدخنة تقي القاطنين برد الشّتاء: «مِن هناك نُؤتى». نظرت الذّئاب كلّها إلى الموضع الّذي أشار إليه، ولم تفهم شيئًا، فتابع العسعاس: «من هناك الكَيْد، هل يأكل الإنسان إلاّ أخاه، وهل يُحزِنُ الرّجلُ إلاّ أباه؟! من هناك سيكبر قرن الشّيطان حتّى يُعمّي الأبصار، لكلّ نارٍ ماءٌ يُطفِئها، إلاّ نار الحسد فإنّها إن اتّقدتْ أكلتِ الأكبادَ والقلوب؛ فإنْ أصابكم من حسد البشر وكيدهم فاصبروا واحتسبوا، فإنّه لا جَزاء للصّبر غير الفوز».

عوتْ ذئابٌ كثيرة؛ لولا (العَسعاس) لضلّوا، لولا عيناه اللّتان نفذتْ إلى عالَمِ الجنّ والإنس لتخطّفتهم النّوائب، لولا معاشرته البشر ومعرفتهم على وجههم الحقّ لظلّوا مخدوعين بهم، ولولا مَشْيُه في نُجود الأرض وعِلمه بما يَصلح لهم وما يدفع عنهم ويذود عن مرابعهم لذهبوا مع الرّيح، ولولا خبرُ اللّيل الّذي جمعه في الدّجُنّات الباردة لما أمنوا الصّباح!! وعوتْ ذئابٌ كثيرةٌ من جديد.

(٢)
لا يُهاب إلا مَنْ كان ذا رَهط

اَستمرّ العُواء في تلك اللّيلة، لكأنّ الأرضَ نبذتْ إلى ذلك الجبل كلّ ذئاب المعمورة، لكأنّه الحجّ الأخير إلى الحَبْرِ الأعظم، لكأنّ الوداع من بعدُ لن يبقَى منه إلاّ رائحةُ الذّكرى، فلمْ يتخلّفْ عن رسول الحِكمة أحدٌ.

كان (الأطحل) يسمع نبضَ (العَسعاس)، (الأطحل) الّذي نبتَ في تربة الشّجاعة والحِكمة، كان أكثر الذّئاب شغفًا بالعِلم، وإنْ كانَ يشوبه التّسرّع لصغر سِنّه، وتقذفه الحماسة في مواطن النّدم في بعض الأحيان، لكنّه نذرَ عُمره للمعرفة، فما انشغل عنه إلاّ بالنّزر اليسير من الوقت الّذي يُقيت جسده ويسمح له بالاستِمرار في الحياة.

كان (الأطحل) ramadiّ اللّون في جسمه كلّه، إلاّ عنقَه وبطنَه وفكَّيه، فكانت شديدة البَياض، كان طويل الأطراف، حادّ المخالب، مُتدلي الذَّنَب إلى العَقِب، قليل الفِراء إلاّ فيما جاورَ العنق، نحيل الجسم، ضامر البطن، مستقيم القوائم، غليظ الرّأس، قصير الوجه، أذناه صغيرتان مُنتصِبتان وإنْ كانتا حادّتَي السّمع، ممدود الخطم، أفطس الأنف، عريض الجبهة، عيناه الخَضراوان كَحلاوان، ولولا أنّهما لوزيّتان لكانتا عينَي إنسان، لِما يُرى فيهما من الهدوء والحِكمة والمودّة، ذهبتْ خُضْرتهما مع سوادِ جفنَيه ورماديّ فَروه الصّافي بالجَمال كُلّه. إذا أقعى،

ونصبَ قائمتَيه الأماميّتَين، وأمال أُذنَيه، وأحدّ نَظره في الأفق شعرتَ أنّكَ أمام حكيمِ دهره، وأريبِ عصره، وفريدِ زمانه.

أشار إليه (العَسعاس) ليقفَ عن يمينه ويُقرّبه منه نَجِيًّا، امتثل (الأطحل)، فشبّتْ نارٌ أحرقَ لهيبُها صدورَ كثيرٍ من الذّئاب، وحَكّ (العسعاسُ) أنفَه في عنق (الأطحل)، فاشتعلتْ نيرانٌ أخرى من الغيرة، ونظَرَ في عينَيه طويلاً فانداح طوفان الحِقد يكاد يُغرق الكثيرين من المجتمعين هناك، وعرف (العسعاس) أنّ الذّئاب العشرة القريبة منه، تلك الّتي كانتْ أكبر وأقدم من (الأطحل)، والّتي رافقتْه في دروب المعرفة الوعرة قد أُوغِرتْ صدورُها، فشعر أنّه تسرّع في إظهار إرثه للأطحل، لكنّ الحقيقة لا تُخبّئ نفسَها، والعِلم أولى بالتّقدمة في المرتبة من السّنّ، فإنّ السّنّ يبلغه كلّ واحدٍ، أمّا العِلم فلا يؤتاه إلاّ ذو حَظٍّ عظيم.

تحرّك (العسعاس) في دائرةٍ قُطرها ضعفَ طولِ جسمه، فعرف مجتمع الذّئاب أنّه يتهيّأ للقول، فأصاخت السّمع، دار (العسعاس) دورتَين، وصعَد صخرةً كانتْ تشمخ من خلفه، ولم يعدْ هناك من أحدٍ أعلى مقامًا منه، كانتْ ذئاب الأرض كلّها، بقبائلها كافّة تسمع يومئذٍ. تنحنح (العَسعاس)، ثُمّ قال: «يا معاشر الذّئاب، لعلّ هذا آخر عهدي بكم، فلكلّ أجلٍ كتابٌ، وإنّي مُستخلفكم من كان يخاف الله فيكم... يا معاشر الذّئاب إنّه مَنْ يتّقِ ويصبِرْ فإنّ الله لا يُضيع أجرَ المحسنين، أَوْلى النّاس بالتّهذيب هي نفسُكَ الّتي بينَ جنبَيك، فلا خيرَ فيمن غلبتْه شهوتُه على عِفّته، ولا خير فيمن غلبَه طمعُه على قناعته، ولا خير فيمن

غلبَه جهلُه على حِكمته، العقلُ خيرٌ من السّلطان، والعِلم أنفع ما يُقتَنى ويُبذَل..

يا معاشر الذّئاب، إنّه مَنْ يعشْ منكم فسيرى عجبًا، استشرى الكذب حتى أكلَ أهل الصّدق، وفشت الخِيانة حتّى أتتْ على أهل الوفاء، واستُهزِئ بالعاقل حتّى حُمِدَ الجاهل..

يا معاشر الذّئاب دمُكم حرامٌ عليكم ما حَيِيتم، إنّنا لسنا بشرًا يأكل بعضُنا لحمَ بعض، ويضربُ بعضُنا رِقابَ بعض، بل نحن عِبادُ الله، نأخذ ما شرع وأمر، ونترك ما نهى وزجر. يا معاشر الذّئاب دمُ غيركم حرامٌ عليكم إلاّ ما كان عن جوعٍ، لا تصيدوا إلاّ إذا لَزَبَتْكم الحاجة، ولا تزيدوا عليها ألبتّة؛ فمن زاد في الفضول فليسَ منّي ولستُ منه..

يا معاشر الذّئاب لا يفضُلُ بعضُكم بعضًا إلاّ بثلاثٍ: الحِكمة والتّقوى والعمل، فمنْ حازهنّ كان جديرًا بأنْ تُفضُوا إليه بمقاليد أموركم بعد أنْ يكون قد تعاقدَ عليه مجلسُ شُوراكم؛ مَنْ كان أحكمَ في القول وأنصحَ لإخوته قُدّم، ومَنْ كان أتقَى فيهم يُقدّم مصلحتهم على مصلحته قُدّم، ومَنْ كان يعمل لقومه دون أنْ يشكو، ويسمع دون أنْ يتذمّر قُدّم..

يا معاشر الذّئاب إنّنا لا نُعطِي قِيادنا إلاّ لمن خاف الله فِينا، ولا نُسلّم أمورنا إلاّ لمنْ رَعى ذِمامَنا، وعاشَ فينا مِنّا، يجوع إذا نجوع، ويعرَى إذا نعرَى، ويتعبُ إذا تعبْنا، ويأكل مِمّا نأكل، ويلبس مِمّا نلبَس، فمَنْ رأى أنّه فوقَ ذلك نبذْناه ولا نُبالي، والعاقبةُ للمُتّقين.

يا معاشر الذّئاب إيّاكم والكِبْر فإنّه أوّل ما أخرج إبليس من الجنّة.

وإيّاكم والطّمع فإنّه أوّل ما أودَى بآدمِ فأهبَطه من النّعيم. وإيّاكم والحِقد فإنّه نارٌ أوّل ما تبدأ بصاحِبها ولا ترضى إلاّ بأنْ تأتي عليه حتّى لا يبقى له منه شيءٌ. وإيّاكم والحسد فإنّه أوّل الدّم؛ به سوّلتْ نفسُ ابن آدم له قتلَ أخيه. وإيّاكم وكثرةَ السّؤال فإنّها أهلكَتْ مَنْ كان قبلَكم، فلا سبيل آمنُ من الحقّ، ولا طريق أوضح من الحقيقة. وإيّاكم والعزوبة فإنّها عذاب، وإنّ واحدنا دون أُنثاه صِفر، أرضٌ بلا زَرع، وسَماءٌ بلا مطر، ولا يُهاب إلا مَنْ كان ذا رَهطٍ. وإيّاكم والعُجبَ بالنّفس أو الاستِبداد بالرّأي، فإنّ المُعجب بنفسه يغرق في السّبِخات، وإنّ المُستبدّ لينفضّ النّاس من حوله حتّى ما يبقى له أحدٌ. وإيّاكم والغضب، فإنّه يندر أنْ يُصيب غاضبٌ. وإيّاكم والكذب فإنّه يذهبُ بماء الوجه. وإيّاكم والبخل فإنّه خَلّة الأحمق: «كالعِيس في البيداءِ يقتلُها الظّما.. والماءُ فوقَ ظُهورِها محمولُ!!».

يا معاشر الذّئاب، شِرارُنا شَرٌّ من شِرار النّاس؛ لأنّ قلوبنا أرأفُ من قلوبهم، فإنْ أنكر أحدُنا قلبَه تخطّفتْه أشداق الشّيطان، فاربَؤوا بأنفسكم عن أنْ يستخفّكم لهو الشّيطان وعبثه. وخيرُنا خيرٌ من خِيار النّاس لأنّ عبادَتنا لله لا يشوبُها شِركٌ، فإنْ أشركَ أحدُنا فقد قضم الشّيطان قلبَه، فترفّعوا عن مصائد الشّيطان ومكائده، ووحّدوا الله يُوحِّدْ لكم رأيكم، ويُدنِ إليكم أربَكم.

يا معاشر الذّئاب، تراحَموا تُرحَموا، يدُ الله مع الجماعة؛ فإنّكم تعلمون أنّنا لا نأكل من الغَنَم إلاّ القاصِية. أَحِبّوا بعضَكم بعضًا، وليأخذ القويّ من قوّته للضّعيف، والغنيّ للفقير، والكبير للصّغير،

أحِبّوا الآخَرين يكنْ لكم من حبّهم نصيبٌ، نحن نأخذ بمقدار ما نعطي؛ جعل الله ذلك دستورًا لكلّ خَلقه؛ هي سنّة الله ولن تجدَ لِسُنّةِ الله تبديلاً..

يا معاشر الذّئاب، هذا آخر عهدي بالدّنيا وبكم، فإنْ تمسّكْتُم بحبل الله المعقود على الشّورى نَجوتُم، وإنْ تمسّكْتُم بحبل الشّيطان المجدول على الشّرّ هلكْتُم..».

ثُمّ عَوى حتّى أشجَى كلّ مَنْ شهد الموعظة، وأبكى كلّ مَنْ كان له قلبٌ أو ألقى السّمع وهو شَهِيد. حرّك (العسعاس) قائمتَيه الأماميّتَين وهمّ بالنّزول من القِمّة. كان يريد أنْ يهبط حتّى يصل إلى بطن الوادي، ويُلقِي بنفسه بين يدي الله، فإنّ الحياةَ الطّويلة قد آذنتْ بالرّحيل. ما إنْ خَطا خُطوتين في هُبوطه الأخير حتّى خارتْ قُواه، أيكون للقول كلّ هذا الثّقل، أيكون للحِكمة كلّ هذا الهَمّ، هل تُهرِمُ الكلماتُ قائليها على هذا النّحو؟! صَعِدَ إليه (الأطحل)، تلقّاه قبل أنْ يسقط، وأعطاه كتفه ليستند عليها، كانت النّهايات تبدو أسرع مِن المتوقّع، هكذا هو الموت؛ زائرٌ على غير انتِظار. ظلّتْ كتف (الأطحل) تُسنِد (العسعاس) حتّى نزل من عليائه. قال له (العسعاس): «بِحكمتك وبطول أناتك وبحَدْبِك على إخوتك يُمكنك أنْ تجلس على المقعد الرّسوليّ من بَعدي». بكى (الأطحل). لكنّه ظل ممسِكًا (بالعَسعاس) حتّى لا يهوي. همس في أذنه: «رافِقني إلى النّهايات، إلى بطن الوادي، لديّ أسرارٌ أريد أنْ أبوحَ بها لك وحدك». ردّ عليه الأطحل: «أخشى أنْ يُثير ذلك خائنة الأعين وما تُخفي النّفوس». «سيفعل. ولكنّ لا بُدّ مِمّا لا بُدّ منه.

اتبعني». كانتْ عيون معاشر الذّئاب كلّها تشكّل حلقةً حول العجوز والفتى، حول الشّجرة الهَرِمة والغُصن النّضر، آذانُهم بكلّ ما فيها من دِقّة السّمع تحاول أنْ تلتقط ما يدور من حديثٍ هامسٍ بينهما، والعيون تحاول أنْ تُنكِر أو تستنكر ما ترى. لكنّ المشهد كان أكبر من أنْ يتخطّاه البصر.

في ذلك الفَجر، قبل أنْ تتفتّح بُرعمةٌ من تحت التّراب، وقبل أنْ تسقط قطرة النّدى من فوق ورقة الغيب، وقبل أنْ تطبع الشّمس أولى قبلاتِها على الثّرى؛ مات (العسعاس). صَلّتْ عليه كلّ ذئاب الأرض، وبكتْه كلّ الأفئدة، لكنّها لم تكدْ تُهِيل التّرابَ على جسده الّذي مُلِئ حِكمةً وفهمًا وعلمًا، حتّى دبّ بينَها الخِلاف سريعًا فيمن سيخلفه. قال الأطحل: «اقرؤوا الآن على روحه الفاتحة، وأجّلوا الخِلاف؛ لدينا متّسع من الوقت لنختصم فيها بعد!!».

(٣)
للأنبياءِ قلوبٌ لا تنام

الذّئبُ ريح؛ لأنّه يأتي من كلّ جهة. الرّيح ذئب؛ لأنّها تعوي مِثله. تُرى مَنْ أعار صوتَه للآخَر؟! الحادثُ يستعيرُ من القديم، والعارِضُ يستعيرُ من الأزليّ، والفَطِنُ يستعير من الحكيم؛ لا أقدمَ من الرّيح، ولا أحكمَ من الذِّئب!!

الأحلام أصدقُ من الحقيقة. ظَهْرُ الرّؤيا بَطنُ الواقِع. ما كان للرّوح من الرّؤيا في النّوم أشدّ وضوحًا مِمّا كان للجسد من الرؤية في اليقظة. صِدقُ الرُّؤيا أوّل منازل النّبوّة. للأنبياء قلوب لا تنام، ولهم أرواحٌ متّصلةٌ بالملكوت الأعلى ولِذا يَمّحي عندهم الخيطُ الفاصل بين ما يرونه بعيونهم في النّهار وبين ما يُبصرونه بقلوبهم في المَنام. الأنبياء ظلّ الله.

من بعيدٍ ركضتْ ذئابٌ كثيرةٌ إليه، إنّه يراها بوضوح، ابنه على ذروة الجبل، يُسنِد ظهره إلى شجرةٍ عتيقة. قُطعان لا يُرى لها آخِرٌ تنسلُّ من الوادي صاعِدةً إلى ابنه في قمّة الجبل، كانتْ أشداقُ الذّئاب تسيل زبدًا، وعيونها تقدح شررًا، إنّها ليستْ عيونًا عاديّة، إنّها جمراتٌ مُتّقدة، لكنّها تُشبه عيون البشر، «لماذا بدّلتِ الذّئابُ عُيونَها؟!» سأل نفسه، لكنّه أردفَ بعدَ لحظةِ صمت: «ربّما بدّل البشر جُلودَهم!!». كانتْ أجسادُها السّوداء ترتجّ تحت وقع عُوائها وعَدْوِها السّريع، إنّها تصعد

إلى القّمة، في المنتصف سقط نصفُ الصّاعدين، في الثّلث الأعلى تخلّى النّصف عن نصفه فسقط هو الآخَر، القمّة عالية، تكاد تُطامن السّماء، الذّئاب الّتي تصعد في خطوط متعرّجة سرعان ما يُصيبها الإعياء فتنكص على أعقابها راجعة، وحدها الذّئاب القادرة على العَدْو في خطّ مستقيم يُمكنها أنْ تواصل المسير، وتتجاوز الثّلث الأعلى. سقطتْ ذئابٌ أخرى. فزع الأب. إنّها تقصد ابنه الجالس باطمِئنانٍ دون أنْ يدري ماذا يجري من تحته. صرخ: «الذّئابَ يا يوسف... الذّئاب يا بُنيّ». ضاع الصّوت. حاجزٌ ما يقف بين الأب وابنه ويحول دون أنْ يرى الابن ما يراه أبوه، أو يسمعه. «الذّئاب... لقد صارتْ قريبة منك يا ولدي... الذّئاب إنّها أقربُ إليكَ من شِراكِ نَعلك». لكنّ ابنه كان في عالَمٍ آخَر. سقطَ الأب من هول ما يرى. أراد أنْ ينهضَ، لكنّ الحُلُم منعه، فظلّ يرى. كانت الذّئاب تتساقط في بلوغها الذّروة كما تتساقط الحجارة الصّمّاء إلى القاع، وتتدحرج من تحت القّمة كما تتهاوَى ثِمارٌ ناضجة عن أغصانٍ عالية. كانت الأرض تُطوَى من تحت أقدام الذّئاب فتُلقيهم إلى قَعر الوادي، عشرة ذئابٍ فقط من هذا القطيع الّذي لم يكنْ له نهاية في البداية، كادت تصل إلى أقدام ابنه. رآها يعقوب، رأى عيونَها بشكلٍ مُباشِر، كم تُشبه عيونَ أبنائِه، رأى البريق الّذي كان يراه في تلك العيون حينما يعملون في الحقول، حينَ يختلون، يهمِسون فيما بينهم: «إنّنا نتعب كلّ هذا التّعب، وهو يُجلِسه على حضنه كأنّه مَلِك». وتلمعُ عيناه، إنّهما عينا ذِئب ولو أنّ النّهار ستَر بعضَ لهيبهما، فيرد آخَر: «الدُّنيا حُظوظ». فيهتفُ ثالثٌ غاضِبًا: «الدّينا ليستْ حُظوظًا، الحمقى هم الّذين يُؤمنون بذلك، أمّا نحن فنستطيع أنْ نأخذ حقّنا بالقُوّة، إذا كنتم

أنتم لا تستطيعون، جبناء، فأنا أستطيع»، ويلوّح بقبضته في الهواء وهو يُزبِد.

نظر (يوسف) في الأفق، كانَ ليلٌ، دُهِشَ وهو يرى صفحة السّماء بلا نجومٍ، ليسَ فيها ما يخفّف ولو قليلاً من الظّلام الجارح، العتمة تُلقي بسِرباها عليها فتبدو حالكة السَّواد، تساءَل: «أين ذهبت النّجوم؟». فكّر فيما إذا انطفأ نورُها، أو سقطتْ خلفَ القبّة السّماوية، أو غاصتْ في سُجُفات الأفق. تناهى إلى سمعه في هذا الظّلام أصواتٌ عاوِيةٌ تأتي من أسفل الجبل وتصعدُ باتّجاهه، لم يهتمّ كثيرًا، لكنّه انزعج من أنْ تقطع عليه هدوءَه، وسكون جوارحه. فحرّكَ أسفلَ جفنَيه، ورمَش، وهَزّ رأسَه، سقطت الأصواتُ مثل نملٍ من أذنَيه، رآها كراتٍ صغيرةً جِدًّا تتدحرجُ في حِجره، نفضَها برؤوس أصابعه وأزالَها، ثُمّ رفعَ بصره إلى السّماء يُراقب الأفق البعيد. نَمْلُ الأصوات سكنَ لفترةٍ من الوقت، لكنّه بدأ يتحرك من جديدٍ، لم يَشغَلْ باله كثيرًا. أكثرُ ما يهمّه الأفق، أنْ يرى فيه شيئًا، إنّه لا يحبّ كلّ هذا السّواد الّذي يُغطّي كلّ شيءٍ. السّواد الطّاغي يُشعره بانقِباضٍ في الصّدر. فجأةً رأى نورًا يتّجه من موضعه إلى الأفق، استغربَ أنْ يكون هو مصدرَ النّور، نظرَ إلى نفسه فرأى ذلك النّور ينبثق من قلبه، فَرِح. اتّسع النّور في السّماء، صارَ يتحرّك، وقفَ في أقصى الأفق من جهة اليمين، كشفَ له عن كوكبٍ دُرّيّ، كان كبيرًا، واضِحًا غيرَ مُنكَر، وجليًّا لا تُخطِئه العين، وشديد التّوهّج حتّى لكأنّه يلتهب. ابتسم في أعماقه؛ نورُ قلبِه يضيئُ العتمات ويكشفُ المُخبّآت. راح النّور ينتقل إلى اليسار، ماسِحًا سوادَ السّماء، وقفَ عند كوكبٍ آخَر، أصغر بقليلٍ من سابِقه، يطوفُ حول مركزه

بنشاطٍ بيّنٍ، ابتسمَ له من جديد، مَدّ يده، ظنّ أنّه يُمكن أنْ تصلَ إليه، لكنّ صوتًا عاوِيًا ظهر من جديد، فأعادَ يدَه إلى موضعها. انتقل النّور ثالثةً فكشفَ كوكبًا ثالِثًا... وهكذا ظلّ النّور الصّادر من قلبِه يكشفُ في كلّ مرّةٍ كوكبًا أصغرَ من سابِقه، حتّى إذا أضاء أحدَ عشر كوكبًا، وقف شُعاع قلبه عند الكوكب الأخير، كان أصغرها، متناهِيًا في الصّغر كأنّه لم يولَد إلاّ أمسِ، أحسّ أنّ نور قلبِه انغمسَ فيه، كأنّ شيئًا من دمائه تجري فيه فتزيدُه بهاءً وجَمالاً حتّى كأنّه هو إيّاه، ابتسم هذه المرّة حتّى بانتْ نواجذه، مدّ ذراعَيه نحو كوكبه الأخير، سمع الصّوتَ العاوي من جديد، لكنّه شعر بتدفّق الحبّ يطغَى على العُواء، أخذَ أصغر الكواكب بين يدَيه ضَمّه إلى قلبِه كأنّه طفلٌ رضيعٌ تتلقّفه يدُ أمٍّ حانِية، ثُمّ أراح رأسه فوقَ كَتِفه وشعر بحرارة الحبّ، همَسَ الكوكب الصّغير في أذنه: «أعذْني إلى مكاني». رفعه بين ذراعَيه، ونظر فيه مليًّا: «كوكبٌ يتحدّث؛ يا للعَجب!!». رقصتْ قدما الكوكب كطفل، أعاده إلى مكانه. انتقل شعاع النّور إلى الأعلى. رأى الشّمس، ندّتْ منه آهةُ استغرابٍ معتّقة: «أشمسٌ وليل؟ كيفَ يجتمعان؟!». لم يمهله النّور أنْ يجد الإجابة، فانتقل إلى يسار الشّمس فكشفَ القمر. «أيُّ جَمالٍ هذا؟!». قالت له الشّمس: «الحذر واجب». ردّ: «أنا في نعيم». أردفَ القمر: «أضغان القلب توقعُ في الجحيم». لم يفهم. صمتَ كلّ شيءٍ. نبتتْ للكواكب أرجل، وأيدٍ، وجذوع. نبتَ للشمس وجهٌ باسمٌ، وساقان، نبتَ للقمر خدّ أسيل، وفمٌ ضاحك، وقفوا جميعًا؛ أحدَ عشر كوكبًا، ومن فوقهم الشّمس والقمر، ثُمّ خرّوا له ساجِدين، نفضَ رأسَه بسرعةٍ وأغمضَ عينَيه، كان يريدُ أنْ يمحو المشهدَ العجيب، حينَ فتح عينَيه ثانيةً كانوا لا

يزالون في سجودهم. التفتَ حولَه، ثُمّ خلفَه، حدّثَ نفسَه: «لعلّهم سجدوا لسِواي»، لم يكنْ في قمّة الجبل سِواه!

ارتفعت الأصوات العاوِية، شيءٌ ما في قلبه قال: إنّها قريبةٌ جِدًّا. انطفأ النّور الّذي كان ينبع من قلبه، سقطت الكواكب، وامّحى نور الشّمس والقمر، غرق الجبل في دُجُنّة قاتِمة، لكنّه ظلّ ينظر في الأفق. كان أبوه ما يزال يصرخ: «الذّئاب يا يوسف» لكنّه لم يكنْ يسمع أحدًا.

وصلتِ الذّئاب العَشَرَةُ إليه، أحاطتْ به، شعرَ بحركةٍ من حوله، لكنّ الظّلام لم يُمكّنه من أنْ يرى، غيرَ أنّ أباه كان يرى كلّ شيءٍ، هَمّ أحدُها بأنْ ينقضّ على الطّفل الّذي كان يُسنِدُ جِذعه إلى جذع الشّجرة. تصدّى له ذئبٌ رماديّ شديد بَياض البَطن: «لن تصل إليه». «خَلِّ بيني وبينَه». «إنّه نبيّ، وإنّ أجسادَ الأنبياء محرّمة على التّراب؛ فكيفَ لا تكون محرّمةً علينا؟!». «إنّه ولدٌ؛ مَنْ قال لك إنّه نبيّ؟!». «أنا أعرف». «كيف؟». «أنا الأطحل، ورثتُ الحِكمة عن أبينا الأقدم؛ العَسعاس». «لتذهبْ أنتَ والعسعاس إلى الجحيم، لن أفرّط في لحمٍ طريّ كلحم هذا الغُلام الّذي لم يبلغ الحلم». «دمي دون دمه». «وتخون جنسنا من أجل بشريّ؛ ألم تر كيفَ يأكلُ بعضُهم بعضًا؟!». «رأيتُ. لكنّنا لا يُمكن أنْ نصير مثلهم. صِفات البشر ليستْ صِفاتِنا، وطِباعهم ليستْ طِباعَنا». «نحنُ وأنتَ، تسعةٌ في مقابل واحد، المقامرة بالقِتال من أجل بشريٍّ أمرٌ لا يستحقّ كلّ هذا». «لا تخنْ عهدَنا، نحن لا نأكل إلاّ عن جوع». «ونحن جائِعون». «كَلاّ. تركتُ لكم ظبية الوادي من أجل هذه اللّحظة إنْ كُنتمْ فاعِلين. لحوم البشر ليستْ كلحوم الحيوان، إنّها لا

تُستساغ». تراجعت الذّئاب. عوتْ عُواء المألومين، أحدّت العُواء. أفزعتْ كلّ شيءٍ. أرادتْ أنْ تُخرِج كلّ هذا القَهر الّذي صنعه (الأطحل) في صدورها. استيقظَ الأب فَزِعًا. كان يصرخ: «يوسف... الأطحل... يوسف... حبيبي... يـ... ووو... سـ... ف». ارتجفَ وهو يضع قدمَيه في الخفّ، تلمّسَ الطّريق في الظّلام، مدّ يده إلى الرّداء الأرجواني ليلبسه، لم يظفر به في الظّلام، أراد أنْ يُشعل المِصباح، لكنّه لم يتمكّن... تعثّر... زفرَ زفرةً حارّة... عرجَ وهو يتخطّى عتبة الباب... ثُمّ خرجَ يركض. لم يدرِ إلى أيّ جهة. ركض مسافةً قبل أنْ يتوقّف من الهلع، ويستعيدَ بعضًا من رُشدِه. لهثَ، سأل نفسه وهو يلهثُ مفزوعًا: «أينَ يقع بيت فائِقة؟». نظرَ حوله، اكتشف أنّه ركض لهول ما رأى في المنام إلى الجهة الخطأ! استدار وركضَ إلى الجهة المُقابلة، إلى بيتِ أخته من جديد.

(٤)
قِسْمةُ القَلْب

كان يركضُ فوقَ التّراب المدعوس لاهِثًا، خَشخشات العُشب، وطقطقات الحصى المُتناثر من تحت قدمَيه تكاد تكون مسموعة، بردٌ شديد ألجأ الكلاب إلى أنْ تسكتَ وأنْ تلتفّ على أنفسها في مجاثمها طلبًا للدّفء. الأنعام في الزرائب تلاصقتْ أجسادُها كذلك؛ لكي تدفع شبح البرد، ونامتْ واقفة... والكائنات الخفيّة الّتي لا يعلم إلاّ الله أين تختبئ وكيفَ تعيش وجدتْ هي الأخرى وسيلتَها في اتّقاء البرد. وحده البشريّ الّذي لم يستطعْ أنْ يمنع البرد من أنْ ينفذ إلى قلبه؛ ضربتْ ريحٌ صدرَه، لطمتْه كما لو كانتْ تريد أنْ تمنعه من متابعة سَيْره، لم يكنْ قد لبس في غمرة ذهوله شيئًا كافِيًا حين خرج من البيت، ما رآه أذهله عن نفسه. صورٌ تحجبُ صورًا. خُيّل إليه أنّ الطّريق طويلةٌ؛ هتفَ بضيق: «لم تكنْ في السّابق كذلك... ما الّذي طوّلها؟!». كانت هناك بيوتات قليلة مُتناثرة هنا وهناك، اللّيل يُحتَضر، والنّوافذ نائمة، والطّرقات مُستسلمة، والعتمة باردة، والنّاس غاطِسون في العالَم الآخَر؛ لا حيّ إلاّ الله. اقترب من البيت، رأى نارًا من بعيدٍ حوله، كانتْ ألسنة اللّهب تصعد خلفَ فراشات النّار الهائمة ثُمّ ما تلبثُ أنْ تتراجع، تاركةً تلك الفراشات تتماوجُ في بحر اللّيل، ثُمّ ما تلبث أنْ تصعدَ بهدوء أخّاذ إلى الأعلى. «مَنْ أوقدَ النّار؟ مَنْ أوّل مَنْ فكّر بإشعال النّار؟ مَنْ أوّل مَنْ

أُلقِيَ في النّار؟» تراءى له وجه جدّه إبراهيم الشّيخ الوَقور يبتسم، شعر بشيءٍ من الطّمأنينة، لكنّ كأسَ ماءٍ صغيرةٍ واحدةٍ لا يُمكن أنْ تُطفِئ نار القلق المشبوبة، ولا لهبَ العطش المرتعش في أعماقه. صار البيت على مسافة صرخةٍ واحدة، ودّ لو يصرخها ليرتاح، لكنّه آثَر الصّبر، دار حول البيت، اختفت النّار، صار في مواجهة الحقيقة، طرق الباب بشِدّة، وعَضّ على شفتَيه يستعجلها أنْ تفتح. لفّتْ منديلها على رأسِها وخرجتْ فَزِعة. سألَها بشفتَين مُزرَقّتَين كمنْ يتوسّل: «أينَ يوسُف؟». ردّتْ مستغربةً وهي لا تزال تعقد المنديل من الخلف: «إنّه نائم». بكى من الفرحة. «أريدُ أنْ أراه». «هَدِّئ من رَوعك. ما الّذي حدث؟». «أمرٌ جَلَل. أريدُ أنْ أطمئنّ عليه». «إنّه بخير». «أريد أنْ أراه». وبكى ثانيةً.

جذبَتْه من يده، وأشارتْ له بإصبعها: «لا تبكِ. هل يبكي الأنبياء؟!!». ثُمّ تقدّمَتْه تمشي على رؤوس أصابعها، أزاحت السّتارة بهدوء، ورنتْ بطرفها إلى السرير: «انظر؛ إنّه نائم». رأى وجه ملاكه السّاحر يرقدُ بهدوء لم يمسسْه سُوء. كاد يهوي عليه ويحتضنه، لكنّها أمسكتْ بذراعه: «لا تُزعِجْه». «أريدُ أنْ أُقبّله». «ليس الآن؛ قد يستيقظ. واللّيل مُقمِر!». مسحَ دموعه، وندّتْ منه شهقة، نظرتْ إليه معاتبة: «ماذا دهاك؟». قال بجزع: «الذّئاب». ردّتْ مُستغربة: «الذّئاب!!». «بلى». دفعتْه من كتفه برفق إلى غرفةٍ مُجاورة: «اجلسْ، سأصنع لكَ شرابًا ساخِنًا. يا ويلي عليكَ يا أخي؛ شفتاكَ زرقاوان». تجاهلَ عبارتَها الأخيرة: «هل يُمكنه أنْ يعودَ معي؟!». «كلاّ». خرجت الكلمة من بين أسنانها مثل صريف الأبواب الصّدئة. «لِمَ؟». «لن

تستطيع أنْ تعتني به مثلي؛ إنّه يتيم، ماتتْ أمّه راحيل يومَ وَلَدتْ بنيامين»، «وبنيامين؟». «ألا تعتني به لِيا؟!». «بلى. ولكنْ لماذا أخذتِ يوسف ولم تأخذي بنيامين». «إنّه شغافُ القلبِ يا أختي»، خفضتْ رأسَها إلى النّاحية الأخرى، وقالتْ بخجل فتاةٍ عاشقة: «يوسفُ أحبّ إليّ». رمقها مُنكِرًا: «الاعتِراف بالحبّ يُصعّب الأمور». ردّتْ: «بل يُسهّلها»، تنهّدتْ تنهيدةً طويلةً قبل أنْ تُتمّ: «يا لأخي المسكين... لكنْ لا تقلق؛ لن ينقصه شيءٌ عندي». «أنا أعرفُ ذلك؛ لكنّني أحبّه ولا أطيق على بِعاده صبرًا». «كلّنا نحبّه، لكنّ الحبّ وحده لا يكفي يا يعقوب، إنّه ما يزال بحاجةٍ إلى عناية، أخافُ أنْ تنشغل عنه بالآخرين أو بأعمالك». «قلبي مُعلّق به، لن أنشغل بِسواه». « تلك هي الطّامّة!». «كيف؟». «هناك أحدَ عشرَ روحًا آخَرين، إذا لم يُوزّع عليهم الحُبّ بالتّساوي فسيُلاحِظون كلّ شيء». «القلب لا يتّسع إلاّ لواحدٍ يا فائقة». «ما تقولُه غير ما تُضمره». «ماذا تعنين؟». «العدل بالقول قد يُغني عن قِسمة القلب». «لكنّني أحاول». «أخاف أنْ تنفلتَ منك كلمةٌ هنا أو هناك!». «لن أفعل». ردّتْ بحزم: «لن تستطيع». نظرَ إليها مُنكِرًا، فعاجلتْه: «لواعج القلب تُظهرها فَلَتات اللّسان». «وما العمل؟». «أبقِه عندي فيسلَم. الحطب لا يذوي إلاّ في النّار المُشتعلة. في بيتك نيران كثيرة، وبيتي هادِئ». «وقلبي؟!!!». «دَعه يَقَرّ». «كيفَ وصاحبه هنا؟!». بانَ منها الضّجر: «أقلوب الأنبياء كقلوب الطّير تنهاثُ من الشّوق؟!». «إنّه حلّ في الشّغاف يا فائقة. وأنا أخافُ عليه من نَسَمات الهواء». رفضتْ عيناها جملتَه الأخيرة، لكنّه تابع: «سآخذه معي الآن!». سقطَ قلبُها، كادتْ تراه يتدحرج أمامَ قدمَيها، شهقتْ، زاغتْ

عيناها، لِمَ يُصرّ أخوها على أخذِ يوسف في هذا الوقت من اللّيل؟! شعرتْ أنّه طلبَ منها روحَها، دارتْ نظراتها في الأرض، لمعتْ ببالها فكرة، هزّتْ رأسَها دون أنْ ترفعه إلى أخيها، وقالتْ كمن تعتذر: «أمهلْني يومَين». ضيّقَ عينَيه: «يومَين... إنّه زمنٌ طويل». «مكث عندي سنواتٍ عديدة، ألا تصبر يومَين؟!». «لقد اختلفَ الأمر». «لن يختلفَ بين عشيّة وضُحاها، لا بُدّ أنّ شيئًا غير عاديٍّ قد حدث». ردّ وهو يحني جذعه، ويلتفتُ حوله كمن يخشى أنْ يراه أحدٌ أو يسمعه: «رأيتُ الذّئب يَهُمّ أنْ يأكله». ضربتْ بكفّها على صدرها، استنكرتْ: «بيوتُنا آمنة، لم يقربْها ذئبٌ منذُ أنْ جِئتُ إلى هذه الحياة». «لقد جاء الذّئب من البعيد، من الفلاة الّتي خارجَ أحيائنا كلّها، من المراتع المقفرة، من الضّفّة الأخرى، من هنااااك...». وأرادَ أنْ يُشير إلى الخارج لكنّه لم يرَ في وجهه غير الجدار.

هَزّتْ رأسَها بنقراتٍ مُتتابعة، وقالتْ كمن تريد أنْ تُنهي الأمر: «عُدْ بعدَ يومَين، سيكون الأمر قد حُلّ». أُسقِطَ في يده، رجاها: «دعيني أنام اللّيلة هنا». «وماذا ستقول (لِيَا) حينَ تستيقظ في الصّباح ولا تجدك؟». «هل تمنعينني أنْ أنام هنا!!». «كلاّ، لكنّني أريدُ أنْ أجنّبكَ المشاكل، ماذا سيقول الأولاد حينَ يستيقظون ويبحثون عنك في البيت فلا يعثرون لأبيهم على أثر؟». «لا يهمّني ما يقولون». «إذًا. بإمكانك أنْ تنام، لكنْ عُدْ إلى زوجك وأبنائك قبل أنْ تُشرِق الشّمس حتّى لا يلحظوا أنّ أمرًا ما غريبًا قد حدث». «حسنًا». «ستنام في هذه الغرفة». «كَلاّ، بل في غرفة يوسف». زمّتْ شفتَيها: «كما تريد»، ثُمّ همستْ: «على أيّة حالٍ لم يبقَ لشروق الشّمس إلاّ القليل». دسّ نفسه قربَ سرير

يوسف. لم ينمْ. لم يطرفْ له جفن، لم يغفُ لحظة، ظلّ ما تبقّى له من اللّيل ينظر في وجهه وهو يبتسم مرّة ويمسح دموعًا تنزّ من زوايا عينَيه مرّاتٍ أخرى.

فتحتِ الشّمسُ النّافذة، دخلتْ، ألقتَ بضوئِها الرخيّ على الجدار، كأنّ الحياة تستيقظُ من سُباتِها كي تأخذ المخلوقات إلى دوّامتها الجديدة قبل أنْ ترمي بهم في الزُّقاقات المتفرّقة على حسب أعمالهم وغاياتهم، ثُمّ تُميتَهم في اللّيل استِعدادًا لدورةٍ أخرى من اللُّهاث. كلّ الكائنات تلهث، كلّ الأحياء تجري، قليلون فقط يعرفون لِمَ يلهثون، أقلّ منهم مَنْ يعرفون إلى أين يجرون!!

التقتْ عيناهما في القلب. للقلب عُيون. ابتسم الابن. لمعتْ عينا الأب. بانتْ حبّات اللّؤلؤ المصفوفة. يا لجَمال النّبيّ!! كتم الأب نَفَسَه، لو أطلَقَه لصرخ، خرج على هيئة تنهيدة ملتهبة. شعر برغبةٍ عارمةٍ في البكاء؛ يبكي من الفرح. يبكي من الجَمال. يبكي من نداوة اللّقاء. يبكي من الأمن بعد الخوف. أين يختبِئ الخوف؟ كيفَ للخوفِ أنْ تُزيله نظرة يتيمةٌ في عينَي نبيّ؟ هل عيون الأنبياء تختلف عن عيون البشر؟ هل لهم النّظرة إيّاها الّتي لبقيّة الآدميّين؟! مَنْ يعرفُ ما تقوله عينا النّبيّ؟ مَنْ له القدرة والحظوة في أنْ يقرأ لغة العيون؟! وأيّ عيون؟! لكنْ هل للعيونِ لغة؟! ألا يكفي القلبَ المشبوب بالقَلَق أنْ ينظر فيهما من أجل أنْ يطمئنّ؟ ما الّذي تحمله نَظَراتُهم حتّى يكون لها هذه السّكينة والرّاحة والطّمأنينة؟!

تسلّلتْ من الخارج رائحة الخُبز الشّهيّة؛ ساخنةً في صباحٍ بارد.

زكمتْ أنوف الجَوعى. الخبز حياة، والخبز موت. حتّى كلاب الحيّ هرّتْ وهي تهزّ ذيولها وتنبح من بعيدٍ كأنّها تطلب من العمّة أنْ تترفّق بها. ملأتْ فؤاد يوسف بالطّيب. للرّائحة ذاكرة، عبرت الرّائحة الزّمن إلى الأمام، لأوّل مرّة تُقدّم الرّائحة ذكرى ما سيأتي لا ذكرى ما مضى. رأى الرّائحة في حُلُمٍ آخر، قَصّه عليه شخصٌ غريب، الرّوائح لا تعترف بالزّمن، الرّوائح صورةٌ تتحرّك في كلّ الاتّجاهات دفعةً واحدة.

نهضَ (يوسف)، جلسَ على حافّة السّرير: «أبي!». جثا (يعقوب) على ركبتَيه، دنا منه، فتحَ ذراعَيه واحتضنه: «حبيبي». سَرَتْ موجة الحبور في الصّدور الطّافحة بالمودّة، كما تسري نسماتُ هواءٍ منعشةٍ على أوراق شجرةٍ حالمة، دماء حُبّ لا تُرى، إيقاعٌ لا يُفسّر، شعور لا يُحكى عنه، يُعاش، لا يعيشهُ كثيرون، مَنْ حُرِمَ منه فقد حُرِم. خلفَ كتفَي الصّغير كانت دموع الأب تسحّ على وجنتَيه، يسقط بعضُها على كتفِ يوسف، فيخضرّ، كأنّ الدّموع ماءٌ على الثّرى، أروى فأخصب، قالت الدّموع لكتفَي الصّغير: «كُنْ قويًّا، على هذه الأكتاف اللّيّنة الآن أنْ تحملَ غدًا حُلُمَ الشّعوب المقهورة، وترسم لها طريق العدل والحرّيّة والمساواة». ظلّ مُحتضِنًا له حتّى كفّتْ دموعه عن الجَرَيان، لا يريد أنْ يراه يبكي، هل يبكي الأب في حضرة الابن؟! أرسلَ الأب يدَيه، ثُمّ أرجع جذعه إلى الوراء، ونظر في عينَي ابنه عميقًا، اختلجتا قبل أنْ يقول: «لقد رأيتُ حُلُمًا يا بُنيّ». فردّ الابن: «وأنا رأيتُ حُلُمًا يا أبي». «تعالَ أقصّه عليكَ». «وأنا سأقصّه عليك». «حلمي لي ولك، وحلمك لكلّ النّاس، فلا تقصّه على أحدٍ سِواي». «كيفَ يكون لكلّ النّاس ثُمّ تطلب منّي ألاّ أقوله إلاّ لك؟!!». «ستعرفُ هذا عندما تكبر».

«وإخوتي؟». «احذرْهم». ضاقتْ عيناه تعجّبًا: «ولكنّهم إخوتي!!». «الشيطان أفعى؛ إذا تسللّتْ إلى القلب سَمّمَتْه». احتضنه من جديد، ثُمَّ لفّ ذراعَيه حول رأسه، ورفع ذقنه، وراحتْ دموعه تسحَ. سأل الطّفل: «هل يسمعنا أحدٌ غير الله؟». «القلوب تسمع أيضًا يا بنيّ». «وهل أخاف من القلوب أم أطمئنَ لها يا أبي؟!». «بل كُنْ على حذرٍ حتّى من قلبِكَ يا بُنيّ، إنّ القلبَ أسرعُ في كَشف السّرّ من اللّسان أو العينَيَن، لأنّه يُمليه عليهما فيفضحانه». «لكنّهم إخوتي، وقلوبنا لنا». «ليس قلبُ أحدٍ إلاّ له يا بُنيّ، وإخوتك موطن الخوف كلّه». «فما أفعل؟!». «اكتُمْ ما جرى بيننا». سَمِعا خشخشةً خلفَ الباب. هتفَ يعقوب: «مَنْ هناك؟». «أنا فائقة». خفق قلبُ يعقوب، اضطرب، التفتَ إلى ابنه، هزّ ابنُه رأسه، وابتسم. أردفتْ (فائِقة) الّتي كانتْ قد أتمّتْ ظهورها من طَرْفَة الباب: «كنتُ أريدُ أنْ أطلب منكما أنْ تلحقا بي إلى غرفة الطّعام، الفطور جاهز». تمتم الأب وهو يخرج: «لقد صرنا ثلاثةً يا بُنيّ!».

(٥)
الشّذى النّبويّ

«يومَين يا أخي، لا أطلبُ منك سِواهما، ألا يُمكنني أنْ أمتّع ناظرَيّ بوجوده يومَين آخرَين، سيكون لك العمرَ كلّه من بعد، أليسَ هذا عَدْلاً؟!». كانت المائدة الخشبيّة الّتي يجلسون عليها قد حوت خُبزًا طازِجًا، عبقتْ رائحتُه في الغرفة - ستعيش في أنف يوسف سنين، رائحة الخبز قديمة، رائحة الخبز لا يُمكن نسيانها، رائحة الخُبز أجمل رائحةٍ عرفها البشر! - ولبنًا، وتمرًا، وزيتًا، وزيتونًا، وتينًا جافًّا. أجلسَ يوسف عن يمينه، وظلّ ينظر في وجهه كأنّه يريد أنْ يشبع منه، لاحظتْ أختُه شروده فهتفتْ: «ألا تريد أنْ تأكل؛ الخبز يبرد سريعًا؟!». غمسَ بالزيت لقمةَ خبزٍ طازجة، رفعها، توقّفت اللقمة قبل أنْ تغوص في فمه، أنزلَ يده، ثُمّ غطّسها في الزيتِ مرّة أخرى، ورفعها إلى فم ابنه، تابَعه بسعادة وهو يمضغ اللّقمة. «وأنت؟» سألتْ أختُه. انتبه إلى نفسه: «ها أنذا... سآكل». «سأعود إلى ما طلبْتُه منك؛ سيبقى يوسف عندي يومَين آخَرَين.. يومَين آخرَين فحسب... أليسَ هذا مُمكنًا؟! ممكنٌ بالطّبع». ردّ وهو يمضغ لقمته: «وماذا سيصنع لكِ هذان اليومان، رُدّيه عليّ، وأريحي نفسكِ من تبعات الاعتِناء به». ضربتْ باطن كفَّيها على الطّاولة، حنقت، دلّ على ذلك حروفُها الّتي انزلقتْ بصعوبةٍ من تحت أسنانِها: «لقد ضجرتُ من كثرةِ ردّكَ لطلبي. يومَين يعني يومَين، وبعده

فلتشبعْ به يا أخي». استسلمَ للأمر. حضنَ يوسف طويلاً، وخرج وهو يرتعش. حنّ قلبُها لهيئة أخيها، رقّ صوتُها وهي تُخاطبه: «أُقسم لكَ أنهما يومان يا أخي؛ لماذا كلّ هذا الارتجاف؟!». لم يردّ عليها، كان قد غاب في عين الشّمس.

نظرتْ في عينَي يوسف: «أبوكَ يُحبّك. وأنا أيضًا. هل تشكّ في ذلك؟». هزّ رأسه بالنّفي. «هل أنتَ مرتاحٌ عندي؟». هزّ رأسه بالموافقة. «وأنا أريدُكَ أنْ تبقَى. أنا وحيدة وقد هرمتُ. عمّتك تحتاجُ إليك». ابتسمَ. كان يُدرك ما تريد!

أتتْ بحزام أبيها (إسحاق)، الحِزام الّذي كان يشدّه على وسطه إذا خرج، إنّهم من أُسرةٍ كِفاحٍ طويل، لم يجدوا كلّ شيءٍ في صحرائهم قد اخضرّ فجأة، لقد أكلوا التّراب قبل أنْ يسدّوا الرّمق. الحِزام القماشيّ أبيض، آل إليها لأنّها كانتْ أكبر إخوانها. حينَ مات إسحق، قالتْ لهم: «الحِزام لي». فردّ يعقوب بسرعة: «والقميصُ لي». وكان إسحاق ما يزال نَدِيًّا، لكنّ روحه لم تعدْ تستوطن جسده. رفعتِ الحِزام الأبيض النّاصع الّذي لم يهترِئ منه شيءٌ طَوال سنواتٍ غابرةٍ سحيقة، ولا فقدَ شيئًا من جَمالَه، ولا رائحته؛ رائحة أبيهم فيه، عِطره النّبويّ، مسامات جسده الشّذيّة، وآثار أصابعه الّتي كانتْ تمرّ عليه كلّما شدّه على وسطه حينَ يهمّ بالخُروج، حتّى ابتسامته في شيخوخته انطبعتْ هنا على هذا الحِزام، ناصعة البياض، شفّافة، وتُريح القلب. قرّبتْه من أنفِها طويلاً، شمّتْ فيه رائحة الأب الحنون الرّاحل، هتفتْ: «يا لجَمال النّبيّ» كأنّما اتّفقتْ هي وأخوها يعقوب على أنْ يردّدا العبارة ذاتِها، هي قالتْها لأبيها، وهو

قالَها لابنه، الجدّ والحفيد يواصلان نَهر النّبوّة الّذي لا يجفّ، وخيطَ الوحي الّذي لا ينقطع، أمّا لماذا اتّصل الحبل من إسحقَ بيوسف ولم يتّصل بسواه، فتلكَ إرادة الله، وأمرُ الله نافِذ، وقَدَرُه محتوم، ولا أحدَ يملك أنْ يسأل، والسّرّ مخبوء، وإلاّ فكيف يكون سِرًّا إذا لم يكنْ مخبوءًا، محجوبًا عن قلوب النّاس!! والرّضى صلاة النّبيّ في محراب الخشوع. شَمّتْه من جديد، وهتفتْ: «إنّي لأجد فيه رِيحَ يوسف»، تعجّبَتْ: «أيكون قد لبسه دون علمها ودون أنْ تراه؟! كيفَ يُمكن أنْ يكون للحفيد رائحة الجدّ إلاّ إذا كانتْ لهما الرّوح ذاتها؟!». ابتسمتْ كأنّما علمتْ أنّ ما هو كائنٌ كائنٌ لا يُمكن أنْ يوقفه شيء. «سيوافق على أنْ يلبسه إذًا» حدّثتْ نفسَها. وقفتْ على قدَمَيها، سبحتْ رائحة العِطر النّبويّ في فضاء الغرفة، قادَتْها الرّائحة إلى يوسف، تعرفُ أنّه لم يكنْ في الأُسْرة من يستطيع أنْ يُميّز الرّائحة أكثر منها، باستثناء يعقوب؛ يعقوب الّذي كان حلقةً أخرى في سلسلة الشّذى النّبويّ. وإذًا؟! دلّتْها الرّائحة عليه؛ إنّه يلعبُ في فِناء البيت، في السّاحة الصّغيرة الّتي تمتدّ أمام المنزل الخشبيّ. رأتْه من بعيد، بدا إلى جانب ورود الحديقة وردةً، لكنّها تزيدُ عليهنّ جمالاً، كان يجري وراء الفراشات، فهتفتْ في سِرّها: «فراشةٌ تطارد الفراشات». نادَتْه: «يوسف». فأقبلَ عليها باسِمًا. «الحِزام». اتّسعتْ ابتِسامتُه، اضطربتْ. «هل يعرفُ بالأمر!!». كشفتْ لها بسمتُه النّصفيّة عمّا تُضمِره. خفقَ قلبُها. بلعتْ رِيقَها، لولا رائحة العِطر الّذي تسبح ذرّاته فوق الحِزام، وتنتشر كلّما تحرّك لفقدتِ الوَعي. أنقذَتْها الرّائحة. تماسكتْ قليلاً. هتفتْ: «لماذا يعرف الصّبيّ كلّ هذا؟». سألَتْه: «ستلبسه؛ أليسَ كذلك؟». ازدادتْ ابتِسامتُه اتِساعًا، لم تفهم إنْ

كانتْ تلك موافقة منه. رفعتْ قميصه، شمّت الرّائحة الّتي لقميص إسحاق، «يا للهَ كيف تتشابه الرّوائح». طلبتْ منه أنْ يمسكَ بيدَيه طرفَي القميص المرفوع، بدا جذعه العاجيّ جميلاً، ساحِرًا، فيه لينُ الصّبا، وغضاضة الفتوّة، واتّساق الجسد الفتيّ، وانسكاب الفضّة في النّهر، وانسجام الأقحوان إلى زهر اللّوز. لفّتْ الحِزامَ على وسطِ يوسف، شدَّتْه، كانتْ تتحاشَى النّظر في عينَيه؛ حتّى لا ترى فيهما رفضًا أو عتابًا، قرّبتْ أذنها من صدره، سمعتْ دقّات قلبه، لم يكنْ ليقول شيئًا باستثناء الرّضى، كانتْ دقّات قلبه تُشبه صدى قطراتِ ماءٍ تسقطُ في بئرٍ عميقةٍ، لتصعد على إثرها موسيقى حزينة وغريبة في الآنِ ذاته، شعرتْ بالوجل قليلاً، لكنّها أتمّتْ شدّ الحزام على ذلك الجِذع لعلها تُسكِتُ صوت القطرات تلك، أنزلت القميص على الجذع النّبويّ، وهمستْ في أذنه: «عمّتُك تحبّكَ كثيرًا، هل أنتَ مُستعدٌّ لأنْ تُضحّي من أجلها قليلاً، قليلاً يا حبيبي... قليلاً؟». ردّدتْ كلمة (قليلاً) ثلاث مرّات لأنّها لم تكنْ متأكّدة من أنّها مقتنعةٌ بها أو أنّه سيقتنع هو بها. حاولتْ أنْ تعرف جوابه، أطالتِ النّظر في وجهه، لكنّها لم ترَ غير ابتسامته الّتي ازدادتْ اتّساعًا من جديد. تابعتْ، وهي تُمسِكُ بباطن كفّيه، وتقبّلهما قبل أنْ تضعهما على خَدَّيها: «سأقول أنا... أنا سأقول...». وخانتْها العبارات. لكنّ الهدوء العميق الّذي يسكنُ في بحرِ عينَيه شجّعها على أنْ تبلع ريقَها، وتُكمل: «سأقول إنّكَ سرقتَ هذا الحِزام. حيلةٌ طاهرة من أجل أنْ أستبقيكَ عندي. أنا الّتي... أنتَ لن تقول شيئًا... أنا سأقول...» بكتْ. مسحتْ دموعها. لكنّها لم تستطعْ أنْ تمسح أثر الدّموع في الصّوت، فبدتْ رنّة النّشيج في صوتها: «عمّتُكَ تحبّك... وأبوكَ

يحبّك... لكنّه لا يُحبّك مثلي...». جَدّ صوتُها، وغَلُظ: «إذا كنتَ تحبّ عمّتك فاتركْ لي أمر تدبير هذه الحِيلة». نظرتْ في عينَيه خائفةً تستجلي الجَواب، لكنّها لم تجدْ غير ابتسامته الدّافئة، وقد اتّسعتْ حتّى لمعتْ من فوقها عيناه السوداوان.

(٦)
القميصُ لي!

الحيلةُ استجابة العقل لنداء القلب. الحيلة وجه المكيدة الضّاحك؛ الحيلةُ ثمرتُها. الحيلةُ حِياكة. جاءَها يعقوب عَجِلاً. طوى الأرض في شروق اليوم الثّالث. «إنّه لي» لم يقلْ كلمةً أخرى. وهي لم تردّ. أشاحتْ بوجهها إلى البعيد. قَلِق؛ «هل حدث له شيءٌ؟!». لم تُجِبْ. أعطتْهُ ظهرَها. دار حتّى صار في مواجهتها: «تكلّمي. هل حدث له شيءٌ؟!». نفضتْ رأسَها بهزّاتٍ سريعةٍ كعصفور ينقر في الماء، ثُمّ رمتْ طرفَها في الأرض. رفعَ وجهها إليه: «لا بُدّ أنّه هنا. لم يذهبْ بعيدًا». دفعتْ صخرةَ الصّمت العالقة في فمها، لفظتْها بصعوبة، قبل أنْ تقول: «إنّه هنا... ولكنّه...». لعبَ الشّكّ في قلبِه: «ولكنّه... ماذا؟!». استجمعتْ شجاعتَها لتنظر في عينَيه وتهتف: «إنّ ابنكَ سَرق». انتفض. لم يكنْ ليتخيّل ذلك مع أيّ واحدٍ من أبنائه، بل حتّى مع أيّ واحدٍ من أبناء الحيّ، فكيفَ بيوسف؟ هتف بها غاضِبًا: «يوسفُ لا يسرق». ردّتْ: «أتذكرُ أبانا..». «إسحاق؟!». «وَمَنْ غيرُه؟!». لم يدرِ ما تريدُ قولَه، طلبتْ عيناه منها أنْ تُكمِل، تابعتْ: «أتذكرُ هيئتَه على فراش الموت...». استوقفَها بيدَيه ألاّ تُكمل، تخيّل نفسَه مثله على فِراش الموت، عند الموت يَرشَح من الإنسان كلُّ ما كان عالِقًا بالفانية فيفنى، ولا يبقَى منه إلاّ ما كان صالِحًا للباقية، هناك يستصفي الإنسانُ رُوحَه، سبَح في خياله إلى

البعيد، إلى أبيها، رآه، الشّيخ الّذي شبعتْ منه الدُّنيا وشبعَ منها، كان يريد أنْ يقول كلّ شيءٍ في كلمتَين، إنّه يسمعها، ما تزالان ترنّان في أذنه إلى اليوم رغم العقود السّحيقة الّتي مرّت... سبحَ في خيالاته أكثر، ها هو، طفلٌ صغيرٌ في عمر ابنه يوسف اليوم، يقود أباه إلى المرعى. يعلّمه أنْ يصبر، يعلّمه أنْ يتّقي، كيفَ يعظ، كيف يملك قلوب النّاس حين تصبو إليه... هزّتْه أخته من كتفه: «أينَ أنتَ يا يعقوب؟!». انتبه من صُوَرِه المتلاحقة، رتّبها بسرعةٍ في محفظة الذّكريات، وعاد إلى أخته. تابعتْ: «ماذا بقي من أبينا يا يعقوب؟!». أراد أنْ يقول لها: «بقي منه كلمتان»، لكنّها لم تُمهله حين تابعتْ: «كَفَنُه نزل معه إلى التّراب. عَرَضُه تقاسَمَه الوَرَثة. صُحُفُه تَشاطرَها مُريدُوه. وصاياه سبحتْ في الفضاء لم يلتقطْها إلاّ مَنْ جمع له الرّأي والخشية إلى الحَزم... وماذا تبقّى منه أيضًا يا يعقوب؟»، وشدّتْ على السّؤال الأخير نبرتَها. أراد أنْ يقول لها الكلمتَين، لكنّها لم تتركْ له فرصةً، بل تابعتْ مرّة أخرى: «بقي منه الحِزام والقميص». أراد أنْ يقول إنّهما ليستا الكلمتَين اللّتين كان ينوي أنْ يُخبرها بهما، وإنّهما... لكنّها سرقتْ منه فرصة الحديث من جديد، وأكملتْ: «أمّا القميص فلك، وأمّا الحِزام فلي». أراد أنْ يسألها ما شأنُ يوسف بالحِزام أو القميص، لكنّه قبل أنْ يفوه بحرفٍ واحدٍ قالتْ: «لو أنّك فقدتَ القميص فماذا ستفعل؟». همّ أنْ يجيب عن السّؤال، لكنّها بادرتْه: «لا تقلْ لي إنّني أفدي القميص بروحي، وإنّه بقيّة أبينا إسحاق، وإنّه لأبنائنا وأحفادنا من بعدِنا إلى يومِ الدّين... لا تقلْ لي ذلك، فأنا أعرفُه... أنتَ أمام مصيبةٍ كبيرةٍ يا يعقوب؛ فقدتَ أثمنَ ما لديك، فما العمل؟ ستبدأ بالتّفتيش عنه؟! نعم، ولكنْ من يعرفُ أينَ يكون الحِزام

أو القميص؟ مَنْ له عينان تَرَيان ما نرى إلاّ إذا كان من أهلِنا، إلاّ إذا كان واحِدًا مِنّا؟ بل مَنْ يعرفُ قيمتها إذا لم يفهم قصّتَها؟ مَنْ تُحدّثه نفسُه بسرقةِ قطعتَي قِماشٍ قديمتَين؟ ألا يبدو ذلك غريبًا؟ من أين تمتدُّ يدٌ إلى هذَين الكنزَين إنْ لم تكنْ تعرف السّرّ المخبوء خلفَهما؟ أنا يا أخي فقدتُ الحِزام؟ نعم فقدتُ الحِزام ولكنّني...». هتفَ مدهوشًا: «فقدتِ الحِزام!! هل...». لم تدعْه يُكمِلُ سؤاله، قاطعَتْه: «فقدتُه لساعاتٍ ولكنّني وجدتُه؟ لن تتخيّل للحظةٍ واحدةٍ أين وجدتُه؟ هل تأكل القِطّة إلاّ أبناءَها؟ وهل يهدمُ السّدَّ إلاّ بانوه؟ وهل يقطع الشّجرةَ إلا غارِسُها... واحسرتاه يا أخي... واخجلتاه وأنا أحدّثكَ هذا الحديث... هل خمّنْتَ الآن مَنْ سرق حِزام أبي؟ هل أدركتَ الآن كيف تكون الطّعنة مُضاعفةً إذا كانتْ من أحبّ النّاسِ إلى قلبِك؟ يوسفُ سرقَ هذا الحِزام». وصرخت جملتها الأخيرة. ذُهِل يعقوب، كانتْ عيناه تزوغان، تتحرّكان بسرعة، تنظران في وجه أخته برعب وبانكسار وبخيبة، هتف غير مُصدّق: «هل فَعَلها؟ أمعقول أنّ هذا النّبيّ يفعلها؟ هذا الّذي رأى رؤيا الحقّ يفعلها؟ هذا الّذي يُعدّه الله لكي تتحقّق فيه النّبوءة والنّبوّة يفعلها؟!». ردّتْ على أسئلته الكثيرة المُتلاحقة بجملةٍ حادّة لتصلَ إلى ما تريد: «لقد فعلها؛ فما جزاؤه؟». أراد أنْ يُجيب، لكنّ الكلمات خانتْه، آماله تحطّمتْ أمام واقع السّرقة، نادتْه، جاء يوسف، قبل أنْ يصل إليهما بخطوات كشفَ عن بطنه، وأشار بأصابعه إليه، لقد كان يلبسه، قالتْ عيناه: «ألا تراني ألبسه يا أبي؟ أنا أحبّه، أجدُ فيه طمأنينة نفسي، أرتاح لارتِدائه، ألا ترى؟ ولكنْ مَهلاً... لا تُصدّق كلّ ما ترى يا أبي... بعضُ ما نرى قدرٌ تجري علينا نواميسُه؟ لكنْ ألمْ تُعلّمْني الكلمتَين اللّتَين

علّمَها لك جدّي إسحاق؟ الأمور تجري على هذا النّحو يا أبي...» ثُمّ ابتسم ابتسامةً هدّأتْ من حُزن يعقوب وغضبه، هَمّ أنْ يركض باتّجاهه ويحضنه، هَمّ أنْ يسأله: «لِمَ تفعل ذلك؟!». لكنّ رأس يوسف الّذي مال إلى اليمين قليلاً قال له: «لا تفعلْ». ظلّ واقِفًا ذاهِلاً عن نفسه أمامهما، أعادتْ عليه أخته السّؤال بلهجة المُنتصِر: «ما جزاء الّذي يسرق شيئًا من بيتِ مالكه؟». ردّ بحروفٍ متقطّعة: «يُصبح عبدَه». «وهو عبدي إلى أنْ أموت». انهار على الأرض، جثا على رُكبتَيه، انعقدَ لِسانه، كرّرتْ أخته عبارتها مزهوّة: «هو عبدي، وهو في بيتي إلى أنْ أعتقه أنا، أو يُعتِقه موتي، لكنّ ذلك لا يمنعكَ أنْ تزوره بين فترةٍ وأخرى، أنا لستُ قاسيةً إلى الحدّ الّذي تتخيّله يا أخي؟ أنا من سلالة الأنبياء، والأنبياء قلوبهم رحيمة». ثُمّ ابتسمتْ حتّى ظنّ أخوها أنّها تهزأ به، أشارتْ إلى يوسف أنْ يدخل، وشدّتْ أخاها من يده: «هَيّا؛ لقد أعددتُ لكَ الطّعام من أجل هذه اللّحظة». تبعها كالمأخوذ، ومن داخل البيت كانتْ رائحة الخُبز تملأ أنفه!

(٧)
الحُبّ رزق

قال يهوذا لإخوته في المساء وهم مجتمعون بعد يومٍ طويلٍ شاقٍّ في الحقول: «أبونا يتردّد على بيتِ عمّتنا كثيرًا!!». ردّ عليه لاوي: «وليكنْ؛ ماذا تريد أنْ تقول من وراء هذه العبارة؟ أخٌ يزور أخته ويبرّها ما الغريبُ في الأمر؟!». أجابه يهوذا: «مسكينٌ أنت، هل تظنّ أنّ أبانا بارٌّ بأخته؟!». تدخّل شمعون في الحديث: «أنا أعرفُ ما تقصد يا يهوذا؟ لماذا لا تقول ما تريدُ صراحةً» وغمَزَه بطرفِ عينِه، ضحك يهوذا: «سأقول، لكنّني وددتُ أنْ يبدأ إخوتي هؤلاء الجَهَلة بالقول». تدخّل الأخ الأكبر روبيل: «كُفّوا عن هرائكم، اصمتْ يا يهوذا ولا تكنْ عَيّارًا». وقف يهوذا، وقال بتحدٍّ: «لا أحدَ يُمكنه أنْ يُسكِتني، أتعرف يا روبيل أنّه يزورها من أجل يوسف، لماذا نُخبِّئ الأشياء ولا نُظهِرها على حقيقتها، إنّ يوسف قد ملأ عليه حياته وملكَ عليه فُؤاده، إنّه يُحبّه أكثر مِنّا؛ عليه أنْ يوزّع الحبّ بيننا بالتّساوي». حدجه روبيل بعينَين فاحصتَين، وردّ عليه: «الحُبّ لا يوزّع بالتّساوي، لا قانون يحكمه، بل هو يحكم كلّ شيءٍ، وإذا تمكّن من الفؤاد بدا في العينَين...»، وأراد أنْ يُكمل حين قاطعه لاوي مُحتجًّا: «ولكنّه يتجاهلنا كأنّه لا أحدَ في حياته غيرُه، هل هذا أبٌ عادل؟!». «العدل ليس في قِسمة الحُبّ أيّها الذّكيّ، العدل في المعاملة»، فأسرع يهوذا يقول: «أبي لا يعدل بيننا». نهرَهما

روبيل: «توقّفوا أيّها الفلاسفة البَكّاؤون، توقّفوا لا يحقّ لكم أنْ تتحدّثوا عن أبيكم بهذه الطّريقة؟ ماذا حدث لكم، هل فقدْتُم عقولَكم؟!». صرخ يهوذا: «سنفقدها على الحقيقة إذا استمرّ أبونا بهذه المُحاباة، الصّبر له حدود، والصّمت له حدود، والحقّ لا يَغضب منه أحدٌ، على أبينا أنْ يتوقّف عن تحيّزه الفَظّ هذا، وعلينا أنْ....». قاطعه روبيل: «عليكم أنْ تصمتوا وتبتلعوا ألسنتكم، الحُبّ رِزق، احمدوا الله أنّ يوسف ليس في بيتنا، وأنّه في بيت عمّتنا، لو كان هنا، ماذا كنتم ستفعلون؟!». قفز شمعون من جلسته، ولوّح في الهواء بقبضة يده اليُمنى، ورشقها بعنفٍ أمامه، ثُمّ هتف غاضِبًا: «كُنّا سنخنقه». وقعت الكلمة على الإخوة المُجتمعين وقوع الصّاعقة، ساد الصّمت المكان، لم ينبسْ أحدٌ بعدها بحرفٍ واحدٍ، ارتجفتْ سيقان واقفة، ورعشتْ قلوبٌ واجفة، وتشفّتْ أفئدةُ آخرين، وضحكتْ نوايا الباقين لأنّ أحدًا ما قال الكلمة المُنتظرة قبل كلّ أحدٍ، إنّها لذّة السّبق في الحديث عمّا يحوك في الصّدور. إنّها الجرأة في أنْ ترمي على الطّاولة بكلّ ما يعتمل في داخلك، أنْ تهتف به دون تحفّظ، ودون خوف، ودون مواربة، هكذا بكلّ وضوح: «كُنّا سنخنقه». شعر الأخ الأكبر بالاختناق، خنقتْه الكلمة على الحقيقة؛ «هل هؤلاء إخوتُه؟!!»، هَمّ أنْ يضربَ شمعون على وجهه، أنْ يلطمه، أنْ يصرخ في وجهه: «اخرسْ أيّها الجَبان، ما كان لك أنْ تقول هذه الكلمة في حضرة أبي». لكنّه آثَر الصّمت، هَزّ رأسه مُتأسّفًا، خبطَ باطن كَفَّيه على جنبَيه بأسى، عزم على الخروج من المكان، قرّر أنْ يتركهم لهُرائهم، أعطاهم ظهره، لحقتْ به كلمات أخيه الغاضب شمعون: «أنا أعرفُ ما يدور بخاطرك؛ تقول جُنّ إخوتي، في الحقيقة لم نُجنّ، كان

علينا أنْ نقول ذلك من أمدٍ، ستقول لو كان أبونا حاضرًا لما تجرّأنا أنْ نَنْبِسَ بحرفٍ واحدٍ من هذا في حضرته، في الحقيقة لو كان حاضرًا لقلتُ ما قلتُه دون تردّد، ربّما كان هذا في السّابق، أمّا الآن فالأمر لم يعدْ مُحتَمَلاً، هوّنْ عليكَ يا أخي، هوّنْ عليك يا أخانا الكبير، دَعْنا نَبُحْ أمامك وأمام أنفسنا بما يعتمل في أعماقنا، يا أخي نحن نُعاني!! أمعقولٌ أَنَّكَ لا تعاني مثلَنا؟! أمعقول أنّ الأخ الأكبر له قلبٌ يختلفُ عن قلوبنا، لا تقلْ لي إنّ قلبكَ يتّسع لكلّ هذا الأذى، لا تقلْ لِي إنّكَ تصبر على ما لم نُطقْ نحن عليه صبرًا! أنتَ لستَ من نورٍ، أنتَ مِنْ لحم ودم، بل من لحمنا ومن دمنا، ألم تُنجِبْكَ الرّحم ذاتها الّتي أنجبَتْنا؟! ألستَ واحِدًا مِنّا؟! فلماذا تتظاهر بأنّه لا يُصيبُكَ ما يُصيبُنا؟! لماذا كلّ هذه المُكابرة؟! تعال واجلسْ وساعِدْنا على أنْ نجدَ مخرجًا ممّا نحن فيه. قلنا لك إنّ الأمر لا يحتَمَل وأنتَ لا تُصدّق؛ صدّقْنا، ولو مرّة واحدة يا أخي...!!».

في الخارج كان اللّيل يُمعن في الظّلام، السّواد سيّد كلّ شيءٍ، لولا صِياح الإخوة الّذي أتاه من خلف ظهره كأنّه قادمٌ من بعيد، من أزمنةٍ غابرة لظنّ أنّ للصمت روحًا، أنّ للهدوء وجودًا حقيقيًّا يكمُن في هذا اللّيل الحالك، كانتْ أصواتُهم لا تزال تتراشقُ في الغرفة عابرةً بهياجها شيئًا من هذا السّكون الأخّاذ، فكّر في أنْ يذهبَ إلى أبيه، أنْ يقصّ عليه الخبر، أنْ يحذّره مثلهم من تصرّفاته، أنْ يقول له: «إنّ غيرةَ أبنائك الصّامتة أصبح لها لسانٌ وشفتان، وأنها تتكلّم بلغةٍ مُبينة». عزم على ذلك بالفعل. مشى تاركًا غرفَ إخوته، عابرًا بعضَ زرائب الأغنام والإسطبلات إلى غرفةِ أبيه، حدّث نفسه: «إنّه نائم. وأمّنا (لِيَا) في هدأتِها بعدَ عملٍ شاقّ؛ إنّها تتعبُ هي الأخرى؛ تكفيها هذه القُطعان

من الماشية الّتي تقضي أغلب اللّيل في حَلْبِ ضُروعِها، فلماذا أزعجها؟!». لكنّه قدّر في الوقتِ نفسه، أنّ الوقتَ ليسَ في صالحِه، ولا صالح أبيه، ولا صالح إخوته، وأنّ الكلمة الّتي تُقال اليوم قد تمنع كارثةً يُمكن أنْ تحدثَ غدًا، وزادتْ عزيمتُه على تنفيذِ ما دار في خَلَده، ومشى باتّجاه مخدع أبيه. على الباب توقّف، هَمّ أنْ يطرق الباب، أنْ يستأذن بالدّخول، لكنّه تراجع، خطا خطوةً واحدةً إلى الوراء، كاد أنْ يعود لولا أنّه سمع أصواتًا خافِتةً تدور في الدّاخل: «يوسُف هذا من طينةٍ أخرى». «تقول لي هذا دون أنْ تُراعِيَ شعوري وشعور أبنائي العشرة؟». «يا لِيا، تفهّمي الموقف، أنتِ عاقلة». «سأكونُ عاقلةً لو أنّكَ أقنعتني أنّ ولدًا صغيرًا جاء بعد عشرةِ أشدّاء من أبنائك المُحاربين هو مختلفٌ؟! أتقصدُ أنّه وسيمٌ جِدًّا، ولهذا هو مُختلف؟!». «كبّري عقلَكِ يا امرأة؛ أنا جادٌّ فيما أقول!!». ردّتْ حانقة: «وأنا جادّة أيضًا، أنا لا أقبل أنْ تُفضّله على أبنائي الّذين خرجوا من رَحِمي!! هل تقصد أنّ أمّه ماتتْ وهو صغيرٌ ولهذا تُفضّله على مَنْ يفعل لك كلّ شيءٍ وسيرفع اسمكَ أكثر منه؟! أَليُتْمه تُميّزه يا يعقوب؟». ثُمّ دارتْ بوجهها إلى الجهة الأخرى. رقّ صوتُ يعقوب. صمتَ لبرهة. راح يرتّب ما يريدُ قولَه: «لو أنّني أخبرتُكِ بالسّرّ هل تقتنعين؟». «هل هناك أسرارٌ تُخفيها عليّ يا يعقوب؟!». «أسرار النّبوّة لا غير يا لِيا؟ لا تكوني غيرَى إلى هذا الحدّ». «قُلْ؟!». «إنّه حُلُم». «هل تحكم على أبنائك بالأحلام؛ لم أتوقّع هذا من نبيّ حكيم، ولا من رجل حصيف، أيكون الهرم قد أنساك، وأذهبَ عقلَكَ؟!». «بل أنساكِ يا امرأة؟! أليستْ رؤى الأنبياء حقًّا؟!». فزّتْ من نومتها، جلستْ على حافّة السّرير، شدّتْ عنه لِحافه، وأنهضتْه.

نظرتْ في عينَيه: «هل رأى رؤيا؟!!». «نعم!». «قل لي بربّك ماذا رأى؟!». كان صدرُ روبيل في الخارج يخفق، صوتُ خفقانِه كان مسموعًا ولولا الرّيح لافتُضح. بلعَ ريقه، مالتْ أُذناه نحو الباب، واستعدّ لكي يسمع الرّؤيا. كان صوت يعقوب وهو يقصّها ساحِرًا، إنّه يتلذّذ بتكرارها... «لقد رأى الشّمس؛ أتعرفين ما معنى أنْ يرى الشّمس؟! كانتْ تحني جِذعها، وتقبّل الأرض بين يدَيه، وتسجدُ أمامه!! أتعرفين معنى أنْ تسجد له الشّمس؟! ليتَه رأى الشّمسَ وحدَها؛ لقد رأى القمر معها؟! قمرٌ يسجدُ لقمر؛ يا لجَمال النّبيّ... الكواكب... أحدَ عشر كوكبًا؛ ضخامُ الأجسامُ مَفتولو العضلات، جيشٌ بأكلمه... كأنّهم من نسل المُحاربين العظماء... كلّ هؤلاء سجدوا لهذا الطّفل النّبويّ... أتعرفين معنى أنْ تخضع له كلّ هذه الكواكب مجتمعةً...؟! هيه...» زَفَر زفرةً ألهبَ بها هواء الغرفة، لم يصمتْ كثيرًا، تابَعَ: «أتعرفينَ الآن لماذا فضّلْتُه عليهم؟! لأنّ الله فضّله؟! النبوّة قِسمةُ الله يا لِيا، قِسمةُ رَحمته... ليسَ معي صكوكٌ أوزّع بها أرزاق الأنبياء، ولا صحفٌ من عالَم الغيب أقرأ فيها أسماء الّذين اختارهم الله لرسالته... الله يعلم... الوحي يعلم... وأنا وأنتِ وأبناؤنا جميعًا لا نعلم... الرُّؤيا وحي... الرّؤيا صِدْق... والآن...؟! بِمَ تُفيدُ المُماحكة يا لِيا؟ أنا أقول لكِ بلا شيءٍ...». نهضتْ على قدمَيها، تلفّتتْ حولها مذعورة، غطّتْ فمَها بكلتا يدَيها حتّى تمنع صرخةً كادتْ تتفجّر من الدّهشة... لم تقلْ حرفًا واحِدًا. أسندتْ كتفَيها إلى الجِدار، وانزلقتْ بظهرها إلى الأرض ببطء، واقتعدت هناك، ثُمّ أشارتْ بأصابع يدها إلى النّافذة وهي تُغطّي فمها بيدها اليُسرى، ابتسمَ لها يعقوب، فردّ: «لن

تُخبري أحدًا... أليسَ كذلك؟!». في الخارج ركضتْ أقدامٌ إلى البعيد. نهشتْ هدوء الثّرى وفرّتْ من هول الحقيقة. سمعها يعقوب، نادَى بحذر: «مَنْ هُناك؟!». لكنّ أحدًا لم يردّ، كانتْ أنفاسٌ ما في الجوّ تلهث مبتعدة، وأصواتُ أقدام تخفتُ مع الوقت، ركَضَ يعقوب إلى النّافذة، أزال الستارة، ونظر من خلف الزّجاج، كان هناك شبحٌ يولّي هارِبًا بسرعةٍ، «إنّه أحدُ أولادي...» حدّث نفسه، وكرّر: «إنّه أحدهم لا ريب، ولكنْ مَنْ يكون؟ إنّه يبدو أشدّهم قوّة، لا.. كلّهم شديدو القُوى، لكنّه يبدو أطولهم، فمَنْ يكون يا ترى؟! ربّما لاوي؟! لا. شمعون؟! ربّما. بل روبيل؟ كلاّ ليس سريعًا إلى هذا الحدّ!! يهوذا؟! قد... لكنْ». عادَ إلى سريره، بدا أنّه شاخَ فجأة، بدا أنّ هذه المسافة بين السرير والنّافذة قد أضافتْ إلى عمره سنواتٍ كاملة. أمسكَ لحيته بجُمْع كَفِّه، وهزّ رأسه بأسى: «هل يكون قد سمع حِوارنا؟ أشكّ في ذلك؛ فالنّافذة مُغلقة، وكلّ شيءٍ كذلك، البرد شديد، ولم أتركْ شيئًا مفتوحًا ليتسلّل منه الصّوت». حاول أنْ يُطمْئِن نفسه، لكنّه لم ينجح، «أيّ سِرّ هذا الّذي من المُحتمل أنْ يكون خمسةٌ صاروا يعرفونه!!» حاول أنْ ينام، لم يطرفْ له جفن، منذ ليلةِ ابنه يوسف في بيتِ أخته فائقة لم ينمْ. «ما كان لنبيٍّ أنْ يسرق!!». ولكنْ ما فائدة الإنكار، والأمر قد قُضِي؟! رفعَ رأسه باتّجاه لِيا، كانتْ ما تزال ذاهلة، أرادتْ أنْ تسأله عمّا رآه من النّافذة، لكنّها آثرتْ الصّمت، انفرجتْ شفتا يعقوب، كرّر لها تحذيره برجاءٍ هذه المرّة: «لن تُخبري أحدًا... أليسَ كذلك؟!».

في الصّباح كان كلّ فردٍ في الأُسرةِ يعرف كلّ شيء!!

ꕤꕤꕤꕤ

(٨)
العَشاء الأخير

الحياة تمضي. الأيّام تدور. مَنْ يوقف السّاقية؟ صانِعُها. إنّها مسألة وقتٍ فحسب. الأبناء يخرجون في الصّباح. يَرعَون في الحقول. يصنعون الرّماح. يتدرّبون على القِتال. يزدردون الحجارة. يأكلون كلّ شيء. يتحدَّون الشّمس. يقهرون الخوف. يتغلّبون على المستحيل. يفتكون بالضّعف، ولا يتركون مجالاً لشيءٍ لا يريدون حدوثه أنْ يحدث. جبّارون لكنْ بطريقتهم، وحده شيءٌ ما؛ صغيرٌ، صغيرٌ جدًّا، كأنّه رأسُ إبرةٍ ينخز قلوبهم، كلّ واحدٍ منهم كانتْ له تلك الإبرة، يجد ألَمها في قلبه، يكبر الألم على هيئة سؤال، يظلّ السّؤال يتضخّم حتّى يكاد أنْ ينفجر، ليتشكّل على هيئة غمامة سوداء، تقول بصوتٍ كأنّه عُواء ذئبٍ جريح: «لماذا؟». «لماذا ماذا؟». «لماذا يحبّه ولا يُحبّهم؟!». بعضُ الأسئلة هواجس ليستْ حقائق. بعضُها صامتٌ لا يتكلّم، لكنّه يُسمَع، لا تقلْ لي كيف، إنّه يُسمَع، ولو لم يكنْ له لسان. بعضُها فحيحُ إبليس الّذي يعيشُ فيك. بعضُها مِخرزٌ في الخاصرة لا يهدأ ما دمتَ تسير. بعضُها جنون. بعضُها تَشَفٍّ. وبعضُها انتقام من كلّ شيءٍ!!». صوتُ روبيل وحده يُمكن أنْ يُميّز من بين هذه الأصوات المُختلطة، لكأنّه يقول: «أنتم تبحثون عمّن يهبكم اهتمامًا ولو كان كاذِبًا، لكنْ ألا تجدون في الطّبيعة من العناية ما يشغلكم عن أنْ تبحثوا عن اهتمامٍ عابر؟!». يأتيه

صوتُ يهوذا: «أليس للسّابق فضلٌ على اللاّحق؟!». فيكاد صوتُ روبيل يُسمَع: «إذا تساوت الطّبائع». «وهل نحن مختلفون فيها؟!». «بالتأكيد». «كيفَ؟!». «طَبَعَ فيه ما لم يطبَعْ فينا». «تهذي». «تُكابِر». «لا أكابر، الأمر بيد الخالق، لكنْ لماذا لا يعدل الأب في الحُبّ؟!». «ولكنّه يُحبّكم أنتم أيضًا، كلّكم تسكنون قلبه». فيردّ مستهزِئًا: «ربّما، ولكنّ القلبَ حجرات يا أخي، ومنازل يا نور عيني وعينِ أبيك». «ماذا تعني يا يهوذا؟». «اليتيمُ الصّغير الّذي لم يحمل عصًا في حياته فضلاً عن أنْ يُمسك مِحراثًا فيحرث به الأرض، أو مِنجلاً فيحصد به الزّرع، أو فأسًا فيقطع بها الحجر، أو سيفًا فيضرب به العدوّ... هذا الصّغير له حجرةٌ خاصّة بأكملها، بكلّ ما فيها وسط ذلك القلب، ونحن الّذين نشقى جميعًا لا ننزل إلاّ في حجرةٍ صغيرة». ويستمرّ الجدل. وتستمر الرّيح في النّواح. ولا يدري أحدٌ متى ستنقلب هذه الرّيح إلى عاصفة. لكنّ الحياة تدور، السّاقية تدور، مَنْ يوقفُ السّاقية؟ صانِعُها فقط!

«ما أخباره اليوم؟». «إنّه بخير. لكنّني نصحتُك. هل تريدني أنْ أكرّر النّصيحة؛ لا تَزُرْه في كلّ يوم. يكفي أنْ تأتي في الأسبوع مرّة». يتجاهل نصيحتَها من جديد: «هل يأكلُ جيّدًا؟!». «لقد سألْتَني هذا السّؤال أكثر من عشر مرّات مُذْ قَدِمْت، هل تُعاني من شيءٍ يا أخي؟!». «لن تفهميني يا فائقة. لن يفهمني أبنائي، ولا لِيا، ولا أحد... كيفَ أشرحُ ما أنا فيه، هل يُمكن للصّخرة أنْ تسمع بُكاء النّهر؟! لماذا عليّ أنْ أستمرّ في الشّرح وتستمرّوا في العِناد؟!». «العناد؟! أنتَ مَنْ يُعانِد يا أخي». «يا فائقة، كيفَ تنشغل الشّجرة بالثّمرة عن النُّور؟ لولا النّور ما كانت الثّمرة. كيفَ ينشغل السّحاب بالمطر عن الهواء؟ لولا الهواء ما

كان السّحاب. كيفَ ينشغل الرّوضُ بالزّهرة عن الماء؟ لولا الماءُ ما كان الرّوض. يا فائقة إنّ ابني هذا هو النّور والهواء والماء؛ أرى به، وأتنفّس، وأعيش». شهقتْ فائقة، نظرتْ في عينَي أخيها بحزم، كان يبدو أنّ ضِياء عينَيها بدأ يخبو، لو أنصفْتَ لقلتَ: «كيفَ ينشغل الإنسان بالحياة عن الله؟ لولا الله ما كان الإنسان. فكيفَ تنشغل يا نبيّ الله عن الله بأيّ أحدٍ؟!!».

شجرة السّنديان في الحديقة تُشبهها، تُشبه شيخوختها، تُشبه خريفَها، تُشبه جذوعها المتعرّقة، إنّها تبدو صامدة من الخارج لكنّها تنهار من الدّاخل، إنّها تتآكل، كأنّ أَرَضَة السّنين تنخر فيها تبقّى من ساقِها فتأكله، وتُعمِل فيما ظلّ من رِيّ فتمتصّه، كأنّ ماء الحياة لا يصعد من التّراب إلى الجذوع، لقد بدأ الجفاف يسري في كلّ فرع، ومَنْ يدري متى يسقط السّاق من عَلْيائه؟ متى تنام الأغصان المادّة ذراعَيها منذ أمدٍ بعيدٍ؟ متى ترتاح العجوز الّتي قاومت حتّى أُفرِدتْ، فما ظلّ معها من شجر السّنديان شيءٌ؟!

«ألا نتسابق يا عمّتي؟». «نتسابق؟ هل تهزأ منّي يا بُنيّ؟ أنا عجوز أكبر من أبيك؟». «لكنّكِ ما زلتِ قويّة؟». «تبعثُ الأمل فِيّ أيّها الصّغير، لكنّني أَحُول إلى رمادٍ، وماذا يُجدي النّفخُ فيه؟!». «هَيّا يا عمّتي... جرّبي» وشمّرَ وشمّرتْ، ورَكَضا في الحقول الفسيحة، الممتدّة امتداد الأفق، ورأتْ ما لم تَرَ، إنّهم إخوته، لقد دلّهم على الحِيلة؛ هل كان كلّ شيءٍ مُعدًّا سلفًا؟! ها هم يتسابَقون، ها هُم يتراكضون في المدى، ولكنّهم يضحكون، ويُقهقهون... إنّهم يخدعونه... توقّفتْ في منتصف

الطّريق، لهثتْ: «يكفي هذا يا بُنيّ» قالتْ ذلك وهي تحني جذعها، راكزةً باطنَ كفَّيْها على رُكبتَيها... في العشب الّذي حال لونه ويَبِس، رأتْ هي الأخرى أشياء كثيرة، رأت البدايات والنّهايات، ليالي إسحق، وصاياه، أبناءَه، مَرَضه، أنوار النّبوةّ، وجه أبيها ما زال يدعوها عبر ابتسامته النّبويّة إليه، تسمع صوتَه: «أما آن لك أنْ ترتاحي يا ابنتي؟ أما آن لكِ أنْ تُؤنسي وَحشتي يا غاليتي؟!». تتذكّر، تعود إلى ليلة الاحتضار، لقد همس تلك اللّيلة الّتي لا تُنسَى في أذنها: «ستكونين أوّل أبنائي لَحاقًا بي». بكتْ أمسِ. وها هي تبكي اليوم. بكاءُ أمسِ كان حُزنًا، وبُكاء اليوم كان فَرَحًا، بكاء أمسِ كان عن لوعة الفراق، وبكاء اليوم كان عن جذوة الاشتِياق!

في اللّيل أعدّتْ ليوسف العشاء الأخير، نظرتْ في وجهه طويلاً، تأمّلتْه كأنّما تُودّعه، كان يبتسم، «هذا الفتى لا تعرفُ غيرُ الابتسامة سبيلَها إلى وجهه النّبويّ». زادَ ذلك من طمأنينتها، عرفتْ أنّ ذلك مبلَغُها من الحياة، كانتْ لا تحوّل عينَيها عنه كأنّما تودّعه، تهتف بين حينٍ وآخَر: «يا لَجَمال النّبيّ». اتّفق مَنْ أحبّه ومَنْ لم يُحبّه على جَماله، أجلْ مَنْ أراد أنْ يُدنيه ومَنْ أراد أنْ يُقصيه اتّفقَ على ذلك، فهل كان جمالُه حقيقيًّا إلى الحدّ الّذي لا يُمكن حتّى للجاحدِ أنْ يُنكره؟!

قادَتْه من يديه إلى غرفته، في الممرّ الّذي ينتهي بتلك الغرفة، غمرتْها السّعادة، كان باطنُ كفِّها تنبتُ فيه الخمائل والجداول، «من أيّ طينةٍ أنتَ يا بُنَيّ؟». كان يسمع صَمْتها، فيزداد ابتِسامًا، وهي؟ تزداد محبّةً.

استلقَى على السّرير. جثتْ على الأرض، وركزتْ يدَيها على طرف

السّرير: «هل تُسامحني يا يوسف؟». ابتسم على عادته. «أريدُ أنْ أسمعها منكَ يا بُنَيّ». نطق. كأنّه لأوّل مرّةٍ ينطق: «على ماذا يا عمّتي؟». «سَرِقْتُكَ من أبيك». «في بيت النّبوّة لا يَسرقُ أحدٌ أحدًا». «ولكنّني أخذتُكَ من أبيكَ سبعَ سنواتٍ بحجّة واهية». «كان لا بُدّ من أنْ نفعل ذلك من أجل أنْ يتمّ وعدُ الله». «وهل تعرفُ ما وعدُ الله؟!». «أراه في صَحْوي ومنامي يا عمّتي». «وما ترى يا بُنيّ؟». «أرى أنّ ثمرة الزيتون لا تُضيءُ إلاّ بعدَ أنْ تُعصَر. وحبّة القمح لا تكون خُبزًا إلاّ بعدَ أنْ تُطحَن. والذروة لا تُبلَغ إلاّ بعد أنْ تبلغ العَقَبةُ الكَأْداءُ من النّفس كلّ شيءٍ». «مَنْ علّمك هذا يا يوسف؟». «الله». لم يعلّم الله من إخوته ما علّمه، أفيكون علم الله ما يتمايز به الخلق، فيفضُل به بعضُهم بعضًا؟! تنهّدتْ طويلاً، دفنتْ وجهها بين كفَّيْها، وراحَ كتفاها يهتزّان، كان صوتُها يرتجف: «هل تُسامحني يا بُنيّ؟ لم أسمعْكَ تقُولها!!». «المُسامحةُ تكون على الخطأ؛ فهل أخطأتِ يا عمّتي؟». «أليس في اتّهامكَ بالسّرقة خطأ؟!». «كلاّ يا عمّتي، لو لم تفعلي أنتِ ذلك، لبعثَ الله إليّ مَنْ يفعله. الأقدار لا تُميّز بين الأشخاص في أنْ تُصيب غرضَها، بعضُ الأشخاص أدواتٌ لها، بعضُهم أهدافٌ؛ أنتِ كنتِ أداة، وأنا كنتُ هدفًا». «فهل تُسامحني بعدَ كلّ ذلك؟!». أخذَ بيدها قبّلَها: «سأقول ما في قلبي؛ إذا أقبلَ المرء على الآخرة تخفّف من كلّ شيءٍ. كلّ ما نملكه يملكنا بطريقةٍ ما. لن أكون حارِسًا لما أملك، سأُذلّ الدُّنيا إذا أقبلتْ، وأُعِزّ الآخرة وإنْ أدبرتْ». «يا بُنيّ لن أُدركَ كلّ ما تقول. كلّ ما أريدُه منك أنْ تُسامحني بقلبِك إنْ كنتَ لا تُريدُ أنْ تُسمعني ذلك بلسانك». «سامحتُكَ يا عمّتي». أجهشتْ بالبُكاء، لم تعدْ ترى وجهه النّبويّ من خلال الدّموع،

راحتْ تُقبّل يدَيه وتتشمّمها: «يا بُنيّ. أسمعُ صوتَ أبي يدعوني إليه، فإنْ كنتَ تُحبّ عمّتك، حلّفْتُكَ ببركةِ أولاد إسحق كلّهم أنْ تدعوَ لي».

في الصّباح، كانتْ روحُها قد فاضتْ. تلقّى أباه على الباب باكِيًا، خلع الحِزام الّذي كانتْ عمّته تلفّه على وسطه، قبّلَه، ثُمّ أعطاه لأبيه. «لقد لبّتْ نداء الله يا أبي». ارتعشَ أبوه: «ماتتْ!!». «استردّ الله ما كان له؛ ولسنا أكثرَ من عَوارٍ». دخل مسرِعًا. كانتْ مُسجّاة على السّرير كأنّها نائمة. حَمَلها أخوها بين ذراعَيه، ومشى بها المسافة كلّها إلى أنْ وصل إلى دياره، كان جسدُها طريًّا. في ساحة البيوت الّتي تضمّ ذرّيّته، وقف الإخوة كلّهم كأنّهم جذوع نخلٍ قد نكّستْ أعذاقَها، كان الحُزن قد ألبسهم رداء الخُشوع. صَلّوا عليها. وفي المساء كانتْ تتساوَى في الثّرى مع الرّاحلين الّذين سبقوها بسنةٍ واحدةٍ أو بآلاف السّنين!

(٩)
الفوزُ بقلبِ الأب

السّاقية تدور، مَنْ يُوقف السّاقِية؟ صانِعُها. كبر بِينامين، يُشبه أخاه، الرّحم الواحدة تُنجب مُتشابِهين. صارا يجريان معًا. «أُعلّمك عِلْم آبائي يا أخي». «أريدُ أنْ نركض. أحبّ الرّكضَ في السّهل. هل يسمح أبي لنا بذلك؟!». «ربّما. لكنْ اسمعْ منّي؛ أرى ما سيحدُث؟». «أنا لا أفهم!!». «صحيح. عليّ أنْ أنتظر حتّى تكبر».

صارا جسدًا واحِدًا. يسيران معًا كأنّها لهما الجذع ذاته، صارت العيون تتقحّمهما؛ «إنّهما صخرةٌ في طريقنا، نحن نملك المِعول والسّاعد، نحطّمها ولا نُبالي، إنْ لمْ نُسارعْ باستدراك الأمر فستكون الأمور مُعقّدة بعد حين». كأنّهم كانوا يهتفون جميعًا بهذا النّشيد الغاضب؛ «الشّوكة الّتي تنغرز في باطن كفّك من الممكن أنْ تتحوّل إلى سُمّ إنْ لم تُقتَلع» تتعالَى أصواتُ الكِبار في وجه الصّغيرَين. لكنْ مَنْ يستطيع أنْ يوقف الهِلال عن أنْ يكبر؟! مَنْ يستطيع أنْ يغيّر اتّجاه الرّيح؟ مَنْ يستطيع أنْ يقبضَ على الغَمام؟! مَنْ مِن هؤلاء الأبناء العشرة بإمكانه أنْ يدوس نبتة الحُبّ الرّيّانة في قلب الأب الواله؟! مسكينٌ هذا الأب لا يعرفُ أقدار الأبناء، لو كان يعرف لأبصر؛ هل هو أعمى إلى هذا الحدّ؟!!

يهوذا كان شديدَ القُوى. صَدرُه صخرة، شَعرُ رأسه كَثّ لكنّه خَشِن، يتكوّم فوق رأسه مثل شجرةٍ صغيرة الأغصان يابسةٍ غير

مُشذّبة. ساعِداه مفتولان، عضلاته بارزةٌ لطولِ عهده بالمِران والتّدريب. أمّا روبيل، فصخرةُ صدرِه ترتفع أعلى من يهوذا، وأمّا شمعون فتلك الصّخرة تمتدّ أوسع من أخَويه، عريضةٌ كأنّها هُيِّئَتْ للنّقش. وأمّا لاوي فكان فارع الطّول، كأنّه والنّخلة ولدا من رحمٍ واحدة في يومٍ واحد!

قال يهوذا في الحقل: «الولد في بيتِ عمّته كان أقلّ إثارةً للقلق». «والآن ماتتْ. لم نكنْ نعلم أنّ الموت سيُباغِتُها بهذه السّرعة» ردّ لاوي. «دع عمّتكَ وشأنَها. نحن نتحدّث عن هذا الصّغير الّذي قلَبَ الدُّنيا رأسًا على عَقِب». «المشكلة ليستْ فيه بالدّرجة الأولى، بل في أبينا. أبونا لا يُحسّ بنا». كانت الشمس لاسعة. العَرَق ملأ صدورهم، وبلّل ثيابهم. السّاقِية تدور. «خيرٌ من أن توقِفوا السّاقِية، أن تنعموا بمائها الّذي تَهَبه للجميع لعلّه يخفّف شيئًا من عطشكم» قالتْ فراشةٌ عابرةٌ هذا الكلام، تعلّمتْ أنْ تأخذ من الماء حاجَتها لتطير أعلى! «الماء في قلبِ أبينا لا يجري إلاّ له». قال شمعون لأخويه وهو يواصل القفز الرّشيق خلفَ العِجل الّذي يحرث الأرض. «إذا بقيتم على ثرثرتكم هذه فإنّ الماء الّذي في قلبِ أبيكم سيجفّ تمامًا، سيُصبح قلبُه بالنّسبة لكم بئرًا مهجورة». ردّت الفراشة ذاتُها عليهم؛ لم يسمعوها. عادَ شمعون من رأس الحقل يتقدّمه عِجلُه الأسود، كان صوتُ خُواره في اللّحظة الّتي صار فيها بمحاذاة إخوته قد عَلا، هتف بهم بكلامٍ لكنّهم لم يسمعوه جيّدًا. «ماذا قلتَ يا شمعون؟» صرخ يهوذا. «الحلمُ يفرضُ نفسَه على أبينا يومًا بعدَ آخر. إنْ لم نتداعَ من أجل تدارُك الموقف فستسوء الأمور كثيرًا». «الحلم... قلتَ لي الحُلم». ردّ يهوذا ساخِرًا، ثُمّ أكمل: «نجتمع

من أجل أنْ نناقش الحُلم؛ ما هذا الهُراء!!». صمتَ، كان خُوار العِجل أيضًا قد توقّف، مسح العرق عن جبينه، وهتفَ في نفسه من جديد وهو يفحص الأرضَ بنظراته الغاضِبة: «وماذا في ذلك؛ عشرةٌ من الثيران الّتي تُثير الحقول ستجتمع من أجل حُلم فتًى لم يبلغ الحُلُم، هل هناك مهزلةٌ أكثر من ذلك؟!!». عادَ العِجلُ الأسود إلى الخُوار. رفع شمعون صوتَه: «لا بُدّ أنْ نجتمع اليوم. بلّغْ إخوتكَ يا لاوي. أريدُ أنْ تكونوا كلّكم. هل يعرف روبيل بالأمر؟!».

هبطَ اللّيل، اللّيل الّذي هبطَ على الإخوة العشرة بالتّأكيد لم يكن اللّيل ذاته الّذي هبطَ على يُوسف وأخيه، كان بنيامين مُستلقِيًا على مصطبةٍ أمام الحوش، عاقِدًا ساقًا على ساق، وهو يُدندِن، قال يوسف، وهو يذرع الأرضَ بخطواتٍ هادِئة لبنيامين: «أريدُكَ أنْ تأتي معي». «إلى أينَ يا أخي؟!». «إلى الخارج قليلاً، إلى الأرض الخالية». «لِماذا؟». «أريدُ أنْ أُريكَ شيئًا». طاوعه، حلّ رِجلَه المعقودة، جلسَ على المصطبة، ثُمّ انتعل حِذاءَه الصّغير، ووقف، تبعَ أخاه. مشى يوسف أمامه، بدا لبنيامين أنّه أكبر مِمّا كان يعتقد، «لقد كبر أخي بسرعة» حدّث نفسَه، إنّه لا يدري كم عمره، لكنّه لا يتذكّره ولا يعرفُ عنه شيئًا قبل أنْ يعود من عند عمّتهما الّتي ماتتْ قبل أشهرٍ خارجَ هذا الحيّ، وقالوا له: إنّ قبرَها في هذا الحوش، في طرفِه الجنوبيّ. لكنّه تعلّم من أخيه الكثير، بدا أنّ الأيّام تُسرِع في ركضِها خلف السّاقِية. خرجا من الحوش، تابَع يوسفُ سيرَه، وبنيامين يلهثُ خلفَ أخيه، صارا خارج بيوت القرية، الظّلام كثيف، سحبٌ سوداء تُغطّي كلّ شيءٍ، «إلى أين تذهب يا أخي؟!» هتفَ بنيامين، كان يرتعش، بساقَيه النّحليتَين: «أنا لا أرى شيئًا». «لا تخفْ يا

بنيامين... أنا أخوك... اتبعْني فحسب». «ولكنّني قلتُ لك لا أرى شيئًا؟». «ألا ترى قميصي؟». «بلى». «اتبعْه إذًا». ومضَيا.

جلسَا على نَشْزٍ من الأرض. صامِتَين، بَدَوَا كما لو كانا راهبَين صغيرَين في محراب السّماء. كلّ شيءٍ كان مُمتدًّا أمامهما. مرّتْ فترةُ صمتٍ وهدوء. سكونٌ باهر. في صفحة السّماء كانتْ هناك نجومٌ تظهر. طالتْ فترةُ الصّمت. قال يوسف أخيرًا: «هل تسمعهم؟ إنّهم يتحدّثون عنّا كثيرًا!». «مَنْ يا أخي؟». «إخوتنا». «إنّني أحبّهم». «وأنا كذلك. لكنّ الحُبّ يُفسِد ما في القلب أحيانًا يا بنيامين». «السماء صافية، لكنّ اللّيل حالك». «وكذلك قلوبهم». «لم أفهم». «سأعلّمك يا أخي». «النّجوم تضحك». «مثل قلبكَ يا أخي». ضحك بنيامين، كانت كركرةً خافتة، لم يعرف أنْ يردّ، اكتفى بالصّمت. «إنّهم يدبّرون لنا شيئًا». «مَنْ هم؟!». «إخوتنا». «لا أفهم». «ستفهم بعدَ حين». «ولكنْ من أين تأتي بهذا الكلام؟». «سأخبرك». «أنا أحبّ أنْ أتحدّث معك. أريدُ أنْ نظلّ معًا. أريدُ أنْ أشعرَ أنّكَ إلى جانبي دائمًا». «ليتني أستطيع يا صغيري». «لماذا يا أخي؟!». «لو قلتُ لك فلن تفهمني». «أريدُ أنْ أكبر معك». «سنكبرُ بعيدَين عن بعضنا». سمع يوسف صوتَ زفرة أخيه. مرّتْ لحظات صمتٍ أخرى. سمع بعدها صوتَ بكاءٍ خافت، نظر إليه؛ كان يبكي، ضمّه إلى صدره بذراعَيه: «لا تبكِ. أنا معك». هدأتْ نفسه قليلاً. مسحَ على وجهه، هتفَ بنيامين، وهو يتلمّسها بإصبعه: «ما هذه؟». ردّ يوسف: «ما هذه؟». أجابه بنيامين: «الشّامة السّوداء هنا تحتَ عينك... هنا على هذا الخدّ». «ماذا يُمكن أنْ تكون شامةٌ سوداء؟! شامةٌ سوداء بالطّبع؟!!». ضَحِكَا معًا. قال له: «كانتْ أمّي تقول ما

أجمَلها!!». ردّ بنيامين: «وأنا أقول ما أجملَها!!». ضمّه يوسف من جديد؛ ذراعا أخيه بَعثَتا في قلبه الطّمأنينة والأمان. عادا ينظران إلى السّماء، «ما أجمل النّجوم يا أخي!».

على الطّرف الآخر، كان العشرة قد أتمّوا اجتماعهم. «لِمَ دعوتَنا يا يهوذا؟» سأل روبيل أكبرُهم. ردّ (دان): «لكي نبحثَ أمرَ يوسف». نظرَ روبيل مستغربًا، لكنْه لم يقلْ شيئًا. أردفَ (جاد): «لقد جاوز الحدّ هذا الصّغير». أراد روبيل أنْ يقول له: «إنّكَ لستَ أكبر منه بكثير» لكنّ صوتَ (يشجر) أتاه من خلف ظهره: «ليسَ منّا مَنْ يرى نفسَه علينا». نَهَر روبيل ثلاثتَهم، وهتف بصوتٍ عالٍ: «اصمتوا أيّها الأولاد، ودعوا الكبار يتكلّمون». ثُمّ تابع: «يهوذا... شمعون...لاوي... ماذا هنالك؟!». نزلَ يهوذا مِن على مسطبته، اقتربَ من روبيل، نظر في عينَيه مُعاتِبًا: «كانَ عليكَ أنْ تدعوَنا أنتَ إلى هذا الاجتِماع». ضيّق روبيل حاجبَيه: «ألهذا الحدّ الأمر خطير؟!». «الماء ينسابُ من تحتِ أرجلنا». «لا تبدأ بالتّرّهات يا يهوذا، قلْ ما تريد دون مُواربة». «أنا أقوله دون مُواربة، ولكنْ أنتَ مَنْ يُراوغ، أنتَ مَنْ يتظاهر بأنّه لا يدري، ولا يريد أنْ يدري». تدخّل شمعون: «الفوز بقلب الأب هو هدف اجتماعنا يا روبيل». «صِغارٌ أنتم». «أنتَ الكبير فقلْ لنا ماذا نفعل؟!». «تتركونَ سخافاتكم هذه وتعودون إلى أعمالكم وطبيعتكم... هه... وإذا كنتم تبحثون عن الحبّ والاهتمام فابحثوا عنه في بئر الأردنّ...» قال عبارته الأخيرة مُستهزِئًا، نظر إليه كلّ إخوته مُستغربين، لكنّه لم يُمهلهم ليسألوه، حينَ أكمل: «هناك، في الجبّ الّذي على مبعدةٍ من نهر الأردنّ، الجبّ الّذي أعرفه وأنا صغير، اصرخوا بكلّ ما في رئتكم من هواء وفي

أفواهكم من نَفَس وفي قلوبكم مِنْ غِلّ: يا أبي لماذا تُعاملنا كأنّنا لسنا أبناءَكَ... يا أبي لماذا لا تُحبّنا مثلما تُحبّ يوسف... وابكوا إنْ شئتم، واملؤوا الجبّ بدموعكم: يا ربّ حنِّنْ قلبَ أبينا علينا.. وابعث لنا...» قاطعَه شمعون: «هل تسخر مِنّا؟!». «نعم... ماذا تُسمّي هذا... تتباكَون على الجُبّ كالأطفال... تشكون هجر الحبيب كالعُشّاق... إنّه لا يأسى على الجُبّ إلاّ النّساء أيّتها الإبل الهِيم...». وهمّ أنْ يخرج. اعترَض طريقَه يهوذا: «لن تخرج». «تمنعني!!». «وأمنعُ مَنْ هو أكبر منك إذا استدعَى الأمر حتّى نقضي في أمرنا... وسأخبرُكَ بما نويتُ». جذبه من طرفِ ردائه، وأعادَه إلى الغرفة. «الصّغار لن يتكلّموا، نحن سنأخذ الرّأي عنهم، وسأعمد إلى الحقيقة مباشرة؛ يجب أنْ نُبعد يوسف عن أبينا، لن نحتمل أكثر، وليستْ هناك طريقةٌ أخرى، لا يقلْ لي واحدٌ منكم أنْ نفعل ما يفعله يوسف حتّى يُحبّنا أبونا! أتعرفون لماذا؟ لأنّه لا يفعل شيئًا». تحمّس شمعون: «كلّنا متّفقون على إبعاده عن أبينا، بقيت الوسيلة». ردّ لاوي: «نذهب به إلى القرى البعيدة، ونتخلّص منه». «بِئس الرّأي؛ إنّه ليسَ كلبًا» صرخ يهوذا في وجهه. اقترح شمعون: «نُخفيه عن وجه أبينا». «صحيح، ولكنْ كيف؟». هتف يهوذا: «نقتله». وقفت الكلمة في وسط الغرفة بين الإخوة جميعًا للحظةٍ خاطفة، ثُمّ سقطتْ كما لو أنّها صخرة ثقيلة، هرستْ أقدامهم جميعًا، وتفتّتتْ إلى قِطَع صغيرةٍ مُحمّاة، ثُمّ ارتدّتْ فدخلتْ إلى أفواههم، وبعضُها انشطر إلى شظايا حادّة فجرحتْ خُدودَهم وأسالت الدّماء، كانتْ أثقلَ كلمةٍ يُمكن أنْ تُقال. لم يجرؤ أحدٌ أنْ يعقّب بحرفٍ واحدٍ سِواه، سِوى يهوذا الّذي راح ينظر في وجوههم يطوف عليهم واحِدًا واحِدًا: «نعم

سنقتله... انظروا إليّ، لا تُطرِقوا برؤوسكم المتعفّنة إلى الأرض، سنقتله... يعني سنقتله... لو لم يبقَ على هذا الرّأيِ سِواي فسأفعل ذلك بمفردي». جذبه روبيل من جيب قميصه بشدّة، فغَرَ فاه، كادَ أنْ يلتقم عينَه بأسنانه ثُمّ يبصقها بعيدًا: «ماذا تقول يا مُجرِم؟!». وأردف: «ليسَ إنسانًا ذلك الّذي لوّثته أفكار القتل». صرخ يهوذا بوجهه: «قابيل فعلَها قبلَنا، قتلَ أخاه، لسنا أفضلَ منه، إنْ كُنّا أبناء يعقوب، فقد كان ابنَ آدم». وشخر روبيل، كاد يُغمَى عليه هَول ما سمع، وتدخّل شمعون وخلّص يهوذا من قبضة روبيل ليُسمعه سُمًّا جديدًا: «أنا معه. لقد حصحص الأمر؛ علينا أنْ نقتله». نهض لاوي الّذي ظلّ طول الوقتِ جالِسًا يراقب الحِوار: «وأنا أيضًا معكم؛ سنقتله؛ حتّى تتخلّص من الأفعى عليكَ أنْ تقطَعَ رأسَها». ارتجّتْ الجَنَبات، وقف الصّغار، أصدروا صوتًا أقرب إلى الزّعيق: «ونحن معكم، سنقتله». كانت الأرضُ تدور بروبيل، شعر بأنّه سيسقط على الأرض: «كيفَ تقتلون نبيًّا؟!». «مَنْ أخبركَ أنّه نبيّ». «أنا أعرفُ ذلك». «نقتله من أجل الصّالح العامّ، التّضحية بواحدٍ من أجل عشرة». «ولكنّ القتل لعنة. دمه سيطاردكم. دمه سيمنعكم من النّوم. دمه سيعذّبكم». «كلاّ يا روبيل... كلاّ أيّها التّقيّ الوَرِع، نقتله، ونستغفر الله، ونقفُ أمام بابه باكين حتّى يصفحَ عنّا». «الشّيطان يتكلّم». «بل إنّه صوتُنا». «كذبتم. أسمع صوتَ الشّيطان في كلماتكم، الشّيطان الّذي امتلأتْ به روح قابيل، أشمّ خَبثَه في حديثكم. أمعقول أنّ يعقوب النّبيّ هو أبوكم؟!». «لقد أنجبكَ وأنجبَنا وأنجبَ يوسف وبنيامين، لكنّه ليسَ أبًا إلاّ ليوسف». «لن أسمحَ لكم بهذا». «لن تستطيع. الأمر صار محسومًا. أنا

أقتُلُه وعليّ دَمُه». «لماذا تُزاحِمون القدر يا إخوتي، لماذا تستعجلونه، شقيٌّ من يريد أنْ يدعوه قبل أنْ ينزل، أنْ يصنعه بيده قبل أنْ تصنعه يد الله». «نحن أقدارُنا يا أخي، وقبل أنْ يكتبَها يوسف بجنون أبي به، سنكتبها نحن له بأيدينا، إنْ لم نُعاجل القدر عاجَلَنا، لن نجلس مكتوفي الأيدي ننتظر أنْ يحلّ بنا». «لقد اعتادتْ أعينُكم على الظّلام، فأنتم لا ترون النّور ولا تُبصِرون الحقيقة. مُصابون في أرواحكم أنتم يا إخوتي، يااااه، كم تستحقّون الشّفقة لا اللّوم!!». «أنتَ يا أخي من يستحقّ الشّفقة، أنتَ لا تعيش ما نعيش، لا تحسّ بما نحسّ، لا ترى ما نرى، واحسرتاه عليكَ يا أخي!!». «يا إخوتي.. يا إخوتي... بربّ إسحاق وإبراهيم لماذا تريدُون قتلَه؟!». «حتّى نقتلَ مكانه في قلبِ أبينا، ويُصبح خالِيًا، فيملؤه أبونا بنا». «تريدُون أنْ تنالوا المحبّةَ بالقتل، والقُربَ بالإبعاد؟!! لم يحدث ذلك لأحدٍ من الخلق، أنتم بذلك تقتلون ما تبقّى لكم في قلب أبيكم إنْ كان تبقّى لكم منه فيه شيء». «الغِمدُ لا يتّسع لسيفَين». «وقلبُ أبي لنْ يتّسع للقتَلَة». «لن يدري». «سيدري». «كيف؟!». «الأنبياء قلوبهم معلّقة بالله، لن يقف الله إلى جانبكم ويتخلّى عنه». «نبيٌّ نعم، ولكنّه إنسان... بشريّ... مخلوقٌ عاديٌّ مِثلُنا لا يعرفُ الغيب... لن يدري... أمّا ابنُه فإنّا قاتِلوه لا مَحالة».

(١٠)
بربّك ما الّذي تُخبّئِه عَيْنا نبيٍّ مِثلك؟!»

انتشرتْ رائحة دم؛ الكلمات تقتل، دمها لا يُرى، لونُها لا يَصبغ، لكنّ رائحتها نفّاذة، وأثرها عميق. استمرّ الهياج حتّى الصّباح في غرفة الموت. فاتَ الإخوة أنْ يسمعوا نِداء الله إلى بيته، وانشغلوا بنداءٍ آخَر خليطٍ من كلّ شيءٍ خرجَ من مكانٍ ما في القلب لا يُمكن التّكهّن بعمق سوداويّته!!

ركضَ روبيل. كان يهربُ من أخوته. كان يهربُ من كلماتهم، من الرّعب الّذي تُسبّبه تلك الكلمات. تعثّر في الطّريق. سقط. نهضَ وهو يلهث. ركض من جديد. سقط. لهث. وقف. ركض. سقط. تأوّه. وقفَ. نفضَ رأسه. ركض. أسرع. قصدَ غرفَةَ أخوَيه. سقط رابعةً. بكى. لماذا يسقط كلّما وقف. اشتدّ بكاؤه. توقّف عن الرّكض. مدّ عنقه إلى السّماء كراهبٍ في صومعةٍ لم يبقَ له من الدُّنيا شيءٌ، وهتف: «لماذا...؟!». صعدتْ صرختُه إلى السّماء. ارتطمت بالنّجوم. بالمجرّات. تردّدتْ بينها ككرةٍ معدنيّة مُصمَتة ضخمة. ملأ صداها المشرقين. تجوّلتْ عشرة آلاف عامٍ في المدارات. أبكتْ كلّ كوكبٍ سيّار. وعادتْ أدراجها إلى صاحبها. في الطّريق اختفتْ في غيمةٍ سوداء. أبرقت الدّنيا. لمعتْ صفحة الفضاء. قصف صوتُ الرّعد. وهطلتِ الغمامة... سحّتْ

كأنّها كانتْ تُخزّن ذلك البُكاء طيلة قرون سحيقة، كان المطر شديدًا. طَغى الماء. تجمّعت السّيول. كادتْ تُغرق كلّ شيءٍ. هتفَ يعقوب في غرفته القصيّة: «لا تثريب». سكنَ قلبُ الغمامة. كفكفتْ دموعها. لفّتْ رداءَها على جسدها الغاضب. ورحلتْ بعيدًا بصمت!!

ارتجّ جسدُ روبيل. انتحب. ومضى إلى غرفةِ يوسف. على الباب توقّف قليلاً. مسح دموعه. وأطلقَ زفراته المحبوسة في صدره، وأصلحَ هِندامه، وتشجّع ليدخُل. على سريره كان النّبيّ جالِسًا. هادِئًا. وقورًا. كأنّه لم يسمع صوت الرّعد ولا قصف الرّيح ولا بكاءَ الكون. التفتَ إلى روبيل. ابتسم. اقتربَ روبيل. كان لا يزال صوت نشيجه يتردّد دون أنْ يملك القُدرة على مَنْعه. سأله يوسف برقّة وحنوّ: ماذا أصابَك يا أخي؟!». مسح خطًّا من الدّموع لم ينجح في حَبْسِه: «لا شيء... لكنْ...». «لا عليكَ يا أخي. لا تقلق». هزّتْه الكلمة (لا تقلق)، عبرتْه حالةٌ من السّكينة الغريبة. تردّدت الحروف في حجرات قلبه وروحه: «لا تقلق»، هتفَ في نفسه: «مَنْ أجدرُ بالقلقِ مِنّا يا أخي؟!». اقتربَ أكثر. رفع يوسف بصره نحوه: «اجلسْ بجانبي يا أخي». تراجَع خطوة: «لا أريد أنْ أجلسَ يا أخي. جئتُ لأقولَ لك...». وتردّد في أنْ يُتمّ. أتاه صوتُ يوسف: «لا تقلْ كلمةً يا أخي، لا أريدُ أنْ تفتح جرحًا في قلبي، أريدُ أنْ يبقَى قلبي واحةَ حُبّ لإخوتي، الكلمة المنقولة بذرةٌ شيطانيّة يا أخي، لو نقلتَها عنهم فلا أضمنُ كيفَ ستنبتُ في قلبي». هوى على قدمَيه، احتضنَه، قبّله، نظر في عينَيه، أراد أنْ يقول له: «إنّني أخافُ عليكَ». لكنّ عينَيه الجميلتَين الدّعجاوَين الواسعتَين ألجَمَتاه عن النّطق، كأنّه ينظر فيهما لأوّل مرّة، ربّت على كتفه، قبّل رأسه، وتشمّم

شعرَه الأسود الحالك، هتفَ في نفسه غيرَ مُصدّق: «إنّه ملاك، أخي ملاك، هل سيقتلون ملاكًا؟ ويلتاه يا ربّ...». «ما بكَ يا أخي؟!» سأله يوسف. «لا شيءَ، فقط شعرتُ بالشّوق إليكَ فجأةً». «أنا معك». ضاقَ صدرُ روبيل بهذه البلاهة في مواجهة الخطر، هتفَ في نفسه مغتاظًا من كلمة أخيه: «أنا معك... أنا معك... ماذا يقول هذا الفتى الّذي لا يعرف ما يجري هناك... أنا معك... ليته يعرف... لكنّه لا يريد أنْ يعرف... ومَنْ يعرف؟ ربّما يعرف ولا يريدُ أنْ يقول إنّه يعرف... وعيناه؟ عينا نبيّ؟ بلى. مَنْ يشكّ في ذلك! ولكنّ مَنْ ينظر فيهما يطمئنّ ويقلق معًا... يرتاح ويخاف في آنٍ واحد... بربّك ما الّذي تُخبّئِه عَيْنا نبيّ مثلك؟!!». وقفَ على قدَمَيه فجأة، استدار بخفّة، أعطاه ظهره، وتركه ومضى، كأنّه يهربُ من شيءٍ ما!

من ينامُ في ليل الشّك؟! مَنْ يهجعُ في ليل الجريمة؟! وهل ينام مَنْ كان في قلبه شوك، وفي عينَيه شوك، وفي جنبَيه شوك؟! والشّكّ شيطان وملاك، إنْ مضى بك إلى الجادّة الواضحة أنامَك، وإنْ سار بك إلى الهاوية أيقظك... هكذا قضى روبيل ليلته. والشّيطان يُنيم القلب بالغفلة فهكذا نام الإخوة، والمَلاك يُنيم القلب باليقين، فهكذا نام يوسف. والصّباح دليلٌ إلى كلّ شيء.

جاؤوه خاشعين، قال شمعون: «يا أبي إنّ يوسف أصابتْه غُمّة بعد موت عمّته، فهلاّ بعثتَ به معنا نُسرّي عنه». وأردفَ يهوذا: «لقد خمل قلبُه، ولا بُدّ أنْ ينشط، فابعثْه معنا يلعبْ، فإنّ القلوب تحتاج إلى راحةٍ». نظر يعقوب في وجوههم، عشرة وجوه، عشرون عينًا، كلّها تتوسّل

إليه، لم يقلْ شيئًا، لكنّ عينَيه قالتْ كلّ شيء. كادتْ نظراته تهزّهم جميعًا، لولا أنْ تدارك لاوي الأمر: «يلعبُ حينًا، ويعمل حينًا، ألا تريدُ لأخينا أنْ يكون رجلاً مثلَنا؟». نظرَ في عيونهم من جديد، حطّمتْ عيناه آخر قلعةٍ من آمالهم، هل كان هذا النّبيّ يدري ما يُبيّتونه؟ هل كان يعرفُ ما تُكنّه صدورُهم؟! تشجّع يهوذا لكي يُعيد ما انهدم بسبب نظرات أبيه: «لن يمسّه سوء. سنحفظه كلّنا، سنقوم نحن العشرة على خِدمته». «ولكنّني أخاف...» وصمت، عاجله يهوذا: «تخافُ عليه ونحن عُصبة أشدّاء خبروا الحياة وعجموا عِيدانَها... قُلْ أيّ شيءٍ غيرَ أنْ تخافَ عليه وهو معَنا». ردّ يعقوب بسرعة: «أخافُ أنْ يأكله الذّئب!!». ضحكَ يهوذا ضحكة خاطفة. ثُمّ رشقَ ضَحكاتٍ متتابعاتٍ في الهَواء، تبعه لاوي، ثُمّ شمعون، ثُمّ انفجر الجميع بالضّحك. ركز يهوذا يدَيه حول وسطه: «الذّئب يا أبي... هممم... الذّئب... قلتَ لي يا أبي الذّئب... تعالَ يا دان». اقتربَ دان من يهوذا: «أرأيتَ أصغرنا نحن العشرة دان هذا، إنّه وحده قادرٌ أن يفتكَ بعشرةِ ذئابٍ مجتمعين... لكنْ يا أبي...» وصمتَ قليلاً قبل أنْ يُتمّ: «مِمّ تخافُ يا أبي... قُلْ يا أبي مِمّ تخافُ على ولدٍ صغيرٍ لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره بين يدي إخوته العشرة ذوي العدد والقُوّة... مِمّ تخافُ يا أبي صارِخنا... أرى في عينيكَ كلامًا نائمًا... أيقِظْه... قُلْه... لا تُؤجّلْه... أنتَ أكثر مَنْ يعرف أنّ تأجيل الكلام مُتعب... قُلْ يا أبي... مِمّ تخاف... الهوامّ... الدّواب... السّباع... الأفاعي... كلّ هذه أكاذيب... أوهام تختلقُها... أنتَ تخافُ مِنْ شيءٍ آخَر... لماذا لا تقوله وتُريحُنا وتُريح نفسَك... قُلْ...» ثُمّ صرخ: «مِمّ تخافُ أيّها العَجوز...؟!». ركضَ نحوه روبيل، شدّه من

ذراعه، وأطبقَ بيده على فمه: «توقّف يا يهوذا... ليسَ بهذه الطّريقة نخاطب أبانا...». كان يعقوب لا يزال صامتًا. لم يهتزّ. فقط طرف جفنه، وانزلقتْ تفّاحة آدم عميقًا وهو يبلع ريقَه. سأل روبيل: «وأنتَ يا روبيل...؟». تركَ روبيل يهوذا: «لبيكَ يا أبي». «ما تقول فيما يريدُه إخوتك؟». «أنا لا أعرفُ ما أقول يا أبي... إخوتي لديهم أسبابُهم... أنا واحدٌ من عشرة... كلّهم مُجمِعون على ذلك... ماذا يبقَى من الرّأي حينَ يكون الإجماع!!». «انظُرْ في عينَيّ يا روبيل...» اخترقتْه نَظَراتُ أبيه. أشاحَ بوجهه بعيدًا. تراجع. وقفَ على طرف الدّائرة الّتي يُشكّلونها، وأعطاهم ظهره، وانعقدَ لسانُه، ولاذ بالصّمت. تسلّم شمعون دفّة الحِوار من جديد: «عيبٌ على فتًى مثل يوسف أنْ يظلّ جالِسًا هنا مع النّساء». أردفَ لاوي: «للرّجال الغاب وللأنثى العرين». هتفَ يشجر: «سيتعلّم ما تعلّمْناه. القاعِدون لا يتعلّمون شيئًا». ردّد دان: «قد لا أكبره كثيرًا في العمر، ولكنْ ها أنذا؛ أجوبُ القِفار، وأضربُ أكباد الإبل، وأتتبّع مساقطَ الغيثِ، وأزرع، وأحصُد، وأتعبُ، وأرتاحُ، وأغدو، وأروح... ولستُ استثناءً من بين إخوتي!!». قال جاد: «يدُ الله مع الجماعة». صاح نفتالي: «وللقاصية الذّئب». ارتجف الهواء. هدّأه زيالون: «له ما لنا وزيادة». أمّن على قوله آشر: «زيادتُه عطفُ الكبير منّا على الصّغير وحمايته». رجّع لاوي: «زيادتُه حُبّك وحُبّنا». صرخَ يهوذا بأعلى صوته وعروق رقبته تبرز من انشقاق صرخته: «نحن عُصبة... نحنُ عصبة». كانتْ أصواتُهم تُحاصِره، تُضيّق عليه الخِناق، تُلجِئه إلى الزّاوية. كان يريدُ أنْ يصرخ مثلهم، أنْ يصيح كما يصيحون بأعلى صوتِه: «لا». حينَ شقّ يوسف صفوف إخوته، عابِرًا إيّاهم واحِدًا

واحِدًا حتّى صار بين يدَي أبيه: «أنا أريدُ أنْ أذهبَ معهم يا أبي». شهق يعقوب. تركَ يهوذا يصرخ والتفتَ إلى يوسف. كانتْ عيناه تقولان لأبيه: «نعم». أُسقِطَ في يده. قفز قلبُ يهوذا من الفرحة. زمّ يعقوب شفتَيه، وارتفعَ خدّاه، وضاقتْ عيناه، حبسَ بتضييق عينَيه انسكاب دموعه: «ولكنْ...» لكنّ اختناق نَفَسِه حَجَّرَ الكلماتِ في فمه. أمسكَ يوسفُ بيد أبيه، قبّلها، ووضعها فوقَ رأسه: ثُمّ وقفَ على أصابع قدمَيه، وأدنَى جِذعه من أبيه، فمال أبوه بوجهه إليه، فهمسَ في أذنه: «لن يحدثَ إلاّ ما كان في اللّوح. لا أنا ولا أنتَ ولا إخوتي نستطيع أنْ نوقفَ ما يحدث. الاستسلام لله انتصار. الخضوع له عِزّة. التذلّل بين يدَيه شرف. والقَبول بقَدَره إيمانٌ». ردّ عليه همسَه بهمْسٍ مثله: «مَنْ علّمكَ هذا؟!». «الّذي علّمَك». قطَع يهوذا همسَ الحبيبَين: «هيه يا أبي... ها أنتَ قد سمعتَ... إنّه هو الّذي يرغبُ في أنْ نأخذه معنا». أجابه يعقوب وهو يُهدّئهم بيدَيه، ويبلع شوكَ القلق: «لا بأس.. لا بأس... ولكنْ هل تحفظونه؟!». ردّوا بصوتٍ واحدٍ كما لو كان نشيدًا جماعيًّا: «نعم. نحفظهُ بقوّاتنا. ونفديه بأرواحِنا». «وهل تمنعونه؟». «نمنعه الطّيور والهوامّ والوحوش والأفاعي». «والذّئاب؟!». «والذّئاب». «هو لكم، غصنٌ من شجرةٍ مُثمرةٍ فإيّاكم أنْ تمتدّ إليه يدٌ بسوء». هاجُوا. تحرّكوا يُجهّزون أمتعتهم. ثار غُبار الغيب من خلفهم. مرّتْ لحظاتٌ لا تنتمي لزمان، وليسَ لها مكان، ولا أحدَ يملك لها تعريفًا. كان فيها يعقوب واجِمًا. وروبيل ذاهِلاً. ويوسف باسِمًا!!

ظلّ طَوال الطّريق المُؤدّية إلى البادية ينظر إليه، يمسح بيدَيه على شعره، ينحني ليقبّله على جبينه. يُمازِحه. يضحك في وجهه ويعدّ

ضحكاته كأنّه يريدُ أنْ يعيشَ معها فيما لو حدثَ أيّ شيءٍ. يُمسِك بيده دون سِواه. ويتأخّر عنهم كلّما تقدّموا كأنّما يُريد أنْ يستبقِيه، لكنْ لا يدري كيف. أمّا يوسف فلم تُفارق الابتسامة المعهودة شفتَيه، وكان مبتهِجًا كأنّ الطّريق الّتي بدأتْ للتّوّ، وراحَ يمشيها هو وأبوه وإخوته، كأنّ هذه الطّريق ستوصله إلى ما يريد. كان ينظر في الأفق، كأنّما يرى ما يريد.

في نقطة العودة، نقطة اللاتراجع عن المُضيّ. انتحى يعقوب بروبيل جانِبًا، حتّى إذا صارَ في مأمنٍ من أنْ يسمعه الآخرون، قال له: «يا روبيل، إنّه صغير، وتعلم يا بُنيّ شَفَقتي عليه، ومحبّتي له، وأنتَ أكبر إخوتك، وأرى فيكَ ما لا أرى فيهم، يا بُنيّ إنّ قلبي لا يُطاوعني في تسليمه لكم، ولكنْ ما أفعل إنْ أفلتَ الأمر من يدي، وكان السّالك في الظّلمة لا يُبصرُ نورًا، يا بُنيّ، إنّه أخوكَ، رَحِمُك، وإنّه وصيّتي لك؛ إنْ جاعَ فأطْعِمْه، وإنْ عَطِشَ فَاسْقِه، وإنْ أعيا فاحْمِلْه، ثُمّ عَجّلْ بِرَدِّه إليّ».

(١١)
القتلُ ليس له توبة

«ويلٌ للمُبكّرين صباحًا يتبعون المُسكِر، للمُتأخّرين في العتمة تُلهِبهم الخمر». صدحَ صوتٌ ما وهم يغذّون السّير. ربّما لا أحدَ يدري إلى أين تأخذهم الدّروب. يمشون بخُطًا حثيثةٍ إلى لا أين، وحسبُهم أنّهم يمشون.

حملَ يهوذا يوسف بين كتفَيه، قال له: «تمتّعْ ما دُمتَ في دارك». كانتْ عينا أبيهم تتبعهم من بعيد، علَوا كثيبًا أحمر، ثُمّ هبطوا، فهبطَ قلبُ يعقوبَ معهم. ثُمّ اختفَوا عن ناظِرَيه. فلمّا تأكّد يهوذا أنّ عيون أبيهم لا تراهم، أمسكَ يوسفَ بيدَيه فرماه من فوقِ أكتافه إلى الأرض، فارتطمَ بها بقوّة، وندّتْ منه صرخَةٌ عالية، وتلفّتَ حوله تَلفُّتَ الظّبي أصابه سهمٌ من حيثُ لا يدري، وتأوّه من الألم تأوّه اليتيم لم يجد مَنْ يتعهّده، ثُمّ هتفَ بيهوذا وهو يئنّ: «ما حملكَ يا أخي على ما صنعتَ؟! أما كنتَ قبل قليلٍ بي رؤوفًا، وعليّ شَفوقًا؟!». ضحك يهوذا متشفّيًا: «أوتظنّ أنّني حملتُكَ حُبًّا ورحمة؟! كلاّ أيّها المغفّل. إنّما فعلتُ ذلك لأنّ عينَي أبينا لم تفارقْنا، وشكّه ظلّ يتردّد في حوصلة عنقه حتّى كاد أنْ يُعيدَنا، فحملتُكَ حتّى يطمئنّ قلبُه، ويبردَ شَكّه، أما وقد غاب، فما لكَ من حامٍ يحميك، ولا رادٌّ يدفع عنكَ مِمّا ننوي شيئًا». ثُمّ ركله على بطنه حتّى كادَ الدّم ينفر من فمه، فصرخَ يوسفُ وهو يربط يدَيه على بطنه من

الوجع، ثُمّ عاجلَ بالقِيامِ فلجأ إلى لاوي يستغيثُ به، فصفعه صفعةً كادتْ تذهبُ بعينِه، فأخذه الدَّهَش، فلمْ يُفِق منها إلاّ على صفعةٍ ثانية، فغطّى وجهه بيدَيه، وصرخَ من الأذى: «إنّي أنا أخوكم. لماذا تفعلون بي ذلك؟ هل أسأتُ إلى أحدٍ منكم؟ هل تحدّثْتُ عنه بسوء؟». ثُمّ لجأ إلى شمعون: «يا شمعون، إنّني بكَ أستجير». فردّ عليه: «استجرْ بالأحد عشر كوكبًا الّتي رأيتَها في منامِك». ثُمّ وكزه بجُمعِ يده على صدره حتّى كاد ينقطع نَفَسُه، فَعَلِمَ أنّ السّبب هو الحُلم، فودّ في تلك اللّحظة أنّه لم يحلم به أبدًا، أو أنّه لم يُحدّثْ به إنسيًّا، ولا حتّى نَفْسَه الّتي بينَ جنبَيه، ثُمّ لجأ إلى مَنْ هم قريبون في السّنّ مثله، فلمْ يجدْ عندهم إلاّ الصّفْع واللَّطْمَ والشَّتْم، ثُمّ حانتْ منه التِفاتةٌ إلى أخيه الأكبر روبيل الّذي كان ينتحي في الخلفِ بعيدًا عنهم كأنّه لا يرى ولا يسمع، وليسَ جُزءًا من إخوته، فاستغاثَ به، وحضَنَه، ولفّ ذراعَيه حول وسطَ أخيه، وهو يتوسّل: «يا روبيل، إنّه لم يبقَ لي سِواك، وإنّ إخوتي لا أدري لِمَ يفعلون بي ما يفعلون. وإنّك أكبرُهم، أنتَ الخليفةُ من بَعدِ والدي، وأنتَ المسؤول عنّي. أجرْني من العذاب الّذي أنا فيه». وأجهشَ بالبُكاء. فدفَعه روبيل عنه، وأشاح بوجهه، فعلم أنّ الأمر قد دُبّر بليل، وأنّهم قد أجمعوا عليه، فأيقنَ بالعذاب الأليم، لكنّه أرادَ أنْ يحاول محاولةً أخيرة، فهوى على يدِ أخيه الأكبر يقبّلها: «يا أخي. ارحمْ ضعفي وعَجْزِي وحداثةَ سِنّي، وارحمْ قلبَ أبيكَ يعقوب، فإنّكَ أعرفُ إخوتي به، وإنّه لو عَلِمَ ما تفعلون بي لأصابه كربٌ عظيم». فحنّ له قلبُ روبيل، ورَقّ له، حتّى بكى، ثُمّ هزّ كتفَيه: «يا يوسف لِمَ قصصتَ الرّؤيا. أما كنت في غنًى عنها وعَنّا؟!». «أترى أنّ كل هذا لذاك؟». «يا أخي لو حدّثْتَ بها الجُبّ لكان

أفضل». «والله يا أخي ما حدّثْتُ بها إلاّ أبي. وما أدري كيفَ عرفتُم بها؟! أما وقد وقع ما وقع، وعرفتُم بها، فها أنذا أضع نفسي بين يدَيك، ولا حول لي ولا قُوّة». ثُمّ احتضنَ أخاه من جديد. وبكَيَا معًا. أسرعَ إليهما يهوذا، جذبَ يوسف من بين أحضانِ أخيه جذبةً شقّتْ جزءًا من أعلى قميصه، ثُمّ شَدّه من شَعره، وصفعه على وجهه: «أتدري ما نفعل بك؟!». «لا، يا أخي. ما يفعل الأخُ بأخيه؟!». «أنتَ لستَ أخي. أخي لا يُفرّق بيننا وبينَ أبينا. ما أنتَ إلاّ عدوّ. حتّى أُمُّكَ ليستْ أمّنا؛ ففيمَ تريدُنا أنْ نَعُدَّكَ لنا أخًا؟!». ثُمّ هَوى بقبضة يده على رأسه حتّى طوّحتْه الضربة ووقع على الأرض، فانحنى يهوذا فوقه: «ادعُ الشّمسَ لكي تحميكَ منّا... أُدعُ القمر لكي يأخذكَ من بين أيدينا... ها أنتَ أيّها الصّغير المُدلَّل، الجميل المُهذَب، تُمرّغ في التّراب، وتُداس بالأقدام... ليتَ غرورَك وقفَ عند حَدّ أنْ ترى نفسكَ أفضلَ مِنّا فحسب، بل رأيتَ نفسكَ أفضل من أبينا يعقوب ومن أمّنا لِيا، أليسَ في هذا تعجرُفًا لا يحتمله أحدٌ... أين هذه الكواكب السّيّارة، والنّجوم الدّوّارة لكي تسجد لك...؟!». ثُمّ صفعه على وجهه. وركضَ لاوي يُريد أنْ يدوسَه بأقدامِه، فاستغاثَ من جديدٍ بروبيل: «يا روبيل، بحقِّ أبيك احمِني من إخوتي.. بحقّ إله إبراهيم وإسحق ويعقوب رُدّ عنّي الأذى...». واستفاق روبيل من ذهوله، وسرتْ فيه قُوّة عجيبة، فركضَ نحو لاوي قبل أنْ يصل إلى يوسف، واحتواه، ثُمّ أبعدَه عنه، وصرخَ فيه: «أيّ شجاعةٍ يا ذا الصّدر العريض في أنْ تُؤذِيَ طفلاً لا يصل طُوله إلى وسطك... أهكذا تبين عن شجاعتك وقوّتك أيّها الأخرق؟!». ثُمّ أنهضَ يوسف، وقبّله، ومنع دموعه من الانهيار، ومسح الغُبار عن

خَدَّيه الزَّهراوَين، ونفخَ التّراب عن شَعره الأسود، ونفضَ ما علق بقميصه، وربّتَ على كتفَيه بحنوّ، وضمّه إليه طويلاً قبل أنْ يقول: «والله لن يَصِلوا إليكَ ما دُمتُ حيًّا». فلاذ يوسف بروبيل وهو ينشج. وتدخّل يهوذا: «تُقسِمُ كاذبًا يا أخي، والله إنّا قاتِلوه اليومَ أو غدًا لا محالة». نظر روبيل في عيونِ إخوته كلّهم، كان يوسف لا يزال يحتمي به وهو يلفّ ذراعَيه حول وسط أخيه: «اسمعوا يا أخوتي. كلّ شيءٍ إلاّ القَتْل، لا جَزاء للقتل إلاّ النّار، القتلُ ليس له توبة». فهَزِئ شمعون بها: «أتمنعنا من أنْ نقتله؟!». «نعم». «إنّما أنتَ واحِدٌ مِنّا». «لكنّني لستُ شريككم في القَتْل». «لقد أجمَعْنا على ذلك أمرَنا. وسينالُكَ نصيبُكَ من دمه». «لم أوافقْ على قَتْله». «كذبْتَ. بل وافقتَ». «بل سكتُّ في تلك اللّيلة المشؤومة». «السُّكوت موافقة صامتة، فلا تتهرّبْ». «لن تصلوا إليه وأنا على قيد الحياة» قال وهو يحتضنُ أخاه، تدخّل لاوي: «ما تريدُ بمنعكَ إيّانا أنْ نقتله إلاّ أنْ تكون لكَ الحُظوةُ عند أبينا، وتنال من محبّته ما لا ننال، ويخلو لكَ الجوّ أنتَ ويوسف». «كلاّ يا لاوي. أنا أكبركم، ليسَ من المعقول أنْ نبحثَ عن اهتمام أبينا بنا كأنّنا صِغار. إنّكم الآن تُباعِدون بين قلبِ أبيكم وقلوبكم كما بين المَشرِقَين فاعْقِلوا، رُدّوا يوسف إلى أبيه وأنا أضمنُ لكم ألاّ يُحدّثَه بشيءٍ ممّا جرى له، كأنّ شيئًا لم يكنْ». تدخل يهوذا لينزعه: «لن نتراجع عن قَتْلِه ولو انطبقت السّماء على الأرض. ما عزمنا عليه فكّرْنا فيه طَوال أشهر، لن نهدم ما بنيناه في لحظةِ ضعفٍ عاطفيّ؛ نحن رجال». آوى روبيل أخاه يوسف وحماه وراء ظَهرِه: «رجال؟! تقول لي إنّ الرّجال لا يقعون في هذا الضّعف العاطفيّ... هه... ثُمّ تستميتون في الفوز بحُبّ أبيكم، وتحسدون

يوسف على هذا الحُبّ.. أنتَ عارٌ على إخوتنا يا يهوذا... وأنا لن أدعكم تقتلونه». تراجعَ يهوذا خطوةً إلى الوراء، تصنّع الهدوء: «بسيطة. سهلةٌ يا روبيل؛ سنقتُلُكما معًا».

جمع يهوذا إخوته التّسعة: «الصّعب قتلُ روبيل. قتلُ يوسف أهونُ من شُربِ كأسِ ماءٍ مركوزٍ على خِوان». هتفَ شمعون: «لكنّه أكبرُنا؛ هل أنتَ جادٌّ في قَتْلِه؟!». «لم يعدْ أكبرَنا، ليسَ مِنّا مَنْ يُخالِفُ إجماعَنا». «فكيفَ نجرؤ على قَتْلِه؟!». «كما جَرُؤ على إفسادِ خُطّتنا». «ولكنْ...» أرادَ يهوذا أنْ يُنهي كلّ شيء، أنْ ينتقل إلى ما يريد بخطواتٍ واثقةٍ وسريعة: «يا لاوي، نحن الثّمانية نُوثِقه بالحبال الّتي معنا، وأنتَ تضربُ عنقه بالسّيف...». «ويوسف؟!». «لا تقلق بشأنه، سيموت إذا رأى عنق أخيه الكبير تتدحرج أمامه... لا تقلقْ؛ لنا معه شأنٌ آخر». اقتربَ يهوذا من روبيل وخلفه تحشّد الباقون، تحرّك يوسف، جذب أخاه الأكبر من طرفِ كُمّه: «لا أُصدّق ما أسمع، لكنْ يا أخي، لا تقتلْ نفسَك من أجلي... دمي فداؤكم، فوزّعوه بينكم». ثُمّ تخلّى عن حِمى أخيه روبيل، وواجه إخوته الباقين، وهتف بأخيه يهوذا: «يا يهوذا... أنا يوسف... هذا عنقي... لن يُقتَل أخٌ لنا بسببي... هذا دمي لكم... هذا أنا بين أيديكم... افعلوا بأخيكم ما أجمعتُم عليه... لن أُفسِد اتّفاقكم يا إخوتي... ولكنّني لن أكون ذريعةً من أجل سفكِ دمِ روبيل... روبيل لا ذنبَ له...». عَوَى ذئبٌ من بعيد. اكفهرّت السّماء. أعتمَ الأفق. رجل الدّماء يكرهه الرّبّ. صوتُ القتيل نشيدُ الشّيطان. سوادٌ في وضحِ النّهار. بكى شيءٌ ما في الصّخور والجبال المُحيطة. كلّ شيءٍ ارتجّ إلاّ قلوبُ هؤلاء التّسعة. استمرّ ذئبٌ في العُواء. كان يراقب المشهدَ من

علٍ، يقف على هضبةٍ مُطلّة على اجتماع الإخوة. لم يعوِ ذئبٌ في النّهار كما عوى. هل تعوي الذّئابُ في النّهار؟! لم يكنْ يعوي، كان ينوح!!

«قِفوا... قِفوا...» هتفَ روبيل. ردّ يهوذا: «ماذا تريدُ أنْ تقول؟». «إنْ قتلتموني فماذا ستقولون لأبيكم؟». أجابه يهوذا كأنّه كان قد أعدّ الإجابة من قبل: «القبائل الغازِية في الطّريق كثيرة. قُطّاع الطّرق منتشِرون. أرادوا أنْ ينهبوا ما لدينا من مال، فدافَعْنا عن أنفسنا، وفقدْنا بعد قتالٍ عنيفٍ اثنين؛ الأكبر والأصغر» ثُمّ قهقه بصوتٍ عالٍ. وقهقهَ إخوته من بَعده. استنفر روبيل المودّة في أقرب إخوته إليه: «يا شمعون؛ أهُنتُ عليكَ إلى هذا الحَدّ؟!». سارعَ يهوذا: «تتراجَع بسرعةٍ يا أخي... مَن العاطفيّ فينا يا أخي...؟ جَبانٌ... هه... جَبان... الرّوح غالية». ردّ شمعون: «اسكتْ يا يهوذا...» ثُمّ وجّه كلامه لروبيل: «تنحَّ عن الصّغير وينتهي الأمر». «يا إخوتي لن أكون شاهِدًا على قتلِ نبيّ... ويلَنا من العذاب... مَنْ يرحمنا من القَصاص في الآخرة إنْ لم يكنْ في الأولى... ولكنّني...». «ولكنّكَ ماذا؟!». «لديّ خُطّة لَمَعَتْ في ذهني». «تكلّمْ يا روبيل» هتفَ يهوذا وهو ينظر إلى صفحة سيفه الّذي أخرجه من الغِمد: «أتعرفون الجُبّ؟». سأل لاوي: «الجُبّ؟!». «ألم يتحدّث يهوذا عن القوافل قبل قليل... إنّه على طريق القوافل...». «وأينَ يقع هذا الجُبّ؟!». «في الأردنّ». «وما علاقةُ قَتْلِنا ليوسف بالجُبّ وبالقوافل وبالأردنّ؟!». «سأشرحُ لكم... اقتربوا». أغمدَ يهوذا سيفَه، أوكلَ مَهمّةَ مراقبة يوسف لأخيه لاوي، واحتشد البقيّة ينظرون ما يصنعه روبيل، رسم لهم خارطةً على الرّمل: «هنا البِئر، يقع على مسافةٍ ليستْ

بعيدةً ولا قريبة، لكنّه من هنا، حيثُ تمرّ القوافل... وهنا نهر الأردنَ المُقدّس. الّذي أعطَى الحياة لهذه الأرض الميّتة قبل الوجود، بعيدٌ هو الآخَر، ولكنّنا لن نصل إليه، ليسَ هدفًا لنا. ونحن؟ سنسير حتّى نصل البئر... نحن في الصّيف... قد يكون فارِغًا أو قد يكون فيه ماءٌ قليلٌ... لكنّ القوافل مهما احتاطتْ للماء فلا بُدّ لكثرة عددها من أنْ ينفد منها الماء فتنحدر إليه لتسقي... فماذا سنفعل حينَ نصل إلى البئر...؟».

قاطَعَه يهوذا: «البِئر مهجورةٌ وَرَدْتُ عليها أنا وأبي قبل عقدَين من الزّمان، ولم يكنْ فيها ماء، وبالتّالي لن يمرّ بها أحدٌ». ردّ روبيل: «لكنّكَ قلتَ قبل عقدَين، فمن يدري كيفَ صارت اليوم؟! لعلّها امتلأتْ و...». فقاطعه يهوذا، وهو يقضم قشرةً يلوكها ثُمّ يقذفها من فمه: «نعم امتلأتْ، ولكنْ بالعقارب والأفاعي... إنّها مهجورة ألا تسمعني؟!». «يا أخي لنفترضْ أنّها كما تقول، قد يُحقّق لكَ ذلك ما تريد». «وماذا أريد؟». «موته؟!». «إذًا أكملْ». «سنُلقِي يوسف في البِئر، فإذا أصابتْه الهَوامّ ولدغَتْه الأفاعي فقد تخلّصْتُمْ منه كما أردتُم واسترحتُم من دمه، وغسلتُم أيديكم منه، وإن انفلتَ على أيدي سَيّارةٍ يذهبون به إلى أرضٍ بعيدةٍ خارج فلسطينَ كلّها فهو المراد أيضًا، يخلو لكم وجه أبيكم كما كُنتم تُردّدون». سادتْ لحظةُ صمتٍ طويلة. أطرقَ يوسفُ في الأرض. قالتْ له الذّرّات: «لم يقلْ أخوكَ روبيل شيئًا ممّا قالَه من رأيِه؛ ما هو كائنٌ لا يكون إلاّ من السّماء». فابتسم. هتفَ لاوي مُندهِشًا من خلفهم وهو يقلّب كفَّيه أمام ناظرَيه ويضحك: «نعم لن تتلطّخ هذه الأيدي بالدّماء». هتفَ يهوذا: «ما رأيكَ يا شمعون؟!». «نِعْمَ الرّأي». ردّ يهوذا:

«لن أخالفَكم، وإنْ كنتُ أرى أنّ في الأمر خدعة، أنّ فيه شيئًا لم أفهمْه، شيئًا يُعجبني ولا يُعجبني. لكنْ...» وتوقّف، وصَعّد نظره في وجوه إخوته الباقين: «هل توافقون على هذا الرّأي؟». فهتفوا: «نعم». فقال من بعدهم: «نعم». وساروا. وسارَ الذِّئبُ معهم.

(١٢)
الأجملُ حتْف

اشتدّ لهيبُ الشّمس. استعرَ الجوّ. حميتْ حجارة الطّريق. والتهبَ كلّ شيء. العَطَش سرابٌ واقفٌ بين الموتِ والحياة. «هل نَفِدَ الماءُ يا شمعون؟» سأل يهوذا. «بقي منه القليل». «فلماذا أجبرنا روبيل على أنْ نتّبع خُطّته، وخيطُ الحياة يشحّ؟!». «سنجدُ ماءً من الرّعاة في الطّريق مِمّن نعرفهم ويعرفوننا». «في الصّحراء لا يعرفُ أحدٌ أحدًا». «في الصّحراء حتّى الذّئابُ تعرفنا». «كم قربةً معنا؟». «ثلاثٌ». «هل هي كافية؟». «تريدُ أنْ تشرب؟». «هاتِ الماء». نظر يوسفُ في الماء رقراقًا ينسكبُ من فم القربة صافِيًا إلى فَمِ أخيه يهوذا، ودّ لو يسأله قليلاً منه، فإنّه هو الآخر بلغ به العَطَشُ ما بلغ. كَرْكَرة الماء موسيقى. نزوله على الحلق المُتيبّس من العطش رِيُّ الأرض الجديبة بعد المطر، انزلاقه في الجسد خُضرةُ الرّوض ونضارة العشب الطّريّ. همس في أذنِ روبيل: «أنا عطشان يا أخي». هتفَ روبيل: «القِربة يا يهوذا». أجابه يهوذا: «لمن تريدُ الماء؟ إنْ كان ليوسف فلا». «إنّه عطشان يا يهوذا وهو صغير لا يَحتمل». «إنْ كان سيموت فلماذا يشرب!!». وساروا في الدّروب إلى الغاية.

علا لَغَطُ الصّغار: «أينَ هذه البِئر يا إخوتنا؟». «اسكتوا أيّها المُنعّمون. انشغلوا بأنفسكم ولا تسألوا شيئًا». «نريدُ أنْ نرتاح».

«سنرتاح عند البِئر، ونلعبَ، ونلهو، ونستبق، ونأكل، ونشرب، ونغنّي، ونسمر، ثُمّ نعود». «نُغنّي! ماذا سنُغنّي؟!». «عندي أغنية، خبّأتُها هذا اليوم». «هل تُغنّيها لنا؟». «ما زالت الطّريق أمامنا. هناك سنغنّيها معًا». «من أجلنا؟!». «من أجلكم». «أين السّهام؟ هل معك منها كِفاية يا يَشجر؟». «نعم يا يهوذا». «وأنتَ يا دان». «عشرون سهمًا في كنانتي». «والسّيوف العشرة». «في أغمادها». «وسيفُ روبيل؟». «خلفَ ظهره». «ماذا يفعل السّيف في الظّهر؟». «خَشَبةٌ في النِّير».

كانت الشّمسُ قد بدأتْ تهوي عن قبّة السّماء. بدا أنّ الحرارة تنسحبُ إلى باطن الأرض، وشيءٌ من نسمات الهواء راح يرقص. وصوتُ نشيجٍ خافتٍ راح يُسمَع. مَنْ يبكي في هذا الوقت؟ البكاء للّيل. مال يهوذا بعنقه إلى شمعون: «أبوكَ يعقوب كفانا الرأي». لم يفهم شمعون، فأردفَ يهوذا: «ما قاله خيرٌ مِمّا قاله روبيل». «لم أفهمْ ما تعني!!». «أعني عِلّة الذّئب». «وما علّته؟!». انزعج يهوذا: «إنّكَ لستَ عريضَ الصّدر يا شمعون فحسبُ، بل عريضَ القَفا أيضًا. حينَ لا يكون بيننا وبين البِئر إلاّ مسافةَ رَمْي الحصى سأخبرك. والآن تُبْ إلى نفسك».

قال يعقوب لِليا: «لقد تأخّروا». ردّتْ عليه: «لم ينتصف النّهار إلاّ قبل قليل». «لا شيءَ في صدري في مكانه». «اهدأْ». «كيفَ لي أنْ أهدَأ ويوسُف معهم». «هل هو مع الذّئاب!! إنّه مع إخوته». «إنّهم ينشغلون بها في قلوبهم عنه». «إنّهم عشرة». «لم يكونوا له مُذ قَدِمَ من عند عمّته بعد أنْ ماتت. لقد كُنت أخافُ عليه منهم وهو بين يدَيّ، فكيفَ وقد

فارقني». «هل تشكّ في أبنائَكَ يا يعقوب!! هل تعي ما تقول يا رجل؟! إنّهم إخوة». «ليسوا على قلبِ رجلٍ واحد». «الإِخْوَةُ صَفّ». «الإِخْوَةُ نَزْفٌ». «كَلاّ... يَنْهَدُّ جِدارُ البَيْتِ ولا يَنْهَدُّ جِدارُ الإِخْوَةِ... كُلُّ جِدارٍ غَيْرُ جِدارِ الإخْوَةِ زَيْفٌ». «يَنْهَدُّ على أَضْعَفِهِمْ. الأَجْمَلُ ضَعْفٌ. الأَجْمَلُ مَحْسُودٌ مُذْ خَلَقَ اللهُ الحُسْنَ عَلَى صُورَتِهِ... الأَجْمَلُ لا يَحْمِلُ سَيْفٌ... والأجملُ حَتْفٌ».... «سأُعدّ لكَ الطّعام لا بُدّ أنّكَ جائع». وقامتْ تُداري ذهولها مِمّا سمعتْ.

من بعيدٍ تراءى رُجْمٌ قديم، لكأنّ إبراهيم قد مرّ به وهو في طريقه من العراق إلى فلسطين. لكأنّ حشدًا من الأنبياء أقاموا عنده يذكرون الله فيها خلا من القرون الأولى، لكأنّ حجارته ما فتئتْ منذُ أنْ نُقِلتْ إلى هذا المكان تُسبّح الله حتّى أشرقتْ بالذِّكْر، لكأنّ أيدي القِدّيسين مسّتْ حجارته فصارتْ تعبقُ بالطّيبِ في النّهار، وتُشعّ بالنّور في اللّيل. اقتربوا أكثر، ها هو لفيف الحجارة في الرّجم يتبدّى أكثر. الحجارة الرّماديّة لا تُشبه تراب الأرض الّتي قامتْ فوقَها. كانت الأرض حمراء، لكأنّ الحجارة قدمتْ من مكانٍ آخَر بعيدٍ، قصيٍّ في الزمان والمكان، رماديّة يشوبها بعضُ البياض، كأنّها تلك الّتي جلسَ عليها الجدّ إبراهيم عندما أُلقي في النّار، لطول ما أصابها من ذلك الشّواظ قبل أنْ تبرد فتكون على ما هي عليه اليوم. أو كأنّ الذّئب الرّماديّ الّذي سقاه العابدُ النّاسك من مائها، رشق ما تبقّى من ذلك الماء على تلك الحجارة فحالتْ إلى هذا اللّون الّذي لا تُخطِئه العين، والّذي يلفتُ انتباه كلّ واحدٍ يمرّ من هنا!

«ها نحن». هتف لاوي. «الخُطّة؟» سأل شمعون. «لا خُطّة؛ نقذفه

في البِئر. البئر تبتلع كلّ ما يُلقَى في جوفها، لولا الماء لكانت النّار». «لنتأكّد إنْ كان فيها ماء. نشرب». «هل فيها دلو؟». «لا. إنّها قديمة مهجورة، لكأنّه لم يمرّ بها أحدٌ منذُ قرون». «كنانتي تصلح دلوًا» ردّ دان. «والحبال الّتي معك يا نفتالي». «ها هي». «هاتِ». وأدلَى يهوذا الكنانة مع الحبال، هوى الدّلو، شدّ الحبل الّذي في اليد، حَزّ في اليد الخَشِنة، لحظاتٍ بدا أنّها سحيقةٌ مثل قاع الخريف، لحظاتٍ من الهويّ الصّامت السّاكن، والجميع يترقّب، ثُمّ... صوتُ ارتطامٍ عالٍ. «إنّ الماء بعيد. والبِئر تبدو خالية». «اسحبْ لنرَ». شدّ الحبل، ارتقى دلو الكنانة، حتّى إذا صار في فم البئر عاينَه يهوذا، فهتف: «إنّه طينٌ وماء». ردّ شمعون: «جرّبْ مرّة أخرى برمي الدّلو في زاويةٍ أخرى». «سأفعل». هُويٌّ آخر في عالَمٍ آخر. «ها نحن» قال يهوذا، ثُمّ سحب الدّلو ورفعه أمام ناظِرَيه: «الماء يبدو لا ماء. اشربْ يا لاوي». «لا. إشربْ أنتَ أوّلاً». ضحك يهوذا بصوتٍ عالٍ وهو يُرجِع جذعه إلى الوراء: «هل أنتَ خائف؟! الأفاعي الّتي فيه لن تُسمّمه. لا ينتقل السّمّ بالعدوى يا أحمق. السّمّ ينتقل باللّدغ. ما دمتَ آمنًا من اللّدغ فأنتَ آمنٌ من السُّمّ». «فلتشربْ أنتَ أولا إذًا». «كلاّ. سيشربُ شمعون». ردّ شمعون وهو يرفع يدَيه مُستنكفًا: «لا... لا... أنا لستُ عَطِشًا». ضحك يهوذا من جديد: «الخوفُ يستجلبُ الكذب. لماذا يكذب مَنْ لا يخاف!!». ثُمّ دفعَ بالماء إلى روبيل: «اشربْ يا روبيل... أنتَ أكبرنا، ولن نُقدّم عليكَ أحدًا». قال يوسف: «أنا أشرب... أنا عطشان». دفع يهوذا إليه الكنانة وهو يشدّ على أسنانه. «أنْ تموت رَيّان خيرٌ من أنْ تموت ظمآن... أليسَ هذا ما كنتَ تريده... اشربْ يا صغيري». ورفعَ يوسف الماء إلى فيه،

وتساقَطَ نهرُ الفِضّة على الوجه النّبويّ المتعَب تساقُطَ الجُمان على اللّؤلؤ، والنّور على البلّور، والجَمال على الجَلال، فشربَ حتّى ارتوى وإخوته ينظرون إليه وهم ذاهِلون!! ثُمّ دفعَه إليهم: «اشربوا؛ إنّه عذب، لم أشربْ في حياتي ماءً أعذبَ منه». فشربوا كلّهم حتّى ارتووا، ثُمّ انثنوا يُفكّرون في قَتْلِه!

قال شمعون: «هيّا يا لاوي. الشمسُ تذرع قبّة السّماء نحو الغرب. علينا أنْ نعودَ قبلَ العِشاء». ردّ لاوي: «الجوع يقرص معدتي». «أجّل الجوع يا ذا البطن الّتي لا تشبع. حتّى الآن لم نُنْهِ مهمّتَنا ولا أدري لماذا! هل الأمر مُعقّدٌ إلى هذا الحَدّ؟! فلنلقِه في البِئر وننتهي من كلّ هذا». تناول يهوذا الحِبال من نفتالي، اقتربَ من يوسف، تراجع يوسف خُطوة. احتمى بروبيل، شدّه يهوذا من يده: «لا يحميكَ منّا أحدٌ. دَعْ روبيل يغرقْ في نفسه وعذاباته». ثُمّ وجّه كلامه إلى روبيل: «هل أنتَ نادمٌ يا روبيل؟!». لكنّ روبيل لم يُجِبْ، فقط دفن وجهه في صدره ولاذ بالصّمت، كانتْ كتفاه ترتفعان خلف عنقه مثل غُرابَين.. النّظرات لا تكفي. عيناه مُسمّرتان في الأرض، مزيجٌ من الذّهول والصّمت والحيرة والصّدمة، لقد دهِم بنفسه على طريقة قَتْلِه. كان يريد أنْ ينفجر، أنْ يبكي، أنْ يصرخ، أنْ يهجم على يهوذا ويخنقه بيدَيه، أنْ يطعنه في قلبه الأسود، أنْ يصرخ بإخوته هل أنتم مجانين أين ذهبتْ عقولكم؟! لكنّه اكتفى بإطراقة الذّليل الّذي لا يُحوّل بصره عن الأرض. رعشتْ أطرافُ يوسف، بحثَ بعيونه عن عينَي أخيه روبيل، لكنّها كانتْ هاربة، هاربةً إلى أخفض بقعة في قلب الخوف، النّظرات لا تجدُ عيونًا من أجل أنْ تقول لها: «يا ريحَ أبي لا تتركني وحدي». جَذَبه من قميصه جذبةً

كادتْ تخنقه. شدّه إلى البِئر، ربطَ الحبلَ على وسطه جيّدًا، قرّبه من فم البِئر، بدا قاع البِئر من الأعلى سوادًا كثيفًا، ظلمةٌ حالِكة، لكأنّه ينتهي إلى لا قرار. رعشتْ أطرافُ يوسف. تشبّثَتْ يداه الصّغيرتان بكتفِ يهوذا الّذي كان يلهثُ من وثاق أخيه، لكنّه سحبَهما بعيدًا، نظرَ في عينَيه، كانتا ساحرتَين، ودودَتين، فَرَقّ لهما، اهتزّ من الأعماق، اضطربَ، كادَ يتراجَع، لولا أنّه أشاح بوجهه بعيدًا فرأى الذّئب. ذات الذّئب الّذي تبعهم منذُ أنْ غابوا عن وجه أبيهم. شدّ الحبل على وسطه من جديدٍ، ولهثَ، تساقطَتْ حبّات العَرَق من جبينِه وهو مُنحنٍ على صدرِ أخيه، مدّ يوسفُ يده الصّغيرة، مسحَ العَرَق عن جبينِ يهوذا، فسرتْ برودةٌ لذيذةٌ في وسط الحرّ إليه، شعر بانتِعاشٍ يجتاحُ كِيانه، سأله يوسف: «هل أنتَ متعبٌ يا أخي؟!». صَمّ أُذُنَيه عن كلماتِ أخيه، وضيّق عينَيه حتّى لا يراه، ثُمّ رفعه حتى أوقفه على الحافّة، وهمّ بأنْ يدفعه من هناك ليسقط، حينَ علتْ صرخةٌ شقّتْ سُكون اللّحظة: «توقّفْ... توقّفْ...» كان هذا صوتُ شمعون. تسمّر يهوذا في مكانه، ويداه ما زالتا تُمسكِان بكتف يوسف في فم البِئر: «أخفتَني يا شمعون ماذا هنالك؟ لماذا صرختَ هذه الصّرخة الّتي انخلعَ لها فؤادي؟!». «القميص يا يهوذا». «القميص؟». «نعم، إنّه قميص جدّنا إسحاق، وإنّ أبانا الّذي يدّعي العدل كَساه به دوننا، وإنّا لن ندعه يهلك معه، وإنّنا محتاجون إليه في الحجّة الّتي نقف بها أمام أبينا، ألمْ تقلْ لي إنّ خُطّة أبينا خيرٌ من خُطّة روبيل؟! فانزعْ قميصه إذًا!». «صدقتَ يا شمعون. أعتقد أنّكَ لم تعدْ عريضَ القَفا بعد الآن» وضحك. ثُمّ فكّ الحبل المشدود إلى وسط يوسف، ونزع عنه قميصه، ودَفَعَه إلى روبيل كي يحتفظَ به، فرجاه

يوسف أنْ يُبقيه عليه، لكنّه هتف به: «أيّها الوسيم ما حاجة الميّت الّذي ستنهشه نيوب الأفاعي إلى قميص؟!». أجاب يوسف: «رُدّه على جسدي يا أخي... رُدّه عليّ أتوارَى به في هذا الجُبّ، فإنْ مُتّ كان كفني، وإنْ عِشْتُ سترتُ به عورتي». «فلْتَدْعُ الشّمس لتسترك، والقمر لتتوارَى به، والكواكب لتحميَك، ألم ترها لكَ ساجِدة؟ فماذا يفعل قميصٌ في وجه هذه النّجوم؟!!». وضحك بشكلٍ هستيريّ. ثُمّ أوثقه من وسطه العاري مرّة ثانية، وحزّ الحبل الغليظ جسد الطّفل اللّيّن، وأثّر في بياضه حينَ غاص في اللّحم فاحمرّ ما حوله. ووقف النّبيّ على الحافّة وحيدًا عاريًا يتيمًا مُرتعشًا أمام قَدَره. وصمتَ كلّ شيءٍ، ثُمّ امتدّتْ إليه يدا يهوذا السّوداوان وفمه الصّارخ المُكشّر عن أنيابٍ مُدبّبة فقذفه دُفعةً واحدةً في البِئر فهوى، وصاحَ يوسفُ صيحة السّقوط، وتردّدتْ صرختُه في السّماء، وارتطمتْ قدمَاه بجدار البِئر، وبحركةٍ لا إراديّة تشبّثتْ كفّاه بقوّة في حافّة البِئر العلويّة، وامتدّتْ ذراعاه فوق رأسه، وطافتْ عيناه الرّاجِيتان عليهم جميعًا، فلمْ يجدْ عندَ أحدٍ منهم رحمة. ثُمّ صار يستغيثُ بهم، لكنّهم أصمّوا آذانَهم عن استغاثاته، كان جسده يتدلّى من تحته كذبيحةٍ. «إنّ هذا الصغير متشبّثٌ بالحياة بشكلٍ لا يُصدّق، ماذا رأى من الحياة حتّى يُحبّها إلى هذا الحدّ؟!!» صرخ شمعون بغضبٍ. ثُمّ أردفَ: «اهرسْ أصابعه القابضة على الحافّة بنعلك يا يهوذا... هيّا لننتهي من هذا الأمر في الحال... هيّا... هيّا...». وكزّ على أسنانه من الغيظ حتّى كادتْ تتكسّر في فمه، وتطاير الزّبد من شفتَيه وهو يصرخ، لكنّ نعلَي يهوذا لم يكونا كافيَين لتنفلتَ الأصابع المُمسكة بحافّة البئر بشدّة. تدخّل لاوي: «ليس لنا إلاّ أنْ نوثقه، ونرميه هناك

موثوقًا». نفّذ يهوذا الفكرة على الفَور، أمسك بذراعَيه، وأصعدَه على الفَور، ثمّ تعاون شمعون ولاوي على تقييد يدَيه خلفَ ظهره، ودَلَّوه في البئر ثانيةً، وكان يهوذا يُمسك بالحبل، وارتفعتْ نظرات يوسف إلى وجوه إخوته، كانت الشّمس تنحرف في عينَيه، فبدؤوا يجتمعون على فم البِئر واحِدًا واحِدًا، وكلّما اقتربَ أحدهم غَطّى جزءًا من نور الشّمس، حتّى إذا أتمّ تسعتهم دون روبيل التّجمّع في دائرة البِئر ليُشاهِدوا سَقْطَةَ أخيهم كانت الشّمس قد حُجِبَتْ تمامًا، ولم يعدْ يوسفُ يَرى غيرِ حوافّ رؤوسهم، يتعرّف على دوائرها من خلال نفاذ شيءٍ من ضوء الشّمس من الفراغات القليلة بين تلك الرّؤوس، ورآهم كواكبَ درّيّة رغم الظّلام القاتم، وتعجّب، وأراد أنْ يقول شيئًا، لكنّه لم يدرِ ما يقول، وأراد أنْ يحضنهم دفعةً واحدةً، لكنّه لم يدر كيفَ يكون ذلك وهو معلّق في الفراغ، وسمع صوتَ أحدهم: «مَنْ يرَ يُختبَر». وآخر: «لا رُؤيا لصبيّ؛ أضغاث». وثالث: «الصّغار يموتون سريعًا». واختلطَتْ أصواتُ كثيرة: «الله يحبّهم أكثر من الكبار ولذلك يرحلون نحوه». «كلاّ؛ لا يرحلون، بل هو الّذي يدعوهم إليه». «لماذا؟». «لأنه يحبّهم». «الصّغار ملائكةُ الله، لكنْ هل لهمْ أجنحة؟!». «فليذهبْ إلى الله وحيدًا، ولنعدْ نحنُ إلى أبينا». «هيّا. الشّمس لا تنتظر». «مَنْ يقطع الحبل؟». «أنا» كان صوت شمعون، أو هكذا خُيّل إليه. وتراجع الجميع إلى الوراء، ومدّ شمعون يده إلى وسطه فاستلّ الخِنجر فلمع نصلُه على ضوء الشّمس الخَجولة، وحانتْ منه التِفاتةٌ إلى عينَي يوسف فكانتَا مُستسلِمَتَين تمامًا، ولم يفهم، وأراد أنْ يسأله لماذا هو مُستسلمٌ إلى هذا الحَدّ؟ لكنّه لم يفعلْ، وخُيّل إليه أنّه يرى ابتسامةَ انتصارٍ على شفتَيه،

وأراد أنْ يسأله لماذا يبتسمُ شخصٌ ميّت؟ لكنّه لم يفعل، بل سارَع بجَزّ الحبل الغليظ بخنجره، فهوى جسد النّبيّ، هَوى... هَوى... مَنْ يدري كيفَ يهوي جسُد نبيّ؟! كان صوتٌ آخَر من قاع البِئر يهتف: «أسرِعوا به إليّ فأنا إليه بالأشواق». لكنّ أحدًا منهم لم يسمعه، وفجأةً دوّى صوتُ ارتطام بشريٍّ في القاع، وصعدتْ من ذلك الغَور صرخةٌ يتيمة، ثُمّ سكنَ بعدَها كلّ شيءٍ.

ഌ൫ഌ൫

(١٣)
اتبَع الذّئب يدلّكَ على الطّريدة

«أنا جائعٌ جِدًّا» هتفَ لاوي كطفل. «سنُشبع لك بطنَك» ردّ يهوذا. ثُمّ أردف: «سنحتفل». رقصَ الصّغار: «سنحتفل». وعلا هياجهم. عوى الذّئب الرّماديّ. «عِلّة أبينا تلازمنا» هتفَ يهوذا في نفسه، ثُمّ سأل بصوتٍ عالٍ: «مَنْ أمهرنا في الصّيد؟». «أنا» أجاب شمعون. «فلتذهبْ. اتبع الذّئب يدلّك على الطّريدة». ومضى، وهو يتحسّس السّهام في كِنانته، «خُذْ معك لاوي ودان ونفتالي». «وروبيل؟!» سأل شمعون. «إنّه جريح؛ المسكين سيبقى هنا». «كما ترى». «لا تتأخّروا. ما زال في كأس النّهار ماء. عودوا سريعًا. سنجمع الحطب، ونجهّز الأثافيّ، ونوقد النّار ريثما تأتون».

رقصَ الصّغار من جديد، لم يعدْ هناك يوسف. نقصَ الإخوةُ واحِدًا؛ هل نَقَصُوه أمْ نقصَهم؟! ظلّ الذّئبُ قريبًا؛ إنّه يرى أكثرَ مِمّا يرَون. هل يبقى البيتُ بيتًا إذا انهدمَ الرُّكْن؟! كيفَ يعيش من فقدَ قلبَه؟! كيفَ لنسيجٍ أنْ يتماسكَ وقد انحلّ الخيطُ النّاظم فيه؟! رقصَ الصّغار من جديد، إنّهم لا يعرفونه، لقد تربّى بعيدًا عنهم. «نريدُ أنْ نغنّي» قال أحدهم. «كما وعدْتَنا يا يهوذا» قال آخَر. «الغِناء جميل» قال ثالث. وتنحنحَ يهوذا: «أنا لا أُخلِفُ وَعْدي». ثُمّ أردفَ وهو يمطّ صوتَه: «يُوسُفُ قَتَلَ الوَحْدَةَ فِيْنَا... القاتِلُ مَلْعُونْ... يُوسُفُ أَسَرَ فُؤادَ

أَبِيْنا... الآسِرُ مَأْفُونْ... نَحْنُ أُولُو العُصْبَةِ والقُوَةْ... نَحْنُ الصَّوْتُ الأَعْلَى... نَحْنُ سُطُورُ إِبًا وَفُتُوَةْ... فَلِمَاذَا لا نُتْلَى؟!». وترددتْ في الجَنَبات: «القاتِلُ مَلْعُون». وعوى الذّئب حتّى كأنّ عواءه رَجّع الحروف الثّلاثة الأخيرة: «عووووون». هل كان نشيدُهم يصل إليه؟ هل كان من مكانه البعيد يسمعهم؟! وراحُوا يقذفون ما جمعوا من حَطَبٍ في النّار.

تهادَوا من فوق الكُثبان العالية. كان شمعون يحملُ فوقَ كتفَيه ظبيًا ما زالَ حَيًّا ينزّ دمه في خُيوطٍ على رأسِه. وحينَ صار بينهم رماه أمام إخوته، ثُمّ استلّ خنجره، وجَزّ عُنُقَه. فانساح السّائل الأحمر، سارعَ يهوذا بدلوٍ فألقاه تحت عنق الظّبي فجمع فيه دمَه، كانتْ رِجلاه تخمدان تدريجيًّا وهو يلفظُ أنفاسَه الأخيرة. همّ يهوذا أنْ يشرب من الدّم وهو يرفعه باتّجاه لاوي قبل أنْ يتراجع: «وعاء الدّم في عنقك. حافظْ عليه حتّى ننتهي مِمّا نحن فيه».

تصاعدَتْ في الجوّ رائحة الشّواء. انزوى روبيل ناحيةً قصيّة لا يقول شيئًا. رقص الصّغار من جديد. على إيقاع الكلمات المحمومة، سمعوا صوتًا ما، خُيّل إليهم أنّه قادِمٌ من البِئر؛ هل في البِئر حَيّ؟ اقتربَ يهوذا من الحافّة بحذر، انقِطاع الصّوت أوّل السّقوط كان دليل الموت، لم يسمعوا طيلة هذا الوقتِ حسيسًا يصدر من البِئر ألبتّة؛ فما الّذي جَدَّ في الأمر الآن؟! نهض روبيل، تركَ عُزلَته، شيءٌ ما في قلبِه حرّكه من موقعه. أرادَ يهوذا أنْ يتأكّد، هتفَ بصوتٍ متوجّس: «يوسف؟». نهضَ النّبيّ الصّغير، تحامَلَ على ضَعْفِه وجِراحه، قال في نفسه مُبتهِجًا: «إنّه

يهوذا، لا بُدّ أنّ إخوتي تراجعوا عنْ نيّتهم ورحموا ضَعْفي». ردّ عليهم: «نعم يا يهوذا يا أخي.. يا حبيبي أنا هنا...». قفز يهوذا كالملدوغ، سرتْ فيه قُوّة عجيبة، نزع إحدى صخور البئر، ورفعها فوقَ كتفَيه عاليًا يريدُ أنْ يرضخ بها رأس أخيه، ففزعَ إليه روبيل: «لا يا أخي» ونزع الصّخرة من يده: «ألمْ تُرِدْ موته؟!» سأله روبيل. «لكنّه لم يمتْ ألمْ تسمَعْ صوتَه؟!» ردّ عليه يهوذا. «بلى. ولكنْ دَعْه يمتْ من الجوع، لا تقتلْه بيدك، هل جُنِنْت؟». «سأُجَنّ إذا اكتشفتُ أنّه مثل الجنّ بألف روح». «اهدأْ... ألمْ تشغلْ نفسكَ بالطّعام؟! ها هو سيجهزُ عمّا قريب... دَعْ أخاك؛ إذا قدّر الله لروحه أنْ تتسرّب من جسده فسيتكفّل الزّمن بذلك». هوت الصّخرة على الأرض. كانتْ عينا يهوذا لا تزالان جاحِظتَين تدوران من الرّعب، وكان صوتُ لُهاثه يُغطّي على نشيد الصّغار الّذين أعجبتْهم قَفْلة النّشيد: «القاتلُ مَلْعُون»، وراحوا يمطّونها كما لو أنّهم جِراءُ ذئابٍ تُقلّد آباءَها: «عوووووون... عوووووون» غير آبهين بشيءٍ آخَر.

امتدّت الأيدي إلى الظّبي المشويّ، تناهشتْ لحمَه الطّريّ، غاصتِ الأنيابُ في كلّ قطعةٍ منه، أكلتْ حتّى ملأتْ بطونها، لم تبقَ يدٌ إلاّ طاشتْ في جسد هذا الظّبي الصّغير، باستثناء روبيل الّذي كان يجلسُ على مبعدةٍ دون أنْ يُشاركَ إخوته، ولم تُفلِحْ دعواتهم له جميعًا أنْ يأكل ولو قِطعةً صغيرةً واحدةً من هذا الظّبي فقد كان لحمُه لذيذًا جِدًّا كما وصفه شمعون. «دَعُوه وشأنه؛ إنّه مجروح» هتف يهوذا، وأردف لاوي: «إنّه يتصرّف كطفل... تخيّلوا؛ أكبرنا يتصرّف كطفل!!».

خلفَ صوتِ المضغات الّتي تهرسُ اللُقَم المُزدردة بالأسنان القويّة، كان صوتُ يوسف يأتي من عمق البِئر، آهاتٌ لا أحدَ يدري ما تعني، غَمغماتٌ لا تُفهَم، تردّداتٌ من لغةٍ لم يسمعوها من قبلُ. وكلّما نوى يهوذا أنْ يقومَ عن المائدة ليُسكِتَ الصّوت، أسكتتْه عينا أخيه روبيل الحزينتَين، فيتراجع وهو يحدّث نفسَه: «إنّه ميّتٌ لا محالة. ليُمتْ على دفعات فهو أفضلُ من أنْ يموتَ مرّةً واحدة» ويعودُ إلى التّلذّذ بطعامه.

ثُمّ دَعا يهوذا بالقميص، فأخذه من روبيل، ودعا بوعاء الدّم فأخذه من لاوي، ثُمّ قال: «الآن يخلو لنا وجه يعقوب»، ثُمّ لطّخ القميصَ بدمِ الظّبي، فصبغَ الدَّمُ كفَّيه، ونظر إلى القميص فأعجبَتْه لطخةُ الدّم القانية في البَياض النّاصع، ثُمّ راح يمسحُ فيه يدَه جيئةً وذُهوبًا، ونشره أمام ناظرَيه فبدا أرجوانيًّا على ما تبقّى من أشعّة الشّمس الّتي تهمّ بالرّحيل. وتخيّله شِراعًا في سفينةٍ تتهادَى في عاصفة، وضحك: «إنّه جميلٌ». ثُمّ طواه وعهد به هذه المرّة إلى شمعون. واعترض روبيل: «كلُّ رداءٍ مُدحرَجٌ في الدّماء يكون للحريق، مأكلاً للنّار». «ماذا تعني؟!». «أحرقوا قميصَه، لا تأخذوه معكم». «إنّه دليل براءتنا». «بل إنّه دليلُ إدانتنا». ولم يفهم يهوذا شيئًا من كلام أخيه، وظنّ أنّه فقد عقله.

ثُمّ عَنّ ببال روبيل أنْ ينظرَ في البِئر نظرةً أخيرة، فتقدّم إليه، فلمْ يمنعْه يهوذا وتَبِعَه، ثُمّ تبعه إخوته كلّهم، وكان الظّلام في البِئر قد اشتدّ، ولم يبق في مصباح الشّمس إلاّ الذُّبالة تمدّ به بصيصًا من النّور في الأغوار، ورأى أشباحَ وجوههم في فوهة البِئر، وهتفَ يهوذا وهو يمدّ عنقه أعمق من أعناق إخوته: «لقد شربَ القميصُ دمَك». وقهقهَ،

واستمرّ صدى قهقهته دون توقّف. وتدخّل روبيل: «لا تحزنْ» وأتاه صوتُ يوسفَ ضعيفًا: «كيفَ لا أحزنُ وأنا في الظّلمة وحيدًا وعارِيًا!!». وفجّرت الكلمات عينَي روبيل، فانهمرتا بالدّمع، وأراد أنْ يقول شيئًا، ولكنّ البكاء منعه، ثُمّ نهره يهوذا: «تبكي مثل النّساء!!». وشدّه خارِجًا، وأنزل عنقه مكانه، وهتف متوعّدًا: «الموتُ يُحيطُ بكَ من كلّ جانب. الجوع موت. العطش موت. السّمّ موت. الانتظار موت. الوحدة موت. الظّلمة موت. فاخترْ بأيّها فمُتْ». وأتاهم صوتُ يوسف من القاع مستسلِمًا: «يا إخوتاه، إنّ لكلّ ميّتٍ وصيّة، فاسمعوا وصيّتي». «قُلْ يا يوسف قلْ» هتف روبيل وهو ينشج، أمّا يهوذا ولاوي وشمعون فصرخوا: «هيّا أيّها الميّت... هيّا يا نور عيوننا... ليسَ لدينا النّهار بطوله»، وانفجروا في القهقهة. وجاءهم صوتُ صغيرهم من قلب الظّلمة: «إذا اجتمعتم كلّكم فآنسَ بعضُكم بعضًا فاذكروا وحشتي، وإذا أكلتمْ فاذكروا جَوْعتي، وإذا شربتم فاذكروا عَطْشتي، وإذا رأيتم غريبًا فاذكروا غربتي، وإذا رأيتم شابًّا فاذكروا فُتوّتي...» ثُمّ خنقتْه العَبرةُ فسكت. وجاءه صوتٌ من خلفِ أذنيه: «دَعْ هذا فإنّه لا يُغني عنك شيئًا، واسمع أعلّمكَ كلماتٍ». والتفتَ يوسفُ خلفَه فلم يرَ شيئًا. وجاءه صوتٌ من إخوته: «قد سمعناك، ولو كُنّا نسمع لك ما ألقيناك في البِئر فإذا متّ فليتغمّد الله روحَكَ بالرّحمة». وانقطع كلّ صوتٍ. واستمرّ السّكون زمنًا قبل أنْ تُسمعَ خشخشة القميص؛ القميص المُلطّخ بالدّم حين شدّه يهوذا على وسطه قبل أنْ يُسدل فوقه جُبّته المصنوعة من جلد الماعز.

ومضى يهوذا، وتبعه كلّ إخوته، وتأخّر عنهم روبيل، كان يبدو كما

لو أنّ رجلَيه غير قادرتَين على حَمْل جسده، وانهار على الأرض بالفِعل. وصرخ أحدُ الصّغار: «لقد سقطَ روبيل... لقد سقط روبيل...». والتفتَ يهوذا إلى الخلف، فرأى أخاه على الرّمل مُنكّسًا رأسه، وهتف في نفسه: «الولد لم يكبرْ بعدُ» ثُمّ صرخ موجّهًا كلامه لبقيّة إخوته: «اتركوه وشأنه، سيضطر إلى اللّحاق بنا بعد قليل». ومن بعيدٍ عوى الذّئب.

(١٤)
قلبي مَعَك!!

كانوا يتهادَون، والرّمال الدّافئة الّتي سرقتْ من الشّمس بعضَ حرارتها قبل أنْ تغيب تندعس من تحتِ أقدامهم، وآثار الشّواء ما تزال عالقةً بأيديهم، وتفوح روائحها من أفواههم، أمّا القميصُ المُلطّخ بالدّم فكانتْ رائحته تختبئ تحت فروة الماعز الّتي يلبسها يهوذا كأنّها تُؤجّل بَوْحها إلى حين.

كانت الشّمس قد غربتْ تمامًا حينَ توقّفوا على كثيبٍ من الأرض، وهتف يهوذا في أوّل الظّلام: «سيبدأ شمعون القول أمام أبينا، سيقول... لا أدري ماذا سيقول... لكنّه سيقول... هل يُريدني أنْ أضع الكلامَ في فمه... هو يعرف... ثُمّ يؤيّده لاوي، لاوي سيضيف أجزاء مهمّة على القصّة لم يقلْها شمعون.. يُمكنكما الاتّفاق على ذلك من الآن... وأنا سأكون الثّالث الّذي سيفسّر كلّ شيء، أمّا أنتم أيّتها الجِراء الصّغيرة، فعليكم أنْ تصمتوا تمامًا، ابتلعوا لسانكم... يُمكنكم أنْ تردّدوا ما نقول إذا عَنّ ببال أحدكم أنْ يحرّك لسانه داخل فمه... هذا كلّ شيء». وصاح بهم: «الماء»، فأتوه بقِربة، فشرب منها، فبَرَد عطشُه، وشعر بعذوبة الماء، فسأل: «من أينَ هذا الماء؟». فقالوا له: «من البِئر الّتي أُلقي فيها يوسف». فأصابتْه غَصّة، وبصق... هتف: «ألمْ تقولوا إنّ ماءَها قليل... سقطَ فيها، أمَا لو كانتْ قدماه مُعفّرتَين بالتّراب

للوّثها... كذبتم، إنّ في أنفسكم شيئًا من يوسف». وصمت، وصمتوا. ثُمّ استلقى على ظهره ليرتاح، وفعلوا ما فعل، ألقَوا ما في أيديهم من رِحال، واستلقَوا على ظهورهم، وكانت السّماء قد بدأتْ تسودّ، ومن بعيدٍ في القبّة اللامتناهية، بدأتْ تلمع النّجوم، وسمعوا صوتَ رُغاء جِمال، وخُيّل إلى يهوذا أنّها جِمال كثيرة، ووقر في رُوعه أنّ عددها بعدد النّجوم، فنهض من رَقدته مَخُوفًا، والتفتَ حوله، فما رأى غير الكثبان المترامية تكاد تختفي تحت سِتار اللّيل، ونظر إلى إخوته يتفحّصهم بعينَيه، فسأل بشيءٍ من القلق: «أين روبيل؟». فلم يُجِبْه أحدٌ، فرفع صوته متوعّدًا: «أين روبيل؟». واستمرّ الصّمت، والتفتَ ناحيةَ الغرب فرأى رجلاً يتهادَى من بعيد، محنيّ الظّهر، يعثر في خطواته، مُتهدّل الكتفين، ويداه تتأرجحان أمامه، وظنّه أخاه، فوَكز شمعون المُستلقي إلى جانبه، وأنهضه: «انظر... أهذا روبيل؟». ونهض شمعون ونظر إلى الجهة الّتي أشار إليها يهوذا، فلم يرَ شيئًا. وقال لاوي الّذي نهَض هو الآخر وراح ينظر جهة الغرب مثلهم: «لا أحد!!». وسأله: «هل أنتَ تعبٌ يا يهوذا؟!». وصرخَ بهم محُذّرًا ومتوعّدًا: «هيّا... هيّا... لا نريدُ أنْ نتأخّر أكثر من ذلك». وساروا. وعوى ذئبٌ عُواءً حزينًا في القِفار البعيدة لم تسمعه غير النّجوم الّتي بدأتْ تلمع بشكلٍ جليّ في صفحة السّماء.

ومرّتْ لحظاتٌ لا تنتمي إلى زمن، كأنّها مقطوعةٌ من شجرة، أو أنّها يتيمةٌ لم تعترفْ بها أمٌّ حَنون ولا أبٌ عَطوف. ونظر يهوذا في الأفق، فبدا كلّ شيءٍ حالِكًا، وضيق عينَيه مُستطلِعًا، وسأل أقربَ إخوته إليه وهو يشير إلى البعيد: «هل ترى ما أرى؟». «لا يا أخي. ماذا ترى؟». «هناك... هناك...» وظلّ يمدّ إصبعه بشكلٍ غريب، وتابع: « هناك...

بيوتٌ مُتناثرة، نوافذها مُضاءة، ومن كلّ نافذةٍ يطلع وجه ذئب... ألا ترى ما أرى يا أخي؟!». وأخذه أخوه إليه، وضمّه، كان يرتعش، وسأله: «هل أنتَ مُصابٌ بالبرد؟». ونثر يده الّتي تُحيطُ به: «دعني، لستُ بردانَ، ولا أنا بحاجةٍ إليك». ونظروا كلّهم إليه، كانتْ لحيته الصّغيرة الّتي تتكوّر بشكلٍ لافتٍ عند ذقنه قد بدا أنّها طالتْ وشابتْ. وأنّ عينَيه الضّيقتَين قد فقدتَا شيئًا من النّور، وأنّ لحمَ خَدّيه قد تقشّر. وفجأةً ارتخى جسده، وانبعج من الوسط، وانثنتْ رُكبتاه، وسقط كأنّه رَحْلٌ مُهترئ. ظلّ على سَقطته. وهُرِع إليه إخوته، فصاح: «أنا لا أرى شيئًا... أنا لا أرى شيئًا». وطمأنه لاوي: «لا تخف يا أخي. إنّها حالةٌ تُصيب المُقمرين». وودّ لو يضحك، لكنّه منَع نفسه خوفَ أنْ تطاله عقوبة يهوذا!!

ورجفَ يوسفُ من البرد، فغطّى جذعه العاري بيدَيه، ولفّهما يتّقي شيئًا من قَرّ اللّيل، ثُمّ مسح بباطن يده بعضَ الدّماء الّتي سالتْ من فمه، كانتْ قد تجمّدتْ، وشعر بألمٍ شديدٍ في كاحل رِجله، ومدّها في الظّلام يتفحّصها، وضغطَ عليها فزاد ألمُه، وصرخ: «يا أبي». وسمع صوتًا خلفَه يُجيبه: «لبّيك». فالتفتَ لكنّ الظّلام كان دامِسًا، ومدّ يَدَيه يتحسّس الفراغ، لكنّه لم يعثر على شيءٍ، وزحف إلى الخلف، وأسند ظهره إلى جدار البِئر، وشعر بأنّه ليّنٌ جدًّا، ونفذتْ إليه رائحة الماء المُتعفّن، وجرفَ بيده قليلاً منه، وقرّبه من أنفه، وشمّه، وتأكّد من الرّائحة. ثُمّ مدّ رجلَيه ابتغاء شيءٍ من الرّاحة، وأرجع رأسَه إلى الوراء، ثُمّ صَعّد بصره إلى الأعلى، ونظر من فوهة البِئر، ومن خلال الدّائرة المُطلّة على السّماء استطاع أنْ يرى النّجوم، «إنّها تضحك» حدّث نفسه،

وشعر بشيءٍ من الطّمأنينة، وأخذ يعدّ تلك النّجوم المُنطبعة في تلك الدّائرة المرسومة بحدود الفوهة، ووصل إلى العدد أحد عشر حين شعرَ بشيءٍ يتحرّكُ فوقَ قدمَيه، كانتْ حركةً بطيئة وليّنة، ومدّ يده يتحسّسها، وذُعر حين وجدها أفعى، وصرخ: «أفعى». وركلها بِرجلَيه بكلّ ما أوتي من قوّة، ووقفَ على قدمَيه، ينفضهما بحركة سريعة، وصرخ: «يا ربّ». وأجابه صوتٌ من خلفه: «أنا معك». والتفتَ فغرقتْ عيناه في الظّلمة، وتمنّى أنْ تمدّ النّجوم أنوارها فتريه ما في البِئر من الهَوامّ، ولكنّها بقيتْ تضحك دون أنْ تغيّر أماكنها أو تفعل ما يريد، وهبّتْ نسماتٌ من الهواء لم يدرِ من أينَ مصدرها، ولا كيفَ تدور في قعر بِئر، فشعر بالبرد من جديد، وسرتْ في جسده قشعريرة، غَطّى لها جذعه بذراعَيه، وراح من بعدُ يفرك كفّيه ليحظى بشيءٍ من الدّفء، وظلّ الخوف والبرد ينقران هدأته حتّى سمع صوتًا حنونًا من خلفه: «خُذ»، والتفتَ فخانتْه عيناه والظّلمة مرّة أخرى، لكنّه حينَ مدّ يديه يتلمّس مصدر الصّوت، وقعتْ يداه على شيءٍ من قِماش، وتناوله بحذر، ونفضه ليدركَ ما هو قبل أنْ يتسلّل الصّوتُ إياه، ليقول له: «إنّه قميصُك، فالْبَسْه». ولبسه بسرعة، وأحسّ فيه رائحةَ أبيه، وشعر من بعدُ بالدفءِ والأمان، ولم يسأل من أين جاءه هذا القميص، ولا مَنْ أعطاه له!! ثُمّ اضطجع يبتغي النّوم. ولم يمهله التّعب وقتًا طويلاً ليستسلم بكلّ جوارحه له، وغمضتْ عيناه، وسقط، سقطَ في البِئر!! هو في البِئر، فكيفَ يسقط!! وتراءتْ له صور إخوته مُجتمعين وهم يتضاحكون، وبدا أنّه يحلم، كانوا كهيئتهم يوم غطّوا فوّهة البِئر وهم يحجبون نور الشّمس، وانسحبتْ وجوههم وجهًا وجهًا، ودخل وجه روبيل، إنّه يراه، هل هو يحلم؟ أم

يراه على الحقيقة؟ إنّه يراه، وهتف به صوتُ روبيل: «يوسف... أخي... يوسف... هل أنتَ هنا؟». واستيقظَ، كان في الحدّ الفاصل بين الخيال والحقيقة، ونظر إلى أعلى، وانتزع وجهٌ يعرفه بين النّجوم، وحدّق النّظر فيه أكثر؛ نعم إنّه روبيل، وسمع صوته من جديد: «أنا هنا يا أخي... أنا روبيل... هل تسمعني يا يوسف؟». «نعم يا روبيل... أسمعك؟ أخرجني يا أخي أرجوك؟ لماذا فعلْتُم بي كلّ هذا؟ أنا هنا مع الأفاعي والبرد والظّلام؟ الصّخرة التي أنام عليها ناتئة، وشوكيّة، إبرها تدخل في جسدي يا روبيل». «لا أستطيع يا أخي، سيقتلونني؛ يهوذا سيقتلني، ولكنْ تأكّدْ أنّ قلبي معك... خُذْ» وارتطمتْ بالقاع صُرّة. وسمع أخاه: «هذا الطّعام لك. كنتُ قد خبّأته في غفلةٍ منهم. سأظلّ آتيك بالطّعام حتّى يقضي الله أمرنا». «ولكنّني بحاجةٍ إليكَ لا إلى الطّعام». ولم يدرِ روبيل ما يقول، وزفر زفرةً طويلة: «لا أستطيع أنْ أتأخّر أكثر من هذا، سأذهب الآن... وسأبقى أراقب الوضع من بعيد، لعلّ الله يُدبّر كلّ هذا... مَنْ يدري ماذا سيحدثُ غدًا!». ومضى. وجاءه صوتُ يوسف من الأعماق: «لا تتركْني يا أخي... أنا وحيد...». وشعر روبيل أنّ الكلمتَين الأخيرتَين تلتصقان بظهره كأنّهما جرادتان تنهشان لحمه، وأراد أنْ يقولها لأخيه: «أنا وحيد... وحيدٌ مثلُك» لكنّه بكى عوضًا عن ذلك. ومضى ليلحق بإخوته.

ஐௐஐௐ

(١٥)
المُلطّخة أيديهم بالدّم تفضحُهم عيونُهم

كانتْ ديارهم تلوح من قريبٍ على أضواء القناديل المعلّقة فوق قناطر الأبواب. استوقفهم يهوذا: «هل وصل روبيل؟». أجابتْه أصواتٌ كثيرةٌ: «كلا». امتعض. مسح عينَيه؛ هل هو رمدٌ أم غِشاءٌ من أجنحة ذُبابٍ تغطّي جزءًا من الرّؤية، الذّباب في كلّ مكان. قال: «سيلحق بنا، لن ينسحب من الخُطّة إنّه جزءٌ منها». وسأل من جديد: «شمعون». «لبيّك». «وأنتَ يا لاوي». «لبّيك». «هل تعرفان ماذا ستقولان؟». «بلى» كان صوتها غليظًا فيه بحّة خشنة. وهتف: «الصّغار دورهم مهمّ؛ الصّغار جوقة»، وتوجّه إليهم: «تعرفون ما يتوجّب عليكم فِعلُه» فهزّوا رؤوسهم بالموافقة. وأشار لهم يهوذا بأصابع يدَيه مُطوّحًا ذراعَيه في الهواء كما لو كان قائد خيّالة، أو أمير مجموعة من رُماة السّهام: «هَيّا». وابتدأ النّحيب. وبكَوا على فَقْدٍ حقيقيّ، كان بُكاؤهم يُفطّر القلوب، ويشقّ الحجر، وتخرّ له الأرواح، إنّه بكاءٌ يمتزج فيه النّحيب بالعويل بالنّشيج، بالرّنّة، بالنّغمة... بكلّ هذا، كأنّهم كانوا قد صاغوا موسيقاه من قبل أنْ يبدؤوا فيه بهذا الإيقاع المدروس، كان احترافًا يستحقّ الجائزة.

كان صوتُ جَلَبتهم في نشجيهم المتواصل يصل إلى أسماع يعقوب، قبل أنْ يخرج من الحيّ مقبوض القلب يستطلع الأمر، ليراهم يهبطون

الكثيب القريب، كلّ ثلاثةٍ في صفّ، وهم يضربون بأكفّهم على صدورهم، ويبكون بُكاءً مريرًا. وانخلع قلبُ يعقوب للمشهد، وركَضَ نحوهم، والتقاهم في منتصف الطّريق، وهتف: «ما الّذي يجري؟ ماذا أصابكم؟ لِمَ تبكون كلّكم بهذه الطّريقة؟!». وركَضَ يهوذا إلى أبيه فاحتضنه وجسده يرتعش من البكاء، وهتف: «سامِحْنا يا أبي؟!». وكانوا على مسافةٍ قريبةٍ من الدُّور، تُسمَع أصوات أقدامهم، وكانوا لا يزالون يغرقون في نوبات البكاء الهستيريّة، ووصل بُكاؤهم الفجائعيّ إلى النّسوة والصّغيرات، ولم يدرين ما يُبكي إخوتهنّ أو آباءَهن، فانخرطنَ معهم بالبُكاء، وضجّ المكان كُلّه، وتردّدتْ آهاتٌ وزفراتٌ، ويعقوبُ لم يدرِ ما حدث، منذهلٌ، ينظر في الوجوه، ويلمحُ غيرَ مُصدّقٍ وجوهًا باكية، وجلودًا قاسية. وهتفَ وهو يرفع يديه صارِخًا: «ما الّذي حدث؟ تكلّموا... هيّا فلْيقلْ أحدٌ منكم شيئًا». وتوقّف يهوذا عن البُكاء، فتوقّفوا معه. وظلّتْ آثار نَشَقَات، وهمهماتٍ في طريقها إلى الانخِماد. وهزّ يعقوب يهوذا من كتفَيه، وسأله أنْ ينظر في عينَيه: «ماذا حدث يا يهوذا؟ قل لي يا بُنيّ؟». وظلّ يهوذا صامِتًا، لكنّه أشار إلى لاوي، فأتاه يعقوبُ يسأله، فظلّ مُنكّس الرّأس، لا ينطق بكلمة، وأشار إلى شمعون، فتحوّل إليه يعقوب، فرفع وجهه المُخضّب بالدّموع نحوه، كانتْ عيناه غارِقتَين في حزنٍ عميق، لم يشكّ يعقوبُ لحظةً في أنّه حقيقيّ، وسأله: «تكلّمْ يا شمعون». وبدأ شمعون نوبةً جديدةً من البكاء، وخرجتْ من بين شفاهه المبعوجة ومن وراء أسنانه ثلاث كلمات هي: «لقد مات يوسف». ولم يسمع يعقوب غير الكلمتين الأولَيين: «لقد مات...» ولم يتبيّن الثّالثة الّتي خرجتْ بسبب البكاء

مَطوطة، وصرخ يعقوب: «مات... تقول إنّه مات... مَن هو الّذي مات...؟!». وجال بنظراتٍ سريعةٍ يتفحّص أبناءه، فرآهم جميعًا باستثناء يوسف وروبيل، وارتعش، وكادَ يسقطُ مغشيًّا عليه، لكنّه أمل أنْ يكون قد سمع الكلام بصورةٍ غير صحيحة، أو على الأقلّ أنّ أحدَ ابنَيه ما زال حَيًّا. وصرخ من الغضب بصوتٍ عالٍ: «مَنْ مات؟!». ومسح شمعون دموعه: «لقد كُنّا يا أبي في البادية نلهو نلعب». «ومعكم يوسف». «كُنّا نريدُ له أنْ يرتاح لطول الطّريق». «يرتاح... وأينَ هو؟». وكادَ يبكي لولا أنّه حبسَ دموعه، وصرخ من الجزع: «أينَ يوسف؟». وطافتْ عيونه على أبنائِه، فلم تلتقِ عيناه بعينَي أحدٍ، كانوا جميعًا قد نكّسوا رؤوسهم، وانخرطوا في نوبةِ بُكاءٍ جديدة. ورفع شمعون رأسه: «لقد قُمنا بجولةٍ نتسابق فيها على الرّمي بالسّهام، كان يوسف متعبًا فلم يشاركْنا سباقنا». «وهؤلاء الصّغار شاركوكم الرّماية؟». «بلى يا أبي». «فما الفرق بين أصغرهم ويوسف؟». ولم يدرِ شمعون ما يُجيب، فَلَكز لاوي بذراعه، فاستوى لاوي بجذعه، وأخذَ شهيقًا عميقًا، ومسح آخرَ ما تساقطَ من دموعه فوق خدّيه وفمه بكُمّه، وقال: «إنّه أصغرهم، وهو لم يتدرّب مثلهم من قبلُ على السّباق». «ولماذا لم تُدرّبوه؟!». «هذه أوّل مرّة يخرج معنا، خِفنا أنْ نُتعبه فتغضبَ منّا، نعرف شدّة حُبّكَ له فما أرهقناه حتّى ترضى علينا». «أكملْ». «ترْكنا ثيابَنا بينَ يدَيه ليحرسها». «لا تريدُون أنْ تُتعبوه بالجري لأنّه لم يتدرّب ولا يقوَى عليه، فكيفَ يقوى على أنْ يحرسَ ثيابكم من اللّصوص، هل هذا معقول؟». وسكتوا جميعًا، ولم يدرِ أحدٌ منهم ما يقول. وطلبَ منهم أنْ يُكملوا، وأكمل لاوي: «وعندما عُدنا... وجدْناه...». وزاغتْ عينا يعقوب، ورجا بهما

ابنه أنْ يُتمّ، فأكمل: «وجدناه مقتولاً؟ لم يبقَ منه عُضْوٌ إلى أخيه، لقد تحوّل جسده إلى أشلاء». وناح كأنّه ثكلَى ترى مقتلَ أخيها أمامها. «مَنْ قتله؟!» وخرج السّؤال من فم يعقوب كأنّه يخرج من فم رجلٍ ينشج في جنازة. ولم يقولوا شيئًا، وسأل يعقوب من جديد: «اللّصوص؟». «كلا». «فمنْ؟». «الذّئب». فصرخ: «الذّئب؟ كذبتم». وتدخّل يهوذا في الحديث، وقال بصوتٍ رزينٍ كأنّما أصيب صاحبه بطعنة: «تكذّبنا يا أبي؟ لقد مزّقه ذئبٌ رماديّ، عنقه بيضاء، يسمّونه الأطحل، ألا تعرف قوّة هذا النّوع من الذّئاب، لقد نهشَه وحوّله إلى أشلاء، وصارَ في بطنه». وردّ يعقوب: «الذّئب لا يأكل ابني». وعقّبَ يهوذا بصوتٍ أخفضَ من سابقه: «هل نُقسِمُ لك حتّى تُصدّقنا». «لا فائدة من قَسَمكم. القَسَمُ هروب. تقول لي أكله الأطحل فهلاّ أتيتموني بجزءٍ من ابني مِمّا أبقَى عليه الذّئب ولو كان عظمًا». «فما تفعل به يا أبي؛ ألكي تُصدّقنا؟». «كلاّ، بل لكي آنسَ به كلّما أصابتْني الوحشة»، وقصمتْه الكلمات الأخيرة الّتي تلفّظ بها، فسقطَ على رُكبتَيه، وتقدّم أحدُ الصّغار بإشارةٍ من لاوي فرَشَقَه بالماء من القِربة الّتي كانتْ معه، فصحا، نفض رأسه، وفتح عينَيه، ثُمّ نهض. وتقدّم منه يهوذا، فأرخى رأسه على صدر أبيه، وقال وهو يرتجّ من البُكاء: «لقد كان أحبَّ إخوتنا إلينا، ولكنّ الذّئبَ حيوانٌ غَدّار، وما كُنّا نظنّ أنّه له بالمِرصاد». فدفعه يعقوب عنه، وهتف به: «صوتُك يُخبرني أنّكَ كاذب». ولم يطق يهوذا على عناد أبيه صبرًا، فرفع يده في وجه أبيه وهو يصرخ: «ماذا نفعل حتّى تُصدّقنا؟! نأتيكَ بجثّته؟! قلنا لك، صار في بطن الذّئب»، وأوقفه أبوه بإشارة منه: «لا تُكمل». واقترب منه، وقبضَ على ذراعه، وسأل أحدَ الصّغار: «قرّبْ

مشعلكَ من هنا يا نفتالي» وقرّبه نفتالي، فبدتْ كفّا يهوذا ملطّختَين بالدّم، وتصاعدتْ نظرات الشّكّ في عينَي يعقوب، وهتف بصوتٍ خفيضٍ لم يسمعه غير يهوذا: «يداك مُلطّختان بالدّم يا يهوذا... المُلطّخة أيديهم بالدّم تفضحُهم عيونُهم... انظر في عينَيّ يا يهوذا». ولم يقوَ يهوذا على النّظر في عينَي أبيه، وسحب ذراعه من قبضةِ أبيه، وتراجع إلى الوراء خُطوتَين، وهتف: «معي الدّليل». واستفسر أبوه: «الدّليل على ماذا؟». وردّ يهوذا: «على أنّ يوسف قد أكله الذِّئب». وحلّ فروة الماعز الّتي كان يلبسها، وكشف عن صدره، ثُمّ حلّ قميصَ يوسف، وسأل نفتالي السّؤال نفسه: «قرّب المشعل قليلاً» ثُمّ نشر القميص أمام وجه أبيه: «ها هو قميصُ يوسف يا أبي... لقد أكله الذّئب كما قلنا لك، ولكنْ لا أدري لماذا لا تريدُ تصديقنا، انظر إليه، إنّه مُلطّخ بدمه». وجذب يعقوب القميصَ إليه، وشمّه طويلاً، وقبّله، وهتف: «حَقًّا إنّها لريح يوسُف... ما أطيبَها من رِيح!!» وبكى. وراح يَتفَحّصُه ويداه ترتعشان، يقرّبه من أنفه فيشمّه، ثمّ من شفتَيه فيُقبّله، ثُمّ يضمّه إلى صدره فيحضنه، يفعل ذلك بسرعةٍ أكثر من مرّة، ثُمّ توقّف عن حركاته القَلِقة دفعةً واحدةً وأعادَ نشر القميص أمام ناظرَيه، وطلب من نفتالي أنْ يقترب بالمشعل، واقترب نفتالي، وبدا القميص على ضوء المشعل سليمًا ليسَ فيه أيّ عيب، سوى شَقٍّ صغيرٍ في أعلاه، ورأى أنّ الدّماء الّتي تنتشر بطريقةٍ منظّمةٍ فوقه كانتْ قد حالتْ إلى اللّون البُنّي، وهتف بيهوذا وهو يُقرّبه من القميص المنشور على ضوء المشعل: «انظر يا يهوذا... انظر... ما أرحمَ الذّئبَ الّذي أكل ابني، أكله ولم يُمزّق قميصه!!». ثُمّ دار بينهم يسألهم: «متى كان هذا الذّئب حكيمًا يأكل ابني

ولا يخرق القميص؟!». وطنّ يهوذا بِفِيه، وكادَ يسقط من الصّدمة، وأشاحَ ببصره عن القميص ليتفادَى آثار كلمات أبيه عليه، ورأى في إشاحته شبحًا يتهادَى من بعيد، وهتف يُداري ما هو فيه: «إنّه روبيل... لقد أتى روبيل يا أبي». واقترب الشّبح، شبح روبيل، كان يلهث، قد أكلتْه الطّريق، وغيّرتْ لونه، ورأى فيه يعقوب نجاته من موتِ ابنه، وهُرِع إليه، وهو لا يزال يضمّ قميص يوسف بين يدَيه: «يا روبيل.. أخبرْني يا روبيل، ماذا حدث ليوسف؟». ولم يجبْ روبيل بكلمة، كان مُنهكًا، وبائِسًا، كأنّ أحزان الدّهور قد حطّتْ صخورها السّوداء على كتفَيه. وجالَ ببصره في وجوه إخوته، فعرف أنّهم قد أدّوا مهمّتهم كما ينبغي، والتقتْ عيناه بعينَي يهوذا، وقالتا له كلّ شيءٍ، وحذّرتاه من أنْ يغيّر شيئًا في الخُطّة، وعاد يعقوب إلى روبيل يسأله من جديد: «أخبرني يا روبيل، أنتَ أكبر أبنائي، وأقربهم منّي، وأصدقهم حديثًا، هل صحيح أنّ الذّئب قد أكل يوسف؟». ونكّس روبيل رأسه، ولم يقدر على أنْ يقول حرفًا واحِدًا، وجذبه يعقوب من كتفه بشدّة: «هل أكله يا روبيل؟». وهزّ روبيل رأسه بالموافقة، وجحظتْ عينا يعقوب، وانقطعتْ أنفاسه، ودارتْ به الدّنيا، وانهار آخر أملٍ له في تكذيب أبنائه، لقد قال روبيل برأسه أنّ ابنه قد صار في بطن الذّئب، ولفّتْ به الأرض وسقطَ مغشيًّا عليه.

كانتْ سَقطة يعقوب على الأرض قد غيّرتْ دروان الأرض، ارتجّتْ، ارتجفت، ارتعشتْ، انقبضت، ارتبكتْ، انهمرتْ، و...، وبدا أنّها بكتْ مثله، أو سقطتْ معه في مدارٍ آخر، أو دارتْ في الاتّجاه المُعاكِس، أو أنّها توقّفتْ قليلاً حِدادًا عليه. واقترب منه يهوذا، ورشق

في وجه أبيه الماء فلم يُفِق، وهزّه من أكتافه فلم يتحرّك، وضغطَ بِجُمع يدَيه على صدره فلم يبدُ منه شيءٌ، ثُمّ وضع باطن كفّه على مسافةٍ قريبةٍ من فمه فلم يشعر بنَفَسٍ يخرج منه، ثُمّ مدّ أصابعه وجَسّ بهما عِرقَ عنقه فلم يكنْ يتحرّك، فوقف وهو ينفض يديه، وهتف: «لقد مات!!». وسَكَنَ كلّ شيءٍ! ثُمّ انفجر من بعدُ صياحٌ كبير.

وهُرِعت النّساء إلى يعقوب وهنّ يُولوِلْن، كان يعقوب لا يزال راقِدًا على الأرضِ دون حَراك. وعلتْ أصواتُهنّ، واختلط العويل بالأسئلة، والنّحيب باللّوم، والنّشيج بالخوف، ولم تبقَ أنثى صغيرةٌ أو كبيرةٌ إلاّ وبكتِ الشّيخ.

وحُمِلَ يعقوب إلى بيته، وسُجّي على فِراشه، ولم تكنْ تبدو منه حركةٌ واحدةٌ، لقد كان في عالَمٍ آخَر. ووقف روبيل عند رأسه، ونظر إلى وجه أبيه، ساكِنًا، بلحيته البيضاء، وعينَيه المُسبلَتَين، فلم يحتملْ هدأته، فغطّى وجهه بيَدَيه وخرج لا يلوي على شيء، فتلقّاه يهوذا أوّل خروجه من الباب، وقال له: «لا تبكِ كثيرًا، عُدْ، لي كلامٌ معك». وتركه ومضى.

ووقفت النّساء على سرير أبيهنّ وعمّهن يبكين بصمت، وقد اتشّحتْ رؤوسهنّ بالسّواد، وسألت أكبرهنّ يهوذا: «هل مات؟». وهزّ رأسه بالإيجاب. فانخرطتْ في النّشيج، وطافَ عليهنّ يسألهنّ الخروج، وقالتْ له صغيرةٌ من الصّغيرات: «لقد قتلتَه». ونهرها، ثُمّ قذف بها إلى الخارج، وعلا صوتُه: «اخرجْن يا طوالع النّحس والشّؤم» ورمقْنه بنظراتٍ شزرة، وراح يدفعهنّ بغلظة، وخرجنَ وهُنّ يُغمغمْن بكلامٍ غير مفهوم.

وأراد روبيل أنْ يعودَ إلى البادية، إلى بئر أخيه، لعلّ أخاه ما زال هناك، لعلّه لم يمتْ، لعلّه يحتاج شيئًا. وخاف أنْ يكون - إنْ فعل - قد فقدَ أباه وأخاه الصّغير، وفضّل أنْ يظلّ ليتبيّن الأمر. وكان تائِهًا، ممزّق الشّعور، تشتجر في أعماقه آلاف الرّماح، وأحسّ أنّ طعناته لا يُمكن حصرُها، ولا يُمكن أنْ يُوقفَ نزيفَها، وفكّر أنْ ينام، ولكنْ هل ينامُ ذو هَمّ!! وحوّل رجلَيه الذّاهبتَين إلى غرفته، فذهب خارجَ الحيّ، واختار شجرةً قصيّة ليجلسَ تحتها، أسندَ جذعه إلى جذعها، وراح يبكي بصمت. وفكّر في كلّ ما جرى من صباح هذا اليوم إلى هذه السّاعة من اللّيل فنمتْ أشجار البؤس في روحه، وهمّ بأنْ يذهبَ إلى أبيه، ويهمس في أذنه بالحقيقة، لكنّ صُوَر إخوته يهوذا ولاوي وشمعون انتصبتْ أمام خياله، رأى مناخيرهم تنفثُ بالنّار، وعيونهم تقدح بالشّرر، فتراجع.

وعادَ قاصِدًا غرفةَ أبيه، فوجدَ أنّ إخوته جميعًا قد أَوَوْا إلى فُرُشِهم، وناموا كأنّ شيئًا لم يحدث، وتساءل في أعماقه: «كيفَ يستطيعون فِعْل ذلك؟!»، وأحسّ للحظةٍ أنّه في حلم، أو أنّ هؤلاء الّذين خرج معهم في الصّباح ليسوا إخوته، أو أنّه لا يرى غير الأشباح، وراحَ يهذي... وجرّ خطواته الكسيرة إلى غرفة أبيه، كانتْ لا تزال مُضاءَة، وقدّر أنّ أمّه (لِيا) أو بعض النّسوة موجودات في الغرفة، ولكنّه لم يكنْ يدْري أنّ يهوذا وحده يجلس فيها، وأنّه كان قد صرفَ كلّ النّساء منذ ساعة، ووقف روبيل على عتبة الباب، فلمحه يهوذا، فناداه: «تعال. لا أدري إلى متى سأظلّ أداري الطّفل الّذي في أعماقك... هل أنتَ أكبرُنا حَقًّا!!».

وجرحتْه الكلمات، لكنّه على عادته، تركَ جراحه تنزف، وراح يلعقها بشيءٍ من الانكِسار. واقتربَ أكثر، فرأى أباه ما زال على رَقدته الأولى،

وهمّ أنْ يبكي، أنْ يقول كلّ شيء، أنْ يصرخ، أنْ يضرب يهوذا، أنْ يعترف بعجزه، أنْ يذهبَ إلى أمّه ويرتمي تحت أقدامها، ويكشف كلّ شيء... لكنّه لم يفعلْ شيئًا من ذلك، وجلسَ على حافّة السّرير، ونظر في وجه أبيه، فرآه هادِئًا لا يبدو عليه أيّ أثرٍ لأيّ شيءٍ، لا حياة، لا موت، لا حزن، لا فرح، لا رضى، لا سخط... كان كلّ شيءٍ هو لا شيء.

وحَدَجه يهوذا بنظراتٍ قاسية، فحوّل عنه بصره، وقرّب أذنه من صدر أبيه يحاول أنْ يلتقطَ صوتًا لأنفاسه، لكنّه لم يسمع شيئًا، ونظر إلى أخيه يهوذا، وهتفَ بصوتٍ أقرب إلى هديل حمامةٍ تختنق: «ويلٌ لنا من ديّان يوم الدّين، ضيَّعْنا أخانا، وقتلْنا أبانا». ولم ينبسْ يهوذا ببنتِ شفة، لكنّه رسم على زاوية فمه ابتسامةً ساخرة!!

(١٦)
هل ترى؟!

«الجالسون في أرضِ ظِلال الموت أشرقَ عليهم نورٌ». والله نور. ولا نور إلاّ به أو منه أو فيه، وإذا أشرقَ وجه الله على أحدٍ فأنّى أنْ تغتاله الظّلمة؛ أليس في وجهه غنًى عن كلّ وجه؟!!

كيفَ تشعر بالطّمأنينة وأنتَ في الظّلام، وفي قَعْرِ بِئر مليءٍ بالهوامّ، وبعيدٍ عن البشر والحياة في بيداء شاسعة، لا يُدرَى ما يجري فوقَها، ولا أحدَ معك من الإنس، وتجهل ما يُمكن أنْ يحدث في اللّحظة التّالية، المستقبل غامض، والوحدة قاتلة، والوحشة طامّة، واللّيل سابر، والنّهار حُلم، والنّجاة غاية حائلة، والفوز طريدةٌ تعزّ على الإمساك، والجوع لصّ، والقاع خانق، والخوف دائرةٌ تضيق... في كلّ هذا كيفَ يشعر طفلٌ بالطّمأنينة؟! لم يسأله أحدٌ من قبل، إنّه يشعر فحسب. قال له الصّوت: «نمتَ ثلثَ اللّيل، الآنَ قُمْ أعلّمْك».

وجلسَ التّلميذُ أمامَ أستاذه، وسأله الأستاذ: «هل ترى؟». فردّ عليه الطّفل: «في اللّيل؟!». وأعادَ عليه السّؤال مرّة أخرى: «هل ترى؟!». ولم يجب الطّفل. وسادَ صمت. ولم ينطق المعلّم بكلمة. ولكنّ سؤالاً نبتَ في قلب الطّفل: «كيفَ أرى والطوفان جارف؟!». وفَهِم الأستاذ أنّه فهم، وابتسم، ورأى نور ابتسامته في الظّلام فازداد طمأنينة، وقال الأستاذ: «الطّوفان الجارف لم تنجُ منه أمّة، ولا نبيّ، ولا عصر،

ولا مكان... لكنّ الله يصطفي مَنْ يشاء». وقال الطّفل: «أنا بلا وطن، غريبٌ هنا كأنّني منقطعٌ عن كلّ شيءٍ». وأحسّ أنّه أغضبَ الأستاذ بهذه العبارة الأخيرة، ولكنّ خوفه من ذلك بَرَد مع ردّ الأستاذ: «الوطنُ أنت، ما يسكُنُكَ لا ما تسكُنُه؛ قلبُك، إيمانُك، فكرتُك عن الله، يقينُك، ضعفُكَ أمام قوّته، صبرُك على مِحنته، ثباتُك أمام طوفان الفتنة وهو يقتلع كلّ شيء. عقلُك الّذي لا ينام، فؤادك الّذي لا يسهو، وأنتَ... أنتَ؛ ألا تنظر إلى نفسك، ألا تفتّش عنكَ فيك». «وإخوتي؟!». «نالَهم من الفتنة ما نالَهم، كُلٌّ بحسب ما انْجبلَتْ عليه روحه، أو ما نبتَ في سوادِ قلبه». ونكّس الطّفل رأسه حُزنًا. «لقد رموني هنا وحيدًا». «الوحيد مَنْ لم يكن الله في قلبِه». «وأنا جائع». «الجائع من لم تُطعمه الحكمة». «والعطش؟». «لا يكون إلاّ إلى معرفته، وأمّا الماء فهو مبذولٌ لكلّ أحد». «فهؤلاء كلّهم عَطشى؟!». «نعم». «وكنتُ في أهلي مُكرّمًا». «المُكرّم مَنْ لم يُهِنْ نفسه بالتّعرّض للشّيطان». «إنّهم أقربُ النّاس إليّ». «الأقربون طعنتهم أشدّ، إنّهم يرمونك عن قُرب، ويصوّبون نحوك عن عِلم، يتدثّرون بدثارِك، ومن تحته يوجّهون إليكَ سِهامهم في الظّلام». «ولكنّ الخير فيهم». «الخير في النّاس أصلٌ، والشّرّ عارض. وحديث النّفس يُقرّب هذا أو يُبعد ذاك». «وإنّني في أذى». «إنّه حُبّ الله لك». «أيحبّني ويرضى لي كلّ هذا الألم؟». «إنّما يَمتحنُكَ ليُمحّصك، ويَختبرُك ليختارَك، ويَفتِنُكَ لِيفْتِنَكَ عن التّعلّق بسواه، ثُمّ يستصفيكَ له فلا يعودُ للشّيطان في روحك موضع». «هل ما أنا فيه من الشّقاء سيدوم؟». «لا شقاءَ إلاّ ما كان صورةً، لا شقاء إلاّ ما اعتقدتَ أنّه شقاء، وأمّا في قاموس الحقيقة فلا وجود لكلمة الشّقاء في الفانية».

وكرّر الطّفل - كأنّه لم يفهم - سؤاله مرّة أخرى: «هل ما أنا فيه من الشّقاء سيدوم؟». «لا شيءَ يدوم، لا الشّقاء ولا النّعيم، لا الفقر ولا الغِنى، لا الحُبّ ولا الكُره، لا الحداثة ولا الهرم، كُلٌّ في تغيّر مستمرّ، تطحنه رحى الزّمان، وتقذف به في أتون الموت». وسكتَ الصّوت. ولم يدر يوسف ما يفعل. وهَمّ أنْ يسأل أيّ سؤال، أنْ يقول أيّ شيءٍ، فقد أَنِس بالحديث معه، لكنّه شعر بالبرودة، لفّتْ غمامةٌ من الهواء البارد أنفاسه، وانقطع حبلُ الدّفء، فأيقنَ أنّ الصّوتَ لم يعدْ موجودًا، وسمعه يقول كلماتٍ أخيراتٍ، أتتْه من فوهة البِئر في الأعالي: «الرّؤى لا تليقُ بنبيٍّ خيرًا منك». فهتفَ به وهو يمدّ عنقه ويرجع جذعه إلى الوراء: «أيّها العالي علّمْني».

ومضى الثّلث الثّاني من اللّيل، وسمع أصواتًا كثيرة، ورأى عوالَم أكثر، وانكشفتْ له سُتُر، وأزيلتْ عن عينيه حُجُب، ونظر ما لم ينظر الخلق، ورأى من آيات ربّه الكُبرى، ودُهِش؛ إنّ البشر عُميان، لا يرون شيئًا، أينَ كان كلّ هذا المستور؟! المحجوب مَن حَجَبه الله عنه، الأعمى مَنْ عَمِي عن حقيقته، عن أنْ يراه في كلّ شيء، عن أنْ يُحدّثَ عنه كُلُّ شيء!! يا للعَظَمة!! إنّ ما كان يراه فوق الأرض، ليسَ مثل الّذي يراه هنا في باطنها، في قلبِها، أيكونُ أُلقي في جُبّ الرّؤيا، أتكون هذه البِئر مدرسته؟! إنّه يرى ما لا يرون، وتحرّكتْ بُقَعٌ كثيرةٌ صغيرةٌ مضُيئة بحركةٍ وئيدةٍ دائريّة في قاع البِئر، ورأى في كلّ نقطةٍ كوكبًا، ورأى لكلّ كوكبٍ مدارًا، ورأى فوقَ كلّ كوكبٍ عوالَم يزحم بعضُها بعضًا، وأحسّ أنّه قد شاهَد هذه العوالم من قبل، وأنّه كان جزءًا منها فيما مضى، وأنّ قرونًا سحيقةً تصعدُ من غور الماضي، الماضي الّذي كان فيه في عالَم

الذّرّ، تصعدُ، وتصعدُ، وتتشكّل، وتتبدّى له كأنّه يعيشُها اللّحظة، هل هو يتذكّر ما يرى أم يعيشُ ما يرى؟ هل جُلِبتْ إليه كلّ هذه العوالم، أم جُلِبَ هو لها؟ وأتاه الصّوت: «إنّكَ لم ترَ كلّ شيء، وإنّي مُعلّمك ما لم أعلّمْه أحدًا من قبلك، وإنّ ما تراه أنتَ في العالَم من الشّيء ذاته في اللّحظة ذاتها ليس بالضّرورة ما يراه الآخرون ولو كانوا أنبياء مثلك، إنّما يُرفَع من الحجب بمقدار درجة كلّ نبيّ، وإنّه لم يبلغْ ما بلغتَ إلاّ القليل». «ومتى سأخرج من هنا؟». «لن تخرج قبل أنْ تتعلّم كلّ ما شاءتْ لك حِكمتُه أنْ تتعلّمه». وسكتَ الصّوت، وحدّق في فوهة البئر نحو السّماء، وكان غَبَش الظّلام خُفّاشًا يخفق بجناحيه مبتعدًا، وكان اللّيل في رمقه الأخير، يهمّ أنْ يسكب ما تبقّى لكأسه من ماءٍ في فم الصّباح، وأجّله الله إلى حين.

في الحيّ كان يعقوب لا يزال مُسجًّى في الفِراش، ودخلتْ (لِيا) عليه، وكان يهوذا جالِسًا على كرسيٍّ في الغرفة مُتكِئًا بذراعه على حافّة النّافذة القريبة، مُرخِيًا رأسه وهو يغطّ في النّوم، وأمّا روبيل فكان جالسًا على طرف السّرير آخِذًا برأس أبيه السّاجي في حِجره وهو يمسح دموعه بين فينةٍ وأخرى، وتُسمع أصواتُ نَشَقَاته من حينٍ لآخَر، ولم تكنْ أمّهم تقوى على الوقوف، تجرّ رجلَيها جرًّا، وهتفتْ بصوتٍ خفيضٍ مجروح لكنّه يستعر بالألم: «قتلتمْ أباكم ورميتُم أخاكم للذّئب». ورفع روبيل رأسه نحو أمّه، وكان يسبح في الدّموع، قد بدتْ عليه آثار الإرهاق والأسى، ولم يقلْ شيئًا، لكنّ أمّه علا صوتُها فجأة: «ماذا ستقولون لله يوم الدّينونة؟!». وراحتْ تضربُ كَفًّا بكفّ، واستيقظَ يهوذا على صوتها، وفرك عينَيه بيدَيه، ونفضَ رأسه ليستعيد الصّورة

المُغبّشة أمام ناظريه، قبل أنْ يقف على قدمَيه، ويلفّ على جسده فروة الماعز، ويتنحنح: «لماذا تبكون؟». «ألا ترى ما نحن فيه؟». «أبونا حَيّ. مَنْ قال إنّه مات».

ومشى إلى النّافذة البعيدة، وفتَحها، ونظر في البيوت الّتي بدأ الفجر يوقِظها، وهتف مغتبِطًا: «إنّه السَّحَر». وفتح النّافذة أكثر، وتسلّلتْ نَسَمات بارِداتٌ مُنعِشات في الغرفة، وجالتْ كأنّها تبحثُ عن أحدٍ ما، ثُمّ طافتْ دورتَين قبل أنْ تدخل في أنفِ يعقوب، وعطس، ثُمّ زمّ شفتَيه، وحرّك ذراعه اليُمنى، وبأصابعه حَكّ أنفه.

وهتفَ روبيل من الفرحة: «إنّه حيّ... إنّه حيّ... أبونا لم يمتْ». وردّ عليه يهوذا مستخفًّا، وهو ما يزال يُحدّق في الصّباح الّذي يمشي الهُوينى بين الطّرقات لِيَهَبَ الأمكنة أنوارَه: «لقد قلتُ لكم ذلك من قبل». وفتحَ يعقوب عينَيه، فوقعتَا على روبيل، والتفتَ في الغرفة، وهتف بصوتٍ ضعيف مبحوح: «أين يوسف؟».

وصرخ يهوذا: «لقد قلنا لك إنّ الذّئب أكله، هل نسيت؟ أتريدُنا أنّ نذكّرك بموته في كلّ حين؟ ألم تقتنع؟ أليسَ عندكَ ما تقوله غير يوسف، ألا تدور على لسانك غير هذه الكلمة؟ يوسف... يوسف... يوسف... هل هو وحده الّذي يعيش في هذا البيت النّحس؟!» ثُمّ صفق النافذة بقوّة، وخرج.

ونظر يعقوب في عيني ابنه روبيل المُتورّمتَين، وقال له بصوتٍ متهدّج: «ألمْ آتمنك على يوسف؟ ألم أعهدْ إليك به؛ أنْ تحفظه من كلّ سوء؟ فلماذا ضيّعْتَ عهدي يا ولدي؟ ألستَ أكبرَ إخوتكَ المُوكّل

برعايتهم فَلِم تخلّيْتَ عن أصغرهم؟ ألم أقلْ لكَ هذه أمانتي بين يديكَ فاحفظها؟ فَلِمَ ضيّعْتَها يا حبيبي؟». وتلعثمت الكلماتُ في فمه، ولم يتمّ من شهقات البُكاء، وبكى معه روبيل، وشهقتْ لِيا شهقةً طار لها غراب اللّيل إلى شجرةٍ بعيدةٍ... بعيدةٍ جدًّا!

(١٧)
لا تَخَفْ

وصاح يعقوب: «وا أَسَفا على يوسف». ولم تجفّ له دمعة، ولم تبردْ له عين، وتركَ أبناءَه، وأخذ نَفْسَه بعيدًا كأنّه لم يعدْ يُطيق رؤيتهم، ولم يعدْ يُحبّ من الحياةِ شيئًا، وجاءه صوتٌ من السّماء: «أتهربُ لأنّكَ لا تُطيقُ الألم، فاعلمْ أنّنا سنُذيقُكَ بعضَه لكي تعرفَ نفسَك». ومَضى اللّيل، واستأذن الصّبحُ الحَيَّ بالقدوم، وهتف يعقوب في نفسه: «كيف يطلع الصّبح على هذا الحيّ وليس فيه يوسف!!». وانتشرَ شُعاع الشّمس باهِتًا، واستغرب يعقوب: «شمسُ اليوم غير شمسِ أمس. ما الّذي غيّرها؟!». وكان شحوبُ المكان دليلاً على خفوتُ نور عينَيه، لا على خُفُوت نور الشّمس. فالشّمسُ لا تعبأ بأحدٍ. ولم يدركْ بعدُ أنّ الحزن يفعل كلّ هذا؛ هل يُطفِئ الحُزن ضوءَ العيون؟ أنّى له ذلك؟ وجاءه صوتُ الحُزن نفسِه: «إنّ ضوء العينَين ينطفِئ إذا كان الحزن على من كان ضوء هاتَين العينَين». وتركَ حتّى زوجه، وذهبَ إلى كوخٍ صغيرٍ، وانتحَى خارج الحيّ، وفقد بهجةَ الماضي الغابر، ولم تشفع له ذكراه لإسحاق، ولا إبراهيم في إبلاله من أساه، ولا خَلَواته في المعبد اللّيالي الطوال، ورأى يعقوب في الكوخ المهدّم ما رأى يوسف في الجبّ العميق!

ومضى الإخوة إلى حقولهم ومواشيهم ومراعيهم كأنّ شيئًا لم

يكن، ورغا الجمل، وخار العِجل، ونبح الكلب، ونعقَ الغُراب في الشّجرة البعيدة، وضَرَبَ الضَّبُّ في الأرض يبحثُ عن رزقه، وزعق الصّغار وهم يدورون خلفَ المحاريث، ولهثَ يهوذا؛ «اللعنة»، ومسحَ عرَقَه، وسأل بصوتٍ خفيضٍ كأنّه لا يُريدُ أنْ يُسمِعَ أحدًا: «لماذا صرتُ أتعبُ بسرعة؟!». ورفعَ صوتَه يسأل لاوي الّذي كان يتمركز في أوّل الحقل يسقي الزّرع بالدّلاء: «أينَ روبيل؟». وهَزّ لاوي رأسه من بعيدٍ ليقول إنّه لا يدري، وأشارَ إلى الحقلِ الآخَر، قائلاً: «اسألْ شمعون». وهتف يهوذا في نفسه: «اللّعنة. لماذا عليّ أنْ أهتمّ بأمر روبيل إلى هذا الحَدّ؟ لماذا يجب عليّ أنْ أسألَ عنه كأنّه طفلٌ؟ ما شأني أنا؟». ولكنّه مسحَ عرَقَه، وملأ جوفه بالهواء، لينفثه بما أوتي من قوةٍ في رُوح سؤال عالٍ: «أينَ روبيل يا شمعون؟». ورفع شمعون الّذي كان يجني قطوف العنب الدّانية رأسه إلى أخيه، وأجابه بصوتٍ كأنّه الرّعد: «لقد ذهب إلى البادية». ودخلتِ الرّيبةُ صدر يهوذا، وراح يقفز كأنّه جندب بين أكوام التّراب والحشائش حتّى وافَى شمعون: «تقول لي ذهب إلى البادية؟». «نعم». «لماذا؟». «وما أدراني، الحقْ به واسألْه!!». «لعلّه مضى إلى البئر؟». «أو لعلّه أرادَ أنْ يهيمَ على وجهه... الحُزن يُنسي الإنسانَ نفسَه». وأخفض شمعون صوتَه، ثُمّ قرّب رأسه من أخيه: «إنّه لم ينسَ ما حدث أمس». «وأنتَ؟». «ماذا بشأني؟». «هل نسيت؟!». «أسرع مِمّا تَنسى النّخلةُ شكل الرّيح». وربّتَ يهوذا على كتف شمعون، وضحك، وعلا صوتُه بالضّحك، ثُمّ ضحك شمعون لضحكه، وتلاقتْ عيونهما، وأخذا يُقهقِهان بصوتٍ عالٍ!

وسقطتْ دمعةٌ على التّراب الرّملي، وغاصتْ فيه، ونبتتْ من تحته

شجرةُ ندمٍ صغيرة، رآها، إنّ جذعها أسود، وغصونها شوك، وثمرها يُشبه عُيونَ القطط الجائعة في اللّيل. ومضى، وسقطتْ دمعة أخرى، وغاصتْ في الرّمل، وداسَها هذه المرّة حتّى لا تُنبتَ شجرةً جديدةً من النّدم، لكنّها نبتتْ من تحتِ قدمَيه، ومن بين أصابعه، وتبرعمتْ كأنّها تتحدّاه، وبكى لأنّه لم يستطعْ أنْ يمنع نموّها، وتساقطتْ إثر بُكائه دَمَعاتٌ كثيرة، ونبتتْ في الطّريق الّتي يمشيها إلى أخيه شجراتُ ندمٍ كثيرةٍ، وأحاطتْ به من كلّ جانب، وشعر بأنّه في سجن، وعبثًا حاولَ أنْ يخرجَ منها، واعتمد على قوّة ذراعَيه ليقتلعها من طريقِه لكنّها تأبّتْ، وحمل فأسه على تلك الّتي تقف في فم الطّريق، وأهوى بها عليها، وأحدثَ لنفسِه فُسحةً ضيّقة، وعَبَرها بسرعةٍ قبل أنْ تنمو مكانها شجرةٌ أخرى، وراح يركض خائِفًا دون أنْ يلتفتَ خلفَه. وعندما ركزت الشّمسُ رمحها في قبّة السّماء كان روبيل قد وصل إلى البِئر، وهتفَ في البِئر: «يوسف». ونهضَ يوسف نهضَ معه الأمل: «أنا هنا». «أنا روبيل». «أخي!!». «نعم، أخوك». «فما فعل أبي؟». «مات، ثُمّ صحا من الموت، تركتُه بخير هذا السَّحَر؟». «فما فعلتْ أمّي؟». «إنّها لا تتوقّف عن البُكاء». «أخرجْني لأعودَ لهما». «ليتَني أستطيع». ورمى الصُّرّة: «إنّه طعامُ يومِك». «هل سيطول بقائي هنا؟». «لستُ أملك أيّة إجابة». «البرد في اللّيل شديدٌ هنا». «إنّه كذلك في كلّ ليلٍ». «أسمعُ عواء ذئبٍ من حينٍ لآخَر». «المنطقة لا تخلو من الذّئاب». «أعرف ولكنّ عُواء هذا الذّئب مُختلف». «ماذا تعني؟». «أرى أنّه سيكون سبيل خروجي من هنا». «الذّئب؟». «نعم». وطفرتْ دموع روبيل، وخاطبَ نفسه: «هل يكون الذّئب أحنّ على يوسف منّا؟!» وضيّقَ عينَيه: «ولكنْ

كيفَ يُمكن أنْ يُخرجَ الذّئب أخي من هنا...». وهَزّ رأسه: «لا بُدّ أنّ أخي بدأ يهذي... للظّلام والوحدة أحكام، ربّما... أو أنّ خيالَه الطّفوليّ واسِع...». وجاءَه صوتُ يوسف من القاع: «لا أهذي يا أخي، وليس خيالي واسِعًا... إنّني أرى ما لا ترى». ورجفتْ ساقَا روبيل، وجفّ حلقُه، وهتفَ مستنكرًا: «كيفَ عرفتَ ما يدور في خَلَدِي يا أخي؟!». وأعاد يوسف عليه عبارته الأخيرة: « إنّني أرى ما لا ترى». وتراجع روبيل، وشعرَ في ظهيرة النّهار بالخوفِ من أخيه، وهتف: «إنّ هذا الطّفل يُخيفني!!». وجاءَه صوتُ يوسف من جديد: «لا تخفْ يا روبيل». وتردّدَ صدى كلمتَين في قعر البِئر عشرات المرّات، لتصعد من فم البِئر، وتطوف الآفاق في المشرقَين، والصّوت إيّاه في أزمنةٍ متباعدةٍ يهتف: «لا تخفْ... لا تخفْ... لا تخفْ...». ولكنّ الخوفَ ثقبَ فؤادَ روبيل، الّذي لفظَ على مسامع أخيه كلمةً يتيمة: «سأعود». وأطلق ساقَيه للرّيح، عائِدًا إلى المزارع الّتي يعمل بها إخوته بقيّة النّهار.

ووقف يوسف على ساقَيه، ورأى الضّياء يغمر كلّ شيء، السّماء، والبِئر، والحجارة، وقلبه، وروحه، والجدران الّتي تنكفئ عليه، والهوامّ الّتي تسبح فيما تبقّى من ماء البِئر في القاع... ورأى كلّ شيءٍ قريبًا. حتّى الخروج من هنا، وأرادَ أنْ يجرّب؛ إنّه يرى هذه النّتوءات والتّجاويف في جدارن البِئر، لو أنّه غرز قدمَيه بالتّعاقب، وقبَض بكفّيه لاستطاع أنْ يُفلتَ من أَسْر البِئر، ولتمكّن من الخُروج، ونفّذ فِكرته على الفَور، وضع قدمه اليُمنى في أوّل تجويفٍ ممكن، واتّكأ عليها ليُمسِكَ بأوّل نتوء، وصعدَ قليلاً معتمدًا على ذراعه الممدودة، قبل أنْ تتحوّل الجِدران الصّخرية ذات النّتوءات البارزة إلى ملساء وسوداء ولَزِجة كأنّها مطليّة

بالقار، انزلقتْ يده، ووقع على الأرض دون أنْ ينجح في مهمّته، وحاول مرّة أخرى لكنّه لم ينجح أيضًا. وجلسَ على الصّخرة الصّغيرة القابعة في القاع، ونظر إلى الجدران فرآها جافّة تحمل التّجاويف والنّتوءات ذاتها، واستغرب، ثُمّ عنّ بباله أنْ يحاول مرّة ثالثة، ووقف في مواجهة الجدار، إنّه مثل جدار أيّ بِئر، يدعو مَنْ وقع هنا إلى تسلّقه، وعَزمَ على فِعْل ذلك، ومدّ كفّه، وشدّ بها ثِقله، فاختفت النّتوءات والتّجاويف فجأة، وانطلتْ بالقار، وأصبحتْ ملساء، وسقط... وهتف في نفسه: «إنّ هذه البِئر تَستبقيه، لا بُدّ أنّ في الأمر شيئًا». وصمتَ وهو ينظر إلى الجدار يعود إلى سابق عهده من التّجاويف والنّتوءات جافًا مُغريًا بالمحاولة من جديد، ثُمّ خاطبَ نفسَه: «هذه البِئر سِجن». وجاءه الصّوت هذه المرّة في النّهار: «لا سجنَ أقسى من سجن النّفس». وشعر بالألفة لعودة الصّوت، وسأل: «وهذا الّذي أنا فيه أليس سِجنًا؟». «كلاّ». وخافَ أنْ يسأل: «ما هو إذًا؟!»، فآثر الصّمت، وحوّل الحديث إلى جهةٍ أخرى: «خروجي قريبٌ من هنا، أليسَ كذلك؟». «الخروج سهل». «فما الصّعب؟». «أنْ تخرج من هنا قبل أنْ تُتِمّ قِسطكَ من الحِكمة».

ونظرَ يعقوب من نافذة كوخه، فرأى أبناءَه عائدين من الحقول، يسوقون أمامهم بعضَ المواشي، ويحملون على ظهورهم بعضَ أدوات الزّراعة، وتناهَى إلى سمعه أصواتُ فرحتهم بالعودة، كانوا يبدون أنّهم نَسُوا تمامًا، وتعجّب يعقوب كيفَ يعجن الحُبّ القلوب، وكيفَ يُقلِقها، وكيفَ يجعلها خاليةً إذا خلا منها، وتراءَى له شكل الذّئب الّذي أكل ابنه، إنّه يعرفُ هذا النّوع من الذّئاب، الأطحل، إنّه ذئبٌ شديدُ المِراس،

صلبُ الفَكّ، أنيابُه تمزّق جِلد ثورٍ، ورجفَ وهو يتخيّل لحم ابنه الطّريّ يتمزّق بين تلك الأنياب، وشهق، وتخيّل أبناءَه ذئابًا تأكل ابنه، ورجفَ مرّة أخرى، وتتابعتْ شَهقَاته، ودارتْ به الأرض، وسقطَ في البِئر.

ودار أبناؤه حول كوخه دن أنْ يدخلوا إليه، وتابَعوا مسيرهم إلى بيوتهم، وفوق الكوخ كان يحطّ غرابٌ أسودُ على علّيّة الكوخ، كان يرى ظهورهم وهي ماضيةٌ في طريقها دون اكتراث، ونعق الغراب، وتحرّك يعقوب في فِراشه، ثُمّ نعق الغراب من جديدٍ نَعَقاتٍ متتابعة حادّة، وصحا يعقوب على ضجيجها، وجال بعينَيه في أرجاء الغرفة، ورأى زوجته (ليا) تجلسُ قريبًا منه، وعيناها مُشفِقتان عليه، وبين يدَيها بعض الطّعام، وحوّل عنها بصره، واضطجع على جنبه الآخر مُعطِيًا لها ظهره، وكأنّه يقول: «لا أريدُ أنْ أرى أحدًا».

(١٨)
الحُزنُ لا يُعيدُ الفائِت

إنّها اللّيلة الثّالثة. الصّوت رافقه فيها أكثرَ من اللّيلتَين السّابقتَين. لقد كان يعرفُ أنّ ثمرة الحِكمة قد نضجتْ. في ظهيرة اليوم الرّابع سيكون الفرج. للفرج أشكالٌ كثيرة، أوّله لُطفُ الله، ثُمّ يصغر دونه كلّ شيء.

كان آخر ما قاله الصّوتُ له: «امضِ في طريق المعرفة، اسلُكْ درب الحكمة، تقدّمْ إلى الغاية، لا تلتفتْ ولو التفتَ القلب، إذا كانت النّجوم في انتظارك فلماذا تُطيل التّحديق في القاع؟! إذا كانت السّماء تمدّ ذراعَيها لك فلماذا تخلدُ إلى الأرض؟! الآنَ بدأتَ الطّريق إلى الله».

وبكى يعقوب. أحسَّ أنّ هذه اللّيلة كانت الأشدّ عليه مذ فقدَ يوسف، أحسّ أنّ قلبَه اقتُلِعَ من صدره. وسمع أبناؤه بكاءَه، فجاؤوه. قال له يهوذا: «عليكَ أنْ تعودَ معنا؟». «اتركوني وشأني». ردّ: «الحزن لا يُعيد الفائت، والدّموع لا تُنبت العُشب». فيردّ يعقوب معجونةً كلماتُه بالحزن: «لو كان غيرَ يوسف». فيأتيه روبيل، ويحتضنه، ويبدو يعقوب في حضن روبيل طِفلاً لا يستطيع منع نفسِه من البكاء: «ارحمْ نفسَكَ يا أبي». فيردّ: «لم ترحموها أنتم، فلماذا تطلبون منّي ذلك؟!». ويأتي صوت لاوي: «هل الدّموع تعيد لكَ يوسف يا أبي؟ إنْ كانتْ تفعل فدَعْنا نبكِ معك لعلّه يعود». «إنّما أسلّي بها نفسي». «إنّما تقتل بها نفسَك». ويغضب

يعقوب: «لماذا أتيتم إلى هنا؟ أنا لم أطلبْ من أحدٍ أنْ يواسيني. اخرجوا من هنا». وتشير لهم لِيا أنْ يخرجوا، ويبدؤون بالخروج واحِدًا واحِدًا، ويسأله يهوذا قبل أنْ يخرج: «بيتُك أكثرُ دفئًا وأمانًا من هذه الخَرابة، لو أنّك ترضى أنْ تعود». «كلّ البيوت سواءٌ يا بُنيّ... لم يعدْ بينها من فرقٍ بعد فراق يوسف... البيوت من دون سُكّانها موحشة، فكيفَ إذا كانتْ من دون يوسف...!!». ويتهدّج صوتُه. وتعلو نار الغضب في صدر يهوذا، ويحدّث نفسه: «هذا الشّيخ لن يكفّ عن ذِكْر يوسف حتّى يموت، ألا قاتلَ الله اليومَ الّذي عرفْنا فيه يوسف...». ونظرتْ ليا إلى يعقوب تحثّه أنْ يتوقّف عن الكلام خوفَ أنْ يوغرَ صدر أبنائِه، لكنّه يهتف: «لا أستطيع أنْ أمنع نفسي يا لِيا، ما الّذي تفعله الجرّة المملوءة بالحُزن إلاّ أنْ تفيض... إنّني أرى طعم الماء مُرًّا في فمي ومالِحًا يا لِيا...». وتقتربُ منه، تُسند رأسَه في حجرها، وتمسحُ عن خدّيه دموعه. وينظر شمعون إلى أمّه: «لم يعد الشّيخ يقوى على الشّيخ، إذا لم يعدْ إلى بيته، فسيأكله العثّ هنا، والبرد، والجوع... انظري إلى كلّ هذا... هل هذا بيت، هل هذا الكَنِيف يصلحُ للنّوم...؟!». وترمقه أمّه بنظرةٍ قاسية: «اخرجْ من هنا...». ويأتي صوت لاوي من خلفها: «علينا أنْ نعودَ... لدينا غدًا نهارٌ طويل». وودّ يعقوب الّذي كان مُغمضَ العينَين أنْ يقول: «إنّه لا أطول من اللّيل، وإنّه لم يطلع عليه صباحٌ منذ أنْ فقدَ يوسف». لكنّهم كانوا قد خرجوا.

ونام يعقوب، في اللّيل، رأى أنّ نورًا يخرج من باطن الأرض ويصعد إلى السّماء، كان النّور قد وصل إلى العرش، واحتار كيفَ يصعد النّور من الأرض بدل أنْ يهبطَ إليها، لكنّه مع ذلك شعرَ بشيءٍ من

الأمن. وقامَ في نومه يبحثُ عن القميص والحِزام، ورأى نفسه يسير بين الأزقّة، ويدخل الغرف كلّها، ويمدّ يده إلى مواضعهما فلا يعثر في كلّ مرّة إلاّ على الحِزام، أمّا القميص فلم يعدْ له أثرٌ. وعرفَ أنّه يحلم، وأراد أنْ يسأل الله أينَ صار القميص، لكن ما فائدة السّؤال عن الحقيقة في الحلم؟! فتراجع، وعادَ إلى كوخه النّائي، وأوى إلى فِراشه، كان يبدو أنّه لم يبرح مكانه، أنّ روحه هي الّتي طافتْ بدلاً عن جسده، وبَرِم بالأسئلة الكثيرة الّتي يُلقيها على نفسه، وشعر أنّ أفضلَ شيءٍ يفعله هو الصّمت، فصمت. ثُمّ استيقظَ في الثّلث الأخير من اللّيل، وتحسّس أطراف السّرير، وحدّق في الظّلام لكنّه لم ير شيئًا، واعتدل على حافّة السّرير، ومدّ يده، فأشعل السّراج القريب، وسقط النّور، لكنّه سقط من الأعالي إلى الأرض، انعكسَ الاتّجاه هذه المرّة، وكشفَ النّور ما تناثر في الغرفة الباردة والصّغيرة والّتي تخلو من كلّ شيء، وشعرَ بأنّه يسمع أنفاسًا كأنّها قادمة من تحت سريره، وقرّب النّور من موضع أقدامه، فرأى (لِيا) مُتكوّرة على نفسها تنام على الأرض دون غِطاء، ورقّ قلبُه لها، ورثى لحالها، ولم يكنْ يريدُ لها أنْ تبقى، لكنّها غافلتْه ربّما وهو نائمٌ ودخلتْ إلى هنا، وأيقظَها برفق، واحتاجتْ إلى وقتْ لكي تعرف أنّ يعقوب هو الّذي أيقظَها، وابتسمتْ على ضوء السّراج الّذي بدأ يَنُوس في يد يعقوب، فاختلج قلبه، وأخذت السّراج منه، وثبّتَتْه على أحد قوائم السّرير الأربعة، في الزّاوية القريبة من رأسِه، ثُمّ ساعدَتْه على النّهوض، وجَلَسا على حافّة السّرير، وسألها: «منذ متى وأنتِ هنا؟». فردّتْ: «لا تقلقْ...». واستغربَ من إجابتها، ثُمّ أردف: «لستُ قلقًا». «فماذا تُسمّي كلّ هذا؟». «حُزنًا». «أعلى فَقْد يوسف؟». «فعلى مَنْ

إذًا؟». «ولكنّ الأنبياء يُعلّمون النّاس الصّبر».

«إنّ مصيبتي فيه فوق الاحتِمال... أنتِ لا تُدركين ما أعني... لو وضع النّاس قلوبهم مرّة واحدةً مكان قلبي لأحسّوا، لكنْ كيفَ تُبدّل القلوب أمكنتَها؟!! يا لِيا إنّه نبيّ، وإنّ عهد النّور به سيبدأ، وإنّ تاريخ بني إسرائيل به سيَخلُد... فكيفَ ضاع رغم كلّ هذا...؟!». «فإنْ كان حَقًّا ما تقول، فلنْ نستطيع نحن أنْ نغيّر ما أراد الله». «أين بنيامين؟». «بنيامين؟». «نعم». «إنّه نائم». «أريدُ أنْ أراه». «الآن؟». «الآن».

«ولكنّه طفل، وهناك في الحيّ بعيدًا عن هنا، واللّيل سيرحل بعدَ حين، وسآتيكَ به في الصّباح».

«إنّني لا أطيق الانتِظار حتّى الصّباح، إنّني أرى فيه أخاه، أريدُ أنْ أهدِّئ به رعشة القلب قليلاً». «قُمْ صَلِّ يا يعقوب، خيرٌ من هذا الكلام، صَلِّ يا يعقوب، ما العمرُ يا يعقوب...؟! كيفَ سيمرّ؟! هل مرّ حَقًّا... انظر... الفجر سيطلع...». وقادَتْه إلى المِيضأة، وساعدَتْه في سَكْبِ الماء على ذراعَيه ووجهه، وأخذَ منها الإبريق حينَ أرادَ أنْ يغسلَ قدمَيه، فتأبّتْ.

وأصرّتْ أنْ تفعل ذلك بنفسها؛ فركتْ قدمَيه بيدَيها، وهمّتْ أنْ تقبّلهما، وشعر بدفْء المودّة يسري في عروقه، وصحا القلب، وطار عنه طائر الحزن إلى حين، وصلّيا. وأوى إلى فِراشه من جديد. وسألَها أنْ تجد لنفسِها شيئًا تتّقي به قسوة الأرض. ونام.

طرقَ بنيامين الباب. لم يتحرّك يعقوب في فراشه، نظر إلى الأعلى، رآه، هتف: «بُنيّ». أجابه الصّوت الطّفوليّ: «أبي». «اقتربْ يا بُنيّ».

لكنّه ابتعد. دُهِشَ يعقوب: «لماذا تبتعدُ يا بُنيَّ؟! تعالَ يا حبيبي، أريدُ أنْ آخذكَ بين ذراعَيّ». وسمعه يقول: «أنا آتٍ يا أبي». «ولكنّك تبتعد». واختَفى بنيامين، وفزع يعقوب، وشهقَ شهقةً أيقظتْه، واستندَ يتلفّتُ حوله، كانت الشّمس قد غمرت الغرفة بأكلمها، ونظر إلى (لِيا) فلم يجدْها!

(١٩)
هذا الذّئب يقول الحقيقة!!

قال لهم روبيل: «لو مرّت قافلة من جانب البِئر، فعلينا أنْ نشهدها». سأله يهوذا: «تريدُنا أنْ نذهب إلى البِئر؟». «نعم». «لأيّ شيء؟». «لنشهدَ رحيل يوسف». «هل أنتَ جادّ؟». «تمامًا». «ولكنْ مضى على إلقائنا يوسف في البِئر ثلاث ليالٍ، ما أدرانا ما صنع الله به، هل ماتَ عطشًا، هل لدغتْه أفعى، أم لسعتْه عقرب، أمْ نزفَ حتّى فارقَ الحياة...؟!». قاطَعه روبيل: «لم يحدثْ شيءٌ من هذا، إنّه حَيٌّ يُرزَق». «كيفَ؟!!». «أنا كنتُ آتيه بالطّعام والشّراب، وأُحادثه». والتمعتْ عينا يهوذا، وقفز كالمجنون في وجه أخيه، وجذبه من قميصه جذبةً شديدةً: «رمَيناه في البِئر كي نقتله، وأنتَ تُبقي على حياته». تخلّص روبيل بصعوبةٍ من أصابع أخيه القاسية، وهتف: «هوّن عليكَ يا يهوذا، تُصرّ على أنْ تكون قاتِلاً، تجلب الشّرّ لنفسك وأنا أحاول أنْ أُبعده عنك، تُمكّن الشّيطان من عنقك وأنا أحاول أنْ أفلتكَ من قبضته... أليس غايتك أنْ يبتعد يوسف عن وجه أبيك»؟!. «بلى». «وقد ابتعد.. ثُمّ ألم يكنْ هدفُكَ أنْ تُؤْيِسَ أبانا من حياة يوسف بإيهامه بموته وأنّ الذّئب قد أكله؟!». «بلى». «وقد فعلتَ». «فما الرأي إذًا؟». «لو بقي في قلبكَ شيءٌ من رحمة، أو في عقلكَ ذرّة من فَهم، فاتبعْني أنتَ وبقيّة إخوتك...». وزفر. ومضى حانِقًا، ومضى خلفه الآخرون.

ولمعتْ شمسُ الضّحى في وجوه القافلة، ورغت الجِمال السّائرة، وكان صوتُ أخفافها على الرّمل يشي بقرب النّهايات، يتكسّر من تحتها لطول عهده بالماء، ووُجِئ عِرْقُ الحُداة، فلم يقدروا على مواصلة غنائهم، وضجرت الإبل من بلاهة الإنسان، وودّتْ لو أنّه يفهم لُغتَها لكي تُغنّي بدلاً منه، فلا شيءَ يقطع الوقتَ كالغناء، ولا شيءَ يزرع الأمل مثله، ولا شيءَ يُعين على الصّحراء سِواه؛ كلّ شيءٍ صحراء. لقد مَشَوا طَوال اللّيل، لم يرتاحوا لحظة يبحثون عن الماء، وها هم... كأنّ وعدهم بالماء يسوقهم فلا يتوقّفون، وكأنّ جائزتهم بالظّفر به تنتظرهم في مكانٍ ما فيغذّون إليه الخُطا!! وانتصفَ النّهار، وشقّق العطشُ شفاه السّائرين، وجفّفت الحرارة أجوافهم، وسقطَ بعضُهم من الإعياء، وصاح أحدهم: «سيّدي مالك؛ لم نعدْ نحتملْ». ونَهَرَه: «اصبر قليلاً». وكان الرّجل قد غاب عن الوعي، وعوى ذئب. والتفتَ عُنُق مالك جهة الصّوت، وضحك قلبُه، ودار في خَلَده: «الذّئبُ حيثُ الماء». وأصاخ سمعه من جديد، وأشارَ للقافلة أنْ تتوقّف، وطلبَ منهم جميعًا أنْ يصمتوا، وسأل: «هل سمعتم ما سمعتُ؟». وتساءلوا عن كُنه هذا الّذي سمعه، لكنّه عاجَلهم: «الذّئب». وجاءه صوتُ الوارِد: «الذّئب؟ كلاّ. الذّئاب لا تعوي في النّهار». «بلى». «كيف؟». «تعوي إنْ كانتْ عطشى» صمتَ قليلاً وأردف: «عطشى مثلنا أيّها السّاقي؟». «وما يُفيدنا في ذلك يا سيّدي؟!». «اتبع الصّوت تجد الماء. الذّئب أعرفُ بالماء منّا، وسيقودُنا إليه». «ولكنّنا لم نسمع عواء أيّ ذئبٍ يا سيّدي». «ذلك أنّك لم تُصِخْ سمعك أيّها الوارد... هيّا اصمتوا لكي تسمعوا مصدر نجاتنا جميعًا». وصمتوا. ومرّتْ لحظات هدوءٍ لم تُسمَع فيها النّسمات،

وخُيّل إلى القافلة أنّها سَنَوات لطول ما حَبَستْ أنفاسَها... وأخيرًا قبل أنْ تنفجر فقاعة اليأس وتملأ الفضاء برذاذ الهزيمة عوى الذّئب، فقفزتْ قلوب القافلة فرحًا، ورقصتْ سِيقان الإبل، وحنّتْ كأنّها تسمع غِناء الحُداة. وأشار لهم مالك جهة الصّوت، وهتف: «هَيّا... إلى هناك». وساروا خلف الذّئب، وعجب مالك كيفَ يُمكن أنْ يقود ذئبٌ كلّ هؤلاء!!

وسار إخوةُ يوسف شَمالاً حتّى وصلوا الكثيبَ المُطلّ على البِئر، وسارتِ القافلة تتبعُ الذّئب جنوبًا. وتراءى الذّئب لعينَي مالك من بعيد؛ هل يراه حقًّا، أم أنّه سَراب؟ ومالَ على الوارد، وأشار إلى البعيد: «هل تراه؟». وضيّق الواردُ عينَيه، واحتاجَ إلى وقتٍ قبل أنْ يقول: «كأنّني أرى خيالاً يتراقص في ذرّات الهواء!!». وانفتل إلى رئيس القافلة فسأله: «هل الذّئب خَيال!!». وطلب منه مالك: «حدّق جيّدًا يا صديقي». وبدا الخيال أكثر تراقصًا في عينَي الوارد، وانفلتَ مالك منه إلى آخر، وسأله: «هناك، هل ترى؟!» وكانت الشّمسُ لاهبة، والعطش قد بلغ منتهاه، فردّ: «لا أرى شيئًا». وسأل ثالِثًا ورابِعًا حتّى سأل نصف القافلة، وقالوا: إنّهم لم يَرَوا شيئًا. وفجأةً عوى الذّئب، هل عوى الذّئب فيه أمْ خارجه؟! لم يكنْ مالكُ يدري على وجه الدّقّة، لكنّه لم يكنْ يملك خيارًا من أنْ يُصدّق عينَيه؛ إنّه لا يرى ما لا يَرون إذًا، وهذا الصوتُ دليلٌ على سلامة عينَيه، ولكنّه تساءَل: «لماذا لم يَرَوا؟!». وأتاه صوتٌ هاتفٌ لم يدرِ مصدره، لعلّه خرج منه: «إنّهم ليسوا عطشى مثلك، العَطَشُ إلى الماء يكشف الذّئب». وصاحَ مالك بصوتٍ واهنٍ: «إلى هناك». وسارت القافلة.

وكمنَ إخوةُ يوسفُ منبطحين على بطونهم يراقبون البِئر من خلف الكثيب. وعوى الذّئب من جديد، ورقص قلبُ مالك، وأشار إلى الوارد جهة الذّئب، وهتف: «ها هو». وصرخ الوارد من الفرح: «إنّني أراه». وصرخت القافلة: «إنّنا نراه». وأتبعهم مالك: «لقد قلتُ لكم». وأضاف الوارد: «إنّه أطحل؛ أشدّ الذّئاب فتكًا، وأسرعها، إنّه النّوع الوحيد الّذي يركضُ في خَطّ مستقيم». وقال مالك: «لن يؤذينا ما لمْ نُؤذِه». «ربّما من الجيّد أنْ نشتري أذاه ببعضِ الطّعام». «فكرةٌ جيّدة. هل تجيدُ لغةَ الذّئاب؟». «لماذا؟». «كي تقول له أنْ ينتظرنا».

وتراءى خيطٌ قادمٌ من بعيدٍ، بدا قاتِمًا يتهادَى كأنّه دودة تعلو بعضُ أجزائها وتهبطُ أخرى، وهتف روبيل بإخوته: «انظروا». وضيّقوا عيونهم: «خطّ أسود». «غصنٌ أملس». «أفعى تتلوّى». «غربانٌ تزحف». وحده روبيل قال: «قافلة...». ووقف على قدمَيه يرقصُ وهو يصرخ: «قافلة.. لقد قدمتْ قافلة...» وراحَ يركض في كلّ الاتّجاهات كالمجنون.

وصار كلّ واحدٍ يرى الذّئب. صارَ قريبًا جِدًّا، هتفَ مالك في القافلة: «إنّه أنيس. ذئبٌ أنيس، لا تمسّوه بسوء، إنّه الّذي أنقذَنا». واقتربَ منه مالك، ونظر في عينَيه، كانتْ عيناه تبدوان ودودَتَين كأنّهما عينا إنسان. وجثا مالك على رُكبتَيه، وخاطبَ الذّئب: «أنا صديقُك». ومدّ ذراعه اليُمنى ومسح بها على عنق الذّئب، فاستجاب الذّئب بإغماض عينَيه، وطلبَ مالك من أحدهم طعامًا، وقال للذّئب: «لا بُدّ أنّكَ جائعٌ... خُذْ». وقدّم له لحمًا. وهزّ الذّئب رأسه، ولوى عنقه، وقال

له مالك: «لماذا لا تأكل؟». وخُيّل إليه أنّ الذّئب يتكلّم كالبشر، وسمعه يقول: «أنا لستُ جائِعًا». وهتف به مالك: «هل تقبلني صديقًا؟». «بالطّبع». «أنا عطشان.. في الحقيقة القافلة كلها عَطشى...». «لم تشربوا ماءً منذ يومَين؛ أليسَ كذلك؟». «بلى. كيفَ عرفت؟». «لقد كنتُ أسير معكم منذ أنْ نفدتْ آخر قطرةٍ من الماء منكم». وتذكّر مالك عواء الذّئب في اللّيلتَين الأخيرتَين، وهتف في نفسه: «هذا الذّئب يقول الحقيقة!». ونظر في عينَيه من جديد: «رافقْتنا كلّ هذه المسافة؟». «نعم». «ولكنْ لماذا؟». «لكي أدلّكم على هذه البِئر». «لأنّنا عطشى؟». «بل لأنّ الله جعلكم عطشى من أجل أنْ أدلّكم، كيفَ لم تحتاطوا للماء؟ كيفَ فات رئيسُ قافلةٍ خبيرٌ مثلك أنْ يحتاط للماء؟». وشعر مالك بنفاذ السّؤال الجارح إلى أعماقه. وتذكّر القِرَب الّتي فُقِدت في الرّمل، وتلك الّتي هرب بها جمَلٌ آخر، ولم يُرِدْ أنْ يدخل في نقاشٍ مع الذّئب ينكشف فيه أكثر، فسأله: «قلتَ إنَكَ رافقْتَنا لتدلّنا على البِئر؛ أعَلى هذه البِئر بالذّات؟». «على هذه البِئر بالذّات؟». «فَلِمَ، والآبارُ كثيرة؟». «ستعرف بنفسك. ليسَ من الحِكمة أنْ يقول المرء كلّ ما يعرف». وحضنَ الذّئب، واستغربَ رجال القافلة مِمّا رأوا، ودُهِشوا أكثرَ عندما رأوا ذراعَي الذّئب الأطحل تعانقان الرّجل كما لو كانتا تُعانِقان صديقًا قديمًا غابَ زمنًا طويلاً ثُمّ ظهر فجأة. وتراجع الذّئبُ خطوتَين إلى الوراء، واستندَ على قوائمه الأماميّة، وهتفَ بمالك: «إذا وجدتَ في البِئر شيئًا فلا تُفرّطْ فيه». وخاطبَ مالك نفسه: «ماذا يُمكن أنْ أجدَ في البِئر أثمن من الماء؟!». ورجا ألاّ تكون جافّة، وألاّ تكون مهجورة تلعبُ فيها الهوامّ. وسأله مالك: «منذُ متى وأنتَ هنا؟». «لا زمن لي. جِئتُ لغاية وأعيش

لغاية وأعودُ لغاية». «فهلاّ رافقْتَنا؟». «أودّعك هنا، غايتي معك انتهتْ، وهناك... البِئر... كلّ ما أرجوه منك أنْ تكون ذكيًّا في التّعامل مع ما يواجهك». وركَضَ الذّئب، واختفى.

ورأى إخوة يوسف جزءًا صغيرًا من القافلة ينفلتُ منها، «إنّه دابّة» قال يهوذا. ردّ لاوي وهو يضع كفّه على جبهته، ويُحِدّ نظره: «كلاّ، إنّه ذئب». وسأل شمعون: «هل أنتَ متأكّدٌ من أنّه ذئب؟». وأتبعه روبيل بسؤال آخَر: «ماذا يفعل ذئبٌ في قافلة؟». ولمعتْ عينا يهوذا: «نعم إنّه ذئب، الخُطّة اكتملتْ. الآنَ سيُصدّقنا أبونا إنْ لم يفعلْ سابِقًا». وتساءَل لاوي ببلاهة عن جملة يهوذا الأخيرة: «ماذا تعني؟». سنصطادُ هذا الذّئب ونأتي به إلى أبينا على أنّه الّذي أكل يوسف؟ ألا يُشبهه؟». أجاب شمعون: «كلاّ، كيفَ يُشبهه ولم نره من قبلُ». ردّ يهوذا: «فسنجعله يُشبهه. هيّا لا وقتَ لدينا». وتساءل روبيل: «ماذا لديكَ يا يهوذا؟» وأجابه يهوذا: «أنتَ لا عليك. راقبْ ما نفعل فقط. أعرفُ أنّ جراحك أيّها الرّقيق لم تندملْ. نحن سنقوم بالمهمّة. شمعون يا ذا الصّدر العريض والقفا الأعرض، لاوي يا ذا الذّراعَين اللّذين يفتكان بكلّ ما يقع تحتهما، وأنتَ يا نفتالي أعرفُ أنّكَ أسرعُ من الذّئب، وأنا...؟ ماذا عنّي؟ أستطيع أنْ أصيبَ بسهامي كلّ شيءٍ، حتّى ولو كان نقطةً صغيرةً تتحرّك بسرعة في الظّلام... هذا الذّئب هدفنا... سنصطاده ونأخذه إلى أبينا...». وركَضَ الذّئب جنوبًا حيثُ يكمن إخوة يوسف، وصرخ يهوذا من الفرحة: «إنّه يتّجه نحونا، سيكون صيدًا سهلاً». وذُعِر روبيل: «إنّه يسير إلى حَتْفه... أرجوكم دَعُوه وشأنه». واستغرب لاوي وشمعون من أخيهما، وقهقه يهوذا: «لماذا أنتَ أرقّ من خدّ الوردة؟ هل

كان الذّئب أخاك؟ هل تعرفه من قبل؟ إنّه مجرّد حيوان؟ فلماذا تُشفق عليه كما تُشفق الأمّ على صغيرها؟». «إنّه ليس ذئبًا عاديًّا؛ إنّه أطحل، أشدّ الذّئاب فتكًا، إنّما أخافه عليكم». «لَكَمْ تُشبه أباك!!». ونفشَ شمعون صدره، واستعرض لاوي عضلاته، وجهّز يهوذا كنانته، وحدّق ثلاثتهم في الذّئب الّذي كان يركُض باتّجاههم كأنّه يقصدهم، واستغربوا جميعًا من فِعلته، لكنّه ظلّ يسير في خطّ مستقيم حتّى صار على مقربةٍ منهم، وجهّز خمسةٌ على الأقلّ سِهامهم استعدادًا لاستقبال الذّئب، حتّى الصّغار شاركوا إخوتهم، ولكنّ الذّئب لم يكنْ ليحتاج صيدُه إلى كلّ هذه السّهام المُصوّبة نحوه، سهمٌ واحدٌ فقط من كنانة يهوذا جعلتْه يخرّ مُضرّجًا في دمه، وركَضَ إليه شمعون ولاوي، وحجزاه في شبكةٍ من الخيوط. واقتربَ منه روبيل، وسأله: «لماذا جعلتَ نفسكَ عرضةً للسّهام؟!». وسمعه يقول: «إنّها ليستْ سِهام إخوتك، ولكنّها سِهام القَدَر؛ هي التّي ساقتْني إلى هنا، وهي الّتي رمتْني، والله ما تقدرون أنتم العشرة مُجتمعين عليّ لو أردتُ». ووُكِلَ به وهو ينزفُ إلى الصّغار يحرسونه. وعادوا يراقِبون القافلة الّتي تقتربُ من البِئر من خلف كثيبهم المُطلّ على المكان.

(٢٠)
كِلانا يَبكي فَقْدَ صاحِبِه

ووصل مالك مع القافلة إلى البِئر، وذهبَ الوارد مع عددٍ من السُّقاة راكضينَ إليها، وألقى الوارد دلوًا كبيرةً فيها، ورآها يوسف تهبطُ من علٍ، ووقف على قدمَيه، حتّى إذا صارَت الدّلو قُبالة رأسه، دَفَعها بلطفٍ إلى الماء الضَّحْل في قاع البِئر، وهبطَ بها إلى هناك، وملأها بالماء، وقال لنفسه: «لا بُدّ أنّهم عَطشَى، الدّلو الأولى لهم، والثّانية لي». ورفع الوارد مع السّقاة الدّلو الثّقيلة، وهتفوا عندما صارتْ قريبةً من الفم: «البِئر مليئةٌ بالماء». وهتفَ مالك في نفسه: «أرجو أنْ يكونَ ماؤها عذبًا». وملأ الوارد كؤوسهم، وشربوا، وصاح الوارد: «ما أعذبَ هذا الماء!!». وأَتْبَعه مالك: «لم أشربْ في حياتي كلّها أعذبَ منه، لكأنّه من ماء الجنّة!!». وتناهبت القافلة الماء، وشربتْ كلّها من دلوٍ واحدةٍ، وتعجّب مالك من أن تكون قافلةٌ بعدد الّذين معه تَرويهم دلوٌ واحدة. وصاح الوارد: «علينا أنْ نملأ الدّلو ثانيةً من أجل أنْ نحمل الماء معنا. ما زالت الطّريق أمامنا بعيدة». وأدلى دَلْوه، ورآه يوسف، وهتفَ في نفسه: «الآن دوري». وانتظر الدّلو حتّى استقرّتْ على الصّخرة الصّغيرة، وقفز داخلها، وهتفَ بصوتٍ لم يسمعه أحدٌ، لأنّه كان صادِرًا من داخله: «ارفعوا. أرجو أنْ أكون مفاجأةً سارّةً لكم». وشدّ السُّقاة الحبل؛ إنّه أثقل من سابقه؛ هل يكونُ ماءٌ أثقلَ من ماء؟! أمْ أنّ هذه

الدّلو امتلأتْ كما لم تمتلئ سابقتُها؟! واحتاجوا إلى معاونة آخرين، وسحبوا الدّلو، وارتقى يوسف، إنّه الخروج بعد ثلاث ليالٍ رأى فيها السّماء من القاع، رأى كلّ شيءٍ، وتعلّم دروسه كلّها هناك، وارتقت الدّلو أكثر، وبدا أنّ الشّمس انحنتْ، خفّفتْ شيئًا من لهيبها؛ فالطّفل العظيم قادمٌ، إنّما تنحني الشّمس لشمسٍ أعظمَ منها، أيّهما أكرمُ على الله؟ إنّما تعرفُ المخلوقات ذلك أكثر من الإنسان! وصعد يوسف، وشعرت القافلة كلّها ببرودةٍ مُنعشةٍ في الجوّ مع أنّ الظّهيرة كانتْ لاهبة، وبهتَ لونُ الشّمس، وقال مالك: «في البِئر سِرّ». وشدّ السُّقاة الحبل أكثر وهم يجهدون، وصارت الدّلو عند الفم، ورأوه؛ كان الوارد أوّل مَنْ رآه، فَاعْترتْه بَهتة، وعَلَتْه سَكتة، وفغر فاه من الدّهشة، وكادَ يُفلت الحبل لولا أنْ تداركَه السُّقاة الآخرون؛ من أين جاء هذا الملاك؟ وشدّ الآخرون الحبل حتّى يُخرجوا البشريّ الجالس من الدّلو. وتلقّاه الوارد بعينَين مفتوحتَين على اتّساعهما: «يا لَلجائزة؟!». وبلع ريقَه قبل أنْ يصيح: «سيّدي مالك... سيّدي مالك...» ويصيح معه بقيّة السُّقاة: «سيّدي مالك... سيّدي مالك...»، والتفت مالك إلى الصّوت، ومال إلى السُّقاة ولَغَطِهم، وسأل وهو يتلفّتُ حوله: «ماذا هنالك أيّها الوارد؟». «إنّه غلامٌ». «غلامٌ!!». «كأنّه البدر!». وركضَ مالك إليهم، ورأى ما لم يرَ من قبلُ، وهتف: «ما أجملك!!»، وأرادَ أنْ يسأله: «مَنْ أنتَ؟» فخرجتْ دون أنْ يدري: «ما أنت؟». ولم يُجب الطّفل بشيءٍ، ظلّ يتأمّلهم بهدوء كأنّه كان ينتظرهم منذ زمن، أو أنّه كان على موعدٍ معهم، واثِقًا، مُطمئنًّا، ترتسم بسمةٌ جذّابةٌ على شفتَيه. وسأله مالك: «ما اسمك؟». فردّ: «يوسف». وخُيّل إلى مالك أنّ صوته موسيقى، وأنّ

اسمه موسيقى، وأنّه أمام موسيقى، فسأله من جديد: «لماذا أنتَ في البِئر؟ منذُ متى وأنتَ فيها؟ مَنْ رماكَ هنا؟ أتكون قد سَقَطْت؟ كيف وصلتَ إلى هنا؟ هذه الأرض خاليةٌ من الحياة والنّاس...؟». سأله أكثر من عشرينَ سؤالاً دُفعةً واحدة، وهمّ يوسفُ أنْ يُجيب، ولكنّ مالكًا الّذي كان يراقب شفتَيه وهما تتحرّكان، سمع صوتًا آخر عاليًا قادِمًا من الجهة الجنوبيّة للبِئر: «إنّه لنا. اتْركه». والتفتَ مالك جهةَ الصّوت فرأى يهوذا، يأتي مسرعًا، وخلفه عددٌ من إخوته، وكرّر يهوذا صائِحًا: «دَعْه وشأنه». وتوجّه مالك إلى يوسف بالسّؤال وهو يشير إليهم: «هل تعرفهم؟». «إنّهم إخوتي». «إخوتك!!». «نعم». «ولماذا لم يُخرجوك من البِئر؟!». «لأنّهم هم الّذين رَمَوني فيها». «رَمَوكَ فيها!!». وندّتْ شهقةٌ عاليةٌ من صدر مالك، وعبرتْه سحابةُ شَكٍّ ثقيلة، ودار في خَلَده أنّ هذا الطّفل يكذب، كيفَ يُمكن أنْ يرميَ الإخوةُ أخًا جميلاً مثله، وهمّ أنْ يقول له إنّك كاذب، لكنّه لمّا أعادَ النّظر إليه أحسّ أنّ عينَيه صادقتان، بل شعر أنّه أصدقُ مَنْ يعيشُ فوق وجه الأرضِ كلّها، فتراجَعَ عن اتّهامه. كان إخوته قد وصلوا إلى البِئر في تلك اللّحظة، هتف يهوذا غاضِبًا: «أَعِدْ إلينا عبدَنا الآبِق». واستنكر مالك: «إنّه يقول إنّه أخوكم». «كاذب، إنّه عبدُنا». واقتربَ يهوذا من يوسف، وهمَسَ في أذنه: «لو تكلّمْتَ بكلمةٍ أخرى فسأقتلكَ أمام أعينهم جميعًا. لقد حانت الفرصةُ لنتخلّصَ منكَ إلى الأبد». واقتربَ منهما مالك، ومطّ الكلمات وهو يسأل مُستنكرًا: «لكنْ لماذا ترمون عبدًا جميلاً مثله في البِئر؟!». «لقد خالفَ أوامرنا، وأردْنا أنْ نعاقبه». «فترمونه في البِئر؟». «ونبيعه إذا تطلّب الأمر». «أتبيعونه حَقًّا؟». وأجاب يهوذا دون تردّد: «نعم نبيعه».

وأردفَ لاوي وشمعون بصوتٍ غليظ: «نعم نبيعه، فلم يعدْ لنا به حاجة». وزعقَ الصّغار بصوتٍ أشبه بصوتِ طيورٍ صغيرةٍ تُصدر صوتَها الأخيرِ قبل أنْ تبتلعها أفعى جائعة: «نعم نبيعه». وسكتَ روبيل، ولاحظَ ذلك مالك فسأله: «وأنتَ ألستَ أخاه؟ فماذا تقول؟». ونكّس روبيل رأسه، ولم يُجبْ. وأحسّ مالك بالنّشوة. وحدّث نفسَه سأشتريه، وتذكّر كلمة الذّئب الّتي رنّتْ في أذنه: «كلّ ما أرجوه أنْ تكون ذكيًّا». وأراد بالفعل أنْ يكون ذكيًّا، لكنّه لا يرى الذّكاء إلاّ في هذا اللّون، ولا يعرفُ على وجه التّحديد كيفَ يكون الذّكاء مع صبيٍّ غريبٍ ألقتْه يدُ الأقدار في طريقه بهذه الطّريقة الغريبة، فهتفَ وهو يصطنع التّردّد: «حَسَنًا سأشتريه». وردّ يهوذا: «ونحن بِعناه، كم تدفع؟». وأجاب مالك: «لا نملك الكثير من المال، وفي الحقيقة لسنا مُضطرّين إلى شرائه، والقافلة أنفقتْ كلّ ما تملك على ما اشترتْ من البضاعة...». قاطعه يهوذا: «خُذه بألفِ درهم، ليسَ غرضَنا أنْ نربحَ من وراء بيعِه، وإنّما...». وقاطعه مالك فاغِرًا فمه: «ألف درهم!! إنّها كثيرةٌ جِدًّا على طِفلٍ مثله». فردّ يهوذا: «إنّها لا تُساوي حِمْلَ بعيرٍ واحدٍ من بُعرانكم أيّها البخيل». وأراد مالك أنْ يصفعه على نعته له بالبخيل، ولكنّه كظم غيظه ليُتِمّ الصّفقة، فهتف: «أدفعُ عشرينَ درهمًا فيه، ولا أملكُ غيرَها». وابتسمَ يوسف، وقال في نفسه: «إنّها كثيرةٌ على حياةٍ تركتِ الموتَ وراءَها لتُتابع قَدَر الله... ما أنا إلاّ عارية؛ عبدٌ يبيع، وسيّد يستردّ». وسمع صوتَ أخيه يهوذا يهتف: «وأنا بِعتُك». ثُمّ رأى يد أخيه اليُسرى تمتدّ إليه تدفعه نحو مالك، ويده اليُمنى تقبض العشرين درهمًا، وعَدّها يهوذا درهمًا درهمًا، وصاح: «إنّها كاملة». ثُمّ رفع رأسه فجأةً

كمن تذكّر شيئًا، وهتف بمالك: «قيّده، فإنّه ذكيٌّ، وإذا هرب فلن تُمسِكوا به أبدًا». ونظر مالك إلى يوسف، وإلى يهوذا، وابتسم، ودارَ في خَلَده: «طفل في الثّانية عشرة أين يهرب إذا نحن دخلنا صحراء سيناء، الهرب يعني الموت». وجاءه صوتُ يهوذا يطرُق سمعَه: «لقد نصحتُك؛ قيّدْه كي لا يهرب». وسأله مالك: «سنكتبُ صَكَّ بَيْعٍ بيننا، لن أتركك تعود بالعشرين درهمًا دون أنْ نكتب صَكّ البيع هذا». وردّ يهوذا وهو يُودع العشرين درهمًا في جيبه مستبشرًا: «نكتب... هَيّا». وسأل يوسف مالكًا أنْ يخلو بإخوته قليلاً، وهزّ مالك رأسه، وانتحوَا جانِبًا، وقال يوسفُ وهو ينظر في وجوههم بصوتٍ يقطر رحمةً: «إذًا أودّعكم يا إخوتي»، وارح يوسُفُ يأخذ إخوته ويحضنهم واحِدًا واحدًا فلمّا اقتربَ من يهوذا دفَعَه يهوذا بقوّة فأسقطَه على الأرض، وصرخ به: «لستَ أخي»، فقام من سَقطتِه، واحتضنَ الصّغار وهو يقبّل رُؤوسهم، ويتشمّمُ قُمصانهم: «ما أشبهَ هذه القُمصان بقميصي!». ثُمّ احتضنَ روبيل، وشدّ روبيل على جسدِ أخيه، وهمسَ في أذنه وهو ينتفض من البُكاء: «سامِحْني». ولم يقلْ يوسف شيئًا، لكنّه نظر في أعينهم نظرته الأخيرة، وقال بصوتٍ دافِئٍ حنون: «حفظكم الله يا إخوتي وإنْ ضيّعتموني، نَصَرَكمُ الله وإنْ خذلتموني، رَحِمَكمُ الله وإنْ لم ترحموني». فضجّ في السّماء صوت حتّى كادتْ له الأرض أنْ تنشقّ، فأُمِر أنْ يهدأ فهدأ. ثُمّ عصفتْ رِيْحٌ حتّى كادتْ أنْ تسفي التّراب في وجوه القافلة فيعمَى كُلُّ مَن فيها، فأُمرتْ أنْ تهدأ فهدأتْ. ثمّ رَغَتِ الجِمال حتّى كادتْ أنْ تُلقِي ما في بطونها من دمٍ وفَرْثٍ، فأُمِرتْ أنْ تهدأ فهدأتْ. ثُمّ نظر كلّ مَنْ في القافلة إلى بني يعقوب يستعجلونهم، فإنّ السّماء تكاد

تنفطر، وإنّهم لا قِبَل لهم بها في السّماء ولا ما فوقَها، وإنّ السَّفَر طويل، والشُّقَّة بعيدة، والرّحل ظالع، والعَقَبة كَؤود.

وأسرع يهوذا إلى مالك: «فَلْنَنْتَهِ من كلّ هذا!». ونادى مالك على الكاتب، وجاءه، فقال له: «اكتبْ». فسأله الكاتب: «هل أُخرج الدّواة والحِبر؟». فردّ عليه: «نعم، وأشهِدْ عليه أعيان القافلة، ونفرًا من هؤلاء». وأخرج الكاتب صحيفةً رقيقةً من الجلد، قد دُبِغت باللّون الأحمر، وكتب: «هذا ما اشترى مالك بن دُعَر من بني يعقوب، وهم فُلانٌ وفُلانٌ مملوكًا لهم بعشرين دِرهمًا، وقد شَرَطوا أنّه آبِق، وأنّه لا ينقلبُ إلاّ مُسَلسَلاً مُقيّدًا، وأعطاهم على ذلك عهد الله». وقال مالك لإخوته: «شَهِدْتُم؟». فقالوا كلّهم بصوتٍ واحدٍ: «شهدْنا». ثُمّ سأل الأعيان الشّهود: «شهدْتُم؟». فقالوا: «شهدْنا». ثُمّ لفّ الكاتب الصّحيفة وربطَها بخيطٍ متينٍ من الكِتّان، وسلّمها لمالك، وهزّ مالكُ رأسَه فَرِحًا، ودَسّها في كُمّه. ورَكِب، ورَكِبَتِ القافلةُ معه. وسار كلّ فريقٍ بغنيمته؛ أمّا القافلة فبيوسف إلى مصر، وأمّا الإخوة فبالعشرين درهمًا إلى فلسطين!!

ووصل الإخوة إلى الكثيب، واطمأنّ يهوذا على أنّ الذّئب الّذي صادوه أو صادَ نفسَه ما زال في الشّبك في رعاية نفتالي، وهتف بهم أنْ يجتمعوا: «إذا كنتم إخوةً فاقتسموا». وضحك، وعدّ الدّراهم من جديد، وأعطَى كلّ واحدٍ من إخوته درهمَين، وهو يقول: «نصيبُكَ من جسد يوسف... خُذْ... نصيبُك من قلبه... خُذْ... نصيبُكَ من لحمه الطّريّ... خُذْ...». وسأل يهوذا روبيل عندنا وصل إليه: «وأنتَ؟ هل

تريدُ درهمَيك أم تُسامحنا بهما؟». فردّ عليه روبيل وهو يمدّ يده بثقةٍ لم يعهدْها من قبلُ: «بل أريدُهما؟». وضحك يهوذا: «لم أكنْ أعرفُ أنّك طمّاعٌ!». وشَدّ روبيل يده على الدّرهمَين، وقَبّلَهما، ثُمّ وضعهما في جيبٍ داخل قميصه بعناية، ونظر في البعيد، كانت القافلة تسير باتّجاه مصر، تاركةً خلفَها خَطًّا رفيعًا يكادُ ينمحي كأنّه حلم.

وعادوا بالذّئب إلى أبيهم. وسأل يهوذا وهم في الطّريق أخاه شمعون: «ألمْ يكنْ هذا الذّئب يعوي؟ ألم نسمع صوتَه من قبلُ؟». «بلى». «فلماذا سكتَ الآن؟!». «لا أدري. المهمّ أنْ نصلَ به حَيًّا إلى أبينا؛ إنّه شهادةُ براءتنا من دمِ يوسف».

وأقبل الإخوة على أبيهم فَرِحين، وقادوا الذّئب إليه، وهتفَ يهوذا: «ها هو!!». وسأل يعقوب: «ما هذا الّذي هو؟!». «الذّئب». «هل اصطدتُم ذئبًا!!». «إنّه الذّئب الّذي أكل يوسُف». وعوى الذّئب، وسمع يعقوب صوتَ أنّاته، وهتفَ بهم: «أطلِقوا سَرَاحه؛ هل جُنِنتم؟!». وصرخ يهوذا: «ألمْ يُعجبْكَ ما نفعل؟! يوسف وقُلنا لكَ إنّ الذّئب قد أكله. والذّئب وجِئناكَ به وأنيابُه لم تنشفْ بعدُ من دم يوسف؛ فماذا تريدُ أنْ نفعل لك أكثرَ من ذلك؟!». وكان جسده يرتجّ، وفي غمرة انفِعاله وحركة جسده المُضطربة، سقطَ دِرهماه من جيبِه، وتدحرجَا على الأرض، وكان رنينُهما حادًّا، وجحظتْ عينا يهوذا، وراحت نظراته تتابع الدّرهمَين وهو يُنغِض رأسه ويلوي عُنُقه ويُمهِم. ودرَجَتْ نَظَرات يعقوب هي الأخرى خلفَ الدّرهمَين اللّذين عبَرا من بينهم جميعًا وظلاّ يدوران وقتًا قبل أنْ يتوقّفا، ونظر يعقوب في وجه يهوذا:

«أبدراهم يُباع الحيّ؟!». ثُمّ نظر في وجه أبنائه الباقين: «لو انتظرتم لبعتم كرامتكم بأكثر». ثُمّ صاح بهم: «اخرجوا من هنا، أريدُ أنْ تتركوني مع الذّئب وحدنا». وخرجوا. وعمد يعقوب إلى الشّبك ففكّ الذّئب من أسرِه، وأطلقَه، وركضَ الذّئبُ بعيدًا، ثُمّ ما لبث أنْ عاد، وتعجّب يعقوب، ثُمّ وقف الذّئبُ ينظر في وجه النّبيّ، وحدّق يعقوب فيه نظره، «عيناه» وتساءل يعقوب في نفسه: «أين رأيتُ هاتين العينَين؟!». وحدّق فيه أكثر من أجل أنْ يتذكّر، لكنّه نسي والعَهْدُ قد يُنسَى. ثمّ سأله: «ألا تنجو بنفسك؟». وظلّ الذّئب صامِتًا، يتشمّم الأرض، ويقتربُ ببطءٍ من يعقوب، ويَتَبَصْبَص. ثُمّ هتف به يعقوب: «أيّها الذّئب ادْنُ». فدنا. ثُمّ أخذ يعقوب خرقةً مُبلّلة بالماء، وأخذ يمسح فيها الدّم حول فَكّيه، وينظر في أسنانه، ويحدّث نفسه: «أهذه الأنياب هي الّتي نهشتْ لحم ولدي؟!». ثُمّ قال للذّئب بصوتٍ مسموع: «أيّها الذّئبُ إنّي سائلك، فأجبْني إنْ كان الله يُنطِقك». فأحنى الذّئب رأسه، وجَثا يعقوب على رُكبتَيه، وألصقَ خَدّه بخدّ الذّئب، ودمعتْ عيناه وهو يسأله: «أيّها الذّئب؛ لِمَ فَجَعْتَني بولدي وأورثْتَني حُزنًا طويلاً؟». وردّ الذّئب بلسانٍ مُبين: «والّذي اصطفاكَ يا نبيّ الله ما أكلتُ لحمَه، ولا مَزّقتُ جِلدَه، ولا نتفتُ شعرةً من شَعَراته، وإنّ أقلّ الذّئاب فينا نسبًا لتأنفُ أنْ تغدر بأيّ إنسانٍ، فكيفَ إذا كان نبيًّا، وكيفَ إذا كنتُ أنا سيّد معاشر الذّئاب اليوم؟! ولقد أخذتُ العهد عن العسعاس فما نقضْتُه، وعرفتُ حدودَ الله فلم أنتهكْها، وإنّ الله حرّم أجسادَ الأنبياء على الأرض، أفيكون التّراب أكرمَ في احترام أجساد الأنبياء مِنّا؟! لا والله، وإنّا يا يعقوب لغريبان أنا وأنت، وكلانا يبكي فَقْد صاحبه، وإنّ الفَقْد

ليورثُ همًّا طويلاً، فصبرٌ جميل يا نبيّ الله، ولئن كانت شجرة الصّبر طويلة الأمد إنّه لا أحلى من ثمرتَها بعدَ ذلك، وإنّ الله لا يجمع على العبد عُسرَين، فَرَجٌ الخير، وإنّي عزمتُ على سفرٍ لعلّ الله يردّ عليّ ضالّتي». وبكى يعقوب والأطحل يقول كلماته الأخيرة، وشدّ خَدّه على خَدِّه، وسأله أنْ يبقى، فقال: «والله لا أبقى بين معشرٍ يَكذِبون كما يأكلون». وعلا صوتُ يعقوب بالبُكاء، وسأله إنْ هو عزم على أنْ يرحل أنْ يأتيه بأخبار يوسف، فقال الذّئب: «إنّما أشهدُ بما أعلم، وإنّما أُعطِي ما أملك، وإنّ الله رفعَ ذلك عنّي، وما من كائنٍ إلاّ بأمره فاعذرْ قلّة حيلتي». ومضى. وتبعتْه عينا يعقوب وهو يَعرُج في مِشيته، حتّى غاب عن ناظرَيه في أزقّة الحيّ.

(٢١)
إنّ اللّه إذا دعا أحدًا لبّى

وحُمِل يُوسفُ مُقيّدًا على قَتَبِ بعيرٍ في ذيل القافلة بغيرِ غِطاءٍ ولا وِطاء، ولم يكنْ عليه إلاّ قميصُه، وكان كلّما تمايل البعير تمايل معه ويداه مُقيّدتان بالسّلاسل فيكاد يسقط من فوقه، ونَسِيَ مالكُ أمره، ورفعَ عنه ذِكراه حتّى يصل إلى مصر فينظر ما يفعل به، وانشغل بأمر القافلة في المُقدّمة، وسارتِ القافلة كأنّها قَدَرٌ مُشتَهَى، أو غيبٌ مُنتَظَر، وفي الغد أسرارٌ لا يعرفُها إلاّ أهل الأسرار.

فلّما مضتِ القافلة زمنًا، أمَرهم مالك أنْ يتوقّفوا للرّاحة والطّعام. والتفتَ قلبُ يوسُف، هنا موطن الرّوح، هنا قبور الموتى، وعرف المكان من رائحته، ونظر خلفه فأدركَ أنّهم وصلوا إلى حيثُ أتى أبوه هنا قبل أربع سنوات واصطحبه وروبيل، ولم يصطحبْ غيرهما، كان بنيامين يومَها صغيرًا جدًّا لا يقوى على المشي، قال له أبوه: «إنّها مقبرة آل كنعان، هنا سُلالتهم، وإنّ أمّك قد دعاها الله إليه، وإنّ الله إذا دعا أحدًا لبّى، وما من أحدٍ يملك من الموتِ بُدًّا، ويومًا ما سنلقاها عند الله...». يومَها فقط تجلّى ليوسف معنى اسمه؛ الحزين. بَكى ولاذ بيدِ أبيه يحتمي بِها، وسأله: «كيفَ هو المكان الّذي ذهبتْ إليه؟». وأجابه: «إنّه أجملُ مكانٍ يُمكن أنْ تطأه قدما إنسان». ثُمّ سأله: «وكيفَ هو الله؟». «إنّه أحسنُ مَنْ يُكرِمُ ضيوفَه». وشعر يومَها بشيءٍ من الطّمأنينة، ولم يغبْ

عنه وجه أمّه من بعدها، ولا وهي تضع إصبَعها على الشّامة السّوداء الّتي تستقرّ في منتصف الخدّ تحت طرف العين في الجهة اليُمنى من وجهه، وتهتف: «ما أجملَها!!». فيضحك، ولا يدري ماذا يقول. وتضحك هي وتحتضنه طويلاً وتبكي، ولا يدري هو لماذا تبكي. نزل أبوه في القبر يومَها، وبقي هو من علٍ يُراقب، وطلبَ الأب من ابنه الأكبر روبيل يومَها - وكان ابنًا مُطيعًا أخذ من أبيه ثلاثة أرباع رحمته - أنْ يدفع إليه النّعش، وخُيّل إلى يوسف أنّ كفنَ أمّه أخضر رغم أنّهم قالوا إنّه أبيض، وأنّه يفوح بالعِطر، ثُمّ انزلق الجسدُ من يدَي روبيل إلى يدَي أبيه، ونظر يوسف في الحفرة فرأى فيها حدائق ذات بهجة، وتخيّل نفسَه يتجوّل فيها والدّهشةُ تتملّكه، وأهال أبوه التّراب على الجسد اللّيّن، وزرع بعض شتلات الياسمين فوقه، وبكى يوسف من جديد، وبكى الأب، وبكى أخوه الكبير، ولم يكنْ معهم أحدٌ سِواهم يومَها، وعادُوا أدراجهم على دابّتَين، أردفه أبوه على إحداها، وركب أخوه الأخرى. وها هو اليوم يرى هذه الشّواهد المُنتشرة في مقبرة أجداده، ويرى مواضعهم من الحقيقة، ومنازلهم من اليقين، وعرفَ قبرَ أمّه، دَلّه عليها قلبُه، بل لقد سمع صوتَها يُناديه، وتركَ يوسُفُ راحلته الظّالعة، وركضَ إلى القبور، تجاوزها حتّى وصل إلى قبر أمّه، عرفه من عرائش الياسمين النّديّة الّتي لم تذبل رغم مرور السّنوات، وأكبّ عليه يعتنقه بيدَيه المقيّدتَين ويتمرّغ به، وهو يبكي ويقول: «يا أمّاه، ارفعي رأسَكِ وانظري ما حلّ بابنِك، فرّقوا بيني وبين أبي، وباعوني بيع العبيد، وقيّدوني تقييد المُجرمين، وساروا بي إلى مكانٍ لا أعرفه». واهتزّ رمل القبر، وسمعَ يوسفُ أصواتًا كثيرةً، واختلطَ عليه الأمر، لكنّ صوتًا

غاضِبًا أتاه من خلف ظهره، يهتف: «هربْتَ أيّها العبد السّيِّئ» وركَضَ نحوه ورفسه في ظهره، سقط يوسف بعيدًا وهو يتأوّه، وأحسّ أنّه اختنق بأنفاسه، وشهقَ، وتأوّه آهاتٍ جريحةً، وركَضَ إليه الحارسُ من جديد: «تُغافل القافلة وسيّدنا مالكًا وتنتهز الفرصة لتهرب... تستغلّ طيبتي معك بأنْ تركتُكَ ترتاح لكي تفرّ يا عبدَ السّوء». وجذبه من ذراعَيه، وعادَ به إلى القافلة، ورماه كما لو كان رحلاً على القَتَب، ومضتِ القافلة، واجتمع في ذيلها عددٌ من عبيدها، ووخزه أحدهم بمخرزٍ في جنبه، فنزفَ دمُه ولوّن قميصه عند الخاصرة، وقال يوبّخه: «تهربُ؟! إلى أين؟! كُنّا أذكى منك عندما فكّرنا من قبلكَ بهذا، لكنّنا فشلْنا، وها أنتَ ترانا؛ العبوديّة ليست اختيارًا أيّها العبد الصّغير، العبوديّة قَدَر، فإلى أينَ تهربُ من قَدَرك، وهي إرثٌ مثلما تتركُ كلبةٌ جراءَها، وهي سِمة مثلما يكون هذا اللّون الأسودُ فِيّ، ارضَ بقدَرِكَ وإرثِكَ وسِمَتك مثلنا تعشْ أنعمَ حالاً وأهدأ بالاً» ثُمّ لَطَمَه على وجهه، فصرخ من الألم. وقال له يوسف: «لا تفعلْ، والله ما هربْتُ، وإنّما مررتُ بقبر أمّي فأحببتُ أنْ أودّعها... ولن أرجعَ إلى ما تكرهون». فهزئوا به، وقال له ذو المِخرز: «والله إنّكَ لعبدُ سوءٍ لم أرَ مثله من قبلُ، تدعو أباكَ مرّةً وأمّكَ أُخرى؛ فهلاّ كان هذا عند مواليك لعلّهم رَقُّوا لحالك!». وهمّ أنْ يلطمه من جديد، فرفع يوسف يدَيه إلى السّماء ورَجا: «اللهمّ إنْ كانتْ لي عندكَ خطيئةٌ أخلقتُ بها وجهي فأسألك بحقّ آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أنْ تغفرها لي وترحمني». فرجفَ العبدُ وإنْ لم يفهم، وتركه، ثُمّ ما لبثت الجِمال السّائرة أنْ توقّفتْ. ولم يدرِ أحدٌ ما الّذي أوقفَها، وراح الحُداة يحثّونها على السّير، ويُغرونها

بأعذب الألحان، لكنّها أبتْ أنْ تمضيَ خُطوةً واحدةً، ثُمّ رغتْ، جَملاً جَملاً، وناقةً ناقةً، وبعيرًا بعيرًا، ثُمّ راح رُغاؤها يتّحد في أصواتٍ جماعيّة، وعلا صوتُ الرّغاء حتّى أرجفَ قلبَ كلّ من كان في القافلة. ثُمّ أظلمتَ السّماء، وكانتْ لا تزال بينهم وبين النّهار مسافة، ولم يدرِ أحدٌ كيفَ تُظلم والشّمسُ لم تغب، وتلفّتَ الجَمْعُ حولهم وفوقهم ليعرفوا ما حدث فما فَهِموا شيئًا، وتطلّع كلّ من في القافلة إلى السّماء فإذا هي غُبارٌ كلّها، قد غطّاها حتّى لا يكادُ يُرى منها شيءٌ، ثُمّ سَفَتِ الرّيحُ الغبار، فراح يدخل في أفواههم ومناخيرهم وعيونهم، وتداركوها بالسُّعال، لكنّه كان أكثر من أنْ يُبطِئه سُعال الموبوئين، ولا نَفْضُ أيديهم الرّاعِشة، ولم يعودوا يُبصِرون، واختلطَ سُعالُهم وصِياحُهم بأصوات الدّواب، وتبعثروا في الأمكنة، وتقطّعتْ أوصالهم، وتشتّتوا فلم يعدْ أحدٌ يعرفَ مكان رفيقه، ثُمّ جمعهم مالك بما استطاع، وأمرهم أنْ يدوروا بالرّكاب حتّى تكون دائرةٌ فيحمي بعضُهم بعضًا ويعود ما انفلتَ منهم، وصرخَ بصوتٍ عالٍ: «أيّها الرَّحْل: مَنْ أحدثَ منكم أمرًا؟ فإنّني أسافرُ في هذه الطّريق منذُ عشرينَ عامًا وما أصابني ولا أصاب القافلة شيءٌ من هذا قَطّ... فمَنْ أحدثَ فيكم حَدَثًا فلْيقلْ». وصمتوا جميعًا، فصرخَ بصوتٍ أعلى: «إنْ بقيتم على الصّمت ستهلكون ونهلك جميعًا». وانبرى العَبد الأسود، وهتف: «لعلّه أنا، أنا لطمتُ ذلك العبد العبرانيّ فرفعَ يدَيه إلى السّماء وتكلّم بكلامٍ لم أفهمْه». فصرخَ به مالك: «ما أردْتَ إلاّ هَلاكَنا». ثُمّ دفعه عن وجهه، وسأل: «أين هو يوسف؟ ائتوني به. أين هو؟». فتقدّم منه يوسف، وهتف: «ها أنذا يا سيّدي». فقال له مالك: «يا يوسف، لقد لطمكَ هذا فجاءَنا ما رأيت؛ فإنْ كُنتَ تقتصّ فاقتصّ مِمّنْ

شِئت، وإنْ كنتَ تعفو فهو الظّنّ بك». فقال يوسف: «قد عفوتُ رجاء أنْ يعفو عنّي ربّي». فانجلى الغبار، وسكنت الرّيح، وسكتت النُّوق، وأشرقت الشّمس فيما تبقّى لها، وأضاءَت المشرقين، والتمّ شَمْلُ القافلة، وتقاطروا في أماكنهم، ثُمّ شَدّوا السّير في الدّرب إلى مصر، وهتفَ مالك في نفسه: «أيُّ غُلامٍ هذا؟!». وهتفَ كثيرٌ من أهل القافلة: «إنّه عَبْدٌ ملعون، جلبَ لنا الويلاتِ، ليتنا لم نبتعْه من بني يعقوب!».

ورجع مالك إليه فأمر بقيوده ففُكّتْ، ثّم قبّلَ جبهتَه، وهتف: «لن يُؤذيكَ أحدٌ وأنا معك». وراح يتملاّه وهو يمشي مع العبيد والخدم، وجعلَ يتفحّصه وهو من أمره في عجب، ونظر موطِئ أقدامه العارية الّتي تسير على الرّمال، فوجد أنّ قدمَيه نَدِيّتان، وخُيّل إليه أنّ الموضع الّذي تَطَؤه أقدام يوسف يخضرّ كلّما رَفَعَهما!! وتعجّب أكثر. وطلبَ منه أنْ يترك ذيل القافلة ومَنْ فيها من غِلاظ العبيد ويتبعه ليسير إلى جانبه، ومضى وهو يُحدّث نفسَه بكلامٍ كثير.

ودار الماء، فقال يوسف: «أنا أسقيهم يا سيّدي بيدَيّ». فأَذِن له، فطافَ عليهم واحِدًا واحِدًا، يقدّم لهم الكأس، وينتظر حتّى يشربوا، فلم يعطشْ في القافلة أحدٌ من بعدُ، وغنّى الحُداة أجمل أغانيهم، ورقصت الجِمال على إيقاع الغناء، وأحستْ أخفافُها بالرّمل يرفعها، وبدا أنّ الشّمس تضحك هي الأخرى، كلّ شيءٍ كان يتمايل طربًا، ونام كلّ أحدٍ في القافلة تلك اللّيلة وريشُ الرّاحة تحت رأسه، وكانتْ وجوههم في اللّيل تبتسم كأنّهم يرون أحلامًا ضاحِكة.

واستيقظت الشّمس، وَمَضَوا يطرقون الأرض كأنّما يطرقون

أبواب الغيب! كُلٌّ بحبل غايته مَقُود. وكان النّهار قد انتصفَ منذ فترةٍ ليستْ بالبعيدة. ومالك؟ ظلّ يرى الموت قبل أنْ يَرِد البِئر حتّى ظنّ أنّه سيهلك وقافلته من العطش. وأنّ التّجارة الّتي قضَوا فيها شهورًا طويلةً من العناء والتّعب والكدّ وبذل الأموال سيخسرونها في لحظةٍ فارقة، حتّى ظهر لهم هذا الملاك، «ما أجمل القَدَر الّذي خبّأتْه البِئر!!» وضربَ كَفًّا بكفّ وهو يُحدّث نفسه، ثُمّ تذكّر الذّئب، وتعجّب كيف استطاع أنْ يُكلّمه، ولم يفطن إلى ذلك من قبلُ، ولم يستطعْ أنْ يتبيّن فيما إذا كان ذِئبًا فيه طبيعةٌ إنسانيّة، أو أنّه إنسانٌ فيه طبيعةٌ ذِئبيّة؟! ولم يَدْرِ هل غلبتْ إنسانيّته ذِئبيّته، أم العكس؟ وهتف: «ما أحكمَه على أيّة حال!!».

وحاول أنْ ينسَى، ومضى ينظر في البعيد لعلّه يغفل عمّا دار في ذهنه، ولكنّ صورة الذّئب لم تُغادره، ونفضَ رأسه بقوّة، وتساقطتْ أفكاره من رأسه تساقط الماء الجاري يزلّ عن الصّخرة الملساء، وانعقدتْ فيه فكرة واحدةٌ فحسب، وغَمَرَه رُعبٌ بشكل مُفاجِئ، ولم يَدْرِ لماذا صار قلبه يخفق بشدّة كأنّه مُصابٌ بالبرد والوقت ما زال نهارًا، وتساءل: «ما يكون هذا الذّئبُ الّذي حادَثَني؟ أهو ذئبٌ حَقًّا أم شيطانٌ؟ أم إنسيٌّ أم جِنّيّ؟ أم... أم أنّني كنتُ أحلم؟!». ووقع في حيرةٍ شديدةٍ، وانقلبتْ سعادتُه في لحظةٍ خاطفة إلى غَمٍّ شديد، وشعرَ بغصّةٍ في حلقه، وخَدَرٍ في رجلَيه، وانقِباضٍ في قلبه، وحاول أنْ يستعيدَ الحِوار الّذي دار بينه وبين الذّئب، وبينه وبين إخوة هذا الغُلام، ففشل، وتذكّر أنّ الغُلام معه، وأراد أنْ يسأله، لكنّ عينَيه غامتا، وأحسّ بأنّ الأرض تدور به، واستجمع نَفَسَه ليصرخ بالقافلة: «توقّفوا... توقّفوا...». وتوقّفت القافلة، ولكنّه سقط عن النّاقة، وهُرِع إليه الوارد والسُّقاة والحُداة

والعبيد، وسكبوا على وجهه الماء لكنّه ظلّ في غيبوبته، وشقّ العبد الصّغير المُتجمهرين حول مالك، وطلبَ منهم أنْ يبتعدوا، وازدراه كلّ مَنْ في القافلة، وهتفَ بعضُهم في سِرّه: «ماذا يريدُ أنْ يفعل ذو العشرين درهمًا؟».

وهتفَ آخرون: «ماذا يُمكن أنْ يفعل من لا يُساوي خِطامَ بعير؟!». وسمع أصواتَهم الّتي تخرج من أغوار نفوسهم، وتبسّم، ولم يجد الوارد بُدًّا من الامتثال للأمر، بعد أنْ فشل هو والآخرون في إيقاظ سيّدهم، ووصل يوسفُ إلى الجسد المُسجّى على الأرض بلا حَراك، كانت القافلة كلّها قد توقّفتْ، وهجعت الدّوابّ، وأناخت الجِمال، وألقيتْ على الأرض بعضُ الرِّحال في انتظار ما تُسفِر عنه الأمور.. واقترب يوسفُ أكثر، وبدا أنّ الشّمس الّتي تهوي عن عرشِها في قبّة السّماء وتهمّ بالرّحيل جهة الغرب بِخُطًا حثيثة قد توقّفتْ في تلك اللّحظة هي الأخرى لترى ما يفعل هذا الصّبيّ، ولكي تجعل من النّور دليلاً على النّور، ومدّ الصّغير يده الّتي تُشعّ نورًا، ووضعها على قلب مالك، وراح يُتمتِمُ بكلماتٍ لم يسمعها أحدٌ من الرَّحْل أو الرّواحل أو الرُّحَّل، ولكنّ الله سَمِعها، وانتفضَ قلبُ مالك، رأى أنّه سقطَ في البِئر الّتي كان قد سقط فيها يوسف، وأنّ دلوًا مثل تلك الّتي أدلاها واردُه قد هبطتْ عليه من علٍ، وأنّه جلسَ فيها، وتعجّب كيف يُمكن لدلوٍ مهما كانتْ كبيرة أنْ تتّسع لجسده الضّخم، لكنّها اتّسعتْ، وبدأتْ ترتفع، وحينما خرج من البِئر وجد وجه يوسف، وتعجّب كيفَ لطفلٍ صغيرٍ مثله أنْ يشدّ دلوًا كبيرةً تحمل جسدًا ضخمًا مثله، لكنّه وجه يوسف، وجه هذا العبد العبرانيّ الآبق، وعلتْ دقّات قلب مالك، وفتَح

عينَيه، ووجد الوجهَ ذاتَه، وجهَ يوسف، الّذي أشرقتْ له ظُلُمات قلبه، وسعل وهو يستعيد أنفاسَه الّتي انحبستْ في أعماقه، وسمع صِياح الوارد والسّقاة والعبيد: «لقد استيقظ سيّدي مالك... لقد استيقظ». وفتح عينَيه أكثر، وتملّى هذا الوجه الملائكيّ، وسرتْ غمامة الطّمأنينه في جوارحه، ولفّتْه نسائم الرّحمة، ومدّ يوسف إليه يده مرّة أخرى وسَقاه، وقال له: «اشربْ... الماء عذبٌ لمن لمْ يشتكِ عِلّة في الصّدر».

ولم يفهم مالك ماذا كان يقصد يوسف، ولكنّه شرب فارتاح، واستوى جالِسًا، وكانت عيونُ الرّحل تراقب المشهد باستغراب، وهتفَ جمعٌ منهم: «إنّه ساحر... إنّه ساحر...». وتبسّم يوسف من جديد، وسارت القافلة على ما تبقّى من النّور.

وأردفه مالك على النّاقة الّتي يركبها، وحدجتْه عيونٌ كثيرة، وتقلقلتْ في الجوارح أسئلةٌ ذابحة: «أفأخرجناه من البِئر لكي يصعد إلى هذه الذّروة؟!». «كيف يقبل السّيّد أنْ يُجالِسه عبد؟!». وحَمِيتْ مشاعر كثيرين، وحسده الرَّكْبُ كلّه: «لم يمرّ على إنقاذنا له من بطن البِئر، بل وشرائنا له إلاّ بضعةُ أيّام فكيف يتساوى مع سيّده... لقد كدنا نهلك بسببه، وبدلاً من أنْ يُرمَى ويُهان يُرفَع ويُكرَّم». وتبسّم على عادته، لقد كان يسمع كلّ ذلك!!

واستأنس به مالك، ووجد فيه شيئًا من الألفة الّتي لا تُفسّر، وظلّ على ناقته يسأله، ويجد عنده ما لم يجدْ عند حكماء زمانه، وقال له يوسف: «لماذا تُسافِر في القوافل عابرًا الصّحارى والقِفار مُعرّضًا نفسكَ للأخطار؟». فردّ عليه مالك: «من أجل أنْ أحيا». «فاعلمْ أنّ الحياة

قوافل، وكلّ قافلة تضربُ في اتّجاه، وكلّ واحدٍ مِنّا يختار قافلتَه». فتعجّب مالك منه، ثُمّ سأله يوسفُ مرّة أخرى: «فإنْ ضاعت القافلة». «ألتمسُ لها دليلاً». «فكيفَ يكون هذا الدّليل؟». «عالِمًا بكلّ ذرّة رملٍ في هذه البيداء». «لكنّه يصيبُ مرّة ويُخطِئ أخرى، أليسَ كذلك؟». «بلى». «فإنْ أخطأ؟». «عرّضْنا أنفسنا للهَلاك». «فاعْلم أنّه لا دليل كالله، ولكنّه لا يُخطِئ، وإنّ مَنْ جعله دليله لم يهلك أبدًا». فزادَ منه عجبه!

(٢٢)
الطّمع شَرَكٌ قاتلٌ

وهبطَ ليل، وارتفع نهار، ثُمّ هبطتْ ليالٍ أخرى، وارتفعتْ نهاراتٌ مثلُها، هل عددُ اللّيالي منذ بدء الخليقة يُساوي عددَ النّهارات؟ أمْ أنّ اللّيل يزيد عن النّهار ليلاً واحِدًا؟ أم أنّ النّهار يزيدُ عن اللّيل نهارًا واحِدًا؟ مَنْ بدأ؛ الليل أم النّهار؟ مَنْ سبقَ الآخر؛ العتمة أم الضّياء؟ هذان الشّقيقان اللّذان جاءا من رحم الأبديّة تُرى مَنْ وُلِدَ منهما قبل الآخَر؟ هل وُلِدَا معًا؟ كيفَ يولد البياض والسّواد في اللّحظة ذاتها؟ مَنْ نزل من الرَّحِم قبل أخيه؟ وإذا كان من المُحتّم أنْ يكون أحدهما سبق الآخَر؛ فبكم سبقَه؟ بلحظة، أم بطرفة عَين، أم برمشة جفن، أم ببرهة لا تساوي معشار برهةٍ من معاشير لا تنتهي؟ لا يُمكن أنْ يكونا قد سَقَطا من تلك الرّحم معًا؟ ذلك أمرٌ لا يُمكن تخيّله؛ ذلك أمرٌ مستحيل؟ عند باب الرّحم مَنْ دافعَ الآخَر وزاحَمَه لكي يخرج قبله؟ يا الله... كيفَ يحافظ اللّيل والنّهار كلّ هذه الحِقَب السّحيقة على حياتهما، ولا يستطيع الإنسان أنْ يفعل مثلهما؟! كلّ ما يقدر عليه أنْ يأخذ حظّه من هذه اللّيالي والنّهارات، بضعة آلاف وينتهي كلّ شيءٍ. وقال اللّيل: «أنا سيّد الإيمان». وقال النّهار: «أنا سيّد العمل». وقال اللّيل: «أنا سيّد الحِكمة». وقال النّهار: «أنا سيّد المعرفة». وقال اللّيل: «أنا سيّد الهمسة الحانية». وقال النّهار: «أنا سيّد الغَضبة الحاسمة». وقال اللّيل: «أنا سيّد

الفلسفة». وقال النّهار: «أنا سيّد اليقين». وطال جِدالهما، ولم يغلبْ أحدهما الآخَر... وكلّما طال الجِدال انتظر النّهارُ اللّيلَ لينام، وكلّما خَبَا الجِدال انتظر اللّيل النّهار ليبدأ!!

وكان ليلٌ. وكانتْ صحراء. وكانتْ نجوم. فكشفت الصّحراء عن وجهها لترى النّجوم، وغطى اللّيل النّهار ليسمح للنّجوم بأنْ تلمع. وسأله مالك: «مَنْ أعطاكَ كلّ هذا؟». فأجابه يوسف: «الّذي أعطى كلّ شيءٍ خَلْقَه ثُمّ هَدَى». «تركْنا نجم الشّمال وراءَنا». «النّجوم دليلٌ صامت». «أيّهما أطول عمرًا النّجوم أم اللّيل والنّهار؟». «السّؤال عن أعمارهما مثل السّؤال عن عمر الشّمس والقمر». «فأيّهما إذًا أقدمُ الشّمس أم القمر؟». «إذا أجبْتَني عن زمانِ ميلادهما أجبتُك». «لو أدري لما سألتُك؟». «ولو أدري لأخبرتُك».

وضحك النّهار وهو يقود الشّمس من جهة الشّرق على ما تبقّى من زمن وصول القافلة إلى مصر. وضحك كلّ مَنْ في القافلة، لقد صارت مصر على مرأى البصر، وذلك هو النّيل من بعيدٍ يتراءى وعلى جانبَيه تنتشر مُدنٌ وبيوتاتٌ لم يُرَ في معمور الأرضِ مثلُها. وسأله يوسف: «هل تدري كيف يكون شكل قطعة المال؟». فردّ مالك: «دائريّة». «لم أقصدْ هذا، إنّما هيئتها؟». «مسكوكة وعليها صورة المَلِك بارزة؟». «لم أقصدْ هذا، وإنّما من أيّ شيءٍ هي؟». «من معدن؛ ذهبٍ أو فِضّة». «يا سيّدي؛ المال أفعى، ناعمة الملمس شديدة السُّمّ، فإنْ لم تنزعْ نابَها قتلتْكَ». ووجمَ مالك، لم يَدُرْ في خَلَده أنّ غُلامَه أرادَ هذا. وصمت، لكنّ صوتَ يوسفَ جاءه من جديد: «المال سيّدٌ مُطاع

للرّاقصة قلوبهم في معبده، يُغري التّائقين إليه، ويخطفهم من أنفسهم؛ فلا تقلْ لي إنّني أملك كلّ هذا المال، بل قُلْ إنّ كل هذا المال يملكني، المال سيّد الطّغاة؛ لأنّه يكسر كل طاغية، ويُذل كلّ جبّار، ولم يَدِن المال لأحدٍ إلاّ لمنْ تخلّص منه بإنفاقه، ولا سيّد للمال إلاّ ذلك الّذي تحرّر منه وحرّره، إنّه يُؤلم إذا زاد عن الحاجة أكثر مِمّا يُمتِع، ويُمرِض أكثر مِمّا يشفي، ويُحزِن أكثر مِمّا يُسعِد».

ومَضوا إلى مصر، وقال مالك للقافلة: «أخذتُ حقّي منكم كما أخذتم حقّكم منّي، ها هي مصر أمامكم، فمَنْ قصدَ بيته فلْترعه السّماء، ومَنْ قصد السّوق فالسّوق من هنا، وأمّا أنا فقد أحللتُ نفسي مِمّا استأمنتموني عليه وقد أوصلْتُكم إلى هنا سالِمين». وقال ليوسف: «دوننا النّيل». وقصَدَاه، وقال له مالك: «اغتسلْ يا يوسف وأذهِبْ عنكَ كآبة السّفر». واغتسل، واغتسلَ مالك، وغطسَا في النّيل حتّى شَرِبَهما، ثُمّ لبس يوسف قميصه، وطيّبه سيّدُه، ورجّل شَعره، فبدا هابِطًا مع الملائكة الصّغار من السّماء، وسأله يوسف: «هل ستبيعني كما اشتريتني يا سيّدي؟». وغضب مالك: «كَلاّ؛ أنا لا أبيعك ولو دفعوا لي وزنك ذهبًا». «فماذا تفعل بي؟». «أتّخذك صديقًا، ورفيقًا في الأسفار، ومُستشارًا». «مُستشارًا؟». «الحِكمة ليس لها عُمر». «أليستْ في التّجاريب؟». «يُخيّل إليّ أنّك جرّبْتَ أكثرَ مِمّا جرّبتْه القوافل كلّها في طَوَفانِها الأصقاع جميعها». «لا تُبالغْ يا سيّدي. هذه عينُ الحُبّ؛ لا يخرج من قلب المحبّ إلاّ الشّذا». «الشّذا للقلوب البيضاء، وأنتَ وردتي». «سيّدي؟». «قُلْ». «أليس معك صَكّ بيعي؟». «بلى». «فما تفعل به؟». «لا شيء، ماذا أفعل بجلدٍ رقيقٍ لماعزٍ ما دمتَ معي». «أهو هيّنٌ عليك

فأعطني إيّاه». «هو لك».

وناما في نُزُلٍ في أحياء مصر، وفي اللّيل طرقَ باب غرفته أحد الأصدقاء القُدامَى، طلبَ منه أنْ يرافقه في الخارج قليلاً: «سمعتُ أنّ لديكَ كنزًا». «ماذا تعني؟». «الغُلام العبرانيّ». «وما شأنُكَ به». «غدًا سوق العبيد الأكبر في مصر كلّها». «وما شأني به؟». «لا تكنْ غبيًّا؛ غدًا سيزور السّوق قطفير عزيز مصر، وسيدفع أموالاً طائلة في العبيد الّذين يُعجِبونه، وليسَ لديّ أدنى شكّ بأنّ غلامك العبرانيّ سيعجبه». «يوسف؟». «هل هذا اسمه». «نعم». «ومن غيره إذًا؟». «كلاّ، لقد وعدتُه أنْ يكون صديقي». «لا صديقَ أدفأ من المال». «سيكون مستشاري». «تهذي، المال يأتيك بكبار المستشارين». «إنّه طِفل». «لكنّه يُساوي الكثير، وعزيز مصر عِنّين». «وما علاقة هذا بهذا؟». «سيُسرّي عنه، يتخيّل أنّه ابنه مثلاً، يُضحكه، يلهو معه... أيّ شيء، ما شأننا نحن، المال غايتُنا». «ولكنْ». «لو رأيتَ الدّنانير الذّهبيّة ستُغيّر رأيك». «حَقًّا؟». «إنّ الذّهب يلمع في القلب قبل أنْ يلمع في العَين». «لا أتخيّل أنّني سأفعلها». «وأنا مثلك، ولكنّ للمالِ أحكامًا... ثُمّ بِمَ اشتريتَه؟». «بدراهمَ معدودة». «وأنتَ تاجر». «ماذا تعني؟». «ستربح ببيعه، ستربح الكثير، سينتهي بك أمر المسير بالقوافل، سترتاح، ستشتري بيتًا هنا على النّيل، وعبيدًا وخدمًا وجواري لا حصر لهنّ يُنسينك الدُّنيا وأعوامَ الشّقاء العشرين». «كلّ هذا بثمن هذا العبرانيّ!!». «أنا أعرف أنّه يساوي أكثر من ذلك». «ولكنْ...». «لا تكنْ عنيدًا، السّوق غدًا، وسيشهدها كبار التّجار والعزيز، ولن تُقام لأكثر من يومٍ، فلا تُضيّعْ

فرصةً تندمُ عليها طَوال حياتك». وهَزّ رأسه، وأخفضَ بصره، ولمعتْ الدّنانير الذّهبيّة في جمجمة رأسه كأنّها نجوم لا حصر لها في ليلةٍ دامسة في قبّة سماءٍ عالية، ورفع بصره إلى صديقه العتيق: «ربّما سأفعل». «ستفعل أنا أعرفك، وأنا متأكّد من أنّكَ ستفعل، من الحكمة أنْ تفعل، ولكنْ...». «ولكنْ ماذا؟». «لا تنسَ نصيبي؛ الأوفياء لا ينسَون». «وتُشاركني بهذا أيضًا؟!». «العُشر، أنا لا أطلب الكثير، وسأقول لك كم ثمن هذا العبرانيّ الجميل... الآن اخلُدْ إلى النّوم». وخرج صديقه، وعاد مالك إلى غرفته، وتلقّاه يوسف وهو مُستلقٍ على حَشيةٍ مهملةٍ في الزّاوية على الأرض: «بكم ستبيعني؟». وتلعثمَ مالك، وشجّعه يوسف: «هَيّا بكم ستبيعني؟». «لا أدري». «غدًا أعيانُ مصر في السّوق وكبار تُجّارهم فلا تكنْ أحمق». ورجف. وارتعشتْ أصابع يدَيه، وسلكَ الغضبُ طريقًا إلى شفتَيه، لكنّ الكلمات توقّفتْ قبل أنْ تخرج من فمه، وسكت وهو يتلمّظ. وأكمل يوسف: «سيدفعون مبالغ لا بأسَ بها ثمنًا لي، ولكنْ لا تقبلْ - كما قلتَ صباحَ هذا اليوم - بأقلّ من وزني ذهبًا». ورقصَ قلبُ مالك فرحًا، ونَسِيَ العهد، وقَطَع الوعد، وناما، كُلّ ينتظر غدَه!

ومضى مالك بيوسف إلى السّوق، وبدا نهار مصر في ذلك اليوم غير كلّ النّهارات، وسأل مالك نفسه: «أهذه مصر الّتي أعرفها منذ عشرين عامًا»، وتذكّر نفسه وهو صغير كيف كان يعمل عتّالاً لبعض التُّجّار المُتعجرفين، وكيف كانت الحِبال تحزّ ظهره، وكيف كان ينام على الأرض ويأكل من خَشاشِها، ثُمّ تذكّر ليالي البرد والمطر الّتي كانتْ تُمرضه، يومَ لم يكنْ أبٌ ولا أمٌّ إلى جانبه، لا قلبَ يشكو له همومه، ولا

حضنَ يُدفِئ به صقيع الغربة واليُتم، واليوم، ها هو صار يسوق القوافل لأصحابها، صحيحٌ أنّه لا يملك حتّى بعيرًا واحِدًا، ولكنّه يملك بعضَ المال من رعاية هذه القوافل في تجارتها، شيئًا يقيه شظَف العيش، لكنّ الحياة لا تُعطي كلّ ما في جيبها دفعةً واحدة، لقد عانى طوال عشرين عامًا من أجل أنْ يسمع صوت بعض النّقود الّتي ترنّ في جيبه، لكنّ هذا العبرانيّ قلبَ كلّ الموازين، إنّه سيّده، عشرون درهمًا استكثرها عليه يومَ اشتراه من إخوته؛ واليومَ بِمَ يُطالب لقاء العشرين درهمًا الّتي دُفِعتْ على تخوم فلسطين لإخوةٍ قالوا إنّ هذا العبد الأبيض الجميل قد هرب منهم، بكم يبيع عبدَه؟ ووقفتْ عشرون عامًا في مواجهة عشرين درهمًا، وتذكّر كلمة صديقه عن سعر عبده: «غدًا سأُخبرك». وعلم أنّه سيلقاه في السّوق أوّل وصوله إلى هناك وسيسمع منه كم سيطلب ثمنًا لهذا الغلام العبرانيّ، ولكنْ لماذا يذهب بعيدًا، ولماذا ينتظر حتّى يصل إلى السّوق ويرى صديقه؟! ألم يقلْ له يوسف كم يطلبُ ثمنًا له؟! لكنْ هل من المعقول أنْ أطلبَ هذا الثّمن؟ ولِمَ لا؟ هذا الفتى لم يكذبْ مرّة واحدةً طوال هذه الرّحلة الّتي قضاها معه، لم ينطق إلاّ عن حِكمة، ولم يَفُه إلاّ بصدق، فلماذا لا أقبلُ دعوته إلى سَوْم نفسِه، فهو يعرفها أكثر منّي وأكثر من عزيز مصر وأكثر من تُجّارها المُتعجرفين، وأكثر من سُوقِها وخَدَمِها، وأكثر من كلّ الأغبياء المُتبجّحين يوم العَرض في السّوق الّذين يرفعون أصواتَهم بالمُزايدات الفارغة، ويتنافسون في المظاهر، ومضى ومعه يوسف. وشقّ الجمع به إلى منصّة العَرض، وطلبَ منه أنْ يكون مهذّبًا، وتبسّم يوسف: «لا تخفْ يا سيّدي». «سامِحْني». وسأله يوسفُ بتهذيبٍ بالغ: «على ماذا يا سيّدي؟». «على

أنّني سأبيعك». «لا تقلق. العبدُ إذا ذهبَ إلى سيّدٍ حَسَنٍ فسيعيش كما يشتهي، وأنا اليوم أرجو أنْ يتشريني سيّدٌ ذو كرامة». «ألستَ غاضِبًا منّي؟». «أنتَ لا تفعل أكثر مِمّا ينبغي». «وهل ينبغي عليّ بيعُك». «كلُّ يبيع نفسَه يا سيّدي، كلّ يعرضها على مَنْ يشتري، وليستْ هنا المُشكلة، المُشكلةُ لمن تبيعُ نفسَك!!». وصمت مالك، وأحسّ أنّه مغبون، وأصابه العَجَبُ من جديد، ونظر في عينَي يوسف، ولَمَعَتا تحت جفنَيه، برّاقتَين واسِعتَين دعجاوَين كأنّهما لا تنتميان إلى البشر، بل هما عينا إله، وغاص فيهما، وسبَح، ونسي نفسه، وأيقظه صوتٌ خَشِنٌ من خلفه: «أينَ كنت، لقد بحثتُ عنكَ طويلاً؟!». والتفتَ فإذا هو بصاحبه، وهتفَ به: «هل حان دورُ عبدِك؟!». ونظر مالك، فإذا أمامه جاريةٌ تُباع، وهتف: «بعدَ هذه الجارية». «بكم نويتَ أنْ تبيعه؟». «لا أدري، لم أستقرّ على رأي، ولكنْ ألم تقلْ إنّكَ ستُخبرني اليوم عن السّعر المناسب؟». «بلى، الأفضل أنْ تدعه للمزاد، دع أفواه المُزايدين ترفع السّعر، وامتلك حِسّ الفُكاهة والمعرفة من أجل أنْ تُسوّقه للمشترين، صحيحٌ أنّ عبدك العبرانيّ سلعةٌ مُشتهاة، وبِضاعةٌ تسوّق نفسَها بنفسِها، لأنّه أجمل ما يُمكن أنْ تقع عليه عينا إنسانٍ، ولكنْ بعضُ البضائع لا تحسنُ في عينِ شارِيها إلاّ إذا أحسنَ البائع الحديثَ عنها». «هيه.. ثُمّ؟». «ثُمّ دع المُزايدين يرفعون السّعر وأنا سأساعدك عندما أندسّ بينهم على رَفْعِ السّعر، وبكلّ الأحوال لا تقبل بأقلّ من عشرة آلاف درهم فِضّية... فهمت؟ لا تقبل بأقلّ من ذلك.. والآن سأذهب إلى صفوف المُزايدين، فقد بيعت الجارية وحان دورُنا». ووقف يوسف، وهمس في أذن مالك: «صاحبك لا يعرفُ شيئًا، تذكّرْ ما قلتُه لك». ودفع مالك

بيوسف فأصعده على منصّة العَرض، وصاح: «عبدٌ وسيمٌ من أرضِ كنعان ينفع في كلّ أمر». فتطلّعتْ إليه الأعناق، ورَنَتْ إليه العيون، وهزّ بعضُهم رأسه: «أمّا وسيمٌ فنعم، وأمّا ينفع في كلّ أمرٍ فلا أحدَ يعرفُ إلاّ بالتّجريب». وهَمهَمَ آخرون، وهتف مُشترٍ: «أدفعُ مئة درهم نحاسيّة». وكاد مالك يبصق في وجهه: «مئة درهم نُحاسيّة أيّها البَخّاس. اغربْ عن وجهي». وضحك يوسف، وسمع مالك صوتَه يتسرّب إلى أعماقه: «إنّها تساوي خمسة أضعاف ما اشتريتَني به يا مالك؛ الطّمع رأسُ الأفعى». وقال آخر: «أدفعُ ألفًا». وسرتْ صيحاتٌ في المُزايدين، وسُمِع صوت: «إنّها ثمنٌ عادلٌ، انظروا إلى وسامته». وسُمِع صوتٌ ثالث: «إنّ عينَيه وحدهما تُساوِيان هذا الثّمن». وهتفَ مُشترٍ جديد وهو يقتربُ من منصّة العَرض، ويتفحّص يوسف: «أدفعُ ألفَين من الدّراهم النّحاسيّة، يبدو أنّه جميل وذكيّ، الجَمال والذّكاء قلّما يجتمعان في امرئٍ معًا». وصاح مالك مثل ثورٍ هائج: «توقّفوا أيّها المنافِقون.. هل جُنِنْتُم؟!». ورَماه بعضُهم بما في يدهِ من القِشر، وصرخ: «تريدُ أنْ تبيعنا عبدَك وتشتمنا، يا لك من تاجرٍ بائس!». «هل نحن نشتري نبيًّا حتّى تطردنا من رحمته؟!». ولكنّه لم يلتفتْ إليهم، بل قال: «أوّلاً أنا أبدأ المُزايدة لا أنتم أيّها المُغفّلون، وثانِيًا لا أقبلُ الدّراهم بل الدّنانير، ولا أقبل النّحاسيّة بل الفِضّية». وتراجَع بعضُ التّجّار، وانسحبوا. وتقدّم موكبٌ من بعيد، «إنّه موكب قِطفير» صاح تاجر، وهتف غيره: «سيشتري بثمنٍ عالٍ، نحن لا نقدر على المنافسة». وتحدّى آخرون: «سننافسه، إنْ كان عزيز مصر؛ فنحن أعيانُها. وإنْ كان وزيرها الأوّل فنحن أشرافُها. وإنْ كان ذا مال فإنّا ذوو أموال كذلك». وصاحَ أحدُ

هؤلاء المنافسين: «أدفع خمسة آلاف دينارٍ فِضّية». وهتف مالك: «مرحى مرحى... كنتُ سأبدأ بهذا الرّقم». وانسحبَ مزيدٌ من التّجّار، وقال (قِطفير) لمساعده: «ستتحدّث أنت، وزد ألفًا على كلّ رقمٍ يُقال، وانتظر الإشارة بالموافقة من رمشة عينَيّ». وهتف مساعده، وهو يهبط من العربة الفرعونيّة المُذهّبة: «سيّدي عزيز مصر يدفع ستّة آلافِ دينارٍ ذهبيّة». وأُصيبَ مالك بشهقةٍ من الفرح عندما سمع كلمة الدّنانير الذّهبيّة، واقتربَ يوسف من مالك، وقال له: «انظرْ إلى عربته، إنّها من الذّهب الخالص». وهزّ مالك رأسه: «ثُمّ؟». «سيعود بي فيها». «سيشتريك؟». «بلى». «كيفَ عرفت؟». «عرفتُ وهذا يكفي». «وما العمل إذًا؟». «لقد قلتُه لكَ منذُ أمس، ولكنّكَ تنسى». «أطلبُ وزنكَ ذهبًا؟!!». «نعم». وتراجع يوسف إلى الوراء، وتقدّم مالك، صرخ بأعلى صوته كأنّه يصرخ في جيشٍ بكامل عدده وعتاده: «لقد قرّرتُ ألاّ أبيعه بأقلّ من وزنه ذهبًا». وسُمِعَتْ أصواتُ لغطٍ عاليةٍ جِدًّا: «إنّه مجنون». «لا بُدّ أنّه لا يريد أنْ يبيع عبده». «لقد غرّه جمال هذا العبرانيّ فطلبَ فيه المُستحيل». «وماذا يُمكن أنْ تساوي قطعةُ لحمٍ أمام أكوام الذّهب!! هل جُنّ سائقُ الأظعان هذا؟!». «إنّه انتحار». «إنّه يحلم». «لعلّه لا يعرف السّوق». «لو كان هذا الّذي سيبيعه نبيًّا أو حتّى إلهًا ما طلبَ هذا الثّمن». «من المُحتّم أنّ مالكًا قد فقد عقله». «لا بُدّ أنّ السّير في الصّحارى الباردة في اللّيالي القارسة في الدُّجُنّات الدّامسة قد أذهله عن نفسه». وسكتَت الأصواتُ حين صرخ مساعد (قطفير): «سيّدي يريد أنْ يتكلّم». وخفتتْ الهمهمات حتّى انتهتْ تمامًا، وتقدّم (قطفير) بعربته المُذهّبة، وخيوله المُطهّمة، وألقى نظرةً على مالك، وسمعه كأنّه

يقول: «الطّمع شَرَكٌ قاتلٌ». ثُمّ ألقى نظرةً على يوسف وسمعه يقول: «لكنّ له أسبابًا، وإذا لم يكنْ وجهُ هذا الفتى أحدَها فعلى أيّ تَعِلّةٍ ستتّكِئ؟». ثُمّ صاحَ بمُساعِدِه: «زِنْ هذا الغُلام بالذّهب، وادفعْ ثمنه إلى هذا التّاجر الجَشِع». وانكفأ التُّجّار على وجوههم، ولم يدروا لِمَ دفع قطفير حتّى ولو كان عزيزَ مصر هذه الأكوام من الذّهب لقاء فتى، مجرّد فتى، ماذا يُمكن أنْ يُساوي حتّى ولو كان يملك عقل أكبر الفلاسفة، وعضلات أقوى المُحاربين؟! وامتلأ قلبُ مالك بالبهجة، ورقصَ طربًا، وسيقَ له الذّهب الخالص كما تُساق العَروس إلى بَعْلها، والتقاه صاحبه القديم على الدّرب أوّل خروجه من السّوق، وقال له: «عُشْر وزن يوسف العبرانيّ ذهبًا». فأنكر مالك ذلك، وقال له: «بل عُشر الرّقم الّذي اقترحتَه أيّها الأعمى، وإنّه لا يُساوي أكثر من خمس قِطَعٍ ذهبيّة، فإليكَها». ودفعَ إليه نصيبه، وهو يحمل ما تبقّى له من الذّهب على حِمارٍ أعرج، ومضى بالذّهب، وخفّ الحمل كلّما عرج الحِمار، وسارَ به على النّيل، وخطفَ النّيلُ الأزرقُ بريقَ الذّهب الأصفر، وتفقّد مالك مالَه، ووجدَ أنّه يتناقص، وتعجّب: «لقد سحرني العزيز». واستنجد بوجه يوسف، لكنّ وجه يوسف النّبويّ عَزّ عليه في غمامة البريق فلم يرَه، ولم يستطع أنْ يستجلبه. وهتف: «لا تتركْني». وسمعَ صوتًا خَشِنًا من خلفه يُشبه صوتَ صديقه القديم يقول: «هذا المال ملعون». وترنّح قليلاً على شاطِئ النّيل، وحانتْ منه التِفاتةٌ إلى مائه، فرأى فيه صورتَه؛ كان يبدو شاحب الوجه، مخطوف اللّون، مُشرِفًا على الهَلاك، وهتف: «أليسَ بمقدور المال أنْ يُسعدني؟!». ورجع إلى رَحْل حماره الأعرج، وتفقّد ما تبقّى له من مال، وعزم على أنْ يترك مصر كلّها: «إنّها بلادٌ

ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها!!». ولم يدرِ من أينَ جاءه هذا الصّوتُ الأخير، وأحسّ أنّه قريبٌ من صوتِ صاحبه؛ إنّه خَشِن، لكنّه يبدو قادِمًا من عوالم أخرى، من عوالم الغيب، وفكّر: «هل يُمكن أنْ يكون صاحبُه قد دسَّ تميمةً أو لعنةً في الذّهب حتّى يحرمه من التمتّع به». وأراد أنْ يتخلّص من حياته كلّها، ومن مصر، ومن أصحابه فيها، واشترى ناقةً قويّة، ونحر الحِمار، وركبَ بماله أو بما تبقّى منه، وهام على ظهر تلك النّاقة في الصّحراء!!

(٢٣)
هل هو حقيقيّ؟!

ودارتْ عَجَلات العَرَبة المُذهّبة، وسُمِعَ صوتُ ارتِطامها على الطّرق المرصوفة بالحجارة كأنّها تُغنّي، كانت العربةُ يقودُها جوادان أسودان يلمعُ سوادُهما على ضوء الشّمس كأنّما دُهِنا بالزَّيت، يُوجّههما حوذيٌّ يقفُ في موضعه من العربة خلفهما. وكان يجلسُ فيها العزيز، وإلى جانبه يوسف. ومن خلفهما سار موكبٌ طويل، جِيادٌ مُطهّمةٌ كثيرةٌ، وعازِفون ينفثون النّغَم في الأجواء كما تُنفَثُ غمامات البُخار، وأبواقٌ تصدح، ونساءٌ يتبعنَ الموكب بالزّغاريد أملاً في الحُصول على قِطعةٍ ذهبيّةٍ من السّيّد، أو دعوةٍ على العشاء في القصر، أو سهرةٍ في ساحاته، أو حتّى نظرة عابرة، أو تلويحة خاطِفة.

كان الممرّ الطّويل الّذي يصل بين المدخل والسّاحة ترتفع على جانبَيه الأعمدة الحجريّة الأسطوانيّة العالية، وتقدّمت العَرَبة وحدها على المدخل، وتوقّف كلّ مَنْ كان يرافقها من الموكب، باستثناء بعضِ الحَرَس. وبين كلّ عمودٍ حجريّ وآخر كانتْ تنتشر تماثيل الآلهة، كان لكلّ ظاهرةٍ إله. وكانت التّماثيل لبشر أو لحيوانات، وبعضُها لبشرٍ برؤوس حيوانيّة، أو لحيوانات برؤوس بشريّة. وتملّى يوسف المشهد، وأصابَه الذّهول لارتفاع الأعمدة الشّاهق، خُيّل إليه أنّها ربّما تُطامن السّحاب، وأخذه المشهد الجديدُ كلّيّة، وظنّ أنّ هذه التماثيل الّتي

تتوسّط الأعمدة الّتي تمتدّ بشكلٍ لا تُرى نهايته قد جُلِبتْ للزّينة، وأنّ معرضًا يُقام في هذه السّاحة لتسلية العابرين من هذا الدّرب، وتساءل: «ما حاجة الإنسان إلى كلّ هذه الأعمدة والتّماثيل؟!

وفُتِحَ باب القصر. قال له قطفير وهو يُعطِي تُرسه لأحد الخدم: «اتْبَعني». «إلى أين؟». «إلى سيّدتك». «سأُباع من جديد!». وضحك قطفير ضحكةً خشنةً جلجلَ صَداها في الأرجاء، ومشى أمامه؛ كان يبدو جسدًا ضَخمًا، ممتلِئًا، كتِفان عريضان، وذراعان مكتنزان قويّان، ووجه وسيع حليقٌ، وعينان جامدتان، وقُمع رأسٍ كبيرةٍ صلعاء، وسيقان مُشعّرة غليظةٌ تبدو من تحت الثّوب المصريّ. وسأله يوسف: «ما هذه التّماثيل؟». فأجابه: «آلهة». «تعبدونها؟». «بالطّبع». «أنتم تملكون فائضًا من الآلهة إذًا». ولم يفهم قطفير مقصد يوسف وإنْ شعر أنّه انزعج لعبارته الأخيرة. وعَبَرا بهوًا واسِعًا تنتشر على جانبيه وعلى سقفه نقوشٌ بهيجة وألوانٌ برّاقة، وكانتْ أصواتُ أقدامهما يتردّد صداها بين الجَنَبات، وصَعَّدَ يوسف نظره إلى الأعلى، وهتف: «وتصلبون آلهتكم على الأسقف؟». وسأله قطفير: «وماذا تعرفُ أنتَ عن الآلهة؟!». وأجاب: «ما يكفي من أجل الحقيقة». واستغرب قطفير: «الحقيقة؟ ولكنْ أيّة حقيقة؟». وظلّ يوسف صامِتًا. ولاحظ قطفير صمتَه، فتوقّف عن المشي، وسأله: «هل أنتَ جائع؟». «نعم». وأشار إلى أحد الواقفين في الزّوايا: «خذه من أجل أنْ يأكل، ثُمّ أعلمْني». وحنى الخادمُ رأسه، وقال ليوسف: «اتبعني». وانعطفا من البهو عبر أحد الممرّات، ودخلا إلى صالةٍ مُعدّة للطّعام، كانتْ أقلّ علوّا من البهو الّذي أرجعَ جذعه له من أجل أنْ يرى النّقوش على سقفه، وفي الزّوايا الأربع

أعمدةٌ بلون الحليب، وفوق كلّ عمودٍ تمثال مختلف، أمّا العمود الأوّل فكان يعلوه تمثال على هيئة رجلٍ يرتدي الزّيّ الملكيّ، ويعتمر تاجَين أحدهما أحمر والثّاني أبيض، ويُمسك بيده اليُمنى صولجانًا طويلاً. وأمّا العمود الثّاني فكان يعلوه تمثالٌ على هيئة رجلٍ يعتمر فوق رأسه تاجًا تعلوه ريشتان طويلتان. وأمّا العمود الثّالث فكان يعلوه تمثالٌ على هيئة كلبٍ برأسٍ سوداء، أُذُناه طويلتان وعريضتان في آنٍ واحدٍ. وأمّا العمود الرّابع فكان يعلوه تمثال على هيئة امرأةٍ تحمل تاجًا يحيط به قرنان أسودان وداخله قرص شمسٍ أحمر. وفي الوسط كانت هناك مائدةٌ كبيرةٌ تتّسع لأكثر من عشرةِ أشخاص، وقد نُضّدتْ حولها المقاعد الخشبيّة الّتي تفوح منها رائحةٌ غريبةٌ، وصفّق الخادم بيده، فظهرتْ ثلاثُ نساءٍ من الباب المقابل للجهة القصيّة من المائدة، يحملنْ أطباقًا من الطّعام يرتفعُ قُتارها من فوقهنّ، وتنتشر رائحتها الشّهيّة في الجوّ، ومَشَيْنَ بتؤدةٍ حتّى وضعنَ الأطباق على المائدة، ثُمّ دخلتْ أخريات، ورُحْنَ يُصفِّفْنَ الطّعام ويملأن المكان، وسأل يوسف: «هل سنأكل كلّ هذا؟!». وخرجت النّساء. وأشار الخادم ليوسف كي يجلس. وجلسَ، في حين بقي الخادم واقفًا، وسأله يوسف: «ألا تجلسُ معي؟». وردّ الخادم: «لا يحقّ لي أنْ أجلس إلى هذه الموائد؟». «فأينَ تأكل إذًا؟». وسكتَ الخادم، وتابع يوسف: «الأكل كثير». وظلّ الخادم صامتًا. وسأل يوسف من جديد: «وهذه التّماثيل؟». «ما بها؟!». «ألا تأكل معنا؟!». وأراد الخادم أنْ يضحك لكنّه منع نفسه. وأتبعها يوسف: «الرّجلان والكلب والمرأة، إذا بَقَوا في أماكنهم دون أنْ ينزلوا من عَلْيائهم ليشاركونا هذا الطّعام السّخيّ والشّهيّ فسيجوعون حتمًا». ولم يُعلّق الخادم، لكنّ

يوسف استغلّ صمتَه، وأردف: «إذا كانت هذه التّماثيل لا تأكل فلماذا تضعونها هنا في غرفة الطّعام». وردّ الخادم هذه المرّة: «إنّها آلهة». وصاح يوسف: «آلهة؟! ماذا تفعل الآلهة في المطبخ؟ هل المطبخ هو المكان الملائمُ لوجودها؟». وشعر الخادم بأنّ هذا الوافد الجديد على القصر يتجاوز حدوده، وأحسّ أنّ عنقه ستطير لو هو تجادل معه بشأن الآلهة؛ فآثر الصّمت. وأكل يوسف، ثُمّ قال: «ادعُ النّساء اللّواتي جلبْنَ هذا الطّعام، لا بُدّ أنهنّ جائِعات؛ أين ستذهبون بكلّ هذا؛ هل سترمونه؟!». وتابع الخادم صمتَه. وأشار له إنْ كان يريد أنْ يغسل يدَيه، فقال له: «نعم». وتبعه. وبدا الحَمّام الّذي يُفضَى إليه عبر مدخلٍ مرمريّ لوحةً بديعة. الشّموع على جوانب الممرّ، والقناديل الزّجاجيّة المُلوّنة على جانَبي الحَمّام، والّتي تُضاءُ طوال الوَقت، وتنبعثُ منها رائحةٌ شذيّة. وجلبَ الخادمُ الإبريق البلّوريّ، وهَمّ بأنْ يسكب الماء على كَفّي يوسف، لكنّ يوسف قال له: «لماذا تغسل يدَيّ؟ أنا أستطيعُ أنْ أفعل ذلك بنفسي... هل يُمكنك أنْ تُعطيني الإبريق؟». «كلا يا سيّدي، لا يُمكنني فِعلُ ذلك».

وتبعه إلى حيثُ قطفير: «لقد أكلتُ». «عليكَ أنْ تلبسَ غير هذه الثّياب». «لكنّ قميصي يسترني». «سآتيكَ بأجمل منه، هذا الجَمال يليقُ به غيرُ هذا اللباس». «هل أستطيع أنْ أحتفظ بالقميص؟!». «سيكون لكَ غرفتك، وخِزانةُ ملابسك، احتفظْ به وبغيره إنْ شئت. والآن السّيّدة الأولى تنتظرنا...». وأشار إلى خادمٍ آخَر، خُذه إلى غرفة الزّينة، وخَرَج من هناك خلقًا آخر، حتّى إنّ قطفير نفسَه شهق، وهو يراه بالثّوب المصريّ، وقد ازداد وسامةً، ورُجّلَ شَعره الأسود على جانبَي رأسه،

وانتعل حِذاءً من الجلد تلتفّ خيوطة الأنيقة على ساقه حتّى تصل إلى رُكبته، ومشى قطفير بجسده الضّخم أمامه: «القاعة من هنا». وتبعه يوسف. ودخلا قاعةً فسيحة، تنتشر على جوانبها عشرات الأعمدة، وفي صدرها مصطبةٌ عاليةٌ من الخشب ذي الزّخارف الدّقيقة، والمحفورة على الجوانب، وعليه بُسُطٌ حمراء، ووسائد من سندس. «اجلسْ هنا، هنا يجلسُ الضّيوف... السّيّدة زليخة... سيّدتك ستأتي بعد قليل، مكانُها هناك، المكانُ يعرفُ أهلَه، لقد دعوتُها إلى هذا اللّقاء... إنّه لِقاؤكما الأوّل... أرجو أنْ تُحبّها وتُحبّك... إنّها امرأةٌ ذاتُ كبرياء لكنّها امرأةٌ ألوفة، إنّها ذات أَنَفَة لكنَّ قلبَها هَشّ». وتساءَل يوسف في نفسه: «لماذا يُخبرني بكلّ هذا؟». وظلّ يتلفّت حولَه، وينظر في التّماثيل والمنقوشات والمَصوغات والبُسط والسّجاجيد ذات الألوان والزّرابيّ المبثوثة، والأرائك المركوزة... وسُمِعَ وَقْعُ أقدامٍ آتيةٍ من الممرّ الّذي يُؤدّي إلى هذه القاعة، ودخل رئيس التّشريفات، وقال: سيّدتي وصلتْ». «فلتدخُلْ». ودخلتْ إلى حيثُ تجلس، مكانها الّذي لا ينازعها فيه أحدٌ، ولا يجلسُ فيه غيرُها؛ امرأة في أواسط العقد الثّالث من العُمر، تمشي ملكةً، وتنقل الخَطو ملكةً، وتنظر ملكةً، وتجلسُ ملكةً، كان لها وجهٌ أبيضُ يميل إلى الاستِدارة، وعينان واسِعتان تميلان إلى خُضرة الزّرع قبل أنْ يطغَى عليه الماء، وإنْ لوّنهما الكُحل بالسّواد، وخَدّان ممتلِئان مَشوبان بالحُمرة، وشَعْر يتوزّع على جانبَي الرّأس في غدائر منتظمة كأنّها أطرافُ أقلام، ويعلو رأسها تاجٌ ذهبيّ نِصفيّ يرتفع فوق الجبهة العريضة البيضاء مرصّعٌ بالجواهر. وجلستْ قبل أنْ تنظر إلى موضع الضّيف، وهي تسحب رداءَها الملكيّ الأبيض المُوشّى

بالرّياحين من تحتها لكي تمهّد لموضع جلوسها، وأرسلتْ نظرةً إلى زوجها، وسألتْ بدلال: «فيمَ أرسلْتَ تطلبني؟». ولم يتكلّم قطفير، ولكنّه أشار حيثُ يجلسُ يوسف: «إنّه هديّة لكِ». ولم تُكلّفْ نفسَها عناء النّظر إلى يوسف، بل قالتْ: «الهدايا على مِقدار مُهديها، فهل كانتْ حَقًّا كذلك؟».

وأمر قطفير يوسف أنْ يقترب أكثر: «انظري واحكمي بنفسك». وحانتْ منها التِفاتةٌ إلى حيثُ يوسف، وفغرتْ فاها، ودخلَ هواءٌ حارٌّ إلى رِئتَيها ولكنّه لم يخرج، واختنقتْ أو كادتْ، وأرادتْ أنْ تتخلّص من الاختناق بإطلاق صيحة الزّفير دفعةً واحدةً، وشعرتْ أنّها ستُفتَضح لو سمحتْ للصّيحة بأنْ تخرج من جوفِها، فوضعتْ يدَها على فَمِها، واستدارتْ نصفَ استدارةٍ وأخرجت الهواء المختنق على دُفُعات، ورفعتْ زاوية كتفها احتجاجًا، ثُمّ استدارتْ من جديد لِتُمعن النّظر في الهديّة بعد أنْ انتظمَ نَفَسُها، وقالت: «هل هذه هديّتك؟ تأتي بطفلٍ صغير؟!».

«إنّه ذكيّ، وعجيب، وجميل، وفي عُمر الورود، والغَدُ أمامه، ويعرف الكثير، وأنا مُتأكّد من أنّه سيُعجبك». وسرى خَدَرٌ لذيذ في كلّ أعضاء جسدها بعد سماعها الكلمة الأخيرة، وأرسلتْ نظرةً أخرى إلى يوسف، وراحتْ عيونُها تلتهمه التِهامًا.

ولم تصبر في موضعها، فقامت من مكانها، واقتربتْ منه، ووقفتْ على مقربةٍ منه تتملاّه، وخطر ببالها سؤال غريب: «هل هو حقيقي؟». «هل هاتان العينان حقيقيّتان؟ هل هذه الشّامة السّوداء الّتي تحت عينه

حقيقيّة؟ هل يمزح معي قطفير؟ من أينَ جاء به؟ من أيّ السّماوات هبط؟ لكنّه طفلٌ؟ ماذا يُمكن أنْ يكون غيرَ طفل؟». وانتبهتْ لنفسِها: «ملكةٌ وطفلٌ، كيفَ سمحتِ لنفسِك أنْ ينزل بك المقام إلى التّفكير بطفل؛ هل طفلٌ في الثّانية عشرة يُمكن أنْ تكون له هذه السّطوة؟!».
وجاءها صوتُ قطفير ليقطع عليها العوالم الّتي تضجّ في أعماقها: «هل أعجبكِ؟». والتفتَتْ نحو زوجها: «سنرى، لا حُكم إلاّ عن تجربة».
«أرجو أنْ تُكرميه، إنّه ولدٌ من الغيب، جاءَ على غيرِ ميعاد، ولقد دفعتُ فيه ثمنًا لا يُمكن تخيّله، وأرجو ألاّ أكون مغبونًا في شِرائه، إنْ كانَ مِنْ زينةٍ للمرء بعد المال فهي في ولدٍ جميلٍ مثله».

وصمت، وتنهّد تنهيدةً عميقة، وسأل: «هل يُمكن أنْ نتّخذه ولدًا؟!». وصمتتْ زليخة، كان لديها هي الأخرى مِئات الأسئلة، لكنّها كلّها لا تتضمّن سؤال زوجِها هذا، وأغمضتْ عينَيها، وراحتْ تغرق في أفكارها البعيدة.

(٢٤)
لا غالبَ إلاّ الله

السّاقية تدور؛ مَنْ يوقف السّاقية؟ الزّمن يجري كأنّه غزالٌ هارب؛ مَنْ يصيدُ الغَزال؟ العمر ينسرب كأنّه ماءٌ تسلّل من تحت شقّ صخرة؛ مَنْ يجمع الماء؟ والموتُ يجلسُ في كلّ الزّوايا ينتظرُ لحظتَه؛ مَنْ يهربُ من الموت؟

قالتْ له زليخة: «أنتَ عندي بمنزلة الفؤاد منّي». خفضَ بصَرَه، أردفتْ: «كلّ ما في هذا القصر تحتَ تصرّفك، خَدَمُه وحَشَمُه وذَهَبُه وطعامُه وشرابُه وبُسُطُه وفُرُشُه وجِيادُه ومُحاربوه... لك كلّ شيء، ولكَ أكثر من ذلك هنا». وأشارتْ إلى قلبِها. وشَكَرها: «كرمٌ بالغٌ». «وسيّدُكَ العزيز يريد أنْ تتعلّم كلّ شيءٍ؛ فلسفة الفرس، وحِكمة الآلهة، وعِلم الأوّلين، وكتب العارفين، وفنون القِتال، والضّرب بالسّيف، والرّمي بالرّمح، والطّعنَ بالخنجر، وسِباق الخيل... كلّ مضمار للسّباق، كلّ حلبةٍ للقتال هي لك، أنتَ تبدؤها، وأنتَ تُنهيها، حتّى المُعلّمون فيها، ومَهرتُها تحتَ رحمتك». قال لها: «ما زلتُ صغيرًا على كلّ هذا». أجابتْه: «ستّة عشر عامًا كافية لكي تكون سيّدًا يهابُه الجميع، وعندَك ما ليسَ عندَ الآخرين».

ووجد يعقوب في بنيامين شيئًا من يوسف، رُوحًا منه، وقال له ذات مرّة: «هل تتذكّر أخاك يوسف جيّدًا؟». «أتذكّره يا أبي. الشّامة

الّتي على خَدّه لا أنساها. كلماته الغريبة لا أنساها. عيناه الجميلتان لا يُمكن أنْ أنساهما. هل تكبر عينا الإنسان إذا كبر يا أبي؟». وكانا يجلسان في فِناء الحيّ، ونظَرَا إلى البعيد، وسأله يعقوب: «فماذا حلّ بيوسف يا بنيامين؟». «أكله الذّئبُ يا أبي؟». «لا يا بُنيّ. هل رأيتَ الذّئبَ يأكله؟». «لا». «ففيم تقول أكله الذّئب إذًا؟». «أقول ما قاله إخوتي يا أبي». «قد يعنون أنفسهم يا بُنيّ». «هل إخوتي ذئابٌ يا أبي؟». «إخوتُك غيّرَ الحسدُ أقوالَهم يا بُنيّ». «ولماذا حسدوا يوسف يا أبي؟». «لأنّهم يحبّونه». «كيفَ يُحبّونه ويحسدونه؟!!». «الحسدُ وجه الحبّ القاتل، والحسدُ وجه الحبّ الرّحيم، لا يُمكن أنْ أتصوّر يا بنيامين أنّهم أرادوا أنْ يأكله الذّئب بالفعل، مَنْ تُطوّع له نفسُه أنْ يرى بشريًّا أيًّا كان عِوَضًا عن أنْ يكون أخاه ينهشُ الذّئب جسده بأنيابه، ويسيل الدّمُ من أشداقه؟!! إخوتك طيّبون، لكنّ حبّهم لأنفسهم ولمكانتهم عندي غَطّى على حبّهم لأخيهم ومكانته». «فأين ذهبَ أخي يا أبي؟». «غَيّبَتْه الأقدار يا بُنيّ». «وهل سيعود؟». «ذلك في عِلم الله، لكنّني أرجو ألاّ أذهبَ إلى الله قبل أنْ أراه». وسُمِعَتْ شَهقةٌ حارّة، ونظر بنيامين إلى وجه أبيه، فرأى دموعه تسيل على خَدّيه، فأخذ يمسح تلك الدّموع بأصابعه، فارتجّ جسدُ أبيه، وأخذ أصابعَ ابنه وقبّلها: «ما أشبهَ هذه الأصابع بأصابع يوسف!! ما أجمل هذه اليد وأصغرها، لكأنّها يدُ يوسف». وقرّب ابنه إليه، وحضنه، وتشمّمه، وهو ينشج: «ما ألصقَ هذه الرّائحة برائحة يوسف؛ لكأنّ هذا القميصَ قميصُه!!».

السّاقيةُ تدور؛ مَنْ يوقف السّاقية؟ واعتادَ إخوته الحياة، قال يهوذا: «هل نسي أبونا يوسف؟». «سينساه، عاجِلاً أمْ آجِلاً» ردّ لاوي.

وتدخّل شمعون: «لكنّه يخلو بنفسه كثيرًا، ويجلس مع بنيامين أكثر مِمّا يجلسُ معنا. لا أظنّ أنّ أبانا نَسِيَه». وسأل يهوذا روبيل: «ما رأيُك؟ هل تظنّ أنّه نَسِيه، لقد مرّ على ذلك أعوامٌ؟ ألا يُمكن أنْ تغيّر الأعوام قلبَ الإنسان؟!». وأجابه روبيل وهو يُلوّح بيده متذمّرًا: «اسألْه هو، أنا لستُ أباكم». «وأنتَ؟». «ماذا بشأني؟». «هل نسيتَه؟». «الزّمن كما قلتَ، يتكفّل بكل شيء». «فهل يتكفّل بأنْ يُعيد مكانتنا الطّبيعيّة إلى قلبِ أبينا، فنحظَى بمحبّته؟!». «دونكم أباكم». وصرخ يهوذا في وجهه: «ما زلتَ تتهرّب. ما زلتَ تعتبرنا قَتَلة. ما زلتَ تراوغ. أنتَ لستَ رجلاً ولن تكون». وخرجَ وهو يُزبِد.

ونما الزّرع في الحقول. وغرّدتْ طيورٌ كثيرةٌ بألحانٍ عَذْبة في سماواتٍ عاليةٍ وبعيدة. وبسطَ العُشب رداءه الأخضر على الأرض، ثُمّ اصفرّ. وتماوجتْ سنابل القمح الذّهبيّة. وخار الثّور، ونَبَح الكلب، وعوى الذّئب، واستأنس السَّفْر، وشقّ الفجرُ سُدُفات اللّيل، وسربلَ الظّلام وجه الصّبح بالسّواد، وكرّتْ نهاراتٌ وليالٍ كثيرات، ودارت الأكوانُ دورتَها. وهتفت الحياةُ على مسامع البشر كلّهم الّذين سمعوها من قبلُ، والّذين كانوا يسمعونها لحظتئذٍ، والّذين سيسمعونها في المستقبل: «لا شيءَ يستحقّ أنْ أتوقّف من أجله، أنا النّهر، وسأظلّ أجري إلى مَصبّي الأخير».

وقالتْ زليخة لخادماتها: «اليوم موعدُ نِساءُ طيبة من أجل أنْ نسمر. أريدُكنّ أنْ تُشعلنْ كلّ القناديل في قاعة السّمر، وتُوقدْن كلّ الشّمع، وتنثرْن كلّ البُخور، وتَمُدُدْنَ كلّ البُسُط، أريدُ لكلّ ليلةٍ من ليالي

السّمر أنْ تظلّ في البال زمنًا طويلاً قبل أنْ تلتفّ عليها جذوع النّسيان».

وصرختْ بكبيرة الخادِمات: «إنّه موعدٌ واحدٌ في الشّهر، ومن غير المعقول أنْ أرى التّعب في وجوهكنّ منذ هذه اللّحظة، هيّا... ليلتي هذه عروسٌ، وأنا عَروس... ونساء طِيبة وسقارة كلّهنّ عرائس... نحن الجميلات الوارفات... المائلات المُميلات... الفاتنات القاتِلات، الكاسِرات لقلوب الكواسر من الرّجال... هيّا... أيّتها العجائز الرّخمة».

وانسكب العطر، واندلق الفرح، وانبثّ السّرور. ووفدتْ عربات نساء الطّبقة الرّاقية، ودارتْ عجلاتهنّ على الأرض ذات المربّعات الحجريّة، ووقف الخدم ينحنون لكلّ سيّدة تهبط من عربتها، فيما تتولّاها إحدى خادمات السّيّدة الأولى، لتقودها إلى قاعة السّمر. البساط الأحمر يكاد ينخفس تحت أقدام النّساء اللّواتي صقلْن سيقانهنّ، ودهنّها بالزّيوت العطريّة، وزجّجنَ الحواجب، وكحّلنَ العيون، ووضعنَ تيجان الفيروز على رؤوسهنّ، وتدلّتْ عناقيد الذّهب على صدورهنّ، ورُحنَ يمضغنَ الكلام، ويتمايلْنَ في المشية وهنّ يقصدْن المخدع الكبير. واتّخذتْ كلّ امرأة من جميلات طيبة مكانها في القاعة، وطافَ عليهنّ الخدم بالشّراب، في صِحافٍ من الذّهب، وكؤوس من البلّور يتقلقل ما فيها خلفَ الزّجاج على ضوء القناديل تقلقل النّوق في المفازة، ويترَجْرُجَ تَرَجْرُجَ القارب الصّغير في الموج العاتي، وشربْن حتّى نسينَ عهدهنّ، وتخلّعْنَ في مشيتهنّ حتّى ظنّ من رآهنّ أنّ سيقانهنّ تدوس على الزّجاج، وذُهِلْنَ عن أنفسهنّ حتّى رأينَ الحُمرةَ في كلّ شيء. ثُمّ دخل الغِلمان المُغنّون، فضربوا الصّنوج، وَشَدَوْا رائق النّغم،

فاهتزّتْ أجسادهنّ حتّى ظنّ مَنْ رآهنّ أنّ أجسادهنّ من عَجِين، وتضاحَكْن حتّى ظنّ مَنْ رآهنّ أنّهنّ يبكين!! وتبعَ المُغنّين الرّاقصاتُ فأخذنْ أماكنهنّ في مسرحٍ على مصطبةٍ أُعدّتْ لهنّ، وكانتْ أوراق الورد تساقط من مشربيّاتٍ مُعلّقة في السّقوف على رؤوسهنّ فيظهرْن كما لو كُنّ يلبسْنَ تيجانًا من الورد، وكان العطر يتذرذرُ من مِرشّاتٍ مُثبّتةٍ على الأعمدة فيبعث الرّذاذ جوًّا من الانتعاش. ورُحنَ يتمايلْنَ كما لو كُنّ أفاعيَ تتلوّى تحتَ تأثيرِ السّحر، وضحكتْ زليخة، وهتفت: «لِيْ كُلُّ هَذا المُلْكِ مِنْ زَمَنِ العُصُورِ الغَابِرَةْ... لِيْ كلُّ ما في المَجْدِ مِنْ مَجْدٍ، وَلِي هذي الدّيارُ العامرة... لِيْ كُلُّ مَنْ فِي القَصْرِ، مَنْ في مِصْرَ، هَلْ مِصْرُ الّتي يَحْكُونَ عَنْها فِي الحِكاياتِ القَدِيْمَةِ غَيْرُ سَطْرٍ مِنْ سُطُورِي السَّاحِرَةْ... وَأَنا سُلافُ الخَمْرِ منذُ الخَمْرِ فَاشْرَبْ أَيُّها الظَّمْآنُ كَيْ تُرْوَى بِمائِي، كُلُّ كَأْسٍ غَيْرِ كَأْسِي غائِرَةْ...». وقهقهتْ، وقهقه كلّ مَنْ في القاعة معها، ثُمّ ضربتْ بأكفّها، فانفرطَ عِقدُ الخدم المُتحفّزين، ثُمّ ما لبثوا أنْ جاؤوا بما لم تقعْ عليه عينٌ من قبلُ، وانبسطتْ موائد الطّعام حتّى زاحمت العجول المشويّة فوقَها البشر، ونافستْ اللّحوم النّاضجة فوقَها أجسادَ النّساء النّاضِجات.

وقال سمنون ليوسف: «الآلهة كاملة والبشرُ ناقِصون». فردّ عليه: «لا كامل إلاّ الله». وأردف: «الآلهة غالبةٌ والبشر مغلوبون». فردّ عليه: «لا غالبَ إلاّ الله». وزادَه: «لولاها لما كُنّا». فردّ عليه: «لولاه لما كُنّا». فغضب: «إنّي أعلّمكَ فاسمعْ». وقرأ على جُدران المعبد: «أَصْلِحوا طُرُقَكُمْ وأعمالَكُمْ فأُسْكِنكُمْ فِي هَذا المَوْضِع».

ഇശ്ഇശ

(٢٥)
مَعذورٌ مَنْ كانَ أعْمى

وأكلت الصّحراء عقلَه، فصار يرى ما ليسَ موجودًا، ويستجلب كلّ ما كان في الغيب، ويغوص في بِئر طفولته فيُخرِج أضغان الماضي. وظلّتْ ناقتُه تحمله، هل تحبّ النّاقةُ صاحبها؟ تأكل رمال البيد اللاهبات وترعى أوراق الشّوك، ونظر إلى قتبِ النّاقة فإذا الذّهبُ الّذي تبقّى معه ما زال يلمع، واختلطَت الصُّفرتان: الذّهب والرّمل، وخُيّل إليه أنّهما واحدٌ، وأنّه لا فرق بينهما، وأنّ الذّهب رملٌ مَسبوك، وأنّ الرّمل ذَهَب مَنثور، وبكى. لا على فَقْدِ الذّهب بل على فقد القلب، ونادى في الظّلمات: «وا أسَفًا على يوسف». وتردّد صوته في أرجاء السّماء، وعبرتْ حسرته الآماد، ونادى على فتاه العبرانيّ، فما أجابه أحدٌ. وأنزل الرَّحْل من على القتب، وأسندَ ظهره إليه، ونظر في السّماء، وسأل النّجوم ألفَ سؤال، لكنّها لم تُجبْ عن سؤال واحدٍ أبدًا، وارتختْ يداه، وسقط جفناه على عينَيه، وذهبَ في نومٍ عميق. ولم تُوقِظه إلاّ أشعّة الشّمس عندما اشتدّتْ في الضّحى.

ومضى من بعدُ إلى غير غاية، وتاه الدّليل، وضاع في الصّحراء، وبدا أنّ هذا الّذي كان يُرشد النّاس حين تعمى عليهم الدّروب لم يعدْ يعرف في أيّ دربٍ هو، ولا إلى أين يقوده، وبكى من جديد. ونزل عن ناقته، وهمّ أنْ يضربها على كِفْلها، ويدفعها لكي تمضي بعيدًا عنه، ويظلّ

هو وحده في الصّحراء، وتخيّل موتَه، ورأى أنّه راغبٌ في الموت أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ونزل بالفعل عن ظهر ناقته، ودفَعها من الخلف بيدَين خائرتَين، وقال بصوتٍ يُشبه صوت خرخرة العجل المذبوح: «اذهبي... لعنتْكِ الآلهة... لا أريدُكِ بعدَ الآن». وولّتِ النّاقة، وخَرّ على رُكبتَيه، ونظر إليها وهي تبتعد عنه في وسط الصّحراء تمخرُ لَمعان السّراب، وهتف: «هل هذا رملُ سيناء؟». وأخذَ قبضةً من التّراب من تحت المكان الّذي كانتْ قد جثمتْ فيه النّاقة، وسَفَّه، وامتلأ فمه بالرّمل، واختنق، ونظر مرّة أخرى عبر الفراغ حيثُ تمضي النّاقة، وبدتْ من بعيدٍ شبحًا يتراقصُ في فراغٍ مُتماوِج، وظلّتْ تبتعد وتبتعد حتّى اختفتْ، وأيقن بالهلاك، ونادى قبل أنْ يسقط تمامًا ويفقد الوعي: «وا أسفا على يوسف!!».

وهبطَ عليه اللّيل وهو في غيبوبته، وعبرتْه سحاباتٌ كثيرةٌ من قبلُ، كانتْ ترسمُ ظِلّها على وجهه وتمضي، وألقَى اللّيل اللّونَ الكُحليّ على السّماء، ونبتتْ نجومٌ زُهْرٌ في تربتها، وقالتْ نجمةٌ لرفيقتها: «مسكينٌ هذا البشريّ!». «لقد عانَى كثيرًا». ورأى النّجمات في منامه، وسمعَ أصواتهنّ، قالت الأولى: «يركضُ خلفَ الوهم». فردّت الثّانية: «معذورٌ مَنْ كان أعمى». وتدخّلتْ في الحديث عنه نجمةٌ ثالثة: «في قلبه موضعٌ أسود». وقالتْ رابعة: «لو كان في النّجوم خيرٌ لساعَدْنه على أنْ يتخلّص من هذا السّواد في القلب». وانتظمتْ في سِلْك الحديث عنه ملايينُ النجوم المُتراقصة في صفحة السّماء: «باع قلبَه من أجل حفنةٍ من المال». «غرّه بريقُ الخرز الملوّن عن الحقيقة». «مَنْ يقلع عينَيه ليضعَ مكانَهما جوهرتَين؟!». «بِئسَ من تقوده شَهوتُه إلى هلاكه». «لا يختبر

الخيرَ إلاّ مَنْ نهشتْه أنياب الشّرّ». «لو كان له عقلٌ لعرفَ منزلةَ الفتى العبرانيّ، غابَ عقلُه فطاشَ مِيزانُه». «أيّهما أولى بالحِرز: العقل أم المال؟ المسكين باع عقله بالمال فخسرهما». «لقد نَثَرَ العزيزُ أمامه الذّهَبَ كما ينثر الصّيّاد الحَبّ أمام الطّيور الجائعة، هل أغنى الحَبّ عن الطّيور شيئًا؛ لقد أوقعَها الحَبّ في الشَّرَك». «لو كانت الطّيور تدري ما خلفَ الحبّ ما التقطتْ منه حَبّةً واحدةً عن الأرض». وضَجِر من حديثهنّ، وشعر أنّ كلّ عبارةٍ هي سوطٌ يُلهبُ ظهره، وأرادَ أنْ يصرخ: «كفى... كفى...». وقامَ لكي يأخذ حفنةً من الرّمل وينثرها في وجوههنّ ويصرخ: «شاهتْ وجوهكنّ أيتها الفيلسوفات الهَرِمات، يا لَكُنَّ من عجائز أكل الدّهر عليهنّ وشرب! هل أنتنّ إلاّ خَرِفاتٌ يتسلَّينَ بالهُراء من أجل أنْ يُمْضِينَ أعمارهنّ الّتي لا تنتهي؟! ماذا تُرِدْنَ منّي؟! لقد بِعته وانتهى الأمر. هل يُرجِعُ هذا الهُراء الّذي أسمعه منكنّ ما مضى؟! أيحاسَبُ المرءُ على ما فات؟!». وأوقفتْه العبارةُ الأخيرة، ودار في خَلَدِه: «إذا لم يُحاسَب المرءُ على ما فات فعلى أيّ شيءٌ يُحاسَبُ إذًا؟ أيُحاسَب على ما لم يفعل؟!». واستبدّ به الضّجر، وأطلقَ تنهيدات بائسات من فؤادٍ مثقوب. وفزّ ليقفَ على رجلَيه، فتذكّر أنّه يحلم، وشعر بالعجز، وتقلّب على جنبه الآخر، ثُمّ دفنَ وجهه في الرّمل كي لا يرى النّجوم، وتمّتْ ليلته. وعَبَره اللّون الكُحليّ بكامل صفائه، ونَمّ الشفقُ الأحمر عن قدومٍ جديدٍ، ثُمّ... سمعَ رُغاء ناقته، وأحسّ بشيءٍ رَطْبٍ على خَدّه، فاستيقظ، فإذا هي تتمسّح به، وتدعوه للنّهوض. وصرخ في وجهها: «ألم أفلتْكِ لكي أموت؟ لماذا عُدتِ؟!». وبَرَكَتْ على الأرض، وهيّأتْ له رَحلَها، فرَكِبها، ونظر في الرّحل على القَتَب فوجد دنانير الذّهب

المُتبقّية ما زالتْ على عهدها أوّل ما تركَها، وعاوده أمل الحياة من جديد. ومضتْ به النّاقة، ولم يدرِ إلى أينَ، وتركها تختار الدّرب، حتّى إذا مرّ اليوم الأوّل، وشربَ آخر ما تبقّى مِمّا كان على الرّحل من ماء، عاوَدَه العَطَش، وأيقنَ أنّه لو لم يعثر على الماء لهلك، ونظر في الأفق فإذا هي صحراء من كلّ الجهات، واختلطتْ عليه صحراء الشّرق بالغرب، وصحراء سَيناء بصحراء بِئر السّبع، لكنّه سلّم أمره للنّاقة والعَطَشُ ما زال يُلهب جوفَه. ومرّ اليوم الثّالث، وتشقّقتْ شفتاه، وتيبّس حلقُه، وجفّ ريقُه، وتحوّل لِسانه إلى قطعة خشب في فمه، وغارتْ عيناه، ونظر إلى لَمعان الذّهب في الرّأد، فأيقن أنّ الذّهب لعنة، فنزل بما تبقّى فيه من قُوّة عن النّاقة، وأخذ الذّهب، وصار يركُضُ كالمجنون في الصّحراء وهو ينثر الذّهب على الرّمل، وهتف: «التّراب يعود إلى التّراب». وأفرغ كلّ ما في الرّحل من الذّهب، وأهدره في الرّمال، وعادَ إلى الناقة، وألقى جسده على قَتَبِها، وضربَها بكفّه على كَفَلها، وسارتْ به، وحدّث نفسه قبل أنْ يفقد وعيه: «وا أسَفَا على يوسف!!».

وقال يعقوب: «هنا كان يجلسُ يوسف، وأخذ حَجَرًا من المكان وشَمّه، ثُمّ قبّله». وقال له يهوذا: «لقد كَبِرتَ، وآن لكَ أنْ ترتاح». وأراد أنْ يقول له: «كيفَ أرتاح وحبيبي أخذ قلبي ومضى» لكنّه لم يقلْ. وسأل (لِيا): «كيفَ كان يوسف؟». وتعجّبتْ من سؤاله: «كيفَ كان؟». «أعني كيفَ كُنتِ ترينَه؟». «لقد كان بذرةً لم يُسمَح لها أنْ تشقّ ترابها لترى النّور». «كلاّ يا لِيا، إنّه بذرة نبيّ، وبذرة الأنبياء سترى النّور ولو بعدَ حين». وحينَ جلَسَا للطّعام، سألها: «ألا تدعين الأبناء ليأكلوا معنا؟!». «ما زالوا في الحقول مع المواشي». «وبنيامين؟». «ستُهلِكه كما

أهلكتَ يوسفَ؟». «أنا؟!». «إخوته ليسوا عميانًا». وسكت. ورفعَ لقمةً من المَرَقِ إلى فمه، وبدا له طيفُ يوسفَ أمامه، فارتعشتْ يده المليئة بالغُضون، وسقطت اللّقمة على الأرض، وغصّ بِريقه، وانهمكَ في بُكاءٍ صامتٍ. وقالتْ له لِيا: «إنّها سنواتٌ طِوال، ألم يُنسِكَ طول العهد؟!». «والله لا أنساه ما ظلّ فِيّ عِرقٌ ينبض». «ولكنّك مُخطِئ». «ما أخطأت في حُبّه، ولكنّك لا تدرين». «لو كانَ حَيًّا، فالله أولى به، ولو كان...». وقاطَعها: «لا تُكملي». وأكملتْ رغم ذلك: «ولو كان ميّتًا فألفُ رحمةٍ على روحه، الأطفال في رَبَض الجنّة أيّها النّبيّ». وأشاحَ بوجهه ودموعه تسقطُ دون أنْ يمسحها، وهتف: «ارفعي هذا الطّعام، لا حاجةَ لي به».

وَوَخَدَتِ النّاقة في رمل الصّحارى الّتي تُبدّل ألوانها، وصبرتْ؛ مَنْ يصبر كالنّاقة؟ وبدأ النَفَس في صدر مالك يخبو، وبدا أنّ الموت يقتربُ منه ليستلّ ما تبقّى فيه من نَفَس، واقتنعت الحياة التي فيه بأنّ دورها يكاد ينتهي، فرحّبَتْ بشقيقها الموت، وقالت الحياة للموت: «إنّه دورُكَ، ولا أحدَ منّا يسبقُ الآخر». وتقدّم الموت ليقوم بمهمّته المُقدّسة، إذْ ذاك ظهر له وجه نبيّ ووليّ وصِدّيق: «أَجّلْه قليلاً، فلقد أحسنَ إليّ. وإنّما هو سبب». وتراجع الموت إكرامًا للنّبيّ، ووصلت النّاقة إلى البِئر في آخر قطعة من اللّيل قبل بزوغ الفجر. ورغتْ بصوتٍ عالٍ، وفتح مالك عينَيه بشكلٍ نصفيّ، ونظر، وبدأ يستعيد الماضي، ولمعتْ في خياله القافلة، والكثيب، والرّمل، والحجارة، وأبناء يعقوب، والشّمس، والدّلو، والدّراهم، و... ويوسف، كلّها كانتْ كالحة غير وجهه، كان مُشرِقًا، يبتسم رغم وجه المصائب العابس، وصحا قلبُ مالك، وابتسم

لابتسامة الفتى الوسيم، ودار في خَلَده: «هل أراه حقًّا؟ هل هو حقيقيّ؟ لكأنّ يوسف ليس من البشر؟ لكأنّه أكبر من الحقيقة؟ ما من أحدٍ يراه إلاّ ويُخالجه الشّكّ حينَ يراه في أنّه يراه؛ يرى جسدًا لا رُوحًا، نبيًّا لا مَلاكًا». واستوى مالك على القَتَب، وهتف بصوتٍ واهن: «يوسُف!!!». فأجابه الصّوت: «سيّدي». «وتقول سيّدي؛ أنتَ سيّدي». «لا عليك». ونزلَ عن النّاقة، وتحامل على نفسه، وهُرِعَ ليحتضن يوسف، وتعثّر، وسمعه يقول: «اشربْ أوّلاً كي لا تهلك». واقترب من البِئر، ووجدَ دلوه الّتي ألقاها هنا قبل أعوامٍ بعيدةٍ كما لو كانت هي عينَها، وشعر بطيوف الإخوة حوله، وبصوتِ السُّقاة ورُغاء الجِمال، وحدّق في غبار الغَبَش المكنوس بيد الفجر فلم يرَ شيئًا، وقال لنفسه: «لا بُدّ أنّني أهذي». وأرادَ أنْ يستسلم للموت، لكنّه سمع صوتَ يوسف مرّة أخرى يحثّه: «اشربْ كي لا تهلَك». وأطاع. وألقى الدّلو في البِئر، وأحسّ بثقلٍ فيه، ورفعه، وتخيّل أنّه سيجد فيه يوسف كما وجده من قبلُ، وشدّ الحبل بقواه الواهنة، ونظر في الدّلو فإذا بالماء يترقرق، وإذا بَياضُ الكون قد بدأ يُظهره، ورفع الدّلو إلى فمه، وشربَ حتّى ارتوى، ثُمّ سكبَ ما تبقّى من الماء على جسده، وانتعش، وأحسّ أنّه عاد إلى الحياة، بل شعر أنّه وُلِدَ من جديد. ورمى الدّلو على الأرض، وانسكبتْ بقيّته على الرّمل، وأسف أنْ يُهدَر الماء بهذه الطّريقة، وتذكّر الذّهب وكيفَ سَكَبه على الرّمال، وهتف: «ما قيمة الذّهب للعِطاش؟». وضحك. وفكّر ما يفعل، وأراد أنْ ينظر في البِئر، وكان الفجر قد حلّ، والصّبح قد قدم، والشّمس قد بدأتْ تصعد من واديها لكي تُشرف على هذا الجُزء من الكَون، ونظر في البِئر ورجا أنْ يرى فيها

يوسف، وهتف: «أنا مجنون، لا بُدّ أنّني مجنون؟ ماذا يعني لي يوسف؟ فتًى عبرانيّ اشتريتُه بدراهم فربحتُ وبعته بوزنه ذهبًا فخسرت!!!». وقرّب وجهه من فم البِئر، وألقى نظرة إلى قاعه، ورأى الماء، وهتف: «يوسف؟ هل أنتَ هنا؟ إنّني أبحثُ عنك». وتردّد الصّدى في البِئر. وصمت. وصمتَ الصّدى، ثُمّ تراءى له وجه يوسف منطبعًا في الماء، وحدّث نفسه: «لا بُدّ أنّني أتخيّل! هذا وجه القمر لا وجهه!!». ورأى شفاهًا تفترّ عن ابتسامة فتظهر أسنانٌ من اللّؤلو، وشهق، وهتفَ مدهوشًا: «أهذا أنتَ يا يوسف؟». «وَمَنْ يكون سواي يا مالك؟». «سامحْني». «ائتِنا نُكرِمْك». واختفى وجهُه، واختفى معه الصّوت، وإنْ ظلّ صدى الكلمتَين الأخيرتين يرنّ في أذنه: «ائتِنا نُكرِمْك». وشدّ على النّاقة باتّجاه مصر، وهتف: «اللّعنةُ أَخْرَجَتْني منكِ، واللّعنة أعادَتْني إليك». وسمع صوتًا اختلطَ عليه مصدره: «الرّحمة تُعيدكَ إليّ». ووصل إلى مصر. وأقام بطيبة يعملُ حمّالاً. وَجَحَده أهل السّوق، وكنسوا ماضيه بمكنسة النُّكران. فأكل اللّقمة يابسةً إنْ وجدها. وعادَ إليه صفاء ذِهنه مع قلّة ذات يده، ولم يندم على الذّهب الّذي ضاع، وأدركَ أنّه لم يكنْ له منذ البداية، وفَطِنَ إلى أنّه الذَّهبَ ذَهَبَ بعقله، وأنّه تداركَ فَناءَه بِفنائِه. وعاشَ على مقدار ما يجد، ولم يطلبْ أكثرَ من ذلك. وعَزّ عليه الوصول إلى يوسف، وظلّ طَوال أيّامه يحلم أنْ يلتقيه مرّة واحدةً ولو في المَنام!

(٢٦)
انظُرْ في قلبك

وقال له قطفير: «المَلِك في انتظارنا». «أيُّ مَلِك؟». «حاكم مصر العظيم». «ألستَ المَلِك؟». «لا، أنا وزيره الأوّل». «وفيمَ نذهبُ إليه؟!». «أريدُه أنْ يراكَ». «وفيمَ يراني؟». «لا تُكثِرْ من الأسئلة فإنّ ذلك مَهلكَة، وفي الصّمت نجاة». وصمتَ يوسف، وتَبعَ سيّده، ورَكب معه العربة المُذهّبة، ودَخلا بوّابة القصر العالية، ورأى يوسف أنّ القصور تتفاوت فيما بينها في البُنيان، وحدّث نفسَه: «إنّما تعلو حجارةٌ حجارة». وانتظرا قليلاً بعد البوّابة العالية في المهيع المُمتدّ قبل أنْ يأتي ستّة من العبيد الأشدّاء بمحفّة، وينزلوها على الأرض، ليجلس فوقها يوسف وقِطفير، ثُمّ يرفعها السّتّة من جديد ويسيرون بها إلى بوّابة أخرى، ثُمّ ينزلان عنها ويَلِجان إلى القصر. وانتظرا مرّة ثانية قبل أنْ يُؤذَن لهما بالدّخول. وهتف الحاجب: «سيّدي حاكم مصر العظيم قِطفير وغُلامه بالباب ينتظران الإذن بالدّخول». ورفع الملك يده إشارة الموافقة، كان يبدو في العقد الثامن من العمر، وقد تجعّد جلدُه، وبانتْ خطوط الهرم عند عينَيه، وسرقَ الزّمن من لون وجهه ومن قُوى جسده الكثير على الرّغم من الثّياب المُزركشة والمساحيق الّتي كانتْ تحاول أنْ تُخفي آثار الأيّام. وكان الملك يجلسُ على كرسيّ العرش المُزيّن، وعن يمينه زوجته، وبعضُ وزرائه، وعن يساره (أخناتون) وليّ عهده الّذي

كان طفلاً في الثّامنة يومئذ، ومشى الاثنان على البِساط الأحمر الطّويل قبل أنْ يقفوا على أولّ الدّرجات السّبع الّتي تُفضي إلى عرش الملك، ثُمّ يقوم قطفير بالجُثُوّ على ركبته اليسرى، وإحناء رأسه، في حين ظلّ يوسف إلى جانبه واقِفًا منتصب القامة مرفوع الهامة، وتفحّص الملك الفتى الصّغير الّذي لم يركع له، وداخله قليلٌ من الغضب وكثيرٌ من الاستِنكار، وهتف: «قفْ يا قطفير». واستوى قطفير واقِفًا، فسأله قبل أنْ ينبس بكلمة: «مَنْ هذا الغُلام اليافع الّذي معك؟». «إنّه صديقي». «لم أكنْ أعلمُ أنّك تتخذ من الأطفال أصدقاء». «يُمكنك أنْ تُعدّه ابني... لو كان يقبل بي أبًا لاتّخذْتُه ابنًا». «ابنك وأنتَ عقيم؟». «فلْنَقُلْ إنّه مُستشاري». وعلتْ ضَحِكة سُخرية من فم الملك: «مستشار؟!». «عقله أكبر من عمره». «لو كان له عقل لما ظلّ واقفًا كالتّمثال دون أنْ ينحني لِملِكه». «إنّه ليسَ مصريًّا». «فما يكون؟». «عبرانيّ». «أهل زراعةٍ ومواشٍ؟!». «هم كذلك». «فكيف وصلَ إليك؟». «بعثْته إليّ العناية الإلهيّة، أعني بعثْته إلينا معًا، أُحِسّ أنّ مصير مصر كلّها منعقدٌ بين يديه». «تهذي في حضرة الملك أيّها الوزير؟!!». «بل أقول ما أشعرُ به شعورًا عميقًا حتّى لأكادُ أراه». «إنّ مصر اليوم تحكم نصفَ العالَم». «سوفَ...». وتوقّف قطفير دون أنْ يُتمّ، تردّد، ولكنّ الملك رفع رأسَه وذقنه حاثًّا له على أنْ يُتمّ: «سوف تهوي في جُبٍّ سحيق...». «ماذا تعني؟». «أرى أنّ الكرسيّ الّذي أجلسُ عليه قد انكسرتْ قائمةٌ من قوائمه الأربع..». «ثُمّ؟». «سينكسر كلّه!!». «أَهُو الكرسيّ الّذي أجلسُ أنا عليه، أم الكرسيّ الّذي تجلسُ أنتَ عليه؟». «لا أدري أيّها الملك العظيم.. لم أتبيّنْ تمامًا». «وهل مصرُ كرسيّ؟!». «أنا رأيتُها

كذلك؛ بدأتْ بقائمة وستنكسر من بعدها القوائم كلّها إنْ لم نتدارك الأمر، وستخرج من تحت القوائم ذئابٌ وأفاعٍ وكلاب». «هل تحلم؟». «كلاّ، يُمكنك أنْ تقول إنّها رؤيا لكنّها تبدو حقيقة». «وافترضْ أنّ هواجسكَ هذه ستتحقّق؛ فماذا تفعل أنتَ؟ ألمْ أئتمنك عليها؟ كيفَ أغفر لمن أعطيتُه السّوط كي يؤدّب الكلب ثُمّ هو يتركه ينهش طرفَ ثوبي؟». «أنا أفعل أيّها العظيم، ولكنّني أخافُ مِمّا سيأتي». «وماذا سيأتي... أليست مصرُ بخير؟». «كلاّ، سيكونُ جوع، وصراع كهنة المعبد على السّلطة والمال، وفساد وزراء الولايات، وتكالب الأعداء من الخارج، واختلالٌ في نسيج الشّعب، وسينقسمون إلى سبعين مِلّة». واهتزّ طرَفا كتفَي الملك العُلْوِيَّيْن، وسَخِر: «عجيب؛ وهل أنبأتْكَ العرّافة بهذا كلّه؟». «بل أنبأني بهذا هذا». وأشار إلى يوسف. وضيّق الملك عينَيه، وغمرتْه الدّهشة، ووقف على قدَمَيه وتفحّص الفتى من جديد، وزاد عجَبُه، ونسيَ أمر مصر وما يتهدّدها من أخطار، وظلّ يُحدّق في الفتى، وزمّ شفتَيه مُستغربًا، وقالَتا دون أنْ تنفتحا: «كيفَ يجتمع هذا الجَمال كلّه في جسد؟ أمعقولٌ أنّ أهلَ مصر خُلِقوا وهذا الفتى العبرانيّ من طينةٍ واحدة؟!». وهتف وهو يعودُ ليجلسَ مكانه: «قلتَ لي يا قطفير ما اسمُه؟». «يوسف... يوسف أيّها العظيم». «وماذا يُتقنُ يوسفُ هذا؟». «إنّه في طريقه إلى أنْ يُصبح فارسًا شديد المِراس، وعالِمًا بحكمة الشّرق، وقمينًا بالفلسفة، لكنّ أهمّ ما يملكه، هذا...». وأشار إلى رأسه: «إنّه يملك فَهْمًا يعزّ على أهل الفَهم، وعقلاً يَعظُم على أهل العَقْل، وعلمًا لا يبلغُ شأوَه أهلُ العلم، إنّه...». وصمت قبل أنْ يقول: «إنّه أعجوبة، لا أدري ماذا أقول أكثر من ذلك!». وطلبَ الملكُ

من وليّ عهده الصّغير أنْ يُقدّم هديّة لهذا الضّيف: «إنّنا نُكرِم من يدخل قصرنا أوّل مرّة». وتقدّم أخناتون ذو الأعوام الثّمانية وبيده قلادة من اللّؤلُؤ، كان نحيلاً جدًّا، وعيناه واسعتَين فيهما رِقّة الأنثى، خطا خطواته القصيرة، حتّى إذا وصل إلى يوسف خَرّ على رُكبتَيه راكِعًا له، وتعجّب الملك، وتعجّبتْ زوجتُه، وتعجبَ كلّ مَنْ في العرش، وتعالتْ همهماتٌ خافتة بين الوزراء... ثُمّ استوى أخناتون على قدَميه، ورفعَ يديه الصّغيرتَين بأعلى ما يستطيع وألبسَ يوسف القِلادة، وقال له يوسف: «النّور في قلبك. شَكَرَ الله لكَ يا ذا المقامِ العالي». وظلّ أخناتون واقِفًا ينظر في عينَيه، قبل أنْ يُعيده إلى كرسيّه صوتُ أمّه، الّتي غادرتْ موضعها لتجلس إلى جانبه، وتهمس في أذنه: «ما كان لوليّ عهد مصر، ومَلِكها في المستقبل أنْ يركع لفتًى عبرانيّ ليسَ أكثر من عبدٍ». وردّ عليها وعيناه مُثبّتتان على يوسف: «لم أفهم ما جرى، لقد كنتُ أؤدّي ذلك دون أنْ أدري». وأشارتْ إلى مُربّيته أنْ تأخذه من القاعة، وخرج أخناتون معها، وما زالتْ عيناه تنظران إلى يوسف. واقتربتْ أمّه من زوجها الملك، وهتفتْ: «هذا الفتى العبرانيّ الّذي يدّعي وزيرك أنّه مستشاره وأنّه يعرفُ كلّ هذه التّرّهات الّتي تلفّظَ بها وزيرُكَ للتّوّ سيكون لعنةً تَحلّ بالقصر إنْ لم تُعِدْه إلى بادية أهله يتبع أذناب الإبل والمواشي، ويزرع الحِنطة والدّقل».

وقال المعلّم ليوسف: «يبحثُ أهل الفناء عن السّعادة خارجَ قلوبهم». وسأله يوسف: «ما السّعادة؟». وردّ عليه المُعلّم: «انظُرْ في قلبِك». ونظر يوسف في قلبه، وجاءه صوتُ المعلّم: «ماذا ترى؟». «الرّضى». فقال له المعلّم: «فإنّها هي إيّاه».

ونزل به قائدُ الجند إلى المِضمار. وقال له: «حُسْن التّعلّم من حُسْن الاستِماع. وأرقى درجات الاستِماع إخباتُ القلب. وكلّ معلّم جيّدٍ بالضّرورة كان تلميذًا جيّدًا. وإنْ لم يتفوّق التّلميذ على أستاذه في النّهاية، فالعيبُ في الأستاذ لا فيه». وضحك. وضحك يوسف. وأعطاه سيفًا يقدّ البِيضَ قَدّا. وسأله المعلّم: «أأنهيتَ دروسَ الخيل؟». فردّ يوسف: «نعم». «وعلى العِتاق؟». فردّ: «نعم». «وتُقاتل راجِلاً أم راكِبا؟». «كليهما». «فاركبْ أُنادِدْك». ورَكِبَا. وسأله المعلم بعد أن استويا على ظهر الخيل: «تُسابق أم تُقاتِل؟». فردّ يوسف: «أسابقُ وأقاتل». «فمن أينَ تأتيكَ كلّ هذه الثّقة؟». «مِمّن إذا أعطى أدهش». وتسابَقا فسبقَه، ثُمّ شَدّ عليه السّيف والتّرس، وقال: «هَتِ الخيل وهُتْ، فترجّلْ أُنادِدْك». وترجّلا. ثُمّ قال له المُعلّم: «أَحِدّ النّظر في خَصْمك، فإنّ نصفَ النّصر تصنعه عيناك». وأحدَّ فيه يوسف، فلم يتمالك قائد الجُند أنْ يُطيل في عينَيه النّظر، وضحك، ثُمّ أردف: «لن يصمد أمام هاتين العينَين أحدٌ».

وضحك يوسف بدوره: «انظر في عينَيّ جيّدًا يا مُعلّمي، إنّكَ تهربُ منهما». وصَلّ السّيفان، وتصالَبا، وسُمِعَ أصواتُ وَقْعِهما من مسافةٍ بعيدة، وظلّ الصّوت يتردّد حتّى زالت الشّمس.

وسأله المعلّم: «ألا تتعب؟». وردّ يوسف سؤاله عليه بسؤال: «ألا تتعب؟». «إنّما نحن بشر، رُكّبَ فينا ما رُكّب في سائر البشر، لكنّ النّصر صبرُ ساعة، فمَن صَبَرَ غَنِم».

وتردّدتْ نِساءُ طيبة على السّوق تحملهنّ العَرَباتُ أو المحفّات، وكُنّ يشهدْن ساحات النّزال يتمتّعنَ بمنظر المحاربين، ويطُفْن في

الأسواق يتملّين الوجوه لتزجية الوقت، وإذا كثر المال واتّسع الفراغ عَظُمت البلوى.

وطلبتْ زليخة من رئيس الجُند ألا يذهبَ بيوسف إلى ساحات النّزال في أسواق طيبة، تلك الّتي يُمكن للعامّة أنْ يشهدوها، أو أيّ عابرٍ أنْ يراها، وقالتْ: «دَرّبْه على القِتال وفنونه في ساحات القَصر، فإنّني أخافُ عليه العيون، ولا أريدُ أنْ يراه يحمل السّيف ويُقاتل بهذه المهارة والقُوّة سِواي؛ إنّ عيون نساء مصر قاتلة». وكان ذلك أوّل العهد بالتّملّك. فلم يعدْ يخرج يوسف ولا يدخل، ولا يقضي أمرًا دون أنْ يعودَ لسيّدته.

واشتدّ جذعه، ومشى فيه ماء الشّباب، وسرتْ فيه حلاوة العيش، وطلاوة الحَداثة، وطَراوة الفتوّة، وعَذُبتْ ملاحته، وجذبتْ عيناه الدّعجاوان كلّ راءٍ، وقويتْ ذراعاه في المِران والدّربة حتّى كأنّما انسكبتا في مرمرٍ أو عاج. وجمعَ قوّة السّاعد إلى رقّة القلب، وشدّةَ الإيمان إلى لين الكلمة، والعفافَ إلى الإحسان، والقدرةَ إلى الصّفح، وكان في صوته سِحر، وفي عباراته سِحر، وفي عيونه سحر... وكان السّحر في كلّ شيءٍ فيه... وكان إذا مشى يُرى نورُه يسقطُ على الجدران الّتي مرّ بها فتلمع، فإذا صارتْ خلفه غادرها نوره فتُظلِم، فكأنّما أخذ منها ما أعطاها.

وتذكّر يوسف بَرْد الجبّ ودفء القصر فبكى، وتذكّر خشونة الجبّ وليونة القصر فبكى. وتذكّر جوع الجُبّ وشِبَع القصر فبكى. وتذكّر وحشةَ الجُبّ وأُنس القصر فبكى. وتذكّر وحدة الجُبّ وكثرة

القصر فبكى. وتذكّر خوفَ الجُبّ وأَمْن القصر فبكى. فهل كان يدري أنّ دفء القصر كان بردًا، وأنّ ليونته كانتْ خشونة، وأنّ شِبَعه كان جوعًا، وأنّ أُنسَه كان وحشةً، وأنّ كثرته كانت وحدةً، وأنّ أمْنه كان خوفًا؟! هل حقائق الأشياء تظهر في استتارها، وتستتر في ظهورها؟!!
ثُمّ تذكّر أباه - خاليًا - فانتحب.

وأكرمه كلّ مَنْ في القصر لأنّه كان كريمًا، وأحبّه كلّ مَنْ مشى على قدمَين في القصر لأنّه كان مُحسِنًا. أخذَ من لُقمته ليُطعِمَ الجائعين، ووزّع جسده في جسومٍ كثيرةٍ، وجلسَ إلى الخدمِ كأنّه واحد منهم فمازَحَهم وضاحَكَهم، وجلسَ إلى الفلاسفة فأدهشهم، وجلسَ إلى المُلُوك فَمَلَكَ قُلوبهم، وكان واحِدًا، لكنّه واحدٌ في كثير!!

هل يكون الجسد الجميل نِقمة؟ هل يجرّ على صاحبه الويلات؟ كانتْ زليخةُ تكتشفُ في كلّ مرّة هذا الجسد، تهيمُ في تفاصيله، وتغرقُ في ثناياه، وتفكّ مغاليقه، وتزيلُ السّتار كلّما سنحتْ لها الفرصةُ عن سِرٍّ من أسراره الّتي لا تنتهي، كان جِسدًا واضِحًا في غموض، ومبذولاً في تمنّع، وقريبًا في بُعد؛ وهي مفتونةٌ به حتّى النّخاع! آه لو لم يكنْ جسدَ عبدٍ!! لقد نبتَ هذا الجسد في المكان الخطأ، لكنّه ترعرع في المكان الصّحيح، ترعرع على عيني؛ بذلتُ له حشاشة الرّوح وسويداء القلب، ووردة العُمر، آه من جسدٍ كهذا!! وحدها أجسادُ الآلهة هي الّتي يليق بها هذا التّقديس كلّه.

وقالتْ له زليخة: «أنا في ظَلام كثيف». فردّ عليها: «أفي هذا القصر؟». «إنّه أشدّ ظُلمةً مِمّا تتصوّر». «لكلّ ظلامٍ نور، ولكلّ ليلٍ

قمر، فأطلعي قمرك يتبدّدْ ظلامُك». فقالتْ بلهفة: «أنتَ قمري». فردّ: «كلّنا لله». فتخابثتْ: «التَّرِكة إذا وُزّعتْ بين المُقتسِمين أفقرتْ. لا شراكة في تَرِكة. أنتَ لي». فقال: «أنا لستُ تَرِكة». فأصرّتْ: «أنتَ لي». فقال لها: «إنّما يخدع البريقُ عِطاشَ القلوب». فردّتْ: «لا أعطشَ من قلبي!!». فقال: «لا ماء يروي عطش القلب كاليقين». فاهتاجتْ: «أيّ يقينٍ كائنٌ في حضرتك!!». فأطرق: «السّيّدُ لا يرى العبد». فرفعتْ رأسَه برفقٍ إليها وهي تتلمّس وجهه المُخمليّ وتُطيل النّظر في عينَيه: «إذا لم يرَ السّيدُ العبدَ فمن يراه إذًا؟».

وقال له قطفير: «إنّي أرى». فردّ عليه يوسف: «أنا أُنبّئُك».

(٢٧)
مَنْ يصيدُ الذّئب؟

واختلى يوسف بنفسه، ونأى بها عن النّاس. إنّما يتعلّم من اعتكف، ويُنجِز من اعتزل، ويسمو مَنْ سما عن لَغَطِ الحديث وسفاسفه، وكان يستأذن قطفير في أنْ يخرج إلى الفيوم، أرضٌ مهيع، وهواءٌ طيّب، وخضرة طافحة، بعيدًا عن الخدم والحشم، والقناديل والشّموع، والنّساء والوِلدان؛ ليخلو إلى ربّه، ويتخلّص مِمّا ران على قلبه مِمّا رأى في القصر، فكلّ ما في القصر يُخبِث النّفس، ولا بُدّ لهذا القلب من مِصفاة، ولا أصفى من مناجاة الله.

وقال له الصّوت: «إذا لم يكن اللهُ في قلبك فكيفَ ترى!». فقال: «أنا له». «إنّي أعلّمك». «إنّ رئيس الجند يُعلّمني، وصاحب دار الفلسفة يعلّمني، و...». «إنّهم يعلّمونك علم الأرض، وأنا أعلّمكَ علم السّماء. وعلم الأرض للأرض، وعلم السّماء للسّماء. علم الأرض للفانية، وعلم السّماء للباقية». «قلبي لك، فعلّمْني». «أوّل الوصول إلى الغاية سلوك الطّريق». «فأيّ طريقٍ أسلُك؟». «الطّرق تؤدّي إلى الغايات يا يوسف، فإذا سلكتَ طريق النّفس وصلتَ إلى نفسك، وإذا سلكتَ طريق النّاس وصلتَ إلى النّاس، وإذا سلكتَ طريق الشّيطان وصلتَ إلى الشّيطان، وإذا سلكتَ طريق الله وجدت الله». «فكيفَ الطّريقُ إلى الله؟!». «سِرْ إليه ولا تلتفتْ». «إنّ الطّريق لبعيدة!!». «إنّها

لقريبةٌ على من أراد». «فما أجدُ فيها؟». «في الطّريق للسّالك مشقّة، ولكنّ التنكّب عن الطّريق أشقّ. وفي الطّريق للمُريد تَعَب، ولكنّ الوصول له لذّة. وفي الطّريق لُمحبّه وَجَع، ولكنّ حُبّ الرّاحة أوجع». وكان يزداد في كلّ يومٍ حكمةً وعلمًا ويمتلئ بهما.

وكان قطفير يخرج للصّيد مرّتَين كلّ أسبوع، ويصطحب معه يوسفَ في واحدةٍ منهما كلّما أحبّ، وكان يغيبُ ليلتَين في كلّ مرّة، ولا حاجة للعزيز من صيده إلاّ اللّهو، وكانت مصر تغرق في الفقر وملوك مصر يغرقون في الشّراب، وكان يعود بجلود الثّعالب والذّئاب يدبغونها في مدبغة القصر من أجل أنْ يُقدّمها زينةً لزوجته، ومَنْ تُحبّ من نساء طيبة المُترفات اللّواتي أفسدهنّ التّرف، وكان قطفير يسأله: «مَنْ يصيدُ الذّئب؛ الإنسان أم السّهم؟ الذّراع الّتي يُصوبّ بها الإنسان أم النّصل الّذي في رأس السّهم؟!». فيردّ عليه يوسف: «لا هذا ولا ذاك». «فما هو إذًا؟». «يصيدُه قَدَرُه». «ولكنّ الأقدار تصنعها السّهام». «كلاّ إنّها تختبئ فيها، فمَنْ رماه سَهم القدر أصابه، ومن رماه سهم الإنسان أخطأه». وبدا في الأيكة من خلف الجذوع الغليظة خيال ذِئب يمرّ مرّ السّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَل، وقال له قطفير: «إنّه طريدتك، فَارْمِه بسهمِك». فردّ عليه: «أنا لستُ صيّادَ ذِئاب». وضحك قطفير من قلبه، وراحتْ ضحكاته تتدحرج على العُشب: «صحيح، أنتَ صَيّاد قلوب». وضحك يوسف بدوره، وتابع: «أخشى أنْ أكون الطّريدة لا الصيّاد». وهبطَ عليهما اللّيل في الأجَمَة، وقال قطفير ليوسف وهما مُستلقيان في الحشائش على ظهورهما يُطالِعان صفحة السّماء: «فما يفعل أهل القصر في غيابنا؟». فردّ يوسف: «يَلهُون ويَلعبُون». «ونحن نتعب؟». «كُلٌّ

يلهو إلاّ مَنْ أدركَ». وسأله قطفير: «هل تسمع ما تقوله النّجوم؟». «بلى». «فماذا تقول؟». «الأقدار خلفَ الأستار». واضطرب قلبُ قطفير، واستوى من اضطِجاعه، ونظر إلى يوسف الّذي كان على هدوئه لا يزال يُحدّق في النّجوم، وسأله: «فما يعني هذا القول؟». «البلايا مطايا مُكرِهة، وإنّه سيصيبنا منها رَشاش». «فأَبِنْ!». «إنّنا اليوم قد تعرّضْنا لِقَدَر الله». «فإنْ أصابني؟». «فاصبِرْ». «أفمن بيتي أم خارجه؟». «إنّهما أفعى ورمح». «فأَبِنْ». «لا تلدغ الأفعى إلاّ أهل البيت، ولا يُصيبُهم الرُّمح إلاّ مَنْ رَمى به من خلفَ ظهورهم». «فأيّهما يسبقُ الآخَر؟». «الأفعى تسبقُ الرّمح».

وعادَ قطفير منذ ذلك اليوم من البراري مَقبوضَ القلب، مَسلوبَ الرأي، مَخطوفَ اللّون. وشعر بجفوةٍ بينه وبينَ يوسف، وحدّثَ نفسَه: «إنّ هذا الفتى يعرفُ أخبار السّماء، وإنّه ستُصيبني آلهتُها بسوء، وإنّني صرتُ أخافُ منه أكثر مِمّا أخافُ منها». وسمع يوسفُ صوته، فاقترب من سيّده، واعتنقه، وهتف: «إنِ اتّبعْتَني أرشدتُك». وزاده ذلك منه جفوة.

ولقيتْه زليخة على الباب: «كيفَ كان صيدُك». «سيّئًا». «حَقًّا!!». وتبعتْه هي والخادم، وأعطى ظهره لهما، وتولّى الخادم أخذ المدرعة الّتي راح يخلعها، وسألتْه زليخة من جديد: «ما الّذي حدث؟». وجاءَها صوتُه بائِسًا دون أنْ يستدير ليراها: «أنا لستُ بخير. أريدُ أنْ أجلس وحدي».

في اللّيل ضمّهما الفِراش. قرّبتْ جسَدها إليه، شمّ رائحةَ عِطرها،

زكمت الرّائحةُ أنفَه، كانت تجذب الطير، لو شَمّها لألقتْه إلى مصدرها، وتُميل عنق الورد، لو رآها لجعلها قَطَراتِه بدل النّدى! اقتربتْ أكثر، لكنّه أعطاها ظهره، كيفَ يُمكن أمام هذا الجسد أنْ تصمد، ثُمّ نخرتْ: «اللعنةُ عليك، لو شاهدَتْه الآلهة لخرّتْ له سُجودًا». سمع همهمتَها، قال وهو ما يزال يُعطيها ظهره: «نامي يا امرأة». صكّتْ على أسنانها، وقالتْ بحنق: «أيّها الجُثّة الهامدة؛ إنّ لكَ قلبًا من حجر؛ شأنك شأنُ السّلاطين جميعًا..». وصمتتْ قبلَ أنْ تنفثَ آخر نفثةٍ من غضبٍ حارّ: «هذا إذا كنتَ تملكُ قلبًا!».

وقالتْ زليخة ليوسف: «لا تُكثر الخروج مع قِطفير إنّه فارغ، وبارد». فردّ: «لا أستطيع أنْ أرفض أمر سيّدي». «أنا سيّدتُكَ وسيّدتَه فاسمعْ ما أقول وأَطِعْ». «نحن نخرج للصّيد». «تصيدون ماذا؟ الذّئاب أو الثّعالب، وتتركونني وحدي هنا مع الخَدم. وكهنة المعبد يتلاعبون بكلّ شيء. ويفرضون على النّاس ما لا تفرضه الدّولة، ويتحّكمون في رقاب النّاس، اتركْ سيّدكَ وحدَه مع ذئابه وثعالبه المرّة القامة، أنا لي حاجاتي أيضًا؛ أريدك معي في القصر». «لكِ ذلك».

ولبس قطفير ثياب الصّيد، وسأل زليخة: «هل جهّز يوسف نفسه للصّيد كي يخرج معي؟». «إنّه لن يخرج». «ما الّذي حدث؟». «لعلّه مَرِض». «مَرِض؟!».

«حَسَدَتْهُ عينُ امرأةٍ فارغة، الآلهة تحسدُ الجميلين أيضًا». وألقى عليها نظرة، كانتْ ساهمة: «ماذا أصابك يا امرأة؟». «في مصر تحدثُ الحوادث ولا أحدَ يدري ما يجري أو يهتمّ». «شَغَبُ كهنة المعبد؟!».

«الكهنة غِطاء. إنْ لم تسعَ لمحاسبتهم بنفسك فسوفَ ينقلبون عليكَ وعلى حاكم مصر العظيم». «إنّهم مجموعة من الحمقى الكَذبة، فلماذا عليّ أنْ أخافهم؟!». «يحتاجون إلى تأديب». «بَدَلَ أنْ أُقلّم أظفار الأسد، يمكنني أن أضحك في وجهه». «مُخطِئ؛ سَمَّنْتَ كلبَكَ وسيأكُلُك».

وسمع صوتَ هريرٍ خلفه، فالتفتَ فوقع نظره على تمثال الكلب الأسود، كانتْ عيناه تُصأصِئان، هكذا خُيّل له، واستدار نحو زليخة مرّة ثانية ليقول: «لستُ في مزاجٍ حسنٍ لأسمع كلّ هذا، عليّ أنْ أمضي؛ أنا في الحقيقة محتاجٌ لهذه الرّحلة من أجل أنْ أنسى». ومضى.

(٢٨)
هَيْتَ لَكَ

ودخلَ عليها في السّاعة الّتي أنبأتْه بها، فاستقبلتْه في الحُجرة الأولى، وكانت تبدو غير زليخة الّتي يعرفها، وهمستْ بصوتٍ حميميّ في أُذُنيه: «ادخلْ حَرَمي»، فدخل، وتقدَّمَتْه وهي تقول بصوتٍ أرقّ منْ سابقه: «لديّ ما يجب أنْ تراه». وغلّقت الباب الأوّل، حتّى دخلتِ المزاليج في المزاليج والبكرات في البكرات والظلّفة في الظَّرْفة فكأنّه قطعةٌ من الجدار لا ينفكّ عنه، ثُمّ هتفتْ: «طَبَقي شهيّ». ومضتْ به إلى الغرفة الثّانية، وغلّقت بابَها، فَسُمِعَ صوتُ أنينه، وقالتْ على إيقاع ذلك الأنين: «طَبَقي شهيّ، ومُمتلِئ». وتقدّمَتْه، فغلّقت الباب الثّالث، وهي تهمس: «وقد نَضَّدْتُه لك من كلّ صنفٍ ولون». وغلّقت الباب الرّابع، وقالتْ: «ولم تمتدّ له يدٌ قبلك». وغلّقت الباب الخامس، وفَضَحها صوتُها الرّخيم: «وإنّه في أتمّ نُضوجِه». وغلّقت الباب السّادس: «ولم أُقدّمْه لسِواك». وغلّقت الباب السّابع: «فَكُلْ منه؛ فإنّكَ لن تجدَ في كلّ نساء الأرض امرأةً تُعدّه لكَ مثلي». وتجاهَلَ ذئبَ الشّهوة الّذي يعوي بألف لغةٍ في جسدها وهتف: «ما كانتْ حاجتكِ لسبعةِ أبواب؟ إنْ كان ثمّةَ سِرٌّ فبابٌ واحدٌ». فتجاهلتْ تجاهُلَه، وهتفتْ: «انظر؛ هذا السّرير لنا، هذا التّرف لنا، هذه العِطور لنا، هذه الزَّرابِيُّ لنا، هذه الأكواب والأقداح والأطعمة والأشربة كلّها لنا، وأنا انتظرتُك عشرة أعوام،

وانتظرتُ هذه اللّحظةَ عمري كلّه». ثُمّ تغنّجتْ في مشيتها، ومضتْ إلى السّرير، وألقتْ بنفسِها عليه، وكشفتْ عن ساقَيها، وقالت: «هيتَ لك». فلم يتحرّكْ يوسف من مكانه كأنّه تمثالٌ، وخفضَ بصره، وهتف: «استتري يا امرأة». وغَنَجَتْ: «هل يكون بين حبيبَين سِتْر!!». «أنا لستُ حبيبَك». «ولكنّكَ حبيبي». ثُمّ كشفتْ عن صدرها، وتقلّبتْ قبل أنْ تهتف: «لقد حللتُ لكَ ثيابي، ولم أفعلْ ذلك لأحدٍ من قبلك، وإذا كنتَ تخشى سيّدكَ فقد خرج إلى الصّيد ولن يعود قبلَ غدٍ، وإنّني صرفتُ كلّ من في القصر، فهَيّا». ونفضَ يوسفُ رأسه، واشتعلتْ نار الغضب في صدره، وشدّ على حروفه حينَ هتف: «مَعاذ الله، أرتكبُ فاحشةً مع امرأةِ سيّدٍ أحسنَ إليّ». واجتاحَتْها سَوْرة الحنق، ولفّتْ ثيابَها على جسدها، واستوتْ على السّرير، وصرختْ: «أنتَ عبدي، قبل أنْ تكون عبدَه، وقد جاؤوا بكَ إليّ هديّة، أتعرفُ ما معنى أنْ تكون هديّة تُحمَل من السّوق وتلقَى بينَ يديّ؟! تعني أنّك أحد ممتلكاتي أتصرّف بها كما أشاء، وأنا آمرك». «لن أمتثل لهذا الأمر». «أنتَ مجنون، أستطيع أنْ أسحقك». وصارتْ تصرخ بلا وعي، وغمرتْه موجةٌ من الإشفاق عليها، وأخذَ نفَسًا عميقًا قبل أنْ يقول: «يا سيّدتي، أنا ربيبُكم، وإنّ الإحسانَ لا يُجازَى بالإساءة». ونزلتْ عن السرير: «أنْ تقضيَ شَهْوتي ليسَ إساءة». «بل هو كذلك في عُرفِ أيّ دينٍ وأيّ خلق، أينَ أذهبُ من وجه سيّدي حين أراه؟!». «إنّه لا يراك». «إنّه يراني». «لن أخبر أحدًا». «فَمَنْ يحجب الخبر عن الله». «بأيّ إلهٍ تُؤمن؟ نحن في معرض الجسد لا الآلهة، آمون يُرضيه اجتماع حبيبَين». «وسيّدي؟». «ماذا عنه هو الآخر». «لقد أكرمني». «أنا الّذي أكرمْتُك، وإنّه بَغْلٌ، ونَغْلٌ،

وفارغ، وبارد، وثقيل الظّلّ، وشكّاك، ومُقزِّز، وغليظَ القَفا، وعِنّين لا يأتي النّساء، وينشغل بأمور الصّيد أكثر ممّا ينشغل بي، ولا أراه إلاّ لِمامًا، لعنة الله على سيّدك هذا؟ هل أنتَ مرتاحٌ الآن؟!». وتركها يوسف ترشق كلماتها الغاضِبات في وجهه حتّى سكنت؛ فسألها: «وأنتِ؟». «ماذا عنّي؟ أنا لا أطلب منكَ الكثير»، وانخفضَ صوتُها، ولانتْ نبرتُها: «أنا امرأةٌ فائرة يا يوسف، وأنا أشتهيكَ». «وأنا أخافُ الله». «لحظَاتٌ وينقضي كلّ شيء». «متعةٌ عابرة وشقاءٌ مُقيم». «وحقّ آمون إنّني أراك في صحوي ومنامي، أحلم بكَ في كلّ ليلةٍ، وأشتهي قُربك في كلّ لحظة، وتحضر وأنتَ غائب، وتملأ عليّ مجلسي ولستَ فيه، وأسمع صوتَك في قلبي في كلّ آن، لقد ملكْتَ عليّ كلّ شيءٍ، وأنا امرأة، فارحمْ نِداء الأنثى فِيّ». «وهل نساء مصر الشّريفات يفعلْنَ ذلك؟». «وهل هنّ تماثيل من الشّمع بلا رَغَبات؟ إذا كانت المشكلة في هذا التّاج فأنا أخلعه من أجلك، وإذا كانت المشكلة في سُلطتي، فأنا بكامل سلطتي أخضع لك؛ هل أركع أمام قدمَيك من أجل أنْ تقضي لي وطري؟!». وصمت يوسف، وأطرق طويلاً، وفكّر كيف يقنع امرأةً أعمتْها الشّهوة، وطمستْ نورَ بصيرتها الرّغبة، وحوّلتْها إلى ضعيفةٍ مُستجدِية، وزاده ذلك شفقة عليها. وعبرَتْه رائحتُها، إنّها عُطور مصر المخلوطة بالسّحر، وتخلّلتِ الرّائحة مساماتِ جسده، فغامَ قلبُه، وانبعثَ بخور من الزّوايا، ونَعُمتْ من تحت أقدامه الفُرُش، ومال لولا أنّ يدًا أسندتْه، واقتربتْ منه خُطوةً وئيدة حين رأتْ صمتَه وإطراقه، وظنّتْ أنّه رقّ لها، وتفهّم نداءَها، وأنّ قلبَه هفا إليها كما هفا قلبُها إليه، ومشتْ إليه رويدًا لِتُراوده، وهتفتْ وهي تلمسُ خدّه بلطف: «لقد مكثتُ عامًا بأيّامه كلّها أنتقي

زينتي من أجل هذا اليوم، إنّ أجملَ نساء مصر تُقدّم لكَ قلبَها المُترَع بك عن طيبِ خاطر، إنّ أكثرهنّ سحرًا وإغواءً تفرش لك جسدها من أجل أنْ تقطفَ ما تشتهي من وروده، إنّها لحظتُنا يا حبيبي؛ فحرامٌ أنْ نضيّعها». وابتسم مع آخر كلماتها، فابتسمتْ لها الدُّنيا، وأيقنتْ أنّها روّضتْ قلبَه وأنّه صار في قبضتها، وأخذتْ يده بين شفاهها وراحتْ تلثُمها، وتتشمّمه، وهي تصعد رويدًا رويدًا لأعلى، وأحسّ أنّه سقط، سقطَ في الجبِّ، الجبّ الّذي كان خروجه منه نعمة، الجبّ ذي الظُّلُمات، واستغرق زمنُ سقوطه سنوات خروجه كلّها، ظلّ يسقط سنين سحيقة حتّى ارتطم في القاع، وإذ ارتطم في القاع، صرخ من الألم: «كلاّ...». ونفضَ يده. ورأى أباه: «هذا أنتَ يا أبي؟». وخُيّل إليه أنّه ابتسم، وأنّه سمعه يقول: «العهدَ العهدَ يا يوسف، إنّما مثلُكَ ما لمْ تهمّ بها مَثَلُ الطّير في السّماء لا يُطال ولا يُسمَى إليه، فإنْ أنتَ هممتَ بها واستجبْتَ لها سقطَ ذلك الطّير على الأرضِ ميتًا... يا يوسف مَنْ صدق ربّه في تَرْك الشّهوة، ذهب الله بها من قلبه فما تضرّه؛ الميثاق الميثاق يا يوسف...». وتراجَعَ خطوةً إلى الوراء، فتقدّمتْ إليه، وهتفَ ثانية: «كلاّ..». وقالتْ وهي تتقدّم خطوةً جديدة: «ما أجملَ وجهك!!». فردّ وهو يرجع إلى الوراء خطوة: «إنّه للتّراب». وقالتْ: «ما أحسنَ شَعرَك!!». «إنّه أوّل ما ينزل في القبر». «ما أرقّ صوتَك!!». «إنّه يعود إلى بارئه بالموت». «ما أنضرَ خدَّيْك!!». «إنّهما أوّلُ ما يبلى من جسدي في الثّرى». «ما أفتنَ عينَيك!». «إنّهما أوّل ما يسيل منّي». «أنا أعبدُ هذا الجسد». «أنتِ تعبدينَ شهوتكِ فيه». «يا يوسف؛ ارفعْ بصركَ فانظرْ في وجهي». «إنّي أخافُ العمَى في آخرتي». «يا يوسف ما جرى لك؛ أدنو منك وتتباعدُ

عنّي؟». «أخاف أنْ أبتعد عن ربّي». «يا يوسف ماذا فعلتُ حتّى تُعذّبني؟». «إنّما تُعذّبين نفسك». «يا يوُسف أنا أحترق؛ فأطفِئْ ناري». «الماء الّذي يُطفِئُ نارَكِ عندَكِ لا عندي». «يا يوسف رفعتُ على السّرير ستائر الحرير فادخل معي». «الحرير لا يسترني عن ربّي». «يا يوسف اقضِ حاجتي أقضِ حاجتك». «حاجتي إلى ربّي». «يا يوسف ما تخاف والأمر كلّه لي، وأنا سيّدة المكان والزّمان؟». «أخاف ربّي». «يا يوسف إنّها سبعةُ أبوابٌ وقد غلّقتُها لأكون لك». «إنّ النّار لها سبعةُ أبواب». «أنتَ في الجنّة». «جنّتي ليستْ هُنا». وكانتْ تدنو منه خُطوة ويرجع عنها خُطوة، حتّى إذا وصلَ إلى باب الغرفة السّابعة الّتي أعتدتْ له فيها سرير الرّغبة، استدار، وبكلّ ما أوتي من قُوّة فتح المزاليج واندفع يركض، وركضَتْ خلفَه: «لن تخرج قبل أنْ أقضيَ منكَ حاجتي». وفتح الباب السّابع وَعَدَا، وكانتْ تعدو خلفه مهتاجةً، تجتاحها آلاف المشاعر من الغضب والصّدمة والحيرة والإحباط، وتنغرز في صدرها حِرابُ الاحتقار لذاتها، وأحسّتْ أنّها بالغتْ في إذلال نفسِها أكثر مِمّا كانتْ تتوقّع، وأنّها صارتْ عبدةً منهارةً تجري مثَل كلبٍ أجرب يلهثُ خلفَ سيّده، وعبرَا الأبواب كلّها، حتى إذا عادَ إلى الباب الأوّل استعصَى الباب على يوسف، كانتْ مزاليجه من فولاذٍ متداخلةً تداخلاً صميمًا، فشدّ عليه بذراعه، واستجمع كلّ ما فيه من قُوّة لطول دُربته في ميادين النّزال، ولكنّه لم ينفتح، لقد أُغلقَ من الخارج، ولن يستطيع فتَحه من هذه الجهة، وكانتْ زليخة قد قاربتْ أنْ تصل إليه، فلمّا رأتْه يقف عاجِزًا لاهِثًا أمام الباب المُحكَم، فَرِحَتْ، وأدركتْ أنّها إنْ لم تقضِ منه وطرها، فعلى الأقلّ تستعيدُ شيئًا من كرامتها الّتي سكبَتْها دون ثمنٍ على قدمَيه.

وصارتْ على بُعد خُطوتَين منه حينَ مدّتْ إليه يدَها تريدُ أنْ تستبقيه لنفسها، فوقعتْ على كتفه، وقبضتْ يدها على الجزء الّذي وقعتْ عليه من جسده، فانشقّ لها قميصُه، وأصابَها الهلع، وتوقّفتْ، ونظرتْ إلى يدها، فإذا هي ترجف!

وانفتَح الباب من الخارج دون عناء، وبرز في فتحة الباب وجه العزيز، ووقعتْ عيناه عليهما يلهثان، وسألتْ زليخة نفسَها في لُهاثها: «اللّعنة عليك؛ كان عليكَ أن تعودَ غدًا». واتسعتْ حدقتا العزيز وهو يُحدّ النّظر نحوهما، وقد تطاير منهما الشّرر، وأراد أنْ يسأل، وأنْ يقول كلامًا كثيرًا، لكنّه لكثرته تزاحَم فوق لسانه، فلم يقدر على أنْ يُخرِجَ حرفًا واحِدًا. وابتعلتْ زليخة الصّدمة أسرعَ من حبيبها، وحرّكتْ رأسَها ذات اليمين وذات الشّمال لكي تسمح للكلمات أنْ تخرج موزونةً، وهتفتْ كأنّها تدرّبَتْ على العبارة ألفَ مرّةٍ قبل أنْ تنطق بها في موقفٍ تنحبسُ فيه الكلمات: «أيّها العزيز، زوجي العزيز، أترى هذا العبدَ؛ إنّه عبدُ سوء، كلّ هذه السّنوات من الإحسان والإكرام لم تُثمر فيه شيئًا، لقد عَدَدْناه واحِدًا من أهل القصر، بل قدّمْناه على كلّ مَنْ في القصر، وبذلْنا له ماءَ قُلوبِنا، وبالغْنا في الحفاوة به، فرَكَل ذلك كلّه بقدَميه، وإذا به بعد كلّ هذه السّنوات يفعل ما لا أقدر على التّلفّظ به، بل وأخجل من قوله». وماعت الكلمات في فمها، وبدا أنّها تتهيأ للبكاء، وبكتْ بالفعل، وخرجتْ حروفها مع دموعها: «هذا العبد راودني عن نفسي؛ راودَ سيّدة مصر عن نفسها، تخيّل يا حبيبي... أرادَ أنْ...». وشهق قطفير، وتابعتْ: «أرادَ أنْ ينام في فراشي». فَعَلَتْ شهقةُ العزيز، وتابعتْ: «ويأكل من جسدي». فانحبسَ الهواء في صدر قطفير،

وتابعتْ: «ويَفُضّ خاتمي». فوضع قطفير يده على صدره وشدّه بها، وهُرِعَ إليه الخدم، وأسنده يوسف، لكنّه أبعدَه عنه، وقال يوسف: «لولا أنّها قالتْ لما قلت، ولو سترتْ نفسَها لسترتُها، ولكنّها أرادتْ لنفسها هذا، وإنّني ما راودتُها عن نفسها، ولا أردتُ بها ولا بكَ سوءًا، وحاشاي أنْ أسيءَ إلى من أحسنَ إليّ واتّخذني صديقًا ومستشارًا، إنّما هي الّتي زيّنَتْ نفسَها وطلبتْ منّي أنْ أحلّ إزارَها». «إنّه لكاذب، وإنّنا كُنّا مخدوعين به، ولا ينكشف لك إلاّ مَنْ خَبِرته». وتماثل قطفير، واستعادَ تماسُكه، ولمعَتْ في خاطره كلماتُ يوسف الّتي قالَها له آخر مرّة خرجَ فيها معه إلى الصّيد: «إنّها أفعى ورمح». وَأَحَدّ قطفير النّظر في وجه يوسف، وهتف: «أنتَ الأفعى إذًا!!». وردّ يوسف: «كلاّ يا سيّدي، إنّما هي». وَعَرَا زليخة الاستغراب، ولم تفهم، وسارعتْ بالقول ترفع صوتَها بنبرةٍ غاضبة: «كيفَ تتركُه دون أنْ تقتصّ منه، اقطَعْ رجلَيه ويدَيه، وعَلِّقْه على باب القصر حتّى يراه النّاس فيكون عبرة». ووضعتْ يدها على فمها لشَطَطِ خيالها، وتراجعتْ: «بل اسجُنْه». وجاءَها صوتٌ من أعماقها: «لأظلّ أراه». «وأعِدْه إلى عبوديّته، يَشقى في السّجن، ويَعرَى، ويَظمأ». ونظر قطفير من جديد في وجه يوسف: «لا تلدغُ الأفعى إلاّ أهل البيت». «إنّني بريء». وهتفتْ: «وأنا أشرفُ من أنْ أفكّر في الخيانة، وأعظم من أنْ أنزل إلى مستوى عبدٍ». «فمن أُصدّقُ فيكما؟!». «أنا لديّ دليلُ براءتي». «واعترضَتْ زليخة: «العبيد لا آراء لهم». «وما دليلك؟». «ألم يُولدَ لأهل القصر مولودٌ لم يمرّ على قدومه إلاّ بضعة أيّام؟». «بلى، لكنْ ما علاقة ذلك ببراءتك». «ائتِ به يشهدْ». «الأفعى تتكلّم إذًا». «اجعلْه آخر ما قد أقوله اليوم في

حضرتك، وبعدَها اذهبْ بي حيثُ تشاء، عُنُقي تحت سيفك». وأمر قطفير بالرّضيع، وجاءهم يبكي، وازداد شكّ العزيز: «كيفَ يشهد هذا؟». وازداد ارتياح زليخة: «كيفَ يشهد هذا؟».

وهدهدَتْهُ مُرضِعته كي يكفّ عن البُكاء، وصمت، وراحتْ شفتاه تتحرّكان، كيفَ يُعقَل لرضيع أنْ يتكلّم، المُعجزات ليستْ أمنيات. وضيّق قطفير عينَيه، وأرهفَ سَمعه: «إذا كان من معجزةٍ ستحدث أمام عينَيّ فأنا جدير بها، وإذا كان من شيءٍ غريبٍ سأشاهده بعينَيّ هاتَين، فلن يكون أكثر غرابةً ممّا رأيتُه وسمعتُه من هذَين». ونطقت الشّفتان: «إنّ قميصَه هذا لينطق بالحقّ خيرًا منّي، فانظروا الشّقّ فيه، فإنْ كان في صدره فهي الصّادقة وتلزمه العقوبة، وإنْ كان في ظَهْره فهو الصّادق وتلزمها العقوبة». وأَمِلَ قطفير، وأَمِلَتْ زليخة، وأَمِلَ كُلُّ مَنْ تجمهر في ذلك الموقف أنْ يكون شقّ القميص في الصّدر، ليسَ كرهًا بيوسف، فقد كانوا يُحبّونه جميعًا، ولكنْ كُرهًا في الفضيحة، فإنّ فضيحة ركنٍ من أركان القصر يعني تزلزله وانهدامه، وغامتْ عينا قطفير، وبحثَ طويلاً في صدره، فكان القميصُ مثل صدر صاحبه سليمًا، واستدار ليرى الظَّهْر، وجحظتْ عيناه لوهلة، ثُمّ داراهما بانغلاقٍ سريع، ومرّتْ في لَحَظات كلّ أيّام عمرهما، وسنوات علاقتهما، وكيفَ صعدا معًا هذا المركب الوَعْر، وهتفَ وهو يكاد يذوب من الألم: «ولكنْ لماذا؟». وفتح عينَيه، ونظر في عينَي زليخة، ورآهما تستحيلان عينَي أفعى، ورأى فمها يَخرجُ منه لسانٌ ذو شُعبتَين يُشبه لسان الأفعى يتراقَص أمام ناظرَيه، وخُيّل إليه أنّ الأفعى تستهزِئ به أكثر مِمّا تتربّص به، وهتف: «لو كان لي عقلٌ لأفهم كيفَ تُفكّر النّساء بهذه الطّريقة؟». وكادتْ تفقد وعيَها لمّا

رأت تُهمتَها السّافرة تسقط ببرهانٍ قاطع، وتمايلتْ لولا أنّ عمودًا عاليًا تنتقش فوقه أفاعٍ كثيرة أسندَها، وأرادتْ أنْ تقول له: «لو لمْ تُهْملني كلّ هذا الإهمال لما كنتُ أفكّر في عبدٍ أنعمْنا عليه». لكنّها كذّبتْ نفسَها، وأردفتْ: «لو كانت الجدران تتكلّم لعذرتْني فيه». وصاحَ بها قطفير: «خائنة». وردّتْ عليه: «بعضَ ما تفعل». فاشتعل فؤاده، وأردف: «إنّ كيد النّساء يُذيب الصّخر عن مَتْنه، ويُكبّ الفارس على وجهه، ويُطفِئ النّجوم في عليائها». فأنغضتْ رأسَها إليه، وهمستْ: «لو لم تبدأ لما بدأتُ». وصاح بها: «كُفّي عن هذا، لولا أنْ يُقال بطش بامرأة لجعلتُكِ عِبرة». ثُمّ أقبلَ إلى يوسفَ يتودّد إليه: «ما خاب فيك رجائي يومًا». وحضنَه: «اعفُ عنّا». «بل اعفُ أنتَ عنّي إذْ أحوجتُ امرأتَكَ إلى أنْ تراها في هذا الموقف!». «أنا؟! بالطّبع... بالطّبع». ثُمّ اعتنقه وهو يكاد يبكي من القهر. وهمستْ بهما دون أنْ يسمعاها: «اعفُ عنه وحدك، إنّ الّذي مرّغ كرامتي في التّراب لا يستحقّ عَفْوي».

(٢٩)
أيّها الذّئب؛ أعِدْ لنا أخانا

إذا سقطَ القلبُ في الحُبّ فلن ترفعه كلّ عِظات الفلاسفة، يستطيع الفلاسفة أنْ يجدوا حلاً لمشكلات النّاس كلّها إلاّ الحبّ، فإنّه يستعصي على كلّ فَهْم، وينفلتُ من كلّ تقنين، قالتْ له في عقلها: «ابتُليتُ بكَ فأذْلَلْتَني بدل أنْ تُعِزّني، وأسقطْتَني بدلَ أنْ ترفعني؛ فهل تظنّ أنّني سأنسى لكَ ذلك؟ وحقّ الآلهة الّتي تُؤمن بها لأمرّغن أنفكَ في التّراب». ومضتْ وقد انجرح قلبُها جرحًا بليغًا لم تشفِه لا أيدي الأطبّاء ولا مرور السّنوات، وعَطِش قلبُها عَطَشًا فظيعًا لم تَرْوِه لا أمواه النّيل ولا أمواه الفُرات!!

ومضى بنيامين مع إخوته إلى الحقل، وقال له يهوذا: «تُشبه يوسف». فردّ: «إنّه أجملُ منّي!!». فحنق، لكنّ أباكَ العَجوز يظنّ أنّه يستعيضُ بِكَ عنه، إنّ مرور الأيّام على الجراح لتُذهِبُ العقول». وقال شمعون: «لقد بدأت غلّة الحقول تنقص». فردّ لاوي: «نقصتِ الصّدقة فنقصت الغلّة». ونهره يهوذا: «بل قُل إنّ ذُرّيّة يعقوب قد كَثُرَتْ، إنّها لا تكفي لكلّ هذه الأعداد المُتعاظمة، والأفواه الجائعة، حينَ مات يوسف كان نصفُنا لم يبنِ بامرأة، واليوم صار لدى أصغرنا أبناء، وبعضُ أبنائنا يعشق، ويبحثُ له عن امرأة، إنّها أجيالٌ تدفع أجيالاً، والأرضُ هي هي، وإنّ كلّ ما فيها لا يكفي كلّ هؤلاء، وكُنّا فيما مضى نخزن بعضَ

الغِلال ونبيع بعضَه، ويزيدُ عن حاجتنا، واليوم ها نحن، نأكل خُبزَ يومنا، ويستيقظُ أطفالُنا في الصّباح جائعين». وتكلّم روبيل: «كان ذلك لّما كان يوسفُ بيننا، كانتْ هناك بَرَكة، فلمّا نزعتموه من فَرْعه النَّضِر نُزعت البَرَكةُ من البيت». فصرخ يهوذا في وجهه: «اسكتْ أنتَ آخر مَنْ يتكلّم، أولاد النّبيّ لا يؤمنون بالخُزَعبلات، ولا يَدَعون التُّرّهات تُوجّه نظرتهم إلى أمور الدّنيا... نحن نجوع وأنتَ تعيد لنا ذكرى يوسف».

واقترب بنيامين من يهوذا: «ماذا حدث ليوسف يا أخي؟ أنا أحلمُ به كثيرًا؟ هل حَقًّا أكله الذّئب؟». ودفعه يهوذا حتّى كاد يُسقِطه: «لم يبقَ غيرُكَ كي يتكلّم أيّها الصّوص.. وماذا يهمّكَ من يوسف؟ كم كان عمرك لّما حدثَ له ما حدث.. هه. كم كان عمرك؟ لقد كنتَ تبول في ثيابك وقتَها... ماذا تريد أنْ تعرف عن يوسف...؟ هه.. القصّة معروفة، يعرفها أبناء يعقوب كلّهم، ويعرفها يعقوب، وتعرفها لِيا، وتعرفها الكنّات، ويعرفها كلّ مَنْ في الحيّ، وتعرفها القرية، وتعرفها القُرى المُجاورة، وتعرفها كلّ فلسطين... يوسفُ أكله الذّئب، ومزّقه إلى أشلاء، وقد مرّ على ذلك أكثر من عشرين عامًا، فإذا كان لأشلائه بقيّةٌ فقد فَنِيَتْ في بطن الذّئب، وإنْ مات الذّئب الّذي أكله فقد فَنِيا معًا... هل تريدنا أنْ نبحثَ عن الذّئب الّذي أكله، ونأتي به مرّة أخرى إلى أبينا، ونبكي أمامه ونحن نقول: أيّها الذّئب الحكيم، أيّها الحَمَلُ الوديع: ارْأفْ بحالنا، تَحنَّنْ على قلبِ أبينا، حنّنَ الله قُلوبَ الوحوشِ عليك، ارحمْ دموعنا، وبُكاءَنا في اللّيالي الطّويلات وأَعِدْ لنا يوسف... ههه... ماذا تريدُ...؟». وراحتْ يداه تتحرّكان في الهواء بعصبيّة كأنّها أشرعةُ سفينة حطّمَتْها الأمواج، واقتربَ منه شمعون، واعتنقه وهو

يقول: «اهدأ يا أخي... اهدأ يا أخي... رحمةُ الله على يوسف... لا تُعذّبْ نفسَكَ أكثرَ من هذا». وكان جسده يعلو ويهبط مع أنفاسه وهو يستسلم لِذِراعَي أخيه. ومن بعيد نظر إليه روبيل بعينَين منكسرتَين، وهتفَ في وجهه: «خائن». وردّ عليه يهوذا وهو يتفلّت من ذراعَي شمعون: «إنْ كان ثَمّةَ خائنٌ فهو أنتَ». وتردّد صوتٌ من خلفهما: «أنتما خائِنان». ونظرا فإذا هو نفتالي، وتساقطت الكلماتُ فوقَ رؤوسهم تساقط الشّهب في قبّة السّماء اللّيليّة: «خائن... بل أنتَ الخائن... بل أنتما... كلّكم خُنتم أخاكم وعهدَ أبيكم». وبكى روبيل، وبكى بعده بنيامين، وانهمرتْ دموع لاوي، وعلا صوتُ شمعون بالبُكاء، وتبعه الصّغار الّذين صاروا اليومَ كِبارًا يبكون وينحبون، وغَطّى يهوذا عينَيه بيدَيه، وشدّ عليهما، ولم يستطعْ أنْ يمنعهما من أنْ تنهمرا، فانخرطَ معهم في بُكاءٍ شديد!!

وقال يعقوب لبنيامين: «رِجلي تؤلمني يا بُنيّ». فردّ عليه بنيامين: «مُدّ رِجلكَ يا أبي». ومدّها يعقوب، ووضعها بنيامين في حِجره، وانحنى بلحيته الشّقراء وقبّلَها، ودهنَها بالزّيت وراح يُدلّكها، وقال له أبوه: «ما أطيبَ هذه اللّحية يا بُنيّ! ترى لو كان يوسف معنا، فهل تكون له لحيةٌ جميلةٌ مثل هذه؟!». وهزّ بنيامين رأسه ولم يُجبْ، وراح يُعالج رِجْل أبيه، وقال أبوه: «أينَ يوسف؟». وصمتَ، وصمتَ بنيامين، وسأله مرّة ثانية: «لماذا لا تجيبُ يا بنيامين!». «ماذا يا أبي!!». «أينَ يوسف؟». وسكتَ بنيامين ثانيةً، ثُمّ قال أبوه في الثّالثة: «أينَ لِيا، ربّما هي تعرفُ أكثر مِنّا عن يوسف؟ اذهبْ واسألْها... لا بُدّ أنّها تعرف!».

وثغت أطفالٌ في المهود، ولثغتْ حينَ كبرتْ قليلاً، وتعثّرتْ في مِشياتها، وكان يعقوب كلّما رأى طفْلاً من أحفاده أو أبناء أحفاده يكبر، يقول: «إنّه يلثغ مثلما كان يوسف يلثغ... إنّه يحبو كما كان يوسف يحبو... إنّه يأكل كما كان يوسفُ يأكل». وانتشرتْ ذرّية يعقوب في الحيّ، وكَثُرتْ حتّى فاضَ بها، ونظر يعقوب في سَوادٍ من ذراريها، وتفقّد بينها يوسف، وتطلّع في الوجوه كلّها لعلّه يعثر من بينهم جميعًا على وجهه، ولكنّه لم يجدْه من بينهم، وهتف: «ما أقلّ هذا الجمع لولاه، وما أكثره لو كان بينهم!!».

وثارَ كَهَنةُ المعبد، وامتدّتْ أياديهم فطالتْ أرزاق النّاس باسم خِدمة الآلهة، والقِيام على شؤونها، وأكلوا الأموال بذريعة رِضا آمون، وانتشرتْ سُلطتهم في جسد مصر طاعونًا لا يُمكن الشفاء منه إلاّ باقتِلاعه. وقال حاكم مصر العظيم (أمنحوتب) الثّالث: «لو لم تبقَ لي مهمّةٌ إلاّ أنْ أُخرِسَ ألسنة هؤلاء الأفّاقين، أو أقطعَ أيديهم الّتي عبثتْ بكلّ شيء فسأقوم بها، ولو رحلتُ إلى الغرب حيثُ الخلود، فلن تكون روحي مرتاحةً قبلَ أنْ أقضي عليهم». وماذا تنفع الأمنيات لو أنّ العُمر حال بينه وبينَ تحقيقها، وجاءه الموتُ فَقَصَمها معًا.

وصعد على العرش ابنه (أمنحوتب الرّابع)، كان يلبسُ لباس الحاكم الّذي يكشفُ جذعه العاري فيَبِينُ عن جسدٍ شديد النّحول حتّى كأنّه أُملود، وكان يملكُ وجهًا نسائيًّا في رقّته ومخمليّته، وكان يبدو شاعرًا لا مَلِكًا، وكانتْ له جفون كبيرة كجفون الحالِمين الخياليّين، وجمجمة صلعاء طويلة. وسار يومَ التّتويج على السّجّادة الحمراء، وسار

خلفَه الكَهَنة، وكِبار الجُند، وأشرافُ مصر وأعيانُها، ووصل إلى الدّرجات السّبع الّتي تُفضي إلى العَرش، وتوقّف عند الدّرجة الأولى، وتذكّر المشهد عندما كان طِفلاً، وتذكّر الطّفل الآخَر الّذي وقف عند هذه الدّرجة بالذّات، ورأى المشهد كأنّه يتجسّد أمامه، ودون أنْ يدري ارتفعتْ يداه تريد أنْ تُقلّد ذلك العنق المرميّ القِلادة، لكنّ صوتَ الصّنوج شوّشَ على ذاكرته، ومحا الصُّوَر المُترائية، وصعد الدّرجة الثّانية فتذكّر أمّه فرآها أفعى، وصعد الدّرجة الثّالثة فتذكّر مصر ورآها في قلبه، وصعد الدّرجة الرّابعة فتذكّر الكَهَنة وهم يسوقون نساء مصر إلى المعبد سراري لآمون وهم في الحقيقة يتخذونهنّ متعةً لهم فاشتعلَ قلبُه بالغيظ، وصعد الدّرجة الخامسة فرأى الحاشية وسَمِع نفاقهم وهُراءَهم الّذي كان يندلق من أفواههم لأبيه يوم كان أبوه الملك، وصعد الدّرجة السّادسة فرأى نفسه يكره التّعاويذ والتّمائم ورائحة دم القرابين النّتنة، ويكفر بكلّ الآلهة، ويبحثُ عن شيءٍ يُهدِّئ قلبه المُضطرم في بحثه المحموم عن إلهٍ جديرٍ بالعبادة، وصعد الدّرجة السّابعة فرأى العرش، وجلسَ على العرش، واستقرّتْ يداه على قائمتَيه، وركعَ أمامه كبير الكهنة، وأراد أنْ يبصق في وجهه، لكنّه خشي أنْ يُقال إنّه ليس من البروتوكول البَصْقُ في وجوه الكَهَنةِ يوم التّتويج. وراح يسمع كلمات كبير الكهنة، وهو يُعطيه صكّ الإقرار بالجلوس على العرش، ونظر إلى الصّفوف الممتدّة الممتلئة بكبار الجُند وبنساء مصر الجميلات، وبالقناديل البلّوريّة، وبالأعمدة العالية المُذهّبة الّتي يتضاءل الجمع حتّى لا يكاد يصل أعلاهم إلى قاعدة أيّ عمود، ورأى الأضواء الكاشفة، والصّدور المُمتلئة، والذّهب اللاّمع، والأُبّهة الفائقة، والجموع المَهيبة

المُتهيّبة، ورأى وجوهًا كثيرةً جِدًّا، وبحثَ عن وجه الطّفل الّذي قلّده فلم يجِدْه، ولكنّه وجدَ الّذي جاء به، وقال إنّه مُستشاره، وحدّق أكثر في الجموع، لعلّه يراه لكنّه لم ينجح، وظهرَتْ له صورةُ أبيه، وفيما كان كبيرُ الكَهَنةِ لا يزال يتلو نصّ التّتويج، سمعَ كلمات أبيه على فِراشِ الموت، سمعها وذهل عن كلمات كبير الكهنة المكرورة الجوفاء، كان أبوه وهو يلفظُ أنفاسه يوصيه: «أعدى أعداء مصر أفاعيها، وإنّ أشدّ أفاعيها سُمًّا أولئك المُستتِرون بلباس الدّين من الكَهَنة في المعابد، فإنْ ظفرتَ بهم فلا تبقِ لهم باقية، وإنْ تمكّنْتَ منهم فاخْفِقْهم بالسّيفِ خَفقًا!!».

(٣٠)
أفعى بعشرين رأسًا!!

هل هناك أسرعُ من البرق الخاطف في اللّيلة الدّامسة؟ ربّما. خبرٌ يدور على ألسنة النّساء، يجعلْنَه فاكهة المجلس!! نسيتْ نساء مصر كلّ ما قدّمتْه لهنّ زليخة، نسينَ الحَفَلات الصّاخبات بكلّ شيء، نَسِينَ الأطعمة الفاخرة، والأشربة الفارهة، والأضواء الباهرة، واللّحون السّاحرة، والصّدور النّافرة، والقدود الضّامرة، والأغنيات، والرّقصات، والمُتَع، والأمسيات الّتي كانتْ تبذل كلّ ما في القصر لكي يعشْنَها كما يحلمْنَ وأكثر... نسينَ ما قدّمَتْه لهنّ من معروف، وما أغدقتْهُ عليهنّ من أموال، وما دفعتْه لهنّ من أجل أنْ يحظين بما يُرِدْنَ في الأسواق من زينةٍ وملابس، نسينَ كلّ ذلك، وتذكّرْنَ هذه الحادثة.

مَنْ نقلَ المشهد؟ يكفي أنْ يجري على لسان امرأةٍ واحدةٍ، لكي يجري بين عشيّة وضُحاها على لسان النّساء جميعًا. صارَتْ مجالس النّساء - بعد ذلك اليوم المشهود - تجعل من هذا الخبر مائدتهنّ، بل لقد عُقِدتْ تلك المجالس من أجل إعادة ذلك الخبر وتحويره وتزويقه والتّندّر به، ليسَ أمتعَ في المجلس من حديث الفضيحة، كلّ حديثٍ في مجالس النّساء له بهجتُه، وطقوسه، وجمالُه، ورونقه الخاصّ؛ لكنّ أجمل ذلك الحديث في تلك المجالس هو حديث الفضيحة. الفضيحة علكةٌ حلوة، وأحلى ما تكون على ألسنة النّساء، وأحلى من ذلك كلّه حين

تلوكها أنثى عن أنثى!!

قالتْ امرأةٌ ما تَعقِصُ شَعرها خلف عنقها وهي تمصّ شفتَيها وتتلمّظ: «السّيدة المُحترمة تنزل لمستوى خادمٍ وضيع». قالتْ أخرى: «كبيرةٌ في السّنّ تشتهي ولدًا!!». «لعلّها جُنّتْ». «لا بُدّ أنّ في الأمر سِرًّا؛ هل زوجها يقوم بما يكفي؟!». «هَبِي أنّه لا يفعل؛ القصر يمتلئ بالرّجال، من ذوي الصّدور المَشدودة، والجسومِ المَمشوقة، من أعيان مصر ووزرائها وأغنيائها، لو كانتْ ستفعلها فلماذا لم تفْعلْها مع واحدٍ من هؤلاء القادة؟ أمّا مع خادمٍ لا يَملك إلاّ أنْ ينحني ويُطيع؛ أمرٌ عجيب... عجيبٌ جِدًّا». «لعلّه سَحَرها، يُقال إنّه عبرانيّ، ويؤمن بإلهٍ غير آلهة مصر، وإنّ إلهه ساحرٌ، وقد سحرَها له». «العبرانيّون لا يعرفون السّحر، إنْ كان من أحدٍ يعرف السّحر ويمتهنه ويحترف أداءه فهم المصريّون، لا يا امرأة، لا بُدّ أنّ هناكَ شيئًا آخَر». «إنّه ولدٌ... ولدٌ صغيرٌ...». «كلاّ، إنّه شابٌّ في الخامسة والعشرين». «كلاّ؛ بل في الثّالثة والثّلاثين، هكذا سمعتُ». «مهما يكنْ حتّى لو كان في الأربعين فهي أكبر منه، كيفَ تنظر امرأة في هذا السّن إلى مَنْ هو أصغر منها؟». «لم تستطعْ أنْ تتحكّمَ في...». «تقصدين شهوتها...؟». «ليس في هذا خِلاف، مَنْ مِنّا تستطيع أنْ تتحكّم في شهوتها، ولكنْ لماذا معه؟ عندها أكثر من وسيلةٍ لكي تتدفّق...». «إنّها تُحبّه». «كلاّ، لو كانتْ تُحبّه لما فضحتْه وفضحتْ نفسَها معه، أينَ ذهبَ عقلُها؟!». «الحبّ يذهبُ بالعقل، ويطيشُ باللّبّ؛ اسألْنني». «هذا ليسَ حُبًّا؛ هذا جنون». «هو كذلك، لقد لصقَ حُبّه في قلبها لصوق الغشاء بالقلب». «لقدْ شغَفَها حُبًّا». «ليتَها قالتْ له كلامًا ناعِمًا، لا بُدّ أنّها هجمتْ عليه هجومًا». «لو

أسمعتْه بعضَ الغُنج، وراودَتْه ببعض الدّلال لاستسلم لها، أنا أعرف الرّجال، إنّهم يرتمون بنظرةٍ ماكرةٍ واحدة، فكيفَ إذا تَبِعَها غنج، وأعقبَها دلال، وزادَ على ذلك كلامٌ رقيق، ولفظٌ شفيف، وآهاتٌ محمومة». «إنّها دخلتْ إليه دخول السّيّدة للعبد، والحبّ لا يعترف بالطّبقيّة، لو أنّها فعلتْ ما تفعله النّساء العاشقات لظفرتْ به على أحسن ما يكون الظّفر، لكنّها حمقاء...». وظلّت الألسنة تلوك الفضيحة شهرًا. ووصلت الكلمات إلى زليخة، وطَعَنها لا قولهنّ، فهي منهنّ، وأعرفُ بحديث النّساء عن النّساء، لكنّ أكثر ما طعنها أنْ تمدّ لهنّ كأسَ الشّراب عَذْبةً، فيشربْنها ويُعِدْنها لها ممتلئةً بالسّمّ: «لو كان من أمرٍ في شهوةٍ تخصّنا، فهي تخصّنا، ويُمكنكنّ أنْ تقلْنَ هذا وأكثر منه عندي، وبين جدران قصري، أمّا أنْ تنثرْنه على رمال مصر، وتُوزّعْنَه على أسواقِها، فيجري على كلّ لسان، ويصبح دُوْلةً حتّى بين عبيد مصر وأُجراء أسواقِها، وحمّالي أثقالِها، ونسائها التّافهات، وخادماتها المشقوقات الثّياب فلا، وسأعرف كيفَ تُدواي الأنثى الأنثى!».

لو كانت الجدران تنطق لسألَتْها زليخة عن الخائن الّذي أفشى السّرّ، وَلَدَعَتْ بالنِّطع والسّيف وأمرت الجلاّد أنْ يفصل رأسه عن جسده أمامها كي تشفي غليلَها! ولكنّها استرجعتْ في ذهنها المُشوّش كلّ الّذين حضروا الموقف، ثُمّ استدعتْ أمّ الرّضيع الّذي شهد ضِدّها: «كيفَ نطق؟». «لا أدري، أنا في حيرةٍ من أمري إلى اليوم؟». «هل وضعتِ الكلام في فمه؟». «أمعقولٌ هذا يا سيّدتي؟!». «لعلّكَ جعلتِ كبيرَ السّحرةِ يُنطِقه». «لم أدرِ لِمَ استدعيتمونا إلاّ في اللّحظة الّتي طلبَ منه يوسف أنْ يشهد». «متعاونةٌ معه؟ تحبّينه؟ تشتهين أنْ تخوني زوجكِ

معه؟ لن يحصلَ عليه سواي، هو عبدي، وهو كلّه لي؟ العبي بعيدًا أيّتها المِمْسحة القَذِرة!!». «ماذا تقولين يا سيّدتي؟! أنا لم أفكّر بشيءٍ من هذا، لا تظلميني، أنا واحدةٌ من العاملات في القصر، أقصى ما أسعى إليه أنْ أعيش بسلام فأنا امرأةٌ مسكينة». «أنتِ امرأةٌ مسكينة؟!!». وقهقهتْ حتّى أطلّتْ نقوش الأفاعي برؤوسها من على الأعمدة الشّاهقة، وحتّى تردّد صدى القهقهة فعادَ مُتضخّمًا، وأردفت: «قلتِ لي مسكينة؟ لا توجد امرأةٌ مسكينة، أنتِ أفعى بعشرين رأسًا تنفثُ سُمّها في كلّ مكان». وارتعبت الأمّ، وتراجعت، وجاءها صوتُ زليخة متوعّدًا ومهدّدًا: «إنْ لم تعترفي لأسحقنّك أنتِ والرّضيع». «أعترف بماذا يا سيّدتي؟». «أنّكِ تتمنّين أن تفعلِي معه ما فعلتُ». «ربّما... ربّما يا سيّدتي... ربّما فكّرتُ بذلك مرّة أو مرّتَين...». وجلجلتْ ضحكةٌ مدويّة أطلقتْها زليخة في الأرجاء، وهتفتْ بها: «لا تخافي، لا أظنّ أنّ هناكَ امرأةً واحدةً في هذا القصر لم تُفكّر بما لم نُفكّرْ به». وصمتتْ قليلاً وهي تنظر من زاوية عينِها إلى المرأة: «لكنّني أريدُ اعترافًا آخر». «ماذا بعدُ يا سيّدتي؟». «قولي لي مَنْ أفشَى ما حدثَ بيني وبين يوسف إلى نساء المدينة، حتّى لم تعدْ امرأةٌ في مصر كلّها إلاّ وتعرفُ بالأمر؟». «وما أدراني؟». «أنتِ؟». «كلاّ... كلاّ يا سيّدتي... أقسمُ بكلّ الآلهة أنّه ليسَ أنا». «فقولِي إذًا قبلَ أنْ آمُر بخلع رقبتك...». «امرأةُ الخبّاز». «فقط؟». وتردّدتْ، لكنّ تردّدها حُسِم مع انفجار صرخةٍ أطلقتْها زليخة في وجهها: «أيّها الحاجبِ نادِ الجلاّد فورًا». وهتفتْ: «وامرأة السّاقي». «فقط؟». «أقسم أنّه ليس سواهما...».

لم يمرّ على الاعتراف إلاّ عشيّة واحدة، كان الخبّاز والسّاقي

وعائلتاهما قد نُقِلوا جميعًا من قصر قطفير إلى قصر الحاكم الأعظم. قالتْ زليخة للعزيز: «إنهم عبءٌ على مصاريف القصر، وحاكم مصر يحتاج إليهما أكثر منّا. نحن نتدبّر أمرنا، يمكن أنْ نجعل بعضَ خادمات القصر يقُمن بدورهما». وتمّ لها ما أرادتْ. أمّا الرّضيع وأمّه فقد نُفِيا إلى جنوب مصر القصيّ!!

وطلبتْه إلى غرفتها: «كنتَ وما زلتَ عبدي». «لا أُنكر ذلك». «وآمُرُ وتطيع». «ما كان في حدود هذه العلاقة». «فأنا آمُرُك أنْ تلبسَ غدًا ثيابًا أَعْدَدْتُها لك، وتتطيّب الطّيب الّذي قَطّرْتُه لك، ثُمّ تدخل إلى مجلسي لتقدّم لي الفاكهة، عندي حفلُ سمر، ونساء مصر سيحضُرْن، وقد اشتقت إليهنّ كثيرًا، مرّ شهرٌ منذ آخر حفلة، وقد طال بهنّ اللّقاء، ولا أريدُ أنْ يخدمني غيرُك في تلك الحفلة». «أمرُ سيّدتي». «ستكون جاهِزًا وبيدك فاكهتي، خلف أحد الأعمدة الّتي تسبق قاعة الاحتفال. ولا تدخل حتّى أصفّقَ لكَ». «أمرُ سيّدتي». «كيفَ عصيتَني ذلك اليوم؟». «لكي لا أعصيه». «مَنْ؟». «ربّي». «ألمْ يهتزّ فيكَ شيءٌ وأنتَ ترى جمالي كلّه أسكُبُه أمامك، وأضع جسدي بأنوثته الطّاغية بين يديك؛ أأنتَ قاسٍ يا رجل إلى هذا الحدّ؟! أليسَ لكَ قلبٌ؟!». «إنّما الجسدُ فِتنة». «لقد فتنْتَني». «وإنّ الشّيطان ليسكُنُه، وإنّه إنْ أنتِ أسكتِّ صوتَ الشّيطان في هذا الجسد سكتتْ نداءاتُه، وإذا سكتتْ نداءاتُه سَكَنَتْ شَهواتُه». «هل من سبيلٍ إليك؟». «كلاّ». وثارتْ: «من أنتَ لكي ترفضني؟ منْ أنتَ لكي تَعِظَّني». ولفّتْ رأسَها إلى الجهة الأخرى، ثُمّ ما لبثتْ أنْ هدأتْ بسرعةٍ وقالتْ بصوتٍ مجروح: «لو كنتَ تقبلُ لألبستُكَ أنا الثّياب بيدي، ولرَشَشْتُ عليكَ العطور بأصابعي، ولكنّني

أخاف أنْ ترفض، وأخاف أنْ تخذلني كما خذلْتني بالأمس... والآن اخرجْ لا أريدُ أنْ أراكَ حتّى ذلك الحين».

وقالت امرأة من اللّواتي جاءهنّ بريد القصر يدعوهنّ إلى اللّيلة: «لِمَ تدعوننا زليخة إلى حفلٍ بعدما صار؟! ألا تخجل من أنْ ترانا؟!». «لقد نسيتْ فضيحتَها، وتجاوزتْ حَدَثَها المُذلّ، وموقفها المَهين ولا بدّ أنّها تريدنا أنْ نُشاركَها النّسيان؛ ولذلك دعتْنا». «وما علينا؟! نحضر، فنأكل ونشرب ونغنّي ونرقص كما كنّا في المرّات السّابقات نأكل ونشرب ونغنّي ونرقص». «مجلسُها حلو». «وفاكهتها أحلى». «شرابُها لذيذ». «وطعامها ألذّ». «وماذا نريدُ أكثرَ من ذلك؟!».

واحتفى القصر في تلك اللّيلة بالضّيفات من أشراف نِساء مصر؛ ليلةٌ ليستْ كاللّيالي السّابقات، أُعِدّ لها من الزّينة ما يُذهل، ومن العَرَض ما يأخذ بالألباب، ودخلْنَ يمِسْنَ كما كُنّ يمِسْنَ في الماضي، ويتمايلْنَ كما لو أنّ العهد بالتّمايل جِدّ قريب. واستقبلتْهنّ زليخة على باب القصر، ودخلتْ معهنّ واحدةً واحدة، وأَرَتْهُنّ مقاعدهنّ من النّعيم؛ كانت القاعة الكبرى قد جُهّزت فيها الطّنافس والآرائك والمشربيّات والوسائد على أجمل ما يكون وأرقَى ما يُرى. وقالتْ: «أنتِ هنا... وأنتِ هنا... وأنتِ هنا...». وجعلتْ أصغرهنّ يجلسْن من الجهة القريبة من الباب الّذي سيدخل منه يوسف... وكانت المُتّكآت قد أُعدّت على الطرفَين في صَفّين مُتقابلَين، يبدأ الصّف الأوّل عن يمين الدّاخل من الباب الكبير، ويقابله صفٌّ آخر جهة اليسار، وأمّا في نهاية هذَين الصّفَين اللّذين يمتدّان طويلاً فمُتّكأ زليخة نفسه، وهو في صدر

هذه النّهاية، بحيثُ إذا جلست، ترى كلّ النّساء عن يمينها وشمالها وقد جلسْنَ متراتبات حتّى باب الدّخول.

واتخذت النّساء أماكنهنّ في المُتكآت، واسترحْنَ في فُرُشهنّ ينظرْن إلى أطايب الفاكهة أمامهنّ ينتظرْن لحظةَ البَدْء، وقالتْ زليخة: «لقد أعدَدْتُ لكنّ هذه الحفلة من أجل أنْ نستعيد ليالينا المُؤنِسة، أنا لا أنسى صديقاتي الجميلات الوفيّات، لا ينسى الوُدّ إلاّ غادر، إنّنا في بداية الحفل، وإنّني أطلبُ منكنّ ألاّ تبْدأنَ حتّى يدخل إليّ عَبْدي يوسف بفاكهتي، ومائدتي فارغة كما تَرَيْن، وموائدكنّ ملأى، فإذا صفّقتُ بيدَيّ، فلتتناولْ كلّ واحدةٍ منكنّ سكّينها الّذي أمامها، ولتَبْدَأ الأكل...». وسرى زَجِيرٌ بين النساء ملأ القاعة كلّها، وتهامَسْن: «إنّها تريدُ أنْ تُذلّه بدخوله هذا». «إنّها لم تُشفَ من عارها وتريدُ أنّ تنتقم». وكانتْ تبتسمُ وهي ترى رؤوسهنّ تتقاربُ، وشفاههنّ تتهامس في الآذان، وتنتظر اللّحظة الحاسمة، ثُمّ لفَتْهُنّ جميعًا بنظرةِ ترقّبٍ، وتأكّدتْ أنّ في مُتكأ كلّ واحدةٍ سِكّينها الحادّ، وهزّتْ رأسَها وقلبُها يجب فرحةً وترقّبًا، ثُمّ صفّقَتْ بيدَيها، فتناولتْ كلّ واحدةٍ سِكّينها، وأَخذتْ كلّ مُتكئةٍ أُترجّتها من الطّبق، وأعمَلْنَ السّكين في الأترجّة، كان يوسف في تلك اللّحظة يدخل حاملاً فاكهة السّيّدة، وسمعْنَ وقْع أقدامه وهو يعبر الباب الكبير، ونظرْنَ إلى الدّاخل النّوراني، كانتْ نظرةٌ واحدةٌ إليه من كلّ امرأةٍ كافيةً ألاّ يرفعْنَ عنه نَظَراتِهنّ أبدًا، وبدا أنّ عيونهنّ تعلّقتْ بهذا الفتى النبويّ المُدهِش، وكانتْ أصغر النّساء وأجملهنّ عن يمين الدّاخل في أوّل الصّفّ، فشهقَتْ، وغاص السّكّين في الأترجّة، ووصل إلى يدها، وغاص في اللّحم كما يغوص في قطعة

الزُّبد، وعبرها إلى الثّانية فشهقتْ وفعلتْ كما فعلتْ سابقتُها، وكلّما عبر واحدةً جديدة عن يمينه أو شماله وهو ماضٍ في طريقه إلى سيّدته في آخر هذين الصّفّين شهقت الجديدة فكنتَ تسمعُ تتابع الشّهقات، كأنّ موسيقى من الشّهقات يتواصل، وكان السّكّين يغوصُ أكثر في لحم اليد الأولى؛ الفتيات الشّابّات، لأنّ حقد زليخة عليهنّ كان أكثر من سواهنّ فجعلتْهنّ في أوّل الصّفوف، وكانت الشّهقات تتابع مع تتابع سيره إلى آخر هذا المعبر، حتّى إذا وصل إلى زليخة انحنى فوضع طبق الفاكهة، واعتدل ليعود، فأحسّت الأولى بألم شديدٍ في يدها، فنظرتْ فإذا الدّماء تقطر منها قطرًا، فشهقتْ شَهْقةَ الوَجَع، وألقتْ نظرة عن يمينها إلى المرأة الّتي تليها، فرأت الدّماء هي الأخرى تسيل من يدها سيلاً، فشهقت هي الثّانية، وتتابَع سيلُ الشّهقات، حتّى كادت الأعمدة والجدران والسّقوف والنّقوش والتّماثيل الّتي تحضر المشهد أنْ تشهق هي الأخرى، وسرتْ موجاتٌ من الكلمات الّتي لم تدرِ واحدةٌ منهنّ أنّها كانتْ لتقولها لولا أنّ الموقف كان أكبر من القول، والمشهد أبلغ من اللّسان: «إنّه مَلَك». «هذا ليسَ بشرًا». «إنّه أجمل من وقعتْ عليه عيناي». «إنّه ليسَ مصريّا، أنا أعرفُ ألوان رجال مصر كلّها». «إنّه من عالَمٍ آخَر». «زليخة معذورةٌ فيه». «لو كنتُ مكانها لقبّلتُ قدمَيه، ولمسَّحتُ بشَعري أصابع رجلَيه». «يا آمون أهذا أنت؟!». «إنّه من طينة الآلهة». وخرج من الباب الّذي دخل منه مع آخر عباراتهنّ المضمّخة بالولَه. وتركتْهُنّ زليخة يُطلِقْنَ لألسنتهنّ العنان، وأمرتْ خادماتها أنْ يُمرِرْنَ بالمناشف الحريريّة على نساء مصر حتّى يمْسَحْنَ الدّم الّذي سال من أيديهنّ، وهتفتْ بهنّ: «امسحْنَ دماءَكنّ أيّتها الجميلات، إنْ جرحَ

جمالُه أيديكنّ فقد جرح لي أنا قلبي، وإنْ سال الدّم من هذه الأيدي الّتي يُمكن أنْ تحتمل، فقد سال كلّ الدّم من قلبي الّذي لا يحتمل، وإنْ كُنتُنّ قد أصابكنّ ما أصابكنّ لأنّه مرّ أمامكنّ للحظات هي زمن مَشْيِه في هذه القاعة فأنا يمرّ أمامي طوال اليوم، وإنْ كُنتُنّ رأيتُنّه لبرهةٍ فأنا أراه في كلّ يوم، فما حَمَلَكُنّ أيّتها الغبيّات الجاهلات الحمقاوات المملوءة أدمغتكنّ بالهُراء أنّ تقلْنَ عنّي ما قُلتنّ؟!». وهتفتْ واحدةٌ منهنّ: «قد رأيناه وعرفْنا سِرّ شغفكِ به، وإنّنا لنعتذر لك عن إساءَتنا لمقامك العالي، وعن جهلنا بالأمر، وإنّك لمعذورة في حُبّه، وإنّه لجديرٌ بأنْ يُحبّ، وأنْ يعشق، بل أنْ يُعبَد، وإذا سمحتْ لي سيّدتي وصديقتي فأنا أريدُ أنْ أُسدي لها خدمةً». فهتفتْ زليخة وقد بردَ لاعج قلبها، وأطفأ التّشفّي نار حقدها: «ماذا؟». «أنْ أقومَ إليه فأقنعه بأنْ يركع لك، ويفعل ما تطلبينه منه، فإنّني أعرفُ فنّ إقناع الرّجال». فردّتْ زليخة: «أنا أعرفُ ماذا تريدين؛ فهذا مِمّا لا يخفَى عليّ، ولكنْ جرّبي، لا بأس في ذلك». فقامتْ إليه والدّم ما يزال عالقًا بيدها، يلوّن أصابعها، ويَدْكَنُ بين فرجات تلك الأصابع، وهي لا تزال تضغط على جُرحها بمنشفة الحرير مرّةً ومرّة. ومضتْ إليه، فلمّا عبرتْ الباب وخرجتْ من القاعة، تلفّتتْ خلفَها لتتأكّد أنّها غابتْ عن أنظارهنّ، فأقبلتْ نحوه، واختلتْ به، وراحتْ تتذلّل إليه: «ائتِ مخدعي، ألا ترى جَمالي، أنا أحقّ بك منها».

ثُمّ سألتْها الثّانية أنْ تقوم إليه لتقنعه بأنْ يرضخ لسيّدته إنْ فشلت الأولى، وسمحتْ لها زليخة بذلك، وهي تبتسم ساخرةً في أعماقها، وتتخيّل مشهد صَدّه لكلّ واحدة، يُذيقُها من الكأس الّتي أذاقها منها.

قالتْ له الثّانية: «لديّ قصر، ولديّ مال، ولديّ جسدٌ يحسدني عليه رجال مصر كلّها؛ فائتِ سريري تشهدْ نِعَمِي، وتأكل من طبقِي». وقالتْ له الثّالثة: «انظرْ إلى صدري، إنّه ممتلِئ». وقالت الرّابعة: «انظر إلى قوامي إنّه شهيّ».

«وقالت الخامسة: «إنظر إلى هاتين الرُّمَّانتَين، وهاتَين الكَرَزَتَين، وهاتَين الخَوْخَتَين، إنّها ثماري، وإنّها ناضجة، وإنّكَ تستطيع أنْ تأكل منها، فبأيّها شِئتَ فابدأ».

وشهقتْ السّادسة أمامه مرّة أخرى، وهي تُتَعتِع: «أيُّ إلهٍ سبكَ هذا الجسد المكتمل؟!!».

وقالت السّابعة: «جسدُها خادع وجسدي يقين، جسدها كاذب وجسدي حقيقيّ، ولو لمسْتَه لعرفت».

وأُغمي على الثّامنة لمّا وصلتْ إليه وعاينتْه عن قُرب. وركعت التّاسعة على رُكبتَيها، وأدنتْ رأسَها من قدمَيه، واعتنقتْهما بيدَيها، وراحتْ تلثمهما بنَهَم. فنزع رجلَيه منها، وهمّ بالهرب، فأتتْه النساء جميعًا يتدافَعْنَ كأنّهنّ يهوين من علٍ، وتساقَطْن عنده، ولم تبقَ امرأةٌ حضرتِ المجلس إلاّ راودَتْه عن نفسه، وإلاّ بذلتْ له نفسَها، وأسمعتْه من الكلام ما لم يجرِ على لسانها لبشريٍّ من قبلُ، وترامَين عليه كما يترامَى الفَراش على النّار، وقال: «أنتُنّ في هَلاك». وسمعْنَ صوتَ زليخة من خلفهنّ: «فذلكنّ الّذي لُمتنّني فيه». فقلْن كلهنّ: «إنّه لا لومَ في مثل هذا، وإنّنا ما كُنّا لندركَ لولا أنّنا رأينَا، ولا نعرفَ لولا أنّنا عاينّا، والله إنّنا لمُخطِئون». «فما أفعل وقد عرفتُنّ الأمر على وجهه، والحقيقةَ على

نُصُوعها؟!». «افعلي أيّ شيءٍ إلاّ أنْ تُسيئي إلى هذا المَلاك». «كلاّ، إنّه مِلْكي، وإنّه إنْ لم يأكل من طبقي، ومن طبقي وحدي، لا أطباقكنّ الّتي تحوم فوقها أسراب الذّباب، لأرمينّه في قعر مُظلمةٍ لا يرى فيها النّور حتّى يذوق الذّلّ الّذي أذاقني إيّاه، ويَثُوب إلى رُشده، ويرجع إليه عقله، فيقضي لي وطري، ويُطفِئ لي نار أَرَبي». ومضتْ إليه، وأزاحتهنّ واحدةً واحدةً عن طريقها، وهنّ ينظرْن ما تفعل، ويُشفِقْن في أنفسهنّ أنْ يكون لها دونهنّ، حتّى إذا صارتْ أمامه، سألتْه: «فما تختار؟». فردّ دون أنْ يتردّد: «السّجنُ أحبّ إليّ».

ഇരഇര

(٣١)
السّجنُ أَحَبُّ إليّ

وملكَتْ صورةُ يوسفَ قلوب النّساء، ولم يُفارقْ مخيّلة أيّ واحدةٍ من أولئك اللّواتي حضرْن ليلة زليخة المشهودة، اللّيلة الّتي لم يكنْ فيها من غِناءٍ ولا رَقصٍ ولا شراب، لم يكنْ فيها إلا وجه هذا الملاك الّذي لا ينتمي إلى عالَم البشر. وما خرجْنَ إلاّ بالدّم، وما عُدْنَ إلى بيوتهنّ إلاّ وأيديهنّ مُقطّعة، وقلوبهنّ مُتحسّرة، وأفكارهنّ مُشتّتة. وكُنّ يرجفْن طوال الطّريق، يركبْنَ العربات ذاهلاتٍ، ويحتَجْنَ إلى الخَدَم للمساعدة في الوصول إلى بيوتهنّ؛ كأنّما تاهت البيوت عنهنّ أكثر مِمّا تُهنَ عنها!

وكُنّ إذا أَوَيْنَ إلى الفراش يرَيْنه، فيُطلبْنَه حتّى في خيالهنّ فيمتنع عليهنّ، ويسألْنَه الوِصال ولو في أحلامهنّ فيتأبّى، فازدادتْ بذلك حيرتُهنّ، وعَظُمَ وجدهنّ به. وكانتْ كثيراتٌ منهنّ يستيقظْن في اللّيل وهنّ محمُومات يَهْذِيْن: «لقدْ سَحَرَنا...». «هذا الفتى العبرانيّ ساحر...». ولم تمضِ شهورٌ حتّى هلكَ من تلك النّساء اللّواتي رأينه في تلك اللّيلة المشؤومة عشر نساء، ذهبَ بعقولهنّ، وأطار النّوم من عيونهنّ، وحرّمْنَ الطّعام على أنفسهنّ لأجله، حتّى ذبُلْن، وفسدتْ أجسادُهنّ وغادرتْ أرواحهنّ الآيسة البائسة تلك الأجساد العاشقة!!!

وقالتْ زليخة لقطفير: «لقد فتنَ نساء مصر كلّها». «يوسف؟». «وَمَنْ غيرُه؟». «وماذا يفعل لهنّ، ليذْهَبْن إلى الجحيم». «كلاّ، فليذْهبْ

هو إلى الجحيم». «ماذا يا امرأة؟ إنّه لم يفعل شيئًا كي يُحاسَب عليه، ولم يرتكبْ ذنبًا أو جريمة». «جمالُه ذنبُه، عيناه جِنايته، وَسامتُه جريمتُه». «هل جُنِنْتِ يا امرأة؟!!». «إنْ لم ترْمِهِ في السّجن فسيفتن ما تبقّى من نساء مصر، وستشيع الفاحشة في القصر، وستكون نارًا لا يُمكنُ إخمادها، وستمتدّ ألسنة هذه النّار لتأكل مصر كلّها، وتأتي على كلّ نسائها؛ الصّغيرات اللّواتي لم يتفتّقْ مُشْمُشهنّ، والكبيرات اللّواتي نضجتْ رُمّاناتهنّ». «إنْ كان خطيرًا إلى هذا الحدّ كما تقولين؛ فلماذا لم تعرفي هذا الخطر قبل اليوم؟!». «لأنّني لم أشعرْ به إلاّ بعد أنْ دعوتُه مع نساء مصر إلى ذلك الحفل». «ولماذا جمعْتِه بهنّ؟!». «أمرٌ بيني وبينَ نساء مصر لا تفهمه، فلا تسْأل! الآن دعْنا ننتهِ من أمر يوسف». «ماذا تقترحين؟». «السّجن». «إنْ كان الأمر كذلك، فلماذا لا ننفيه؟ لماذا لا نُعيده إلى المكان الّذي جاء منه، لماذا لا نرجعه إلى فلسطين؟». «لأنّني أريدُ أنْ أُبعده وأُبقيه قريبًا منّي في الوقت نفسه!! أريدُ أنْ يبقى تحت سيطرتي، أريدُ أنْ أشعر أنّه يُعاني كما عانيتُ، أنه يُذلّ كما أذلّني، وأريدُه أنْ يُرمَى في سجنٍ تحت الأرض، حتّى تكون أقدامي فوقَ رأسه». «أنتِ مجنونة يا امرأة!». «أنتَ مجنون إذا لم تفعلْ ما أقوله! أتريدُ أنْ يبقَى أمام ناظرَيّ في القصر، وأنا تحتَ رحمته؟». «إنّكِ داهية». «الدّاهية ستُصيبنا معًا إنْ لم تُلقِه في السّجن. احمِ امرأتك يا رجل منه، إنّ شَرَكَ حُبّه لا ينجو منه الحجر حتّى ينجو منه البشر!!».

وقال قطفير ليوسف: «فما كان الأمر بيدي». وردّ يوسف: «أهو السّجن؟». «بلى». «لقد أحسنْتَ إليّ طَوال هذه السّنوات، وأنا لن أنسى لك ذلك، وإنّه لو مرّ عهدُ رخاء فشكرتُ، لجديرٌ بي إنْ مرّ عهد بلاء

لَصَبرت». وناور قطفير: «السجن أو الجسد؟». فردّ يوسف: «كلاهما سجن». فأتبعَ قطفير: «فالنّساء أو السّجن؟». فردّ يوسف: «السّجنُ أحبُّ إليّ». «هو ذاك». فسأله يوسف أنْ يأخذَ متاعه من غرفته في القصر، فإنّ له فيها قميصَه وصَكّه. فقال: خُذْ إلى مُستقركَ ما شِئت».

وأمرتْ زُليخة أنْ يُحمَلَ يوسفُ إلى السّجن على حِمار، وأنْ يُطافَ به في طيبة قبل أنْ يُذهبَ به إلى السّجن حتى يراه كلّ مَنْ في السّوق، وأنْ يُعفّر رأسُه، ويُجزّ شيءٌ من شَعره، ويُمزّق ثوبُه؛ حتّى لا يُفتَن به أحدٌ، ويُعطّش ويُجوّع. ثُمّ دُفِعَ بعد الطّواف به في الأسواق على الحمار دفعًا، وأُهبِطَ يمشي على رجلَيه إلى الحَبْس، يسوقه الجُندُ والحَرَس، وهم يُقيّدون يديَه خلفَ ظهره، وسمع وهو يهوي الدّرجات إلى القاع ذلك الصّوت الّذي كان يسمعه في الجُبّ الأوّل؛ في البِئر: «يا يوسُف أنتَ حبسْتَ نفسَكَ حيثُ قلتَ السجنُ أحبُّ إليّ، ولو قلتَ العافيةُ أحبُّ إليّ لعوفيت». فردّ عليه راضِيًا: «وإنّ أمر الله إذا جاء لا يُردّ».

وقال يعقوب: «أشعر أنّني أُدخلتُ إلى قعرٍ سحيق، وسقطتُ في دُجُنّة، إنّها الظُّلمة، إنّها تحيطُ بي من كلّ جانب». وأسرعَ إليه بنيامين: «ماذا يا أبي؟». وتلمّسه يعقوب، وأمسكَ بلحيته، وتفحّصها جيّدًا، وهتف: «أنتَ بنيامين إذًا؟». «ماذا هنالك يا أبي؟». «لقد ضَعُفَ بصري، إنّي لا أرى بوضوح؛ ذهبَتْ ذكرى يوسفُ بنصفِ نورِ عينَيّ. أرجوك ابقَ قريبًا منّي يا بُنَيّ، لأراكَ بالنّصف الّذي تبقّى». وتلمّسَ وجهه من جديد، وابتسم، حتّى بانتْ أسنانه، وهتف: «كم تُشبه أخاك!!».

وذَبُلَ جسد زليخة، كانتْ تذوي كلّما مرّ يومٌ لم تَرَ فيه يوسف، لكأنّما كانتْ تستمدّ حياتها من النّظر في وجهه النّضر، وتُبقِي على شبابها من سماعِ صوتِه العَذب، فلمّا غاب، غابتْ عنها الحياة، وانسربَ منها شبابُها انسِراب الماء من بين الأصابع؛ سقطتْ حواجبها على جفونها، وغزتِ التّجاعيد أسفلَ عينَيها، وشابَ رأسُها، ولم تعدْ تقفُ أمام المرآة كثيرًا، وتركتْ زينتَها، وما كانتْ لتهتمّ بشيءٍ سوى ذكرى يوسف، وكانتْ تهتف: «لم يعدْ يذرع بخُطُواته الرّشيقة قصري، فلمنْ أتزيّن؟». وزادت الهُوّة بينها وبين قِطفير، وكانا إذا جلسا إلى الطّعام، لم يُكلّم أحدُهما الآخر، وساد بينهما صمتٌ طويل، طويلٌ جدًّا، لا يقطعه إلاّ صوتُ بعض اللُّقم التّي تُمضَغ ببطءٍ وهدوء. وبكتْ. بكتْ ليلتها، وبكتْ ليالي طويلة من بعدها، حتّى أحرقتْ مجاري الدّموع مواضع النّور، وانتحبتْ، وكانتْ تلازم الفراش شهورًا لا تبرحه، وغَشِيتْ عيناها، ولم تعدْ تسأل أحدًا، ولا تتكلّم مع أحدٍ، وانتحتْ زاويةً قصيّة من غرفتها الواسعة، وعَقَدَتْ كفَّيْها فوق رأسِها، وصاحت: «وا أسَفَا على يُوسُف!!».

وقال السّاقي لأخناتون: «اشربْ يا سيّدي». فردّ عليه الملك: «فما في كأسك؟». «الخمر». «الخمر؟». «بلى». «فأنا لا أشربُها». «لقد كان أبوكَ يشربها حتّى يُذهل عن نفسه». «فما شأنُكَ بأبي؟ هل تعرفه؟ هل رأيتُكَ من قبلُ في هذا القصر؟». «كلا يا سيّدي، أعتذر، يبدو أنّني تجاوزتُ حدّي». وانحنى. «فمنْ أنتَ؟». «أنا ساقيكَ يا سيّدي». «أجديدٌ أنتَ هنا؟». «بلى». «فمن أينَ أنت؟». «من قصر قطفير، بعثني إليكَ لأخدمك؟». «ومن يخدمه؟». «لا أدري». «فماذا في كأسك؟».

«الخمر يا سيّدي... الخمر». «بل في كأسك الهَمّ». «الخمر تُذهبُ الهَمّ يا سيّدي. ثُمّ انظر إلى جسدك النّحيل، إنّكَ بحاجةٍ إلى هذا الشّراب الأحمر من أجل أنْ يقوى، المُلكُ قُوّة». «لا تعظ أيّها السّاقي». «إنّها تعظني الخمر وتعظ كلّ فيلسوف. إنّها شراب الحكمة». واستغرب أخناتون، ونظر إلى أحد وزارئه الجالس عن يمينه: «فيمَ يُصرّ هذا على أنْ أشرب. سيقدّم الشّراب حين أدعوه، والآن خُذْه من هنا». وقال السّاقي قبل أنْ يُولّي: «أمرُ مولاي حاكم مصر العظيم، لي سؤال قبل أنْ أذهب». «قُلْ». «كيفَ تحكم مصر إذا لم تشرب؟!». وخرج.

وقال أخناتون: «أنا جائع». وهُرِع إليه عددٌ من الوزراء، وأشار لهم بكفّه أنْ يعودوا إلى أماكنهم: «ما لي أراكم أسرعتُم إليّ تعرجون مثل البطّ؟!» وقال أحد الوزراء له: «إنّكَ لطاهر». وقال آخر: «إنّك لأمين». فردّ: «إنّكم لمنافِقون. اخدعوا غيري بهذا الكلام». «تشهدُ الآلهة إنّنا لَصادِقون». «أنا لا يرضيني العُهر المقدس». «ماذا تقصدُ يا سيّدي؟». «أكاد أسمع آهات النّساء تشقّ سقوف المعبد والكهنةُ ينامون معهنّ». «إنّهم فاسِدون». «فما معنى أنْ أكون حاكم مصر الأكبر ولا أستطيع أنْ أقتلع هؤلاء من جذورهم!!». «إنّ للمعبد كرسيًّا يا سيّدي، مثل كرسيّ القصر». «لا يحكم مصر كرسيّان، إمّا أنْ أقضي على كُرسيّهم أو يقضوا على كُرسيّي». وهدَتْ أصواتُ الوزراء. واعترتْهم خشيةٌ من كلمات أخناتون، واستغربَ أحدُهم أنْ يكون هذا الملك النّحيلُ يتكلّم بهذه الطّريقة الثّائرة. وجرحَ أحدهم رهافة الصّمت، ليقول: «إنّ المالَ ليُطغِي». وقال وزيرٌ: «إنّ كبير الكَهَنة يسرق أموال المصريّين باسم الدّين، ويأخذ منهم المُكوس باسم القرابين الّتي يزعم أنّه يُقدّمها للآلهة

الّتي تحمي زروعهم». وغضبَ أخناتون، ووقف أمام كرسيّه، وهتف وهو يحمل عصا الملك بيُمناه: «إنّهم مجموعة من المُشعوِذين والمارقين واللّصوص، وإنّ أقوال هؤلاء الكَهَنة لأشدُّ إثمًا من كلّ ما سمعتُ حتّى هذه السّنة الرّابعة من حُكمي، وهي أشدُّ إثمًا مِمّا سَمِعَه أبي الملك أمنحوتب الثّالث، وإنّه لَدَيْنٌ في عنقي أنْ أنفّذ وصيّته الّتي قالَها لي وهو على فراش الموت». وقال وزيرٌ: «الوقوف في وجه كهنة المعبد يُشبه وقوف فردٍ واحدٍ أمام جيشٍ بأكمله، وسَبّاحٍ بجسدٍ مُنهَكٍ أمام طوفان». فردّ مُغضَبًا وشفتاه الرّقيقتان تهتزّان: «سأكون أنا الجيشَ والطّوفان». «المشكلة ليستْ فيهم، فهم في النّهاية قليلون مهما كثروا، ومهما أحاطوا أنفسهم بالجُند والحرس». «فما المشكلة إذًا؟». «المُشكلة فيمن يُؤمن بأفكارهم، في مَنْ يتّبع تخاريفهم، إنّ ثلاثة أرباع شعب مصر تصدّقهم؛ هذا إنْ لم يكونوا أكثر من ذلك...». «المشلكة في الجهل إذًا؟». «بلى». «بل المشكلة في تعدّد الآلهة، لو عبدتْ مصر إلهًا واحدًا لتوحّدَتْ». «ولكنْ أيّ إلهٍ نعبد؟ إنّ جَعْلَ الآلهة إلهًا واحدًا لأمرٌ لا يُعقَل، ولا يُمكن للشّعب أنْ يُطيقه».

ومن بعيدٍ كان الخدم يُجهّزون غرفة الطّعام ليأكل الملك، وقال كبير الخدم: «الطّعام جاهزٌ يا سيّدي». ومشى، ومشى خلفه عددٌ من الوزراء، وامتدّتْ لهم مائدةٌ طويلةٌ تحمل من كلّ صنفٍ أشهاه وأطيبَه، وقال الملك: «إنّ المائدة لتكفي أهل القصر كلّهم». وسكتَ الوزراء، إنّهم يسمعون هذا القول أوّل مرّة، وإنّها السّنة الرّابعة الّتي يجلسُ فيها على العرش، بل إنّه امتدّتْ أمامه مثل هذه المائدة منذُ أنْ كان صغيرًا، ولدًا صغيرًا جدًّا، منذُ أكثر من ثلاثين عامًا، فما الّذي حدثَ حتّى يقول

هذه العبارةَ اليوم؟! ولم يدع أفكارهم تنطلق أكثر من هذا، وقال: «ارفعوا، هذا، وهذا، وهذا، و... وأبقُوا على هذا». وأشار إلى الخُبز. ورفعوا من أمامه كلّ ما على المائدة تقريبًا، وحار الوزراء ما يأكلون، ولم يُبقِ لهم الملك إلاّ الخبز وبعض المَرَق، وقال أخناتون: «هل هذا الخبز مخبوزٌ اليوم؟». فردّ عليه كبير الخدم: «إنّه مخبوزٌ للتوّ يا سيّدي». كانَ القُتار يخرج من الخبز، وتلمّسه الملك: «إنّه ساخنٌ بالفِعل... ما أعظمَها من نِعمة!». وعجب الوزراء، واستاؤوا لما يرَون ويسمعون، ومال أحدهم على أذن الآخر: «ما الّذي أصابَه؟». «أهو... هو؟!». ولم يجدا إجابةً لسؤالَيهما. وقَسَمَ أخناتون من الخبز لقمةً، ورفعها إلى فمه، وأكلها، وهتف: «إنّه لَشَهِيّ، وإنّ صانِعًا لهذا الخبز لبديع، وإنّه لَبَشَر، فكيفَ بمن يصنع خُبزَ الحياة؟». وعجب الوزراء الّذين لم يمدّوا أيديهم بعدُ، فلا شيءَ مِمّا اعتادوا أنْ يأكلوه كان موجودًا. وتابع: «لم آكلْ من قبلُ خبزًا طيّبًا كهذا؛ أهو الخبّازُ إيّاه الّذي كان يخبزُ على عهدِ أبي؟». وردّ كبير الخدم: «كلاّ يا سيّدي، إنّه خَبّازٌ جديد». «فمن هو؟». «لقد بعثَ به قطفير إلينا؟». «مرّة أخرى؟! ما باله يستغني عن ساقيه وخَبّازه؟!». فهمسَ أحدُ الوزراء: «لعلّ قطفير رأى منهما ما يسوءُه؟!». فردّ وزيرٌ آخَر: «فيبعثَ للملك بهما؟!! إنْ أحدثا أمرًا فعليه أنْ يُعاقِبَهما لا أنْ يبعثَ بهما إلينا». وضحك الملك ضحكةً قويّة، وكاد جذعه النحيل يتقصّفُ لها، وقالَ لهما: «هل تخافان على حياتكما؟ إنّكما لا تأكلان؛ كُلا، لم أذقْ خبزًا شهيًّا مثل هذا طوال فترةِ حكم أبي. لقد أعجبني هذا الخبّاز؛ ائتوني به». وجاؤوه بالخبّاز، وهو يفحصُ الأرض ببصره، مُطرِقًا خشية أنْ يكون في الخبز ما أزعج الملك فتحلّ به مُصيبة، وخشيَ أنْ

يَحِيْقَ به غضبُ الملك، فالملوك يغضبون لأتفه الأسباب، وربّما بلا سبب، ودائمًا ما تكون عواقب غضبهم كارثيّة. ولكنّه لمّا وصلَ إلى أخناتون، وكان غيرَ قادرٍ على أنْ يرفعَ بصره إليه، سمعه يقول له: «اجلسْ أيّها الخبّاز، كُلْ معنا». وتلعثم الخبّاز، وشكَّ فيما سمع، وانفرجتْ شفتاه تتدحرجُ الكلماتُ بصعوبةٍ من فوق لسانه: «هل في الخبز شيء؟!». «كلاّ... كلاّ... إنّه شهيّ... شهيٌّ جِدًّا، وأنا دعوتُكَ لأشكركَ». وانزعج الوزراء من جديد. وهمسَ أحدهم في أذنه: «يا سيّدي هذا لا يجوز». فنهره الملك: «وما الّذي لا يجوز أيّها الوزير؟». «أنْ تأكل مع خبّاز». «وما شأنُك أنتَ؟ إنْ شِئتَ أنْ تأكل معنا فافْعلْ، وإنْ لم تشأ فاذهبْ وكُلْ وحدكَ». ومال الوزير إلى الوزير الآخر، وجذبه من يده، وابتعدا قليلاً عن نَظَرِ الملك وسَمْعِه، وهمس في أذنه: «لا بُدّ من تدارك الأمر... إنّه يُحطّم كلّ أعراف السّلالات الملكيّة الحاكمة؛ يبدو أنّه يجب أنْ نكون أوصياء عليه».

(٣٢)
يا لَفِعْل الأيّام في الذّاكرة!!

ودَعا أخناتون رُهبانه، وأوقدوا الشّموع وأطفؤوا القناديل، وجاء الرُّهبان من الكهوف البعيدة، على أقدامهم لم تُقلّهم عَرباتٌ ولا جِيادٌ ولا محِفّات، الأرضُ لله، وإنّهم يريدون أنْ يمشوا في ملكوت الله، ويسعدون إذْ تتغبّر أقدامُهم بالتّراب في هذه الرّحلة الطّويلة... والرّحلة إلى الله طويلة... الرّحلة إلى رَحْموته، والفوز بنعيمه طويلة؛ طويلةٌ جدًّا؛ ولكنّها قصيرةٌ على طولها بالصّبر، قريبةٌ على بُعدها بالحُبّ، مَنْ أحبّ الله سكنَ قلبُه... وكانوا بسيطين جدًّا، لا يلبسون إلاّ أرديتهم القُرمزيّة الّتي أكل منها كرُّ النّهارات واللّيالي فبهتَتْ، وكانوا يمشون حافين، حتّى إذا وصلوا إلى القصر كانت أقدامُهم قد تعفّرتْ، وتشقّقتْ، وسال من بعضها الدّم، ولولا أنّهم يعرفون أنّه يعرف ما يعرفون لما أتَوا إليه من بلادٍ بعيدة، ولَمّا دخلوا القصور وهم أهل كهوفٍ، يرون كهوفهم أنعمَ من قصور الملوك... وأفسح لهم أخناتون الدّرب، وأخلى لهم القصر، وصرف الخَدَم والحَشَم، والوزراء، وأهلَ الدُّنيا، وقال: «يخدمُ بعضُنا بعضًا، في حضرة الله كلّنا عِياله، وكلّنا خَدَمٌ لِقُدّوسه». واصطفّ الرّهبان ذات الاصطفاف في ليلة زليخة، وإن اختلفت الأجساد وتباينت المقامات، وأرسلوا رؤوسهم على صدورهم، وجلسَ أخناتون بينهم كأنّه واحدٌ منهم، مَنْ رآه لم يعرفْه، فلا شيءَ يُميّزه عن الرّهبان إلاّ

نحوله الشّديد القاسي، ورَفَع الذين في صدر القاعة المهيبة دُفوفهم فوقَ رؤوسهم، وراحوا يضربون عليها، وانطلقت الحناجر بنشيدٍ جماعيّ رخيم:

«ما أجملَ مَطْلَعَكَ فِي أُفُقِ السّماء... أيْ آتُون الحَيّ مَبْدَأُ الحَياة... فَإذا مَا أَشْرَقْتَ فِي الأُفُقِ الشَّرْقِيّ... مَلأتَ الأَرْضَ كُلَّها بِجَمالِك... وَازْدَهَرَ الشَّجَرُ والنَّبات... وَرَفْرَفَتِ الطُّيُورُ فِي مَناقِعِها وَأَجْنِحَتُها مَرْفُوعَةٌ تُسَبِّحُ بِحَمْدِك... وَرَقَصَتْ كُلُّ الأَغْنامِ وَهِيَ واقِفَةٌ عَلى أَرْجُلِها... وَطارَ كُلُّ ذِي جَناحَيْن... كُلُّها تَحْيَا إِذا ما أَشْرَقْتَ عَلَيْها... وَأَقْلَعَتِ السُّفُنُ صاعِدَةً ونازِلَة... وَتَفَتَّحَتْ كُلُّ الطُّرُقِ لأَنَّكَ قَدْ طَلَعْت... وَإِنَّ السَّمَكَ فِي النَّهْرِ لَيَقْفِزُ أَمامَك... يا خَالِقَ المُضْغَةِ فِي المَرْأَة... ويا صانِعَ النُّطْفَةِ فِي الرَّجُل... ويا واهِبَ الحَياةِ للابْنِ فِي جِسْمِ أُمِّه... يا مَنْ يُغذّيهِ وَهُو في الرَّحِم... وحِينَ يَخْرُجُ مِنَ الجِسْمِ في يَوْمِ مَوْلِدِه... تَفْتَحُ أَنْتَ فاهُ لِيَنْطِقَ وَتَمُدُّهُ بِحاجاتِه... والفَرْخُ حِيْنَ يُزقزِقُ في البَيْضَة... تَهَبُهُ النَّفَسَ فِيها لِتَحْفَظَ لَهُ حَياتَه... فَإِذا ما وَصَلْتَ بِهِ إِلى النُّقْطَةِ الّتي عِنْدَها تُكْسَرُ البَيْضَة... خَرَجَ مِنَ البَيْضَةِ لِيُغَرِّدَ بِكُلِّ ما فِيْهِ مِنْ قُوَّة... وَيَمْشِي عَلَى قَدَمَيْه ساعَةَ يَخْرُجُ مِنْها... أَلا مَا أَكْثَرَ أَعْمالَكَ الخَافِيَةَ عَلَيْنا... أَيُّها الإِلَهُ الأَوْحَدُ الّذِي لَيْسَ لِغَيْرِهِ سُلْطَانٌ كَسُلْطَانِه».
وكان ابتداء النّشيد الّذي قادَه إلى التّوحيد.

ورقّ القلب، وامتلأ بالحكمة، وحمَلَ الملكُ صُواعه، كأسه الفضّيّة الكبيرة الّتي يشربُ فيها الماء من منبع النّيل، المنبع المُقدّس، وكان الماء يأتيه من ذلك المكان البعيد صافِيًا رَقراقًا، فيُسكَبَ له في هذا الصُّواع،

ويشربَ منه أسبوعًا، فإذا فرغ الماءُ أَتَوه من المنبع ذاته بماءٍ جديد. وفي تلك اللّيلة حمل الملكُ الصّواعَ الفضّيّ بيديه وطافَ على الرّهبان بنفسه، وسقَاهم واحِدًا واحِدًا: «اشربوا ماء الحياة المُقّدس؛ الماء الّذين خاضتْ فيه أقدام أسلافنا الطّاهرين مِمّن عرفوا أنّ مَنْ يُدير هذا الكونَ واحد، واحد لا يُشاركه ولا يُنازعه في تدبيره أحد». وكانوا يرفعون أذقانهم وهم جالسون على هيئاتهم القُدُسيّة، ويُقرّبون أفواههم إلى فم الصُّواع، وهو يُدير أُذُن الصّواع ليسيل الماء من الفم سَلِسًا غير هادر وينسكب في فم العَطشَى فيكونَ رِيّ كلّ ظامِئ؛ ظامِئ إلى الله. وكان أرفع الرّهبان منزلةً ذلك الّذي يُطوف على إخوته فيسقيهم بيدَيه، وما فعل ذلك في تلك اللّيلة إلاّ الملك!

وظلّ يدعوهم إلى قصره كلّما شعرَ أنّ قلبَه امتلأ بالسّواد، وأنّ أعباء الحُكم تحوّله إلى إلهٍ حجريّ يطوف به الحمقى والمحجوبة عيونهم عن النّور.

وقال لوزير العمران عنده: «ما نفعُ هذه التماثيل؟». ولمّا ابتلع الوزيرُ الصّدمةَ الّتي خلّفها السّؤال المُفاجئ، ردّ: «إنّها تحمي العرش ومصر، وتُنزِل الخصب». فضحك، وقال له: «دعْنا نُجرّب، لنبدأ بالقاعة الّتي أستقبلُ فيها الرُّهبان، أزِلْ منها النّقوش والأعمدة والتّماثيل، ولننتظرْ، أسبوعًا مثلاً، أسبوعَين، شهرًا، أنتَ أدرى يا وزيري بالوُسْع الّذي تحتمله طاقة هذه الآلهة حتّى تغضب، ثُمّ نرى إنْ كان عرشي سينهدم، ونيل مصر سيجفّ. فإنْ حدثَ بالفعل، استغفرتُ الآلهة، وأمرتُكَ أنْ تُعيدَ التماثيل إلى أماكنها، وأَسَلْنا تحتَ أقدامها دماءَ

القرابين». وانخلع فؤادُ الوزير. وهمس في قلبِه: «إنّه يُجدّف... الويل لنا من غضب الآلهة». وتلمّس جنبَيه حتّى لا تمسّه اللعّنات، وأحسّ أنّ عنقه ستطير فجأةً، واهتزّ رأسُه كجناحَي طائرٍ صغيرٍ وهو يتلفّتَ حوله، وخرج وهو لا يزال يحاول بَلْع رِيقه!!

لم يكن السّجن الّذي أُلقي فيه يوسُفُ سجنًا عاديًّا، كان قبوًا، لا نوافذ، لا شمس، ظُلمته دائمة، إلاّ من نورٍ شحيحٍ يأتي من كُوًى صغيرةٍ على الأطراف تُضاء فيها أسرجةٌ قديمة، قد غطّتْ على شُحّ نورها خيوط العناكب، والحشرات الميّتة. ولم يكنْ أصحابُه في السّجن، أو الّذين سيصبحون أصحابه في القريب سُجناء عاديّين، كان أكثرهم من اتُّهِم بِتُهم كبيرة، مثل الانقِلاب على السّلطة، أو إثارة الشّغب والفوضى، أو القتل...

يُوصَل إلى هذا القبو السّجن عبرَ دهليزٍ سقفُه منخفضٌ، يكاد من يمشي فيه أنْ يُطامن من رأسه حتّى لا يرتطم به. فإذا انتهى ذلك الدّهليز، وجدَ السّائر في نهاية الدّهليز غرفةً مربّعة يجلسُ فيها الحارس، ثُمّ في طرفها المقابل بابٌ ثقيلٌ من الحديد، يفتحُ على درجاتٍ تعدادها ثلاث عشرة درجة، تهوي إلى هذا القبو. أمّا القبو فكان يتكوّن من غُرفٍ صغيرةٍ على الأطراف، يُوصَل إليها بقناطر، يُحشَر فيها المساجين الخَطِرون، ومن البَهو الّذي يوضَع فيه بقيّة المساجين، وكان البَهو خاليًا من أيّ مظهرٍ من مظاهر الحياة. لا أَسِرّة، لا فُرُش، لا أغطية، لا ثياب، لا قِرَب ماء، لا شيء... باستثناء كمّيات من الحشائش مُلقاة بإهمال هنا وهناك، يجمعها السّجين إذا أرادَ أنْ ينام عليها ويجعل منها فِراشه. وفي

البَهو مصاطبُ صغيرة من الحجر ترتفع عن أرضيّة البهو قليلاً. يجلسُ إليها بعضُ المساجين إذا أردوا الحديث، أو ينامُ عليها آخرون. ويتحرّك في هذا البهو عشرات المساجين حركاتٍ عشوائيّة، تُبديهم الأقواس الحجريّة المُقام عليها القَبْو، تُبديهم لمن ينظر من غرفة الحارس إليهم!

وتداعتْ صُور الماضي، تذكّرَ أباه، وهو ينزل أولى الدّرجات إلى الجُبّ الجديد: «أينَ أنتَ يا أبي لترى ما حلّ بابنك؟!». وأغمضَ عينَيه، وحُلَم أنّه يرى (لِيا)، أمّه الثّانية، وأنّها تضحك في وجهه على عادتها، وتمدّ إليه يدها، وتهتف: «هَيّا، أعددتُ لكَ الرّغيفَ السّاخن الّذي كنتُ أُعدّه لكَ في الماضي... لماذا تأخّرتَ كلّ هذا الوقت؟!». وشَمّ رائحة الخُبز بالفعل، واشتهى أنْ يأكل منه لقمةً واحدةً، ومشتْ (لِيا) أمامه، ورآها تبتعدُ رويدًا رويدًا حتى اختفتْ، وتحدّرتْ دموعه، ومسحها. وهبطَ من جديد، ها هم إخوته يربطون الحبل الغليظ على جذعه، ويُدْلونه في البِئر، ويقطعون الحبل ليرتطم بالقاع، وهوى درجةً جديدةً وأحسَّ بألمٍ في ساقه مثل ذلك الألم الّذي شعرَ به أوّل سقوطه في ذلك البِئر قبل ما يقربُ من ثلاثين عامًا، ودَفَعَه الحارسُ من خلفه، وسمعه يقول: «لو أنّكَ استجبْتَ لِما طلبتْ منك لَما كنتَ هنا... مسكين، مَنْ يرفضُ امرأةً مثلها؟!!». وأحسّ في الصّوت رائحةَ أخيه يهوذا. ونفضَ رأسه، وهوى درجةً جديدةً، ورأى بنيامين، إنّ صورته غائمة، لا يتذكّره كثيرًا، مرّ السّنين الطّوال يُنسي، يا لَفِعْل الأيّام في الذّاكرة!! لكنّه لا يُمكن أنْ ينسَى حديثَه له في ذلك اللّيل فوق ذلك الجبل، تذكّر كلمته الجميلة: «النّجوم تضحك»؛ أينَ النّجوم الضّاحكة من هذا السّجن العابس!! وهوى درجةً جديدة. تذكّر القصر ونعيمه، والسّنوات

الرّغيدة الّتي عاشَها فيه، وها هو لا يجدُ لما فاتَ أثرًا، ولا لشيءٍ بقاءً، إنّه يعودُ إلى الجُبّ من جديد، وهكذا هي الحياة، لا تُؤمّن إلاّ خائفًا، ولا تُخوّف إلا آمِنًا!! وهوى ما تبقّى من الدّرجات وهو يأمُل ألاّ يطول مُكثه هنا!

وقال الوزير للملك: «إنّ عصيانًا يحدثُ في القصر». فسأله: «ومن أينَ يكون العصيان؟». «مِن السّاقي والخبّاز». وتعجّب: «السّاقي والخبّاز؛ إنّهما لا حول لهما ولا قُوّة». «إنّ السّاقي ضُبِطَ وهو يدسّ لكَ السُّمّ في الخمر». «ولكنّني لم أشربْ منه كأسًا واحدة». «هذا صحيح، ولكنْ مَنْ يضمن أنّه دسّ السُّمّ في كأس الماء لا الخَمر». «ها أنتَ تراني بكامل عافيتي». «إنّ سُمًّا من الّذي ضُبِطَ وهو يحاول دَسّه لا يؤثّر في جارِعِهِ إلاّ بعدَ أنْ يمرّ نصفُ نهار». «دَعْكَ من هذا، وأطلِعْني على ما آل إليه حالُ المعبد وكهنته الأفّاقين». «والخبّاز؟». «ما شأنُه هو الآخر؟ إنّه يقوم بعمله أفضل من الخبّاز الّذي كان على عهد أبي؛ إنّ خُبزه شهيّ، وأنا لا آكل هذه الأيّام إلاّ الخبز». «تلك هي المشكلة أيّها الحاكم الأعظم؛ إنّه يخلطُ طحينَ القمح بالدّيدان الميّتة، وإنّ الطّعْم الحَسَنَ الّذي تجده، هو من هذه الدّيدان، وإنّه إذا واصلْتَ أكله فسيُسبّب لك التّسمّم، وإنّ طبيب القصر لا قِبَل له بمعالجة مثل هذا الدّاء، وإنّنا لنخشى على حياتكَ أيّها العظيم». «لماذا تُخبرني بكلّ هذا أيّها الوزير الآن؟». «لأنّه وجبَ عليّ تحذيرك، فمصر لا تكون في أمانٍ إلاّ إذا كنتَ في أمان». «هُراء، مصر تكون - إذا أراد الله - في أمانٍ بي أو بدوني». «مهمّتي أنْ أُحذّرك». «إنّني جائع، ائتني بالخُبز». «لا تأكل منه يا سيّدي». «إنّني عطش». «لكَ هذه الكأس». «إنّها مُترعة؛ هل فيها

الخمر؟». «كلاّ، ملأتُها لكَ بيدَيّ، إنّها من أصفى ما جادتْ به مياه النّيل». وشربَ الملك، وقال: «ما أطيبَ هذا الماء!! ماذا قلتَ لي أيّها الوزير أهو من النّيل؟». «نعم يا سيّدي». «ما أطيبَ ماء النّيل أيّها الوزير!». وتغبّشَ وجه الوزير في مدى رؤية الملك. وقال الملك: «أشعرُ بالنّعاس». فردّ الوزير: «أقودُكَ إلى مخدعك يا سيّدي». «أعرفُ الطّريق وحدي فإليكَ عَنّي». وتهادَى في الدّرب، كأنّه عجوزٌ في التّسعين تحملُ فوق ظهرها جبال الكون كلّه!

(٣٣)
السّجنُ مدرسة

وأُتِي بأحدهم قد رُبِطَتْ يداه ورِجلاه، وجُرّ على الدّرجات الهابِطات إلى قبو السّجن جرّا، كما يُجرّ الكلبُ الأجرب، أو البعير الأعجف، ثُمّ سيقَ إلى وسط القبو، ورُفِعَ بالسّلاسل على مشانقَ من الحديد أُعِدّتْ لهذا الغرض، ولُفّت السّلاسل أوّل ما لُفّتْ على جسده، ومرّ أعلاها على بَكَرةٍ ضخمة، ونزلت السّلسلة من البَكَرة إلى يدَي جلاّدَين ضخمَين، ثُمّ شدّا هذه السّلسلة بكلّ ما فيهما من قُوّة فارتفعَ جسد السّجين كأنّه ذبيحةٌ، أو شاةٌ تُعَدّ للسّلخ، وشقلَ رأسُه إلى الأسفل وقدماه إلى الأعلى وهو مُتكوّر على نفسه وعيناه ذاهِلتان، وأُتِي بالسّياط المَضفورة من أذناب البقر، فَضُرِب بها على جسده العاري، فصاح صيحةً تشقّقتْ لها جُدران السّجن، ثُمّ ضُرِب أخرى فراحَ يستغيث، وتوالت استغاثاتُه من بعدُ على هُوِيّ الضّربات المحمومات الّتي لا ترحم، ولم يسمع الجلاّدون لصراخه، وتدفّق الدّم من وجهه وجسده، ونزل من فروة رأسه وسال حتّى تجمع في عينَيه، ثُمّ واصل انحداره على خدَّيه وأنفه، وراح يقطر من تحت أنفه في رأسه المقلوب ويسقط على الأرض في خُطُوطٍ مُتتابعة، وظلّ يصرخ ودمه يسيل حتّى همدتْ حركته، ثُمّ تولّى عنه الجلاّدون وتركوه في عذاباته، وخرجوا.

وجاءه يوسُف، وطلبَ من أحدهم أنْ يُعاونه في إنزاله، وفكّ

السّلسلة المُلتفّة على جذعه، وانفكّتْ زرداتُ السّلسلة فهوى، فاحتضنه بين يدَيه قبل أنْ يسقط، وأحسّ السّجين أنّه يُحلّق في السّماء، وأنّه في لحظةٍ فارقة فَقَدَ جناحَيه اللّذَين يُحلّق بهما، فهوى، فتلقّتْه غيمةٌ ناعمة، واحتضنتْه بين غَمامها فغابَ فيها، وشعر أنّه نجا، كان يوسُفُ هو الغَمامة. ودعا له بماءٍ، فغسلَ وجهه، وباقي جسده، ونظّف جُروحه، وأمَر بالقشّ فصنع له فِراشًا، وأنامه عليه، ثُمّ وضع يده على جبينه، وراحَ يدعو له وجسدُه يتعافَى شيئًا فشيئًا، ولم يفارقْه حتّى ذهبتْ آلامُه، وكادتْ جروحه تندمل. وتعجّبَ كُلّ مَنْ في السّجن، وقال له أحدهم: «مَنْ أنت؟». «أنا يوسف». «ومن تكون؟». «كنتُ خادمَ العزيز». «خادمَ الوزير الأوّل؟ ويُزجّ بكَ في السّجن». «جِنايةٌ لمْ أجنِها». فضحك السّجين من أعماقه، وهتف: «كلُّنا نقول ذلك». وصمتَ قبل أنْ يُتابع: «أنا أقول ذلك... فأنا بريءٌ جِدًّا من تهمة القتل الّتي اتُّهِمْتُ بها... وطُفْ بنفسك حتى على أولئك الّذين تحت القناطر في غرفهم الانفراديّة، ستسمع الكلمة نفسَها: «أنا بريء». ورفع السّجين رأسه قليلاً ودار به على السّجناء الّذين تجمهروا في المكان، وصرخ: «انظرْ إلى هؤلاء كلّهم، لم يرتكبْ أحدٌ منهم شيئًا... لا يغرّنّكَ أجسامهم الضّخمة؛ فهم أطفال، ولا عيونهم المُنتفخة وأسنانهم الصّفراء فهم حُملان... لم يفعلوا شيئًا... صدّقْني إنّهم نُبلاء...». وصمتَ مرّة ثانيّة، واتّسعتْ حدقتا عينَيه، واحمرّ وجهه، وانتفختْ أوداجه، ثُمّ صرخ: «أيّتها الكِلاب المسعورة ألا يعترفُ أحدُكم بأنّه عضّ سيّده ولو مرّة واحدة؟! ألا يمتلكُ أحدُكم مقدارًا ولو ضئيلاً من الشّجاعة ليقول إنّني مُذنب... إذا كُنتم جميعًا بُرآء، فمن هم المُذنبون إذًا؟ أَهُم أولئك

الّذين يتمتّعون بالطّعام والشّراب فوقَنا، أم أولئك الجالسون على الكراسيّ؟ أم أولئك القُضاة الّذين حكموا علينا... ليتَ شعري مَنْ هو المذنب إذا لم يعترفْ أحدٌ منكم بأفعاله... كونوا شُجعانًا مرّة واحدةً، مرّة واحدةً أيّها المُجرمون القَتَلة...». وأنهى صرختَه بقهقهةٍ مُجلجلة... ثُمّ اقتربَ سجينٌ عُتُلٌّ آخَر من يوسف، وتفحّصه، وسأله: «منذُ متى قدمْتَ إلى هنا؟». «أمسِ». «قلتَ لي ما اسمُك؟». «أنا يوسف». وحدّقَ فيه، وضيّقَ عينَيه وهو يرسلُ نظراته الفاحصة إليه، وفجأةً هتفَ كأنّه اكتشفَ شيئًا: «أنتَ صاحب زليخة، أليسَ كذلك؟». وهزّ يوسف رأسه. وضحك السّجين، ثُمّ اقتربَ منه أكثر، وتملّاه بعيونٍ أخرى هذه المرّة، وضحكَ بصوتٍ أعلى قبل أنْ يقول: «لقد كانتْ على حَقّ في أنْ تتعرّى لك، إنّكَ لتفتِنُ الحجر». وسالتْ ضحكته في القبو سَيَلان الماء في المُنحدر.

وقال يوسف: «اسمعوا. لدينا أَخٌ جريحٌ هنا، جسدهُ مُعذّب، وعلينا أنْ نساعده». ورفعوا أكفّهم استنكافًا: «ساعِدْه وحدك». وقال آخر: «لقد مات على هذه السّلسلة قبله العشرات، ولم يُساعدهم أحد، فلماذا نُساعده؟!». وقال ثالث: «لو كان مكانَنا ورأى أحدَنا مكانَه لَمَا حرّكَ ذلك فيه ساكِنًا». ووضع يوسف يده على قلوبهم: «إنّني أسمع دقّاتها، إنّ لكم قلوبًا نابضة، لا تنكروا تلك القلوب الّتي تضجّ بالحياة في صدوركم». ومسح يوسف على قلوبهم، وسقَى فيها نبتة الخير بماء الحُبّ، فأعادها إلى الحياة، أو أعاد الحياة إليها. وقال يوسف: «السّجن مدرسة، فهلمّ أعلّمْكم». ولم يُشايعه أحدٌ في أوّل الأمر، ثُمّ بدأ الماء يتحرّك في عقولهم، فعرفوا أنّ له منطقًا حُلْوًا ورأيًا عذبًا، فبدؤوا يلتفّون

حوله. وقال يوسف: «المكان القذر ليس مكانًا صالحًا للتّعلّم فهلمّ ننظّف السّجن». فردّ أحدهم: «إنّني أبول في هذا المكان الّذي أنام فيه منذ عشر سنوات، ولم يجئ اليوم الّذي يقول لي فيه شابٌّ وسيمٌ وطريٌّ مثلك نظّفْ بولَك». فردّ يوسف: «أنا أنظّفه لك». ومَضى إلى مكان بوله فسكبَ عليه الماء، وكنسه بالمِقشّة، ومهّد له موطِئًا ليرتاح فيه، ثُمّ نظر إلى جسده، فقال: «تعالَ أسكبِ الماءَ على جسدكَ، الماء حياة». وأخذه من يده كما تأخذ الأمّ ابنَها، وانقاد له السّجين، وتبعه كما تتبع الهِرّة سيّدها، وتعجّب السّجناء الآخرون، وراحوا يراقبون المشهد مَشْدوهين، ولمّا صار تحت الماء، أخذ يوسف يده ففركَ له جسده، ورَغا جلدُه الخَشِن تحت نعومة يدي هذا الفتى العجيب، وكاد السّجين يبكي من الفرح، إنّ جسده يعود له، وأراد أنْ يقبّل يوسف، وهَمّ به لولا الماء، ثُمّ احتضنه يوسف ببعض الخِرَق النّظيفة فجفّف بَلَلَه، ثُمّ نزعَ قميصَه فألبسه له، وبكى السّجين هذه المرّة، بكى من قلبه، وقال من بين دموعه المُنسكبة: «أنتَ ملاك». وابتسم يوسف. واجتمع السّجناء حوله، وراحوا يتفحّصون فتاهم الجديد، وسرتْ همهمات: «كيفَ يُمكن لهذا الرّجل الصّالح أنْ يُغوي امرأة؟!». وهمهمَ آخر: «مُستحيل». «النّساء مصائبُ مُكدّسة». «لا بُدّ أنّها هي الّتي أغوتْه». «هذا رجلٌ صالح، أنا أصدّق الآنَ أنّه بريء». «لعنة الله على النّساء، فتّشْ عن أيّ مصيبةٍ فستجد خلفها امرأة». وسمعهم يوسف، وهتف: «لا تتّهموا أحدًا، الصّالح من انشغل بعيوبه عن عيوب النّاس». وزاده ذلك رفعةً في عُيونهم.

ونَظُفَ السّجن، وصار السّجناء يأكلون وهم مُستمتعون. وقال

يوسف: «الآنَ نظّفوا قلوبكم قبل أنْ تُنظّفوا بيوتكم». فسأله أحدهم: «وهل السّجن بيتُنا؟!». «هو كذلك ما دُمنا فيه، نجعل ما نتعلّمه فيه عُدّتنا حينَ نخرج». ولم يتعرّض أحدٌ من السّجناء مذ حلّ فيه يوسف إلى الأذى، وحلّتْ بركتُه في المكان.

وقال يوسف: «سيأتيكم اليوم عَدَسٌ مجروش، مرٌّ طَعْمُه». وجاءهم العَدَس المُرّ، فقالوا له: «هل ذهبت البركة؟». فردّ: «إنّما الجسدُ جِملٌ يُقيتُه أيّ شيء. وإنّ كلّ ما يصلح به الجسد نِعمة، فلا تكفروا نعمة الله عليكم». وقال يوسف: «سيأتيكم اليوم خُبزٌ أسودُ أعرِفُ مَنْ خَبَزَه، وإنّه ليعرفني. وماءٌ أزرقُ أعرفُ مَنْ سَكَبَه، وإنّه ليعرفُني. فأمّا الخُبز ففيه الزُّبْد. وأمّا الماء ففيه النّيل». وجاءهم خُبزٌ فيه زُبد، وماءٌ فيه نيلٌ، فتعجّبوا منه أيّما تعجّب، وهتفوا: «أساحرٌ فوقَ الأرضِ وتحتَ الأرض!!».

وتأوّه سجينٌ من الألم، فنشج: «فَمِي مالح». وقال آخَر: قد طال بقائي هنا، وإنّني لم أرَ أولادي منذُ عَقْدَين من الزّمان». وقال ثالث: «قَطَعُوا ساقي قَطَعتِ الآلهة سيقان نسائهم وذراريهم». وقال رابع: «اشتدّ بلائي». وقال خامس: «انقطعَ رجائي». ونثروا يأسَهم بينَ يدَيه، فقال: «اصبروا وأبْشِروا، فإنّ الفرج قريب». وكادوا يكفرون به: «أيّ فرجٍ والموتُ أقربُ إلينا من حبل الوريد؟!». فردّ: «إنّ حبل الوريد لا ينقطع إلاّ إذا أراد الله، وإنّه لينقطعُ في السّجن كما ينقطعُ في القصر، وإنّ الله ليستردّ منه حياةَ صاحبه في السّوق أو في البيت لا فرق، مَنْ أَمِنَ الحَيْن عاشَ في أيْن؟». وقالوا له: «ما أحسنَ حديثَك!! فمَنْ علّمك؟».

فقال: «الله». فسألوه: «الله؟!». فقال: «نعم». فقالوا: «ومَنْ هو الله؟!».

وكان قليل النّوم في اللّيل، وقامَ يُصلّي تلك اللّيلة، ورمقتْه عُيُونٌ كثيرةٌ في القَبو الفسيح، واستوى كأنّه عمودٌ من النّور في وسط الظّلام، وشكّوا أنّ هذا الّذي يقف هذا الموقف هو من جِنس البشر، إنّ نُورَه ليملأ كلّ عينٍ تنظر إليه، ونظروا إلى قلوبهم فوجدوا فيها ما تبقّى مِن كلماته، كأنّ كلماته نور، كأنّ كلّ ما يمّت له نور. وسمعوه يدعو دعاءً غريبًا لم يألفوه. واقترب منه نفرٌ منهم، وحَبَوْا إليه على رُكبهم ببطء، حَذِرين أنْ يُزعجوا هدأته، حتّى إذا صاروا قريبين منه وقفوا خلفه كما يقف، وردّدوا خلفَه ما يقول دون أنْ يَعُوا، ثُمّ بَكى، فبكَوا لِبُكائه لا يدرون لماذا، ثُمّ سمعوا جُدران السّجن تبكي، وأرادوا أنْ يتأكّدوا من أنّهم لا يَحلُمون، فأرهفوا السّمع فتيّقنوا أنّ السّجن له قلبٌ كقلوبهم، وأنّ الحجر له مشاعر كمشاعرهم أو أرقّ، وأنّ القناطر لها أحاسيس كأحاسيسهم أو أرهف، وشعروا أنّ كلّ شيءٍ حولهم يخشع، وأنّ بكاء السّجن ومَنْ فيه قد وصل إلى السّماء.

وأحبّه صاحبُ السّجن، الّذي كان يرقبُ ما يفعله من حجرته في أعلى الدّرجات الثلاث عشرة المُطلّة على القبو الواسع، وأَنِسَ به كما أَنِس به المساجين، وأَلِفَ حديثه، وكان يترك حجرته، ليسمع إلى قَوْله، وقال له: «ما فعلتْ زليخة حتّى ألقتْ بكَ إلى هنا؟!». فردّ: «فعلتْ خيرًا» ولم يزدْ على ذلك حرفًا واحدًا. لكنّ صاحب السّجن سأله: «وأيُّ خيرٍ في أنْ تُرمَى في غياهب السّجون؟!». فصمت. لكنّه شدّ عليه، واستحلفه أنْ يتكلّم، فما زادَ على أنْ قال: «إنّ الأخيار وحدهم هم

الّذين يُحقّقون أهدافَهم عن طريق الحِكمة، بينما يظنّ الأشرار أنّ رغباتهم يُمكن أنْ تتحقّق عن طريق اللّذّة، أيّ لذّةٍ في لذّةٍ تُورثُ شقاءً لا ينصرم؟! وأيُّ متعةٍ في مُتعةٍ يزول حُلْوها ولا تبقى إلاّ مرارتُها الّتي لا تنفد». وهزّ صاحب السّجن رأسه مُتعجّبًا، وقال: «إنّكَ لَحَكيمٌ». وخفضَ يوسف بصره، فرآه صاحبُ السّجن جميلاً جمالاً يكاد يذهبُ بالألباب، فهتفَ به من غبطة: «يا يوسف». فالتفتَ إليه يوسف، فقال له: «والله إنّي لأُحبّك». فتبسّم يوسف قبل أنْ يقول: «أعوذ بالله من حُبّك». فجفل صاحب السّجن، وسأله: «ولِمَ ذاك؟». فقال يوسف: «لقد أحبّني أبي فألقى بي إخوتي في البِئر، وباعوني بثمنٍ بخس، وأحبّتْني سيّدتي فألقتْ بي في هذا البِئر، وحبستْني كلّ هذا الحَبس». فقال له صاحب السّجن: «والله ما أحبّكَ أحدٌ إلاّ أحبّكَ حقًّا، ولكنّ...». فعاجله يوسف: «ولكنّ الله أراد».

وتلوّى جذع الملك النّحيل، وشدّ عليه بيديه وهو يتأوّه. وجاءه الطّبيب، فقال له: «إنّ داءكَ في طعامِك». فقال له الملك: «كذبتَ؛ والله دائي في روحي؛ إنّني لأعرفُ أنّني أريدُ الله، ولكنّني لا أعرفُ كيف، وأبحثُ عنه، ولكنّني لا أدري أين!!». وطردَ الطّبيب. ثُمّ تلوّى في اليوم الثّاني، ورأى أخاليطَ عجيبة في نومه، فصحا وهو يشهق، وجاؤوه بالطّبيب مرّة ثانية، فقال له: «إنّ داءكَ في شرابِك». فردّ عليه: «كذبت؛ والله إنّ دائي في قلبي؛ إنّني لأعرفُ أنّني أريدُ الله، ولكنّني لا أعرفُ كيف، وأبحثُ عنه، ولكنّني لا أدري أين!!». وطَرده.

وجلسَ الملك على العرش، فتقدّم منه وزير العُمران، فقال له: «أيّها

الملك؛ علمتُ أنّكَ لا تنامُ الليل لشدّة ما ينزل بكَ من الألم». فقال: «نعم!». فقال: «أرأيتَ؟». فسأله الملك: «ماذا رأيت؟». فقال الوزير: «إنّما ذلك من غضب الآلهة». فسأله: «وكيفَ ذلك؟». فقال: «إنّه لمّا أمرتَ قبلَ بضعة أشهر بإزالة النّقوش والتّماثيل من غرفة التّراتيل، ونزعتَ كلّ ما فيها من آلهةٍ حلّ بكَ ما حلّ». فضحك الملك، ولمعتْ عيناه، وهتفَ بالوزير: «هلمّ بنا إلى غرفة التّراتيل». ومضيا يتبعهما عددٌ من الوزراء والجنود، ودخلوا الغرفة، وأشرقَ فيها نورٌ قادمٌ من النوافذ الّتي ترتفع جهة الشّرق، وقال الملك: «انظر أيّها الوزير إنّها تتلألأ بنور الشّمس العظيم، أيّ غضبٍ للآلهة كما تدّعي؟». فسأله الوزير: «وجسدك الّذي لا ينام في اللّيل». «إنّ جسدي لا ينام لأنّ قلبي لا ينام، أنا أبحثُ عن إلهٍ واحدٍ صنعَ كلّ هذا، وأنتَ أيّها الأبله تأتيني لتقول إنّ الآلهة غضبتْ عليّ وسخطتْ على ما فعلتُ فأرادتْ أنْ تنتقم لشرفِها، وتثأر لكرامتها؛ ثُمّ إذا كان ما تقوله صحيحًا، فبالله أخبرني أيّ إله من مئات الآلهة هذه هو الّذي غضب عليّ حتّى غرسَ فيّ المرض؛ فأنا لا أفتأ عليل الجسد؟!» ثُمّ أطلق ضحكةً تردّد صداها في القاعة، ونظر خلفه إلى الوزراء والجُند، وقال على إيقاع ما تبقّى من ضحكته: «أليسَ وزير العُمران هذا أبله؟». وردّوا بصوتٍ واحدٍ: «بلى». وضجّت القاعة بالضّحك، فهتف: «إنْ كان أبله فلا تكونوا بُلَهاء مثله». فانخمدتْ ضحكاتهم، وتابع: «إنّ الله غيور، لا يقبل أنْ يُشاركه في سُلطانه أحدٌ. أرأيتُم لو شاركني في سلطاني ملكٌ آخَرُ يريد أنْ يجلسَ على عرش مصر يومًا، وأجلسُ أنا يومًا آخَر؛ أكنتُ سأُقبّلُ رأسَه أم أقطع عنقه؟! أيّها البُلَهاء؛ قليلاً من المنطق». ثُمّ جذب وزير العُمران إليه، وصرخ في

وجهه: «أُريدُكَ أنْ تُزيل كلّ التّماثيل والنّقوش من معابد طيبة، وتُنزل الآلهة المُتعدّدة من عَليائها». ورجفَ الوزير: «كلاّ، أنا لا أستطيع، أخافُ غضبَ الآلهة». فردّ الملك: «بل تخافُ غضبَ كَهَنة المعبد الّذين يأكلون أموال النّاس وأعراضَهم باسم الآلهة، كم مومسٍ تنام في مخدع كلّ واحدٍ منهم في كلّ يوم!!». فخفض الوزير صوته كما لو كان يقرّ بقولة الملك: «إنّه لا يستطيع أنْ يقفَ في وجههم أحد». فردّ الملك: «أنا سأقفُ في وجوههم، وأنا الّذي سيستأصل شأفتهم». وغادر القاعة مُغضَبًا، وغادر وزير العمران القاعة خلفه وهو يتحسّس رقبته!

وعادوا إلى قاعة العرش، فوجدوا الخبّاز والسّاقي فيها ينتظران، فسألهما: «مَنْ دعاكما؟!». فأجابا: «الوزير». فسألهما: «أيُّ وزير؟!». فردّا: وزير العُمران» وأشارا إليه، فقال له الملك: «قِفْ إلى جانبهما». وجلسَ هو على العَرش. وقال للوزير: «لِمَ دعوتُهما؟». «لأنّهما خانا العهد». «فما فعلا؟». «لقد دسّ أحدُهما السّم لك؟». فتعجّب الملك، وسأل الوزير: «حَقًّا؟». «نعم». «فمَنْ أنبأكَ؟». «بعضُ عيوني؟». «وعيُونُكَ رأوا السّمّ ولم يروا مَنْ فعله منهما». «اسألْهما». وأمرَ الملكُ الوزيرَ أنْ يجلسَ على الأرض تحتَ قدمَيهما حتّى يسمعَ منهما، واعترض، لكنّ الملك قال: «أجّل اعتراضَك إلى أنْ أحكم في الأمر». وسأل السّاقي: «أأنتَ الّذي دَسَسْتَ السُّمّ؟». «كلاّ، بل هُو» وأشار للخَبّاز. وسأل الخبّاز: «أفأنت؟». فهتف: «كلاّ، بل هُو» وأشار للسّاقي. فأمر الملك أنْ يُؤتى بالشّراب والخُبز، وجاءه الشّراب في الكأس البلّوريّة يلمع على ضوء الضُّحى، ويكادُ لبرودته يسيل حَبابه على زُجاجِه، وهتف الملك: «ما أمتعَ هذا الشّراب لو كان لذي بَدَنٍ

صحيح!!». وهَمّ الملك أنْ يشرب الكأس، فهتف الخَبّاز: «كلاّ أيّها الملك، إنّها مسمومة!». فتراجع الملك. ثُم جاءه الخُبز ساخِنًا، يتصاعدُ بُخاره من ثقوبه الصّغيرة في الهواء فتفوح في أنف الملك رائحتُه الّتي أحبّها أكثر من أيّة رائحةٍ سواها، وفكّر: كيفَ يكون الخبز ساخِنًا إلى هذا الحدّ والخبّازُ عندي. ولكنّه رفع صوته: «ما أشهى هذا الخُبز لو كان لغيرِ ذي عِلّة!!». وهَمّ أنْ يأكل منه، فهتف السّاقي: «لا، أيّها الملك؛ إنّه مَسموم». وتراجَع عن أكله. فقال الملك: «أنا أُصدّقكما». وقال للسّاقي: «إليكَ كأسُكَ فاشربْها». فكرعها السّاقي دُفعةً واحدة، وعاد ينظر في وجه الملك والوزراء دون أنْ يُصيبه شيء. فضحك الملك. ثُمّ قال للخَبّاز: «دونكَ الخُبز فَكُلْ منه». فأبى الخَبّاز، وهتف: «أنا لا آكل إلا من خُبزي». فسأله: «أليسَ هذا من خبزك؟». فردّ: «كلاّ». فأمر الملك بكلبٍ من كلاب القصر، فأطعمه الخُبزَ، فماتَ الكلبُ من لحظته، وضَحِكَ المَلِك من جديد، وهتفَ برئيس حَرَسِه: «ألقِهما في السّجن».

(٣٤)
مِنَ الطّين إلى الطّين

وسأل المَلِكُ: «مَنْ بعثَ بالسّاقي والخبّاز إلينا؛ أليسَ قطفير؟». فقالوا: «بلى». فسأل مُتعجّبًا: «ألِكَي يَضِيرَنا؟ لماذا بعثَ إلينا بخائنَين؟». فقالوا له: «الآلهة وحدها هي الّتي تدري». فردّ حانِقًا: «الآلهة لا تدري شيئًا، لو كانتْ تشمّ رائحة الدّم المقزّزة الّتي تُسال على أقدامها لكفرتْ بالبشر... لكنْ ما الذي حمل قطفير على أنْ يبعثَ بهما إلينا؟». «لعلّ زوجته زليخة هي الّتي دفعتْه إلى ذلك». «وكيفَ تدفع امرأةٌ الوزيرَ الأوّل إلى حماقةٍ كهذه؟». «لا أحدَ يدري كيفَ قبل بذلك». «فلتجرّدوا قطفير من منصبه، ولتعيدوا قصره وكلّ أمواله وأملاكه إلى خزينة الدّولة». «وزليخة ماذا نفعل بها؟». «فلْتواسِ زوجَها في مِحنته. ائتوني بصواعي أشرب ماء الحياة». وجاءه الصُّواع الفضّيّ، يترجرجُ بما فيه، يحمله الخادم بكلتا يدَيه، كأنّما يحمل زُجاجًا يخاف عليه من أنْ يتكسّر، وكان يبقى اليومَ كلّه إلى جانب الملك، فلا يقوم في آخر النّهار إلاّ وقد شربَ كُلّ ما فيه أو كاد. وكان يأخذه إلى منامه، فيضعه فوق رأسه حين يأوي إلى الفِراش، ويقول: «شَرِبَ منه أهل الله؛ فلا يُفارقني ساعة!».

وجاءه رئيسُ حَرَسه، وهتفَ بِقِطفير: «سيّدي الوزير؛ لم تعدْ وزيرًا منذُ اللّحظة». فقال: «بأمرِ مَنْ؟». «بأمر الملك». «فَمَنْ وَشَى بي عنده. يجب أنْ أرى الملك فأوضّح له الأمر». «كلاّ. الأمر انتهى». «ألستَ

وعادتْ زليخة إلى الطّين، تنام في الطّين، وتأكل في الطّين، وتشربُ في الطّين. وشابَ مفرقُ رأسِها، وكانتْ تبكي عهدَ يوسف، وتتخيّله أمامها فيكادُ يُصيبُها الجنون، فتهرب من الجنون بالبُكاء والتّأوّه، ثُمّ تعودُ إليها الذّكرى، صوتُه، صورتُه، طيبُ حديثِه، دَعَجُ عينَيه، شامته الّتي تحت جفنه الأيمن، ولُؤلُؤ أسنانه، وسِنانُ رُمحه في ميدان الرّماية، وجذعه، وشبابُه... وكلّ شيءٍ فيه، ثُمّ تغلبها الدّمعة، فتصرخ: «وا أسفا على يوسف!!».

ومرّ بقطفير أحدُ الرّعاة، وركله بقدمه: «قُمْ». فاستيقظَ فَزِعًا. فسأله الرّاعي: «أنتَ غريبٌ هنا؟». «نعم». «فمن أينَ جئت؟». «من طيبة». «بلد الملك الأعظم؟». «بلى» «فمَنْ أنتَ؟». «وزيرُه الأوّل». وحَدَجه الرّاعي غيرَ مُصدّق، وهتفَ به: «المجانين الّذين يسكنون الكهوف كثيرون، لستَ أوّلهم». «لكنّني لستُ مجنونًا». «تقول لي وزير الحاكم الأعظم ولستَ مجنونًا. لو قلتَ لي إنّكَ هابطٌ من السّماء لَصَدّقتُكَ أكثر من أنْ تقول إنّكَ وزير الملك، مع أنّني لا أراكَ إلاّ صعلوكًا لم يجدْ ما يأكل فأوى إلى الكهف... لكنْ». وصمتَ قبل أنْ يُتابع: «ولكنّني أحس بالشّفقة عليكَ دون كلّ المجانين الّذين رأيتهم في حياتي؛ فما رأْيُكَ أنْ تعمل عندي؟». «وبِمَ يُمكن أنْ يُفيدكَ مجنون؟!». «ترعى الشّياه معي». «فَعَلى أيّ أَجْر». «على أنْ تشربَ حليبَها وتأكل مِمّا تُخرجه بطونُها». فقبل. وتبع الرّاعي فصار أجيرًا عنده.

وقال له الرّاعي: «إنّ لكَ جسدًا قويًّا. وذراعَين مفتولَين كأنّهما ذراعا مُحارِب. فاصعدْ معي نشَز الأرض وَوَعْرَها فإنّ الغنم يَتّبعُ

الفسيحة، وهبطَ عليه اللّيل، فرأى قطيعًا من الذّئاب تُحيطُ به، وتقدّمَ من بينها ذئبٌ أطحل، وتشمّمه، ولوى عنقه إلى أصحابه، وهتف: «إنّ فيه ريحَ يوسف». وقال أحد الذّئاب: «كيفَ يتخلّى عن يوسف مَنْ عَرَفه؟!». وقال ثانٍ: «كيفَ تركه دون أنْ يُلازمه، إنّ مُفارقًا لنبيٍّ مثل يوسفَ لمجنون». وأرادَ أنْ يقول للذّئاب: «أنا مجنونٌ بالفعل؛ ماذا تنتظرون، هيّا أريحوني من البؤس الّذي نهشني، اسكبوا ما تبقّى فِيّ من ماء الحياة على الرّمال، أريقوا دمي، إنّني أستحقّ كلّ ذلك، تخلّيتُ عن يوسف الطّاهر لامرأةٍ خاطئة، وهبتُ براءته لجريمتها، ما أشدّ بُؤسي!!». واقتربَ منه ذئبٌ ثالث: «يُولَد الإنسانُ طيّبًا، ولكنّ كلّ شيءٍ بعدَ أنْ يكبُر يعمل على إفساده، هذا العزيز أفسدَه حُبُّه لزوجته». وقال ذئبٌ رابع: «بل أفسدَه هَوُه». وقال خامس: «بل أفسده ضعفُه أمام الباطل، لو نصر الحقَّ الّذي لا مِراءَ في وضوحه لَصَلَح». وقال سادس مُشفِقًا عليه: «علينا أنْ نُنقذَه من الموتِ كرامةً ليوسف، إنّ عينَين رأتا يوسُف لجديرتان بألا ينطفِئ نورُهما». وتجمّعتْ ذئابٌ كثيرة، واحتشدتْ مثل احتشاد الذّباب في الكنائف، وتيقّن أنّه يهذي، وأنّه مجنون كما قال عنه الرّاعي، وحاول أنْ يستعيد صورةَ يوسف ليمحو شيئًا من مرارته ففشل، وأنْ يستعيدَ خيطًا من صوتِه فتأبّى عليه، ورأى أنّه يمضي إلى وادٍ صخريّ ترقُصُ فيه الشّياطين، وأنّها لمّا رأتْه تناهَبَتْه، فتناهشَتْه، فتعاورتْه عُضوًا عُضوًا، وأرادَ أنْ يستنقذَ ما تبقّى له منه، كي يهتفَ بنداء حسرته الأخير: «وا أسفا على يوسف!».

وقالتْ زليخة لِمَنْ تعمل معهنّ في السّوق: «إنّ نور عينَيّ لينطفِئ». وبكتْ. فما التفتَ لبُكائِها أحد. وقالتْ لها سيّدتها في العمل: «إنكِ

تعملين هنا مقابل أجر، وإنّكَ تجلسين على أطلال الماضي وتبكين أيّام العزّ وشرخ الصّبا، وهذا كلّه لا يهمّني، ما يهمّني أنْ تستحقّي الدّراهم الّتي أعطيها لك مقابل العمل، أنا لا أقبل العجائز، ولولا شفقتي عليكِ، ما رضيتُ بعملكِ معي». «لو كنتِ تعلمين حالي لعذرتِني؛ لقد كنتُ ذاتَ عِزٍّ ودلالٍ وجَمال». «وما يهمّني مِمّا كان؛ لعلّكِ كُنتِ امرأةً خبيثةً في بيتِ رجلٍ طيّب». فرمقَتْها بعينَين غاضبتَين، وهتفت: «بل كنتُ امرأةً طيّبةً في بيتِ رجلٍ خبيث». ولفّتْ ثوبَها البالي على جسدها، وأعطتْها ظَهرها.

وتذكّرتْ نساءَ طيبة ولياليها الحمراء معهنّ فشهقتْ. وجال ببالها مشهد الورد يسقط من السُّرُجِ المعلّقة في سقوف القصر فنحبتْ، وتذكّرتْ صوتَ يوسف، وهو يقول: «أمرُ سيّدتي» فلم تتمالكْ نفسَها فسقطتْ على الأرض. وقالتْ سيّدتُها للعامِلات عندها: «جُرُّوا هذه العجوز، وألقُوها خارج السّوق، فلم يعدْ لي بها حاجة».

وزُجَّ بالسّاقي وبالخَبّاز في السّجن، وهبطا الدّرجات الثّلاث عشْرة إلى القبو الفسيح، وتلقّاهما يوسف عند أوّل هذه الدّرجات في القبو، وهتفا: «أنتَ يوسف؟». وضحك: «فما الّذي بعَثَ بكما إلى هُنا؟». «المكيدة؟». وقال الخبّاز ليوسف: «والله ما دسستُ السُّمّ في الخبز، ولكنّ وزيرًا أو متعاونًا مع كهنة المعبد أرادَ أنْ يقتل الملك، فدسّ السُّمّ في الخبز ليقضي عليه». فسأل يوسف: «فَلِمَ يريدُ كهنة المعبد أنْ يقتلوا الملك؟». «إنّه مثل أبيه لا يُحبّهم، أمّا أبوه فلأنّهم نازعوه سُلطته، وأمّا هو فلأنّهم يُؤمنون بآلهةٍ لا يؤمن بها». «وأنتَ أيّها السّاقي؟». «لم أضعْ له

في الكأسِ شيئًا، وشربتُها أمامه». «فما جاءَ بكَ إلى هنا؟». «أنا محبوس على سبيلِ الاحتِياط». وضحك. وذكّرهما يوسف بأيّام قطفير، وسأل عنه، فقالا له: «بطَشَ به المَلِكُ كما بطشَ بنا». «حَقًّا؟». «نزعَ كلّ أملاكه، ورماه بلا ثيابٍ خارج القصر، ولا ندري ماذا حلّ به بعدَ ذلك!». «ففيمَ؟!». «قال له وزير العُمران إنّه هو الّذي بعثَ بنا، يقصدني أنا والخَبّاز من أجل قَتْل الملك، وإنّ قطفير يقود انقِلابًا ضدّه، وأنّ أعوان الملك شعروا بأنّ اضطراباتٍ يرأسُها قطفير قد بدأتْ تُطلّ برأسها من بعيدٍ». وقال الخباز مُستخفًّا: «إنّه لم يقدِ انقِلابًا ضِدّ امرأته كي يقودَ انقِلابًا ضدّ الملك». وقهقه، وردّ عليه السّاقي: «صحيح، ولكنْ لا تنسَ أنّ سُلطةَ النّساء تفوق سلطة أكبر الملوك أحيانًا، وأنّ تأثيرها على الرّجال يفوق تأثير الجنّ والشّياطين والسّحر». وقال يوسف: «كفى بالشّرّ ذنبًا، إنّ عقوبة الشّرّ هي الشّر نفسُه؛ أنْ يرتكبه صاحبه فتلك عقوبتُه». وقال الخَبّاز: «حَكَمَ علينا بسنةٍ». فردّ يوسف: «ومَنْ يدري كم تُساوي السّنة؟». وسألا: «هل تساوي السّنة شيئًا غير السّنة». «إنّ الملك لا يملك من حُكمكما شيئًا». وتعجّبا من قولته الأخيرة، ودار في خَلَدِ كلّ واحدٍ منهما: «إنّ هذا الرّجل لا يكفّ عن اجتِراح العجائب في كلّ حين». وهتف يوسف بالمساجين الآخرين: «هذان من أصدقائي القُدامَى، فهلّموا أعرّفْكُمْ عليهما». واجتمع مَنْ في السّجن، وتحلّقوا في حلقةٍ واسعة حول إحدى المصاطب، ووقف عليها يوسف، فأنصتتْ له قلوبُهم، وأنستْ بحديثه أرواحُهم، وبدا أنّ السّجن غير الّذي أَلِفُوه، وهبطتْ عليهم كرامةُ النّبيّ فرأوا الآفاق الممتدّة من الأقبية المنغلقة، وشاهدوا السّماء العالية من القناطر المنخفضة، وأحسّوا بالأفق الفسيح

وهم ينظرون من خلال الكُوى الضّيّقة. وقال يوسف: «السّجنُ هنا، وهنا». وأشار إلى رأسه وقلبِه؛ «فأمّا الّذي هُنا فعبادُتك غيرَ الله، فمنْ عبدَ غيرِ الله سجنَ عقلَه. وأَمّا الّذي هنا فاتّباعُكَ شهوتَك، فمن اتّبع شهوتَه سجنَ قلبَه». وقال مَنْ في السّجن: «إنّكَ لحكيم!».

وقال الخبّاز: «إنّي أرى». وقال السّاقي: «إنّي أرى». وردّ يوسف: «أنا أنبّئِكُم».

ꙮꙮꙮꙮ

(٣٥)
الإيمانُ أمان

«هل في البِئر ماء؟ هل في البيت خُبز؟ هل في القلب ذكرى؟ هل في الرّوح تَوق؟ هل في الحيّ يوسف؟» وبكى. فقال له يهوذا: «ما يُبكيك؟ صار إلى جِوار ربّه، فهل جِوارنا خيرٌ من جِواره؟». وردّ عليه يعقوب: «لا تعظْ بما لا تعلم؛ إنّكَ لَجاهل». فاغتاظ يهوذا، وهتف: «وإنّكَ لَخِرف». ووقف يعقوب على قدَمَيه، وقال لبنيامين: «اجمعْ لي إخوتك، إنّ ولدي هذا لَعاقّ». واعترض يهوذا بشدّة: «إنّه أصغرنا، وإنّكَ إذا أردتَ أنْ تطلبَ أمرًا كهذا فاطلبْه إلى أكبرنا روبيل، أو إليّ». وتجاهلَه يعقوب.

واجتمع الإخوة في بيتِ يعقوب، وقال لهم: «إنّ بصري قد ضَعُف، وإنّني لأخشى أنْ أفقده قبل أنْ أرى بهما ولو خَيال يوسف. وإنّ رجلَيّ لم تعودا تحملانِني، وإنّني لأخشى أنْ ألزم الفِراش فلا أستطيع المشي عليهما إلى لقاء يوسف». وصرخ يهوذا حتّى شقّتْ صرختُه سُكُون المكان وخشوع الإخوة المُستمعين إلى أبيهم الشّيخ: «لم يعدْ في الأرض يوسف، لماذا كلّ هذا الجنون؟ يوسفُ مات... يوسفُ أَكَلَه الذّئب... يوسف سقطَ لحمُه عن جسده... وصار جسدُه عظامًا.. ورُمّت عِظامه حتّى صار ترابًا، إنّها أربعون عامًا... كيفَ يعود يوسف إلى الحياة بعد أربعين عامًا من الموت... لقد مات وشبع موتًا... افهموا

أيّها العُميان... ألا يوجَد بينكم مَنْ يفهم؟!». ثُمّ لم يُمهِلْ والدَه الّذي راحَ جسدُه يرتجّ أنْ يقول شيئًا، بل توجّه إلى إخوته، يهزّهم من أكتافهم واحِدًا واحِدًا: «قُلْ له يا شمعون إنّ يوسف مات». «قُلْ له يا لاوي إنّه لم يعدْ شخصٌ في معمور الأرض كلّها اسمُه يوسف». «يوسُفُ هكذا...» وصَفَقَ بكفَّيْه. وهدأتْ ثورتُه قليلاً، وتحوّل صوتُه الغاضب إلى ما يُشبه الاستِجداء، وتابَع: «قُل له يا نفتالي إنّنا لا نُحافظ على وجود مَنْ نحبّ لمجرّد أنّنا نُحبّهم، بعضُ هؤلاء الّذين نحبّهم يغادروننا دون أنْ يقولوا كلمة وداعٍ واحدة؛ يوسفُ فَعَلَ هذا... مضى إلى قَدَره... مَنْ كان يستطيع أنْ يمنعه...؟ لا أحدَ... لا أحدَ...». وبكى يهوذا، ثُمّ اتّكأ على صدر روبيل، وهتفَ به: «قُلْ له يا روبيل؛ أنتَ أكبرُنا... قُلْ له أنْ يُريحنا من هذا العذاب... إنّه يُعذّب نفسه ويعذّبنا في كلّ مرّةٍ يتذكّر فيها يوسف... أينَ يوسف؟ لم يعدْ هناكَ يوسف! فلماذا يقتلنا بتذكّره... النّسيان حَلّ... النّسيان شِفاء... قُلْ له ذلك يا روبيل... أنتَ أكبرنا... أرجوكَ!!». وانهار على صَدْر أخيه، واعتنقه روبيل لكي يُخفّف نشيج جسده الّذي راح يرتج مثل شاةٍ تلفظ أنفاسَها الأخيرة قبل أنْ تهمد تمامًا.

وتركهم يعقوب. ولم يقلْ شيئًا. مسح دموعه بطرف كمّه، وأخذَ بيد ابنه بنيامين، وقال له: «خُذني بعيدًا عن هنا». وتهادَى أبوهم وهو يتّكئ على كتف بنيامين ويمضي مبتعدًا مثل سفينةٍ حطّمَتْها الأمواج بعد أنْ لعبتْ فيها الرّياح فقذفتْها في كلّ مكان!

وقال كَهَنةُ المعبد: «يريدُ أخناتون أنْ يُغيّر دينَ آبائنا وأجدادِنا، إنّها

لجرأةٌ على قداسة الآلهة لم نعهدها من حاكمٍ من قبل، وإنّ فِعلاً كهذا لَيستحقّ الثّورة». وقال كاهنٌ آخر: «إنّه شاعرٌ وَجَدَ نفسه ملكًا بالصُّدفة، فما يفهم في الأمور شيئًا». وقال كاهنٌ ثالث: « إنّه ولد.. له جَسَدُ امرأة هزيلة، وعينا فتاةٍ بريئة». وقال هو كأنّما كان يسمعُ أصواتَهم في عَقلِه: «لأطمسنّ كلّ ما تبقّى في طيبة من تماثيل الآلهة المتعدّدة البائسة أو لأرحلنّ منها إلى مدينةٍ أخرى أجدُ فيها إلهًا واحِدًا يُعبَد».

إنّها خمسُ سنواتٍ في هذا القبو بكلّ ما فيهنّ، ووقفَ يوسفُ في السّجن في ظلمة اللّيل الطّويل يُصلّي. وجاءه الصّوتُ إيّاه الّذي سمعه في البِئر في أرضِ كنعان: «أنتَ منذُ اليوم...». ولم يتبيّن يوسفُ ماذا قال بعدُ. فأصاخَ السّمع أكثر وهو يرفع يدَيه إلى الله: «إنّني ألوذُ بكَ مجتمعًا عن تفرّقي، وأضرع إليكَ مقترِبًا عن تباعدي. وإنّما أنا لكَ كما تُريد. زادٌ قليل، وراحلةٌ ضعيفة، وسفرٌ طويل، وهاجرةٌ مُحرِقة، وإنّني لن أتنكّب الطّريق حتّى أصلَ إليك، ولو تخطّفتْني السّباع». وجاءه الصّوت واضِحًا هذه المرّة: «أنتَ نبيُّ هذا الزّمان؛ فاصدَعْ بما تُؤمَر».

وتقلّب السّاقي في فِراشه، ورأى الكُؤوس البلّوريّة كأصفَى ما تكون، بيضاء لذّة للشّاربين، يطوفُ بها في محَفلٍ مهيب، فلا يبقَى أحدٌ في المحفل إلاّ ويأخذُ كأسًا، وكلّما أخذَ أحدُهم كأسًا نبتتْ مكانها كأسٌ جديدة أصفَى من سابقتها؛ لكأنّ الكؤوس لا تنتهي، والأيادي لا تنتهي، والضّحكات لا تنتهي. وسقطَتْ كأسٌ أخذَها وزير العُمران من يده، فتحطّمتْ، وصحا مذعورًا. فوجدَ وجه يوسف، فضمّه إليه، وقال: «لا تخفْ، الإيمانُ أمان. لو آمنَ قلبُك لأمِنَ جسدُك». وقال

يوسف: «شرابٌ هَنِيّ، وزيتٌ شَهِيّ، وخبزٌ طَرِيّ. الآن يدخل عليكم». ودخل ما قال، وهتفَ بالخبّاز: «أيّهما أشهى، أهذا الّذي نأكله أم الّذي كنتَ تصنعه؟». فردّ عليه: «وهل في خُبزي شَكّ؟». وضحكوا. ونظر يوسف في عيْنَي السّاقي، وقال له: «كنتَ تحلم؟». «بلى». «فهل سقطتْ كأس الوزير من يده؟». فَانْشَدَهَ السّاقي، وقال: «كيفَ عرفت؟». فردّ يوسف: «لقد قلتَ وأنتَ نائم لقد انكسرتْ... ولقد انكسرتْ بالفعل». وذُعِر السّاقي: «ماذا؟». فبانتْ على وجه يوسف ابتِسامةٌ هدّأتْ من رَوْع السّاقي قليلاً، وقال: «لقد انكسرتْ عُنُق وزير العُمران؛ قتلَ نفسَه». «انتحر؟». «بلى؛ لم يحتمل اتّهام الملك له، ولم يصبرْ على استهزائه بآلهته». «لا أُصدّقك». «لن يمرّ اليوم دون أنْ تسمع ذلك». ورُفِعَ الطّعام، ورمى صاحبُ السّجن إلى قبوهم بجنديّ يبدو عليه أنّه من المُحاربين: «خُذُوا هذا الكلب». وتدحرج من الدّرجات حتّى استقرّ في القبو، وأنهضَه يوسف، وشفى وَجَعَه بالكلمة الطّيّبة، وسأله: «ما الّذي رمى بكَ إلينا؟». فردّ: «أنا الحارسُ المُكلّف بوزير العمران، اتُّهِمتُ بقتله، وحقّ الآلهة ما امتدّتْ إليه يدي». ونظر السّاقي في وجه يوسف وعيناه جاحظتان للحظات، قبل أنْ يُدير جذعه، ويُعطيه ظهره كأنّه يحتمي منه بشيءٍ ما!

وبردتْ شهوة زليخة، فَعَل الزّمنُ بها فِعلته، سلبَ منها كلّ شيء، الشّباب والجمال واللّذّة والطّعام والشّراب، وكانتْ تأتي ما كان قصرَها، فتطوف به من الخارج، تقفُ عند بوّاباته، وأعمدته ودروبه، وتقول: «هنا وقف يوسف، من هنا مرّ، في هذا الدّرب نظر إليّ نظرةً أسقطتْ قلبي، فوقَ هذه الدّرجات كان يصعدُ كأنّه مَلِك، هنا في هذه السّاحة

بالذّات التقتْ عينانا لأوّل مرّة وهما تحملان شيئًا غير ما كان في السّابق. هنا عهد التّحوّلات. هنا خفق قلبي له بشدّة حتّى كاد يفضحني، ويذهب بنَفَسِي.. آه...» ثُمّ تعود إلى السّوق، لتجد لها مكانًا طينيًّا تنام فيه، أو تجدُ في الطرّقات مأواها فلتقي بنفسها على مصطبةٍ ما وتنام.

وحدّثَتْ نفسَها وهي تخرج من شعاب الطّين إلى أبهاء القصر، من السّوق إلى الرّدهات، وتخيّلتْ نفسَها في تلك الغرفة الّتي أغوتْ فيها يوسُف، ووجدتْ طيفَها البائس على السّرير؛ سرير الرّغبة، ودارَ في خلَدها تساؤلاتٌ لم تُفكّر في أنْ تقولها لنفسِها من قبل. «هل كانت تهبُ جسدَها لمنْ تريدُ؟ هل كان هذا الجسدُ المُحرَّمُ غيرَ مُحرّم؟! هل كانتْ تفعل ذلك مع الوزراء؟ كيفَ يكون حال القُصور إذا كان فيها المال واللّهو والنّساء؟ كيفَ تصنع نساء القَصْر؟ هل سيّدات القصر جواريَ العبيد، وهل خادمات القصر جواري السّادة؟ هل كانتْ زليخة ابتلاءَ يوسف، أمّ أنّ يوسُف كان ابتلاء زليخة؟ هل كان الأمر كلّه يعتمد على امتحان الصّبر؛ سقطتْ فيه زليخة ونجح فيه يوسف؟ كيفَ يَنجُو من فِتْنتها ولا تَنجُو من فِتْنته؟ أيّهما أشدّ فتنةً جسدُها الّذي هو جسد ملكةٍ أم جسُده الّذي هو جسدُ عبد؟ سُلطتُها التي لا حدّ لها أم ضعفُه الّذي لا حَدّ له؟ غِناها الّذي يَسيلُ له لُعابُ كلّ أحدٍ أم فقرُه الّذي ينفر منه كلُّ أحد؟ لماذا إذًا تُعطيه كلّ هذا ولا يُعطيها شيئًا؟! لماذا تقع هي في فتنة الجسد بالجسد، ويتخلّص هو من فتنة الجسد بالجسد؟! إنّه لأمرٌ مُحيّر بالفعل؟ إنّ العقل لا يجد تفسيرًا لأمرٍ واحدٍ من هذا كلّه؟».

وتقلّب الخبّازُ في فِراشه، ورأى حقول القمح تملأ صحراء مصر،

والسنابل الذّهبيّة تتماوج على إيقاع نسماتٍ عِذاب، ورأى نفسَه يسير بينها كما لو كان ذلك منذ عهد طفولته الأولى، لقد صار خبّازًا، لأنّ أباه زَرَعه في رَحِم أُمّه كما كان يزرعُ حبّة القمح في رَحِم الثّرى، ولمّا جاء الصّيف نضجَ مثلما ينضج القمح وسقط، ها هو يسير في حقول القمح، ها هو يُصبح صديقًا لكلّ سنبلةٍ يَحُول لونُها، وها هو يلتقطُ منجلاً أعطاه له سيّدُه لكي يقوم بالحَصاد، وهوى بالمنجل على صديقاته، فسقطْنَ تحتَ قدَمَيه، وقال له سيّده: «اجمع كلّ تلك السّنابل، ولا تأخذ منها إلاّ حاجتك». وهزّ رأسه موافِقًا، ولكنّه في اللّيل، أكل حبّة قمحٍ واحدةٍ، فقط حبّة قمحٍ واحدةٍ أكثرَ مِمّا سمحَ له به سيّدُه، فغَصّ، ووقفت الحبّة في حَلْقه، فطلبَ من زوجته أنْ تضربَ بكفّها على ظهره كي تنزل تلك الحبّة، ولكنّ الحبّة أبتْ، وضاقَ نَفَسُه حتّى كاد يختنق، فطلبَ من زوجته أنْ تأتيه بكأسٍ ماء، فشربَ على أمل أنْ تنزل تلك الحبّة إلى جوفه، ولكنّها رفضتْ وأمعنتْ في الرّفض، وصار وجهه أحمر، وبدأ يحول إلى اللّون الأزرق، وشربَ عشر كؤوسٍ من الماء تِباعًا، ولكنّ الحبّة عاندتْ بشكلٍ عجيب، وركَضَ يستغيث، ركَضَ... ورَكَضَ... وركَضَ... يريد أنْ يصل إلى النّيل، لعلّه يشربُ من مياهه فتنزل تلك الحبّة، ووصل إلى النّيل وأنفاسُه تتقطّع، وشربَ أوّل مرّة، والثّانية... إلى العاشرة؛ فلمْ يُفلِح، واختنق، وأيقنَ بالموت حَقًّا، وجاءَه صوتٌ من السّماء يقول: «لو شربْتَ...» ولكنّه استيقظَ فَزِعًا، ووجدَ وجه يوسف أوّل ما استيقظ مُبتسمًا، فشهق، واستعادَ بعضَ أنفاسه المُختنقة، وقال له يوسف: «لو شربْتَ كلّ مياه النّيل فلنْ تنزل الحبّة». وشعر الخبّاز بالذّعر، وسأله وهو يبتلع ريقه الجافّ: «هل كنتَ معي؟». فردّ عليه:

«لقد سمعتُك». ثُمّ مازَحَه: «هل ما زالت الحبّة عالقةً في حلقك؟». وتحسّسها الخبّاز، وهزّ رأسه دلالة الموافقة، وناوله يوسُفُ كأسًا، فشرب منها، وبانتْ على وجهه علامات الرّاحة، وهتف وهو يكرع آخر جرعةٍ فيها: «الآنَ نَزَلَتْ!!».

وهتفَ أحدُ القابعين في حجرات القناطر خلف القُضبان السّميكة: «إنّه ساحر». وهتفَ آخرون: «إنّه مجنون يتعامل مع الجنّ». «إنّه يقرأ أفكارَنا». «إنّه يرانا في أحلامنا». «إنّه يعيشُ فينا». «إنّه كبير السّحَرَة». «إنّه أعظم الكَهَنة الّذين عرفتُهم في حياتي». «إنّه إله». وتعالت الهتفات من كلّ جانبٍ، وأسكتَهم يوسف بثلاث كلمات: «إنّما أنا نبيّ!».

(٣٦)
الأحلامُ تلزمُ أصحابَها

وسقطَ نورُه على جدارن السّجن فأضاءَتْ، وعلى قلوب المساجين فأشرقتْ، وعلى أرواح السّجّانين فَقَرّتْ. وكان المكان بكلّ ما فيه يُحبّه. هل تكون المحبّة قاتلة أحيانًا؟ كيفَ تضغطُ جُدران السّجن على صدر يوسف وأصحابه فتكادُ تذهبُ بعافيتهم؟ ألهذا الحَدّ كانتْ تُحبّهم؟! وكان يوسفُ يجمعهم على مصطبته في كلّ أسبوعٍ مرّةً أو مرّتَين، فيتذاكرَ معهم ما تعلّمه من الله، وما تعلّمه من الفلاسفة، فيسمعون عنه الحكمةَ وفصلَ الخِطاب، فكان كلامُه شِفاءَ جروحهم العميقة، ودواء أبدانهم السّقيمة، وقرارَ أرواحهم الأسيفة.

وكانوا يسمعون إليه يقول: «سيّدُ نفسِه مَن استطاع ألاّ يسلبه يقينَه أحدٌ. مَنْ سلبَك مالَكَ لم يسلبْكَ قلبَك، ومَنْ سلبَكَ حرّيتَك لم يسلبْك سعادَتك، لا سلطةَ لأحدٍ على أحدٍ؛ ما تحرّرْتَ من شيءٍ تَحَرُّركَ من جسدك، فدعوهم يفعلوا به ما شاؤوا، فإنّما حرّيّتنا أكبرُ من أن تنحبس. الجسد طين، فليحبسوا الطّين. والجسدُ فانٍ فليحبسوا الفاني. والجسدُ اشتِهاء فليحبسوا هذا الاشتِهاء. كلّ واحدٍ منكم كان حُرًّا قبل أنْ يأتوا به إلى هنا، وكلّ مُقيّدٍ هنا سيُصبحُ حُرًّا بعد حين، والأحرار سينتهون إلى الحرّيّة المُطلقَة بالموت. الملوكُ كانوا أطفالاً يبكون ويجوعون ويعطشون، ثُمّ صاروا ملوكًا، ثُمّ سيُنزَع منهم هذا المُلك شاؤوا أمْ أَبَوْا، وسيغادرون

الدُّنيا كما دخلوا إليها دون شيءٍ أصفارَ اليدَين. العَرَضُ من مالٍ أو ذهبٍ أو سلطةٍ أو جاهٍ إنّما يأتي مع الطّين الّذي يُحوّله كَرّ الأيّام من طينٍ طريٍّ إلى طينٍ صلبٍ، ثُمّ إلى طينٍ يابس، ثُمّ سيبدأ بالتّشقّق حتّى يتداعَى، ويعودُ إلى الذّرّات الّتي تجمّع منها... وإنّما يأتي كذلك مع الطّفل الّذي نما واشتدّ عودُه وقَوِيتْ شكيمته فظنّ أنّ الله غير قادرٍ عليه فأعاده في شيخوخته طفلاً كما كان؛ يشرب الماء في الفم المالح فلا يَرْوى، ويأكل اللّقمة في الجسد العليل فلا يَقْوى، إنّما نحن من الله وإلى الله! فما الفرقُ في أنْ نجلسَ على هذا الحشيش اليابس في هذا السّجن في باطن الأرض وبينَ أنْ نجلسَ على ذلك العرش في ذلك القصر في درجات العلوّ فوق الأرض!! الموتُ ينتظرنا وينتظرهم. المرضُ يتربّص بنا وبهم. الجوع يُصيبنا ويُصيبهم. يسقطون في النّوم كما نسقط، ويشعرون بالحزن أو الفرح كما نشعر، ويتوقون كما نتوق، ويخافون كما نخاف... فإنْ سألتموني ما الفرقُ إذًا بيننا وبينهم؛ قلتُ لكم؛ إنّه في هذا القلب، إذا نظرَ أحدكم إلى قلبِه فليحرصنّ على ألاّ يجد فيه إلاّ الله، ولا يجد فيه سِواه، فمن وجد الله وجد كلّ شيءٍ، ومن فَقَدَه فَقَدَ كلّ شيءٍ». وقالوا له: «إنّا لا نفقه كثيرًا مِمّا تقول».

وتقلّب الخبّاز والسّاقي فوق الحشائش الّتي أكلتْ من جنوبهم في تلك اللّيلة. وغاصُوا في أحلامَهم كما لم يغوصوا من قبل، ثُمّ لما رشقتِ الشّمسُ نورَها في الكُوى الصّغيرة الّتي تنفتح على الأرض من أعلى القبو، نَهضَ السّاقي مُسرِعًا إلى يوسُف الّذي كان ينام على المصطبة الّتي كثيرًا ما جمعَ عندها السُّجَناء وقرأ عليهم فوقَها، ولم يكدْ يصل السّاقي إليه لاهِثًا حتّى ألفى الخَبّاز قد سبقه إليه بقليلٍ لاهِثًا هو الآخَر. وقال

السّاقي: «ألستَ تَعْبُرُ الأحلام؟». ولم يُمهلْه الخبّاز حتّى يُجيب، فنثرَ في وجه يوسف سؤالاً آخَر: «ألستَ تُؤوّلها كأنّكَ تراها؟!». فقال لهما يوسف مُحذّرًا: «الأحلامُ تلزمُ أصحابَها. في السّجن تبدو الأحلام أكثر التِصاقًا بأهلها من تلك الأحلام الّتي ترونَها في بيوتكم، مَنْ كذبَ في حُلْمُه كَذَبَ في صَحْوه». فقال السّاقي: «وما معنى ما تقول؟». «اصدُقا فيما ترويان؛ فإنّ الكلمة إذا خرجتْ من فم صاحبها صارتْ ملكًا لسامِعها؛ فانظرا ما تقولان قبل أنْ تقولا». فردّ السّاقي مُؤكّدًا: «لقد رأيتُ حُلُمًا». وتردّد الخبّاز: «وأنا رأيتُ حُلُمًا». فردّ يوسف: «هل جِئتما لتجرّباني؟!». وتلعثمَ الخبّاز: «كلاّ». «عيناكَ تقولان إنّكَ جِئتَ لتجرّبني بعدَ ما رأيتَ منّي في السّجن ما رأيت؟». «كلاّ... كلاّ...». «فاقصُصا أُخبِرْكما... ولا أريدُ منكما مقابل ما أقوله لكما من تأويل رؤيَيْكُما إلاّ شيئًا واحِدًا». فهتفا: «ما هو؟». «أنْ تؤمنا بي وبما قلت». فقالا: «لكَ ذلك؛ فإنّنا جرّبْناك فوق الأرض فوجدْناكَ صادِقًا وجرّبْناكَ تحتَ الأرض فوجدْناكَ كما عهدْناك، مُحسِنًا في القصر ومحسنًا في السّجن، لم يتغيّرْ سَمْتُكَ لا في قصر قطفير، ولا في سجن الملك...». «فقُصّا عليّ إذًا». ودفعَ الخبّازُ السّاقي من كتفه: «فلتُخْبِرْه أنتَ بِحُلُمِك؛ فإنّ حلمي طويل». وهمّ السّاقي أنْ يقصّ رؤياه، فرفع يوسف يده، وقال: «الصّدقَ... الصّدق...». فهزّ رأسه موافقًا، وقال: «رأيتُ كأنّني أخذتُ ثلاثة عناقيد من عنبٍ أحمر، فعصرْتهُنّ في ثلاثِ أوان، ثُمّ صفّيْتُهُنّ، فسكبْتُهُنّ في ثلاثِ كؤوسٍ فصرنَ يلْمَعْنَ كَحَدَقة الدّيك، ثُمّ مضيتُ بهنّ إلى الملك، فقدّمتُهُنّ له، فسألني، ففيم هذه الكؤوس الثّلاثُ وأنا واحد؟ فلم أحرْ جَوابًا، غير أنّه أشار إلى الصّواع الفضّيّ

الّذي عن يمينه، فقال لي: خُذ هذا الصّواع واسكب الكؤوس فيه، فأخذتُه، وسكبْتُ فيه الكؤوس الثّلاث، فحال لونّهنّ من الأحمر إلى الأبيض، فقال لي: أليس في الصّواع الآنَ ماء؟ فنظرتُ إليه فإذا هو ماءٌ كما قال، فقلتُ: نعم. فقال: ذلك أنّه لا يمسّ هذا الصُّواعَ إلاّ أهلُ الله، هاتِ الصّواع الآن أشرب، فأعطيتُه، فشربه مرّةً واحدة، ثُمّ قال: ما أطيبَ هذا الشّراب!!». وصمتَ السّاقي وراحَ ينظر في وجه يوسف ليرى أثر ذلك عليه، فإذا وجهه كفلقة القمر. ولوى الخبّاز عُنُقَه، ونظر خلفَه كمن يخاف من شيءٍ أنْ يمسّه، وقال ليوسف: «ألا تُريدُ أنْ تعبر رؤيا السّاقي؟». فردّ يوسف: «ليسَ قبل أنْ أسمعَ منك». ورجفتْ شفتاه: «أنا...؟ أنا...؟». وقال له يوسف: «ما زال في العُود ماء، فإنْ ألقيته فقد احترق، فإنْ شِئتَ ألاّ تقول فافعلْ». فردّ: «كلاّ...». ودارَ في خَلَده: «قال السّاقي فلماذا لا أقول؟ ومَنْ يدري بما انطوتْ عليه نِيّة السّاقي؟ ومَنْ كان معه أو معي في اللّيل حتّى يعرفَ حقيقةَ ما نقول؟».

ونظر يوسفُ في عينَيه، فقال الخبّاز: «رأيتُ كأنّني اختبَزْتُ في ثلاثة تنانير، وجعلتُه في ثلاثِ سِلال، ومضيتُ من كلّ تنور إلى الآخَر، فلمّا اجتمعت السّلال، حملتُها على رأسي، فقصدتُ قصر الملك، فإنّهم قالوا لي إنّ الملك يدعوك ليجزيك أجرَ ما عملتَ عنده، وفي الطّريق، حطّ طيرٌ ضخمٌ أسودُ على رأسي فأكل الخبز الذّي في السّلّة الأولى، وطار وهو ينعب، ثُمّ لم ألبثْ أنْ مشيتُ قليلاً حتّى حطّ طيرٌ آخر فأكل ما في السّلّة الثّانية، فأسرعتُ الخُطا حتّى ألحق بالقصر قبل أنْ يُؤكل كُلُّ ما على رأسي من خُبز، فرأيتُ أنّ الشّمسَ كانتْ تُسابقني في الغروب، فبدأ الظّلام يحلّ، فأسرعتُ أسابقُ الزّمن، فوقعَ بعضُ الخُبز على الطّريق،

فأكلتْه صغار الطّيور من العصافير، فلمّا صار باب القصر على مرأىً منّي رأيتُ أسرابًا من الغربان تملأ الجوّ نعيقًا، تحول بيني وبين الدّخول، فدفعتُها بيدٍ لأبعدها عن طريقي، وأمسكتُ باليد الأخرى السّلّة المتبقّية على رأسي حتّى لا تقع، ودخلتُ بوّابة القصر، وأنا أسمع الخدمَ يهتفون بي أسرعْ أسرِعْ فإنّ الملك ينتظرك وإنّه جائعٌ جِدًّا. وهُرِعتُ في السّاحة، فلحقتْ بي الغربان وهي تنعق، وراحت تنهشُ الخُبز الّذي فوقَ رأسي، فلّما دخلتُ القاعة ألهث، كانت السّلّة قد فرغتْ تمامًا من الخبز، فلمّا رآني الملك قال لي: ما في سلّتكَ أيّها الخبّاز؟ فقلتُ لا أدري إنْ ظلّ شيءٌ من الخبز، فأمر بها، فوجدَ فيها كِسَرًا صغيرة هي كلّ ما تبقّى مِمّا نتفتْه الغِربان، فامتقعَ لونُه، ورأيتُ الغضبَ في وجهه، فعزمتُ على الهروب، لكنّني لم أستطعْ أنْ أحرّك أقدامي خطوةً واحدةً كأنّما ثُبّتَتْ في الأرض أو صُبّتْ فيها صَبًّا. فأصابني من الهلع ما أصابني... فشددتُ عليهما، فنزعتُهما، فإذا هما تنفصلانِ عنّي، ونظرتُ إلى نفسي فوجدْتُ ساقَيَّ كسيقان الخشب، قد نُشِرتْ من أنصافِها، ولم أدرِ كيفَ أقفُ عليهما وهما مكسورتان، وصرختُ أسترحم الملك، ثُمّ صحوتُ... وها أنا أمامك».

ونظرَ الخبّاز في وجه يوسف، فإذا الكربُ ظاهرٌ فيه. وسكت، فلمْ ينطق بكلمة. ووقفَ على قدمَيه، وهتفَ بهما: ألمْ تجوعا؟». فاستغربا من سُؤاله، وانتظرا أنْ يعبر لهما رؤياهما. لكنّه لم يقلْ شيئًا. وصاح بالسّجناء من جديد: «اليومَ يأتيكم طعامٌ لم تحلموا بأنْ تأكلوا مثله حتّى وأنتم خارج هذه الجُدران». وهتفَ أهل القناطر: «ما يكون أيّها السّاحر؟». فردّ: «إنّما أن نبيّ». فقال أحدُ الجوعى: «فما يكون أيّها النّبيّ؟». «فقال عِجلٌ حنيذٌ، نجتمع عليه كلّنا، فيأخذُ بعضُنا بلحمه وشحمه فما نبقي

منه إلاّ العظم». وضحك كلّ مَنْ في السّجن، حتّى الخبّاز والسّاقي، وقال الخبّاز: «فهل مع العجل خُبز؟». فازداد ضَحِكُهم، وقال السّاقي: «فهل مع العِجل شراب؟». فارتجّت الجُدران من صدى قهقهاتهم، ثُمّ سمعوا صوتَ صاحب السّجن، وهو يصرخ فيهم مع عددٍ من الحرس: «اسكتوا أيّها المجانين. لا أدري كيفَ بعثوا لكم اليوم عِجلاً حنيذًا مشويّا، يسيلُ مرَقُه، وحقّ الآلهة لقد خدمتُ في الجيش ثلاثين عامًا ما جاءني أبدًا ما جاءكم اليوم». وصمت كلّ من في السّجن، وعقدت الدّهشةُ ألسنتهم، وسالتْ دموعٌ ساخنةٌ من بعضهم فرحًا، وسأل يوسف من وسط البهو رافعًا رأسه إلى الدّرجات المُفضيات إلى غرفة صاحب السّجن: «لقد بعثَ بها الملكُ نفسه، أليسَ كذلك؟». «بلى. فمن أدراك؟». «لقد قال إنّني أجوع كما يجوعون، وإنّني أكلتُ وأنا صغيرٌ من لذاذات الطّعام ما يكفيني ثلاثة أضعاف عمري، وإنّ في السّجن مَنْ ظلمْناه، وإنّ فيه أصحابَ الأحزان؛ فبرّدوا لاعج أحزانهم ولو بطعامٍ جيّد مرّة واحدة. ابعثوا لهم بعجلٍ حنيذ».

وعادَ الخبّاز والسّاقي إلى يوسف يسألانه: «ما عبرتَ لنا شيئًا؟». فأجلسهما على مصطبة العلم، ونظر في عينَيهما: «لو سكتُّما لسكتّ. فإنْ قلتُ فهل تقبلان؟». فردّا بصوتٍ واحدٍ: «نعم». فقال: «أمّا أنتَ أيّها السّاقي فتخرجُ من السّجن في بضعة أيّام، فيستقدمك الملك أخناتون الّذي بعثَ بك إلى هنا؛ لتُصبحَ ساقيَه الخاص والمُقرّب كما كنت، وتجدَ عنده سعةً في كلّ شيءٍ». وسكتَ قليلاً قبل أنْ يُتابع، فبلع الخبّازُ رِيقه: «وأنا...؟ قُلْ يا يوسف... قُلْ...». «وأمّا أنتَ أيّها الخبّاز فيصلبك الملكُ في ساحة السّوق العامّة لتكون آية، فلا يمرّ بكَ أحدٌ إلاّ يراك، ثُمّ

تبدأ الطّيور تأكل من رأسكَ في ليل اليوم الأوّل وأنتَ حيّ». فانفتحتْ عينا الخَبّاز على اتّساعهما، وبحلقَ في يوسف غير مُصدّق، وسقطَ بعضُ شَعر رأسه من الخوف، وراحتْ فتحتا أنفه تنفرجان وتنغلقان بسرعة، وبلع ريقَه الجافّ بصعوبة ليتمكّن من أنْ يقول: «وحقّ إلهكَ ما رأيتُ شيئًا مِمّا رويتُه لك، وإنّما أردتُ أنْ أجرّبَك، فكيفَ تقول ما تقول؟ إنّما أنتَ كاذب». فقال له يوسف: «أما والله لقد لزمتْكَ حتّى ولو رويتَها من خيالك». ثُمّ قال للسّاقي: «وأنت؛ أما والله لقد لزمتْك حتّى ولو أتيتَ بها من أنحاء هَزْلِك». ثُمّ قال لهما معًا: «قُضِيَ الأمرُ الّذي فيه تَسْتَفْتِيان».

ثُمّ لم تمرّ إلاّ ليلةٌ واحدة، وصحا كلّ مَنْ في السّجن على صوتِ رئيس السّجن، فدَعا بالخَبّاز والسّاقي، فنظر إليهم مَنْ كان معهم غيرَ مُصدّقين، ونظرَ الخَبّاز في وجه يوسف مرعوبًا، ولم تكنْ رِجلاه قادرتَين على حَمْله فجَرُّوه جَرًّا، ونظر السّاقي في وجه يوسف، وسأله: «ألكَ حاجة؟» فردّ يوسف: «اذكرْني عند ربّك». «فما أقول؟». «قل له ما أنا عليه من العلم بتأويل الرّؤى». «فهل أزيد؟». «كلاّ». «فهل أقول له إنّ رجلاً مُحسِنًا لا يزال يُلقَى في الجبّ في كلّ مرّة من غير جريرة؟». «إنْ شِئتَ فقُلْ».

ورُفِعَ الخَبّاز على الصّليب، ورُبِطَتْ يداه خلفَ ظهره، وقُيّدتْ رِجلاه مُتجاورتَين، ولُفّ الحديدُ الغليظُ على وسطه، ثُمّ رفع بالشّاقولة إلى أعلى الصّليب، واعتلى الشّاقولة اثنان، ففكّا قيدَه إذ ذاك، وأفردا ذراعَيه على الصّليب، فدَقّا المسامير في باطن كَفّيه، فانخلعَ قلبُه من الألم،

ثُمّ نزلوا إلى لحمِ ساقَيه، فدقّوا فيه المسامير، فنزّ الدّم منهما، وصرخَ صرخاتٍ عبرتِ الآمادَ من حيثُ اعتلاؤه، ثُمّ نزلوا إلى ظاهر قدَمَيه، ففكّوا قيودَهما ودقُّوا المسامير الطّويلة فيهما، وتتابعتْ صرخاته، ثُمّ نزلا عن الصّليب. وكان الخبّاز يشهقُ في كلّ مسمارٍ يُدقّ: «وإلهك الّذي تُؤمن به ما رأيتُ يا يوسف». «لقد كذبتُ؛ أفأصلبُ على الكذب؟!». «لقد كنتُ أعرفُ أنّكَ صادقٌ فلماذا أخبرْتَني؟!». ثُمّ ولولتْ نساءٌ تحت قدمَيه، ورماه آخَرون بالحجارة، وبصقَ عليه بعضُهم، وهتفَ فيه آخرون: «خائن». «مَنْ يَقتُلْ يُقتَلْ ولو بعدَ حين». ثُمّ سال الدّم على الجسد العاري في خطوطٍ مُتعرّجة، وانفتقَ من لحمه المدقوق، فجذبتْ رائحةُ دَمِهِ الغربان، فما اختارتْ شيئًا من جسده إلاّ رأسَه، ورآها قادمةً نحوه، فهتف: يا يوسف رُحماك». وحطّ أوّل هذه الغربان على وجهه، فنقرَ جزءًا من عينه، فشهق: «أمتْني يا ربّ يوسف». ثُمّ طار إلى أعلى، فأتى آخرُ فنقر رأسه، فأزال الشَّعْر عن موضع النّقرة، فطار، فهبطَ غرابٌ ثالثٌ فنقر في المكان إيّاه فأحدَثَ ثقبًا صغيرًا في عظم جمجمته، ثُمّ تكاثرتْ عليه الغربان، فزاد الثّقب، وظهر المُخّ، وهو يرى وينظر ويشعر بكلّ شيءٍ، ثُمّ هوت الغربان على المُخّ اللّيّن فأكلتْه، فنظر في الغربان بعينَين زائغتَين: «آمنتُ بربّ يوسف، أيّتها الطّيور كُلي من رأسي حتّى لا يبقَى منه شيءٌ، وانتقي من جسدي أطيبَ المواضع فإنّني فانٍ، وافرحي بحزني، ولا تعودي من حيثُ أتيتِ قبل أنْ تشبعي منّي فإنّني راحلٌ إلى السّماء عمّا قريب». ثُمّ ظلّت الغربان تأكل من رأسه ثلاثةَ أيّام حتّى أسلمَ الرّوح.

وقال الملك للسّاقي: «ظلَمْناكَ، وإنّنا بإنصافكَ لجديرون». فجثا

السّاقي على رُكبتَيه: «ما أحببتُ إلاّ مولاي». «لا أريدُ إلاّ أنّ تكون صادِقًا، كيفَ كان السّجن؟». «السّجن جحيمٌ». «فكيفَ أطقتَه؟». «بالأمل، وانتظار الفرج». «أما عشتَ في السّجن يومًا طيّبًا؟». «بلى». «فأيّ يومٍ؟» «كان ذلك في يوم تجدُ فيه الكلمة الطّيّبة من...». «ما بالك؟ أكمِلْ...». «نسيت». «أمّا لقيتَ شخصًا خفّفَ عنكَ بصحبته مرارة تلك الأيّام؟». «بلى». فمن يكون؟». «إنّه...». «إنّه... ماذا؟». «نسيتُ يا مولاي، إنّ لقاءَ عظمتك أنساني أساي كلّه». وابتسم الملك، وقال له: «اسقِني». «في الكأسِ أم في الصّواع؟». «في الصّواع فقد حرّمتُ الكأسَ على نفسي».

ورأى السّاقي في القصر ما لم يرَ في حياته، وولّى عهد السّجن وما فيه، وأنسته لذاذةُ العيش ورخاوته ما حاقَ به من الأذى، ودارَ في خَلَده: «إنّ سنةً من الجحيم لَتمحوها لحظةٌ واحدةٌ من النّعيم».

ومكثَ يوسفُ في السّجن، وخلا من البشر على كثرتهم، ووجدَ فيه ضِيقًا ووحشة، ورأى هذا الّذي كان يملأ قلوب اليائسين بالأمل أنّ الأمل بخروجه ينزوي صغيرًا ضيئلاً في زاويةٍ مهملةٍ تُعشّش فيها خيوط العنكبوت القديمة المتراكم عليها غبار السّنين في إحدى زوايا السّجن. ورأى هذا الّذي كان يفتح الآفاق أمام صدور الضّائقة صدورهم بالعيش أنّ جدران القبو تضيق وتضيق، وأنّ الآفاق تنغلق وتنغلق، وأنّ السّدود تقوم في كلّ مكان أمام كلّ وجه. ورأى هذا الّذي كان مصدر النّور لمئات السّجناء الّذين عاشوا معه أو جاؤوا قبله إلى هذه الظّلمات أو غادروها وبقي هو أنّ العتمة سيّدة المكان، وأنّها تُسدل

أستارها على كلّ شبرٍ هنا. وأصابه الحُزن، وأحاطَ به الغَمّ، وسأل نفسه: «ما الّذي فعلتُه حتّى أجدَ ما أجد؟!». وجاءه الصّوت، هبطَ من السّماء على هيئة نورٍ متجسّد، أخذ بيده، ومسح على قلبِه، وانتحى به في زاوية، وقال: «يا أخا المُنذِرين، ما لي أراكَ بينَ الخاطِئين؟». «نزوةٌ عابرةٌ لامرأةٍ عاشقةٍ رمتْ بي هنا». «إنّ الله يُقرِئكَ السّلام، ويقول أما اسْتحْيَيْتَ إذ استغثْتَ بالآدميّين؟». فأحنى يوسف رأسه، وارتجّ جسدُه من البكاء. ثُمّ سأله الصوت: «يا يوسفُ مَنْ خلّصَكَ من القتل على أيدي إخوتك؟». «الله». «فمَنْ أخرجَكَ من الجُبّ العميق؟». «الله». «فمَنْ عصَمَكَ من الفاحشة؟». «الله». «فَمَنْ صَرَفَ عنكَ كيدَ النّساء؟». «الله». «فإنّه يقول لك كيفَ وثقتَ بمخلوقٍ وتركتَ الخالق؟!». «كلمةٌ زلّتْ منّي». «فإنّه يقول وعزّتي وجلالي لأُلبثنّكَ في السّجن بِضعَ سنين». فقال له يوسف: «أهو عنّي راضٍ؟». فردّ الصّوت: «نعم». فقال: «لا أُبالي السّاعة على أيّ أمرٍ أرادني».

ﮘﮗﮘﮗ

(٣٧)
لولا هَيْبة المُلوك لأساءَ النّاسُ الأدب

وقالتْ نِسوةٌ في المدينة هيّا بنا إلى المَلِك نشفعْ عنده في يوسف! وقالتْ إحداهنّ: «كيفَ طوّعتْ لزليخة نفسُها أنْ تُلقِي به في السّجن». «إنّ إلهًا مثلَه ليجلسُ على عرش القلوب قبل عرش القُصور فكيفَ آلَ إلى ما آل إليه؟!». «إنّها لَحقود». «إنّها ثأرتْ لكرامتها، ولكنّها حمقاء، ولو كانتْ تعقل لعلمتْ أنّ كرامتها في أنْ تريقها تحتَ قدمَيه، وعِزّتها في أنْ تُذلّ نفسَها له». «إنّنا لجديرون به أكثر منها». «مَنْ يُؤذي مَلاكًا مثل يوسف؟». «أهو بشر؟ لو كان بشرًا لكان لإيذائه سبب، ولكنّه ليسَ بشرًا، فكيفَ فعلتْها اللّعينة المُتبجّحة». «إنّها مغرورة، تظنّ أنّها بجمالها يُمكن أنْ تُركّع الرّجال؛ إنّه أجملُ منها». «إنّها لَتُعَدّ قبيحةً شوهاءَ أمام أنواره الباهرة». «لو يقبلُ أنْ يجلسَ إلينا ولو لَحَظات؛ ستكون مُعجزة». «هيّا بنا إلى المَلِك».

وقال الحاجب: «نِسوة طيبة الجميلات من نساء الوزراء والأعيان والتُّجّار وأصحاب الإقطاع يستأذنّ الملك في الدّخول». فردّ الملك: «ما لي بهنّ حاجة، منذ متى تدخل النّساء على الملوك؟!». فقال الحاجب: «لقد أوصتْ بالسّماح لهنّ الملكة نفرتيتي». قال: «فلْيدْخُلْن».

ودخلْن يمِشْنَ مَيْسًا، وكُنّ قد كحّلْنَ العيون، وزجّجْن الحواجب، وصقلْنَ السّيقان، وشَدَدْنَ الصُّدور، وأبرزْنَ النّهود، وأظهرنَ لحمهنّ

إلاّ ما خفي، وتعطّرْن حتّى سَكِر الطّير لعطرهنّ، وكشفْنَ عن مكنون، وأزلْنَ عن فاتن، ولمعتْ أجسادُهنّ من أثر الزّيتِ على ضوء القناديل المُعلّقة في السّقوف، وقدّمْنَ ما يدع الحليمَ حيرانَ، وأقبلْن يمشِينَ كأنّهنّ الطّواويس، تجري خلفهنّ آثارهنّ السّاحرة، وظَلِلْنَ يسحبْنَ ذيول الفتنة حتّى وقفْنَ أمام الملك، وهو ينظر إليهنّ دون أنْ يُحرّك ساكِنًا، كأنّه تمثال نسيَ نحّاتُه أنّه بشريّ فجعله رقيقًا إلى حدّ أنّه يُخيّل إليك أنّكَ لو لكَزْتَ جذعه بإصبعك لتكسّر، وظنّت النّساء أنّ كلّ خليّة في جسد الملك ستقوم لهنّ، ولكنّه لم يبتسم، بل لم تتحرّك شفتاه، عيناه فقط هما اللّتان دارتا عليهنّ كأنّهما عينا صَقْرٍ في سماء، أو عينا ذِئب في وادٍ. وانتظرَ الملك أنْ يقُلْنَ شيئًا، وانتظرت النّساء أنْ يأذنَ لهنّ بالكلام، وركَعْنَ في حضرته، ولكنّ صمتَه لم يتزحزح، وبعد برهةٍ من الانتِظار الجارح، غيّر الملك جلسته، فاتّكأ على الذراع الأيمن للعرش، وأشار برأسه لحاجبه، ففهم أنّه يُؤذنُ لهنّ بالكلام، فلمّا علمت النّساء أنّ الكلام قد أُذِن لهنّ فيه، تقدّمتْ إحداهنّ خطوة أو اثنتَين فركعتْ من جديد، فقال الملك: «انهضي وقولي. والقليل يُغني عن الكثير». فنهضتْ رأسها، واعتدلتْ وهي تُصلح ما اندلق من صدرها: «يوسف». فردّ مُضيّقًا عينَيه: «مَنْ يوسف؟». «فتى زليخة». «وزليخة مَنْ تكون؟». «زوجة الوزير الأوّل». فبان العُبوس في وجه الملك: «اللّذين سلبْتُهما ما أعطيتُهما؟». «بلى». «فماذا بشأنهما؟ أتُرِدْنَ الشّفاعة لهما في إعادة أملاكهما إليهما». «كلاّ. بل سَرّنا ما فعلتَ بزليخة». «فما الأمر إذًا؟». «يوسف». «يوسفُ... يوسف... مَنْ يوسف؟». «فتى زليخة، وهو في السّجن». «لا بُدّ أنّه يستحقّ». «لا يا مولاي... إنّه مَلاك». وسُمِعَ صوتٌ جديد،

فإذا جميلةٌ أخرى تتقدّم، وتركع للملك قبل أنْ تقول: «لو رأيتَه لأحبَبْتَه... إنّه بريءٌ». وتداعت الأصواتُ تِباعًا، والملك ينظر في وجوههنّ مُندهشًا. «أرادتْ أنْ ينامَ في سريرها ويحلّ إزارها ويفضّ خاتَمها فأبى». «لأنّها لا تستحقّ». «ربّما لم تتزيّنْ له بما يكفي». «كلاّ، ولكنّها امرأةٌ حُلاق». «كلاّ، بل هي امرأةٌ زَبّاء». «كلاّ بل هي أرضٌ بورٌ؛ لا تصلحُ للحَرث، ولا للزَّرْع». «لم تدرك الحمقاء أن المرأة كالنّعل يلبسها الرّجل إذا شاء هو لا إذا شاءتْ هي». واغتاظ الملك لتدافعهنّ تدافع القَطا عند قدمَيه: «أجِئتُنّ من أجلِه أم من أجلها؟». «بل من أجله، أمّا هي فلتعذّبْ الآلهة روحَها إلى أبد الآبدين». «ولكنّني أراكنّ تتحدّثْنَ عنها لا عنه». «لأنّها سببُ ما هو فيه، ولولاها لبقي لنا». «يوسف؟». «بلى؛ ومَنْ سِواه؟! لقد قطّعْنا أيديَنا من أجله». «فلماذا تشفعْنَ فيه؟». «هَبْهُ لَنا». «لقد حطّم قلوبنا». وهمس الملك: «إنّ رجلاً حطّم قلوب هاته الجميلات لرجلٌ عجيب». وأتبعتْ إحداهنّ: «لقد ذهبَ بالعقل والقلب والرّوح والصّبر.. وكلّ شيءٍ». «إنّني لا أرقدُ مذْ رأيتُه». «إنّني لم أنمْ في فِراش زوجي مُذّ ذاك». فأوقف الملك سيل الكلام المتدفّق من أفواههنّ بإشارة من يده، وسأل: «أأحببْتُموه شهوةً أم روحًا؟». «وماذا تظنّ أيّها الملك؟ ماذا تحبّ المرأة في الرّجل؟ بل شهوةً، وإنّه لتقع منه النّظرة على الكاعبِ فتصبح امرأة، وعلى الصّغيرة فتحيض، ولو رأتْه حاملٌ لأسقطتْ». وبكتْ إحداهنّ، وفتحتْ فمها تنتزع الكلمات من بين الدّموع، فوقف الملك فجأة ونادَى رئيسَ حرسِه، وهتف: «خُذْ جميلات طيبة، فألقهنّ خارجَ القصر، وإن اعترضتْ إحداهنّ فمرّغْ وجهها في الطّين». ونزلت الكلمات عليهنّ نزول

الصّاعقة الماحقة، وقبل أنْ يبتلعْنَ دهشتهنّ كان الحرس يدفعونهنّ إلى الخارج، وبدا صياحهنّ وهياجهنّ، وهنّ يتساقَطْنَ تحتَ أعقاب العصيّ الغليظة، وأخفاف الأرجل القويّة، وأكفّ الأيدي الخشنة. فلمّا صِرْنَ في الأرض الواسعة الممتدّة أمام القصر، وأيقنّ أنّ الأمر قد انتهى، وأنّ الرّجاء قد انقطع، صِحْنَ بصوتٍ واحد: «وا أسفا على يوسف!!».

وتقلّب الملك في فِراشه، وعاوده الألم الشّديد في بطنه، وتلوّى فبدا لمن يراه كما لو كان كيسًا من القماش الأصفر، مُلقًى بإهمال فوقَ سريرٍ واسع. وجاءه الطّبيب، فقال: «أصابتْكَ لعنةُ الآلهة». «الآلهة الّتي تؤمنون بها لا تصيب أحدًا بأيّ لعنة، إنّها بلهاء حمقاء جوفاء رعناء خرقاء». «فلعلّ سِحرًا أصابك؟». «كُلّ سحرةِ مصر لا يقدرون على أنْ يحرّكوا حجرًا من مكانه، بَلْهَ أنْ يُصيبوا حيًّا بأذى، إنّما يسحرون عيني وعينكَ لا عين الشّيء، فإذا ذهبَ سِحْرُ البَصَر بدا قُبحُ الأثر». «ولكنّني لا أعرفُ لدائكَ سببًا، ولا أظنّني سأعرف». «إنّ دائي في روحي، إنّ روحي لا يقرّ لها قَرار، ولو كان الرّهبان هنا لكانوا أنجع منكَ في العلاج، وأشفَى منكَ للدّاء، اذهبْ ولا تعدْ لي بعدَ اليوم أبدًا، ولو تقطّعتُ إلى أشلاء».

وقالتْ له أمّه: «قد أردْتَ أنْ تطمسَ كلّ نقوش الآلهة، وتمحو آثارَهم، وإنّ شعبَك قد عبدَ هذه الآلهة آمادًا بعيدة، وإنّكَ بهذا لتحمل النّاس على الثّورة عليك». فنهرها: «اسكتي». فأكملتْ: «وإنّكَ لتخرج بعربتك المُذهّبة مع زوجتك وبناتك فتطوفُ الأسواق، وتأكل كما يأكلون، وتمرّ بالمواضع الّتي يمرّون بها، وإنّ عقلَكَ المريضُ ليُوحي لكَ

بأنّ شعبَكَ بهذا يُحبّك، ولكنّك واهمٌ، قد يجدُ الأمرَ طريفًا مرّة أو مرّتين، ولكنّه بعد ذلك يراكَ خَرِقًا هَيْقًا، وإنّكَ لتُجرِّئه بذلك عليك وعلى سُلالتكَ النّقيّة، وإنّ الشّعبَ ليحبّ مَنْ يرهبه أكثر مِمّن يأمنه، ولولا هيبةُ الملوك لأساء النّاس الأدب. وإنّني صحبتُ أباك، وعرفت قبلَه من الملوك ما عرفْتَ، وإنّكَ لتغيّر وتبدّل في سَنَنهم دون أنْ تفطن إلى أنّ التّغيير لا يأتي فجأة، إنّ النّاس لتجدَ طعم العسلِ مُرًّا إذا كانت قد اعتادتْ على الحنظل طَوال حياتها». وسكتَ الملك.

وتلوّى من جديد في فِراشه وهو نائم، وكان اللّيل ساكِنًا سكون الموت، ورأى وجهه، فسكنَ ألَمُه، واقتربَ منه، فرآه، إنّه هو؛ ذلك الطّفل الجميل، الّذي قَدِمَ به الوزير الأوّل معه إلى القصر قبل أربعين عامًا، فأحبّه، قال الوزير إنّه صديقُه، ثُمّ قال إنّه مُستشارُه، ويومَها نزلَ عن العرش، وتقدّم إليه، وحنى رأسَه، وقلّده قِلادةً من اللّؤلؤ، إنّه هو... لا ينساه، وإنْ تقادَمَت السّنين، وهذه المرّة رآه في ذلك العُمر، عندما كانا طِفلَين، ولكنّه بعد أنْ قلّده القِلادة، لم يعدْ إلى موضعه من العرش إلى جانب أبيه، بل ظلّ واقفًا أمام هذا المُستشار الصّغير، ينظر في عينَيه، لقد ظلّتا على عهدهما من الجمال والدّعج، وسأله: «أينَ ألقتْ بكَ الدُّنيا؟». «في منافيها». «ائتِنا نُكرمْكَ كما أكرمْناك». «بيننا جُدُر». «أنا اليوم أصبحتُ ملكًا، لن تقفَ بينَنا جدُرٌ أو سدود، تعالَ فإنّ صوتَكَ ونظراتِك ما زال وَقْعُها يرنّ في أُذُنَيّ إلى اليوم». وابتسم الطّفل المُستشار، ورأى الطّفل الملك أنّ العرشَ قد أظلم، وأنّ كلّ شيءٍ قد اختفى، فصحا مذعورًا.

وجاءتْه أمّه وزوجه وعددٌ من بناته، وقالتْ له أمّه: «الآلهة». فصرخ: «اسكتي. لا تُفسدي ما رأيتُ بذِكر هذه الآلهة، لعنة الله عليها وعلى مَن اخترعها». وأخذتْه أمّه من يده، وذهبَتْ به إلى قاعة العرش، فسألها: «الآن؟». فقالتْ أريدُ أنْ أقول لكَ شيئًا، ولن أحدّثكَ بعدها في الأمر أبدًا». وسارا، حتّى إذا جلسَ على العرش، قالتْ له: «أرى عرش مصر يتهدّم، احفظْ هذا الّذي تجلسُ عليه من الغوغاء في مصر؛ إنّ مصر حقلٌ، وإنّ الغوغاء جرادٌ بلا عقل، يأكل كلّ شيءٍ في طريقه، ولا يهمّه إنْ سقطَ من الشّبع في نهاية الحقل أو مضى إلى حقلٍ آخَر». فاغتاظ: «كهنة المعبد غوغاء، أثرياء مصر غوغاء، جُندُ مصر غوغاء، آلهةُ مصر غوغاء». «فليكنْ ما تقول، ولكنْ كُنْ حكيمًا في تعاملك مع كلّ غوغاء من هؤلاء، يا بُنيّ تعامَلْ مع الغوغاء كفيلسوف لا كشاعر، إنّ أشواكَ الواقع ستُدمي أوراقَ وردِك، ورحابة خيالِك». «فماذا تَرين؟». «اشربْ أحدّثك، وارتحْ قليلاً قبل أنْ أقول». وشربَ من الصُّواع، وكان لا يزال في ثياب النّوم، ووضع يدَيه على قائِمتَي العرش: «أبهذه الثّياب يا أمّي؟». «فما ينفع الفتى حُسنُ الثّياب إذا كان رقيق العقل، وما يضير الفتى رِقّة الثّياب إذا كان حسنَ العقل؟». «فقولي». «إنّكَ تأخذ أهل مصر كلّها بتوحيد الآلهة، حسنًا، ولكنْ إنّ تغيير ما هُم عليه من تعدّد الآلهة لا يتمّ في زمنٍ قصير، وإنّ الأمر ليسَ بالإجبار، ولا تنسَ أنّ المعبدَ وكهنته ربّما يملكون من المال والذّهب أكثرَ ممّا تملك، وإنّهم بهذا المال قادرون على إمالة النّاس إليهم أكثر منك، فلو كنتَ حكيمًا، لجعلتَ أخلاقَ الإله الواحد تتفشّى في المجتمع المصريّ كما يتفشّى الغَمام الهادِئ في صفحة السّماء. ثُمّ لا تمحُ أسماء أسلافِك ولا آلهتهم من المعابد في

مصر، فإنّ النّاس تعظّم الموتى من الأسلاف، فاجعل هذا المحو يتمّ في قلوب النّاس بالتّؤدة، فإنّ محوها من النّقوش لا يمحوها من القلوب بل يزيدها، ولو أعملتَ الحكمة في إقناع النّاس بإلقائها من قلوبهم رويدًا رويدًا لوجدتَ أنّ أَهْون الأمور من بعدُ أنْ تُزيل نقوشها من المعابد. ثُمّ لا تستخفّ يا بُنيّ بقوّة كهنة المعبد وعِنادهم، وتُغالي في حبّ الشّعبِ لك وقدرتهم على فهم الدّين الّذي جِئتَ به، فالنّاس لا تدوم على حال، ولا يثبتُ قلبُها على شيء، وفي النّهاية هي تتبع صاحبَ السّيف لا صاحبَ الكتاب، وتلهثُ خلفَ صاحب المال لا صاحب الكلمة. ثُمّ انظر إلى أصحاب الحِرَف والمِهن من هؤلاء البُسطاء من شعبِك الّذين قامتْ أرزاقُهم على حساب الآلهة المُتعدّدة الّتي كانوا ينحتون تماثيلها من الخشب أو الحجر أو الحديد ويبيعونها أمام المعابد، ويأكلون بها عقول المؤمنين بما تراه أنتَ خُرافة، يا بُنيّ إنّهم سيلٌ هادر، وما لم تجدْ لهم منفذَ رِزقٍ آخَر يعتاشون منه، فإنّ سيلَهم سيبتلعكَ غير آسفٍ ولا نادم».

وقال الملك: «إنّ هذا القول لحَكيم!».

(٣٨)
ائتِهِم بعِنَبِ الشّام

وجلسَ يوسف على مصطبة العلم، فقال: «إنّ الله لا يُحاسِب على زمن الصّبر حتّى يأتيكَ بالفرج، فمن أراد أنْ ينفتح له الباب فعليه أنْ يُديم الطَّرْق دون أنْ يضجر إذا انحنى ظهرُه لطول انتظاره، أو دَمِيَتْ يدُه لطولِ قَرْعِه». واجتمع النّاس حوله، وقد آمن كثيرٌ منهم به لا لأنّهم فهموا كلامه كما يجب، ولا لأنّهم حملوه على محمَل الجدّ، ولا لأنّه خاطبَهم على قَدْر عقولهم، بل لأنّه كان مُحسِنًا في كلّ أموره، مُحسِنًا في مدّ يد العون إليهم، مُحسِنًا في فِعله، مُحسِنًا في قوله، مُحسِنًا في بَسْمته، مُحسِنًا في مشيته، مُحسِنًا في جسده، ومُحسِنًا إذا نظر، ومُحسِنًا إذا عبر، ومُحسِنًا إذا ادّكر، ومُحسنًا إذا انتظر، ومُحسِنًا إذا صبر... وكان الصّبر مِلاكَ الأمر كلّه، وعليه المُعوّل، فمن صبر نجا.

ورأى الملك في النّوم ما لم يرَ من قبلُ. وتقلّب في الفراش في كلّ لحظة يتلوّى كما جرى الأمر فيما مضى، رأى بَقَراتٍ ممتلئاتٍ سميناتٍ قد انتفخْنَ من تراكم اللّحم يخرجْنَ من نهر النّيل، الواحدة تلو الأخرى، فأخذتِ الأولى مكانها، فتبعتْها الثّانية تخور حتّى اصطفّتْ إلى جانبِ أختها، والثّالثة... والملك يعدّهنّ حتّى صِرنْ سبع بقراتٍ كامِلاتٍ، ووقفْنَ كلّهنّ في صفٍّ واحدٍ، وكان منظرهنّ عجّبًا من النعْمة والسِّمَن، ثُمّ رأى الملك أنّ النّيل ثار من بعدهنّ، ثُمّ انشقّ عن بقراتٍ أُخَر، لكنّهنّ

هزيلاتٍ عجفاواتٍ، تكادُ أضلاعهنّ تبين لرقّة جلودهنّ وقِلّة لحومهنّ، مُقلَّصات البُطون، ليسَ لهنّ ضروعٌ ولا أخلاف، لهنّ أنيابٌ وأضراس؛ فلمّا خرجتِ الأولى من النّيل عدتْ بقوّة لا يمكن تفسيرُها إلى البقرة الأولى السّمينة، فعضّتْ أُذُنها، فخارتِ السّمينة من الألم، وارتمتْ على الأرض، فراحت الهزيلة تأكلُها عضوًا عُضوًا حتّى أتتْ عليها كلّها ولم تُبقِ على الأرضِ منها إلاّ قرنَيها. ونظر الملك البقرة الهزيلة الّتي أكلتِ السّمينة فرآها ما تزال على هُزالها، لم يغيّر ابتلاع البقرة السّمينة من هُزالها شيئًا، وتعجّب الملك، وغطّى فمه حتّى لا يصرخ، وانخلع فؤادُه لِهَوْلِ ما رأى. ثُمّ لم تمهله لحظات الدّهشة حتّى خرجتْ من النّيل بقرةٌ أهزلُ من سابقتها، وأشدّ جوعًا، ونحولاً من أختها، فقدمتْ تتهادَى حتّى وصلتْ إلى البقرة السّمينة الثّانية، فعضّتْها من أُذنها كما فعلتِ الأولى، وخارتْ خُوارًا شديدًا وارتمتْ على الأرض مُستسلمةً، والملك يزداد تعجّبه، ثُمّ فعلتْ بها ما فعلتِ الأولى، وأكلتْ كلّ شيءٍ فيها بالحواشي والأطراف والأظلاف ولم تُبقِ إلا على القرنَين... وانتظر الملك مع البقرات المُتبقّيات خروج البقرات الهزيلات، وقد حدث، وتتابعت البقرات الهزيلات، حتّى أتت سبعٌ من تلك الهزيلات على تلك السّمان فجعلْنَهُنّ أثرًا بعد عين دون أنْ يغيّر الأكل من هُزالهنّ شيئًا! وصحا الملك مذعورًا، وصاحَ صيحةً أيقظتْ كُلّ مَنْ في القصر، وهُرِعتْ إليه زوجته، وأمّه، فأمّا زوجته، فاحتضنتْه حتّى ذهبَ عنه رَوْعُه، وأمّا أمّه فقالتْ: «الاحتضان يُخفّف الألم لبرهة، لكنّه لا يُلغيه، وإنّني أعلم ما يدعوك إلى ما أنتَ فيه». وسحبتْه من يده وسارتْ به إلى قاعة العرش، واستجابَ لها وهو يلهث، وأمرتْ له بالشّراب، وقالتْ:

«رأيتَ بقراتٍ سِمانًا يأكلهنّ سبعٌ عِجاف؟». فهتف من الدّهشة: «نعم، فما أدراكِ؟». «إنّ أباكَ كان يحلم مثل هذا الحُلُم، وماتَ بسببه، وإنّكَ إنْ لم تتدارك الأمر فإنّكَ ميّتٌ مثله لا محالة، ولعلّ في هذا الحلم المُتكرّر هلاكُ مصر، وسيرتُكَ أشدّ على الكهنة من سيرةِ أبيك، وإنّني أخشى أنْ يكونوا اصطنعوا لكَ شيئًا يُؤذيك، وما موتُ أبيكَ ببعيد». وردّ عليها: «أجَرْتِني إلى هنا من أجل أنْ تقولي لي هذا الكلام؟!». وأعرضَ بوجهه عنها. ثُمّ طلبَ من بناته أنْ يوافينَه ليطمئنّ عليهنّ، فقالتْ له: «إنّ كلّ مَنْ في القصر بخيرٍ سِواك، وإنّ إيقاظهنّ في هذا السّاعة من اللّيل ليُذعرهنّ أكثر مِمّا يُطمْئِنُك، فانظر في أمرك، ودعْ أمر الآخرين، فإنّني أرى أنّ نهايةً ما مُرعبة تلوح في الأفق». «لو نجا من الموتِ أحدٌ لنجا أبي». «فرقٌ كبيرٌ بين أنْ يأتيكَ الموتُ كما أتى أسلافكَ من قبلُ، وبين أنْ تأتيَ به إليك، وتُرغمه على أنْ يُنشبَ أظفاره في عُنُقِك، وغدًا ستُدرك ما أعني». وخرجتْ تاركةً إيّاه يغرقُ في بحرٍ من الحيرةِ والذّهول.

ومضتْ ليلة؛ ليلةٌ واحدةٌ فحسب، ليرى الملك في تلك اللّيلة رؤيا أخرى جعلتْ ألمه يتفاقم، رأى نفسه في حقولٍ فسيحةٍ مُمتدّة، والأرض خاليةٌ من كلّ شيء، ولا نهايةَ لها، وكان يمشي في الحقول فلا يرى إلاّ ترابًا أصفر يابسًا، وحصًى صلدًا مُتناثرًا هنا وهناك، لا شجرَ لا زرعَ لا ظلّ لا بشر لا دوابّ... لا شيءَ سِوى الخلاء، ثُمّ إنّه فجأةً سمع للأرضِ صوتًا تحتَ قدمَيه، فنظر إليهما فإذا الأرض تتشقّق من تحتهما، فتراجَعَ مذعورًا، وظلّ ينظر، فرأى سنبلةَ قمحٍ قد شقّتْ طريقَها من باطنِ الأرض في تلك اللّحظة، ونمتْ أمام عينَيه، وشَدّتْ جذعها، ورفعتْ قامَتها، واستطالتْ حتّى قاربتْ هامةَ الملك، وكانتْ ممتلِئةً

بالقمح، ثُمّ ما لبثتْ أنْ شقّتْ سنبلةٌ أخرى التّراب، وخرجتْ وفعلتْ فِعل صاحبتها الأولى، وتتابعَ خروج السّنبلات، وكان الملك يعدّهن سنبلةً سنبلة، حتّى بلغَ عِدادُهُنّ سبعًا. فلمّا اكتمل قِوامهنّ، سمع صوتَ طقطقةٍ شديدةٍ، فإذا الأرض تنشق من جديد، وإذا كلّ سنبلةٍ خضراء تنشق من تحتها سنبلة صفراء، فتأكلها، ولا تبقي على حبّة قمحٍ واحدةٍ منها، وعجب الملك أنّ السّنبلة الصّفراء بعد أن التهمتْ الخضراء ظلّتْ على لونها ويُبْسِها ولم تحملْ حبّةَ قمحٍ واحدة. وتتابع انشقاق السّنبلات الصُّفر من باطن الأرض، حتّى قُضِي على كل السّنبلات الخُضر، ثُمّ هوَتْ أعناق السّنبلات الآكلات، وصِرْنَ عصفًا مُختلطًا بالتّراب على الأرض، ولم يبقَ من أثرٍ إلا الهشيم الّذي راحتْ بعضُ الرّيح تلعبُ به، وتعصفُ به في الأرجاء. واستيقظَ الملكُ مذعورًا. وصاحَ صيحةً تشقّقتْ لها جُدران السّجن: «وا رحمة الله». وهُرِعَ إليه كثيرٌ من الحرس والخدم، والتقتْ أمّه بزوجته على باب غرفته، فصرفتْها الأمّ: «اتركيه، سأعرفُ كيفَ أُهدِّئه». «سأحضنه على الأقلّ». «كلاّ. الاحتضان ليس علاجًا لابني، أنا أعرفه خيرًا مِمّا تعرفينه». وتراجعت الزّوجة، وأخذت الأمّ ابنَها، كأنّه طفل، وساقتْه إلى غرفة العَرش، وقالتْ له: «اشربْ». فدعا بالصُّواع فشرب حتّى ذهبَ رَوْعُه، ثُمّ قالتْ له: «رأيتَ هذه المرّة سنابل بدل البقرات؟». فنظر إليها حَذِرًا، دون أنْ يجيب. وتابعتْ: «أعرف. لقد أخبرتُك. الأمر خطير. خطيرٌ جِدًّا. ويجب البحث عمّنْ يُعبّر لكَ هذه الأحلام. أبوكَ من قبلُ رفض». وانفكّتْ حُبسة لسانه، ليقول كمن يبحث عن منقذٍ يُخلّصه من رُعبِ الأحلام: «ومَنْ يُعبّر لي ما رأيت؟!». «الكَهَنة؛ فإنّ عندهم ذِكرًا من الأوّلين». «كلاّ». ووقفَ

على قدمَيه، ثُمّ خارتْ قُواه، فعادَ فجلسَ على الكرسيّ. «استشرْهم واسترضِهم، فإنّ ثلاثة أرباع المقاليد بأيديهم». «ومَنْ أكونُ إذًا أنا؟ شرطيًّا عندهم؟ حارسًا لخرافاتهم؟ مَنْ يكون حاكم مصر العظيم؟». «أنتَ حاكم مصر العظيمة، ولكنّكَ لستَ حكيمًا بما يكفي لتكون حاكم مصر العظيم». «فالرّأي؟». «استقدمْهم إلى هنا، وأَرْضِهم؛ أَطْعِمْهم، وانفخ أوداجهم باللّحم، واملأ بطونهم بالملذّات، وأتْخِمْ مِعَدَهم بالشّراب، ثُمّ اسألهم عن الرّؤيَيَيْن، فلعلّكَ تجد عندهم إجابة. مَنْ يدري، ربّما يكون ذلك تجسيرًا للهوّة الّتي بينكما، ربّما تتعاون معهم لإعادة مصر إلى مجدها السّابق». «أستشيرهم، ربّما. أتعاون معهم، كلاّ. إنّهم أولى بالطّرد من مصر كلّها، ولكنّني سأجد الفرصةَ يومًا ما». «جِدْ أولاً الفرصة لإراحتك من أحلامك بالبحث عن مُعبّر حَصيف، فليكونوا هم البداية. اسمعْ من أمّك. إنّني أخبر منك ومن أبيكَ ومن أسلافِكَ كلّهم في حُكم مصر، ولكنّ الرّجال يحسبون أنّهم على شيءٍ وهم أخفّ من الهواء، يحسبون كلّ صيحةٍ عليهم. أحمقُ من فُقاعة إذا عَلَوا ظَنّوا ذلك لمكانتهم السّامية، وما دروا أنّهم ارتفعوا لخفّة الفُقاعة الّتي تملأ أجوافهم!!». ثُمّ نفضتْ ذراعَها في الهواء مُغضَبة، وغادرتِ القاعة، وتركت الملك من جديد يغرقُ في الذّهول!

وعَنَا الملك لرأيِ أمّه، وقال لرئيس جُنده: «أَغْرِهم بما تستطيع. انثر الذّهبَ من تحتِ أقدامِهم. أشبعْ بطونهم، ودَعْ أمرَ عقولهم فإنّ بطونهم عندهم أولى». وقال للسّاقي: «اسْقهم خمرتَهم وليكرعوها حتّى الثُّمالة، وائتهم بعنب الشّام فإنّه أشبعُ لغرورهم». وجاؤوا فوقفوا في صَفَّيْن، وقالوا: «لتمجّد الآلهة أمنحوتب الرّابع». وركعوا كلّهم على

ذات الرّكبة. وأوقفهم وهو يشمئزّ لمنظرهم: «إنّني رأيتُ سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجاف في اللّيلة الأولى، ورأيتُ سبعَ سنبلاتٍ خُضرٍ تلتهمهنّ سبعُ سنبلاتٍ يابِسات في اللّيلة الثّانية، فراعني ما رأيتُ، فاستقدمتُكم لكي أرى كيفَ تُفسّرون لي هذَين الحُلمَين». فسجد كبيرُ الكهنةِ من جديد، واستأذن الملك في أنْ يتشاور مع كهنته، فانتحَوا جانبًا، وفَرَدُوا رِقاعًا كانتْ في أيديهم، وأخذوا أقلامًا كانتْ في جيوبهم، ورمَوها على تلك الرّقاع، ثُمّ تناولوها مرّة أخرى وكتبوا بها عليها شيئًا، ثُمّ نثروا بعضَ الرّمال المُقدّسة على ما كتبوا في الرّقاع، ثُمّ تحلّقوا في حلقةٍ واحدةٍ، وكان عددهم ثلاثة عشر كاهِنًا، وأغمضوا عيونهم في اللّحظةِ ذاتها، وراحوا يُتمتِمون ببعضِ الكلمات، ثُمّ فتحوا عيونهم، ونظروا في الرّقاع، فوجدوا فيها كلماتٍ كتبتْها الآلهة، فوقفوا على أقدامهم، وأنغضَ كبيرُ الكهنةِ رأسه، وتحفّز الملك ليسمع، فقال: «يا حاكم مصر العظيم، إنّ حُلُمَك لعميقُ الغَور، بعيدُ السَّبْر، ولم نخرجْ من تأويله بأكثر من كلماتٍ مفرداتٍ هنا وهناك، فالبقرة تعني السّنة، والسنبلة تعني الزّوجة، وربّما تعني الخادم أو الغَلّة، ولا نعلمُ أكثرَ من ذلك». وضحك الملك، وارتفع صوتُه بالضّحك: «هل هذا كلّ ما لديكم؟!». «إنّها أضغاثُ أحلامٍ أيّها الملك، فلا تُلقِ لها بالاً». «أَجَمَعْتُكم من معابدكم لكي تقولوا لي هذا الكلام؟ أفٍّ لكم ولِما تقولون!». وبانَ الكربُ على وجوه الكَهَنة، وهَمّ الملك أنْ يقول: «أيّها الكَهَنَةُ الكَذَبَة؛ ما كان أغناني عن استِقدامكم لولا أمّي الّتي تخشاكم...». وهَمّ بطردهم، لكنّه سمع صوتًا يعرفه، نفرَ له قلبُه، إنّه صوتُ السّاقي الّذي صاحَ كمن يكتشف اكتشافًا خطيرًا غابَ عن باله سنينَ طويلة: «أيّها الملك...

أيّها الملك...؟». ونظر الملك إليه، ونظر الكَهنَةُ والحرسَ والخَدَم والوزراء وكلُّ مَنْ في قاعة العرش إليه، وأرهفوا له سَمْعَهم. وصاحَ السّاقي: «أنا أعرفُ مَنْ يُؤوّل الرّؤى... أنا أعرفُ من يُفسّر الأحلام أيّها الملك... أنا أعرفُ مَنْ يأتيكَ بالخبر اليقين، إنّه.... يوسف». وهتفَ الملك: «يوسف». وهتفَ كبير الكهنة: «يوسف». وهتفَ رئيس الجند: «يوسف». وهتف الوزراء: «يوسف». وهتفت الجدران: «يوسف». ولم يبقَ في القاعة أحدٌ ولا شيءٌ إلاّ وهتف: «يوسف!!».

(٣٩)
مِنْ أجْلِ مِصر لا مِنْ أجْلِ المَلِك!

وجاء السّاقي، فهبط الدّرجات إيّاها الّتي هبطها قبل سبع سنين، وأقبلَ ومعه صاحب السّجن، ورأى يوسف جالِسًا على مصطبته الّتي كان يجلسُ إليها فيما مضى يُعلّم السّجناء، وامتلأ قلبُ السّاقي فرحًا، وأقبلَتْ أفراحُه تجري إلى يوسف كأنّها خيلٌ تُسابِقه، وصاح قبل أنْ يحتضنه: «يوسف». وهتف يوسف: «ساقي الملك؛ كيفَ وجدتَ تأويلي؟!». «أصدقَ من فَلَقِ الصّبح، وإنّني جِئتُكَ برؤيا جديدة كي تُؤوّلها للمَلِك». وخفتتْ ابتسامةُ يوسف، وقال معاتبًا السّاقي: «إنّ الله ليسأل عن صُحبة ساعة، فكيفَ خرجْتَ من هنا، وبشّرتُكَ بالمرتبة العالية، ولم أسالكَ غير أنْ تذكرني؟». «والله يا يوسف خِفتُ أنّ أُذكّر الملك بذنبي فكتمْتُ عنه أمركَ أوّل الأمر، ثُمّ أُنسيتُه تمامًا من بعد، وكان الملك بين حينٍ وآخر، يذكّرني بالسّجن وأهله، فلا أتذكّرك، كأنّما خُتِمَ على عقلي، وما آبَ إليّ رُشدي ولا رَجَعَ إليّ عقلي إلاّ عندما تداعَى كبير الكهنة مع جوقته إلى الملك ليُفسّروا له رُؤاه، ففطنتُ إليك». «فما قالوا؟». «أفلا تسمعُ الرّؤيا أوّلاً؟!». «قد سمعت». «فماذا تقول؟». «البقرات السّبع السّمان والسّنبلات السّبع الخُضر هي سبعُ سنواتٍ مُخصِبات، وأمّا البقرات السّبع العِجاف والسنبلات السّبع اليابِسات فسبعُ سنواتٍ مُجدِبات. وسوفَ يستغرق زمنُ هذين الحُلمَين خمسةَ عشر

عامًا، سيأتي على مصر سبع سنواتٍ مُخصِبات، تُمطر فيها السّماء، وتفيض فيها مياه النّيل حتّى تختنقَ به الطّرقات، وإنّهنّ قادِماتٌ منذ أنْ تخرج من عندي وتعودَ بتفسيري للملك، فابدؤوا من اليوم بالزّرع، ازرعوا ما شِئتم أين شِئتم، لا تدعوا أرضًا تصلح للزّراعة إلا وازرعوها قمحًا، فإذا حصدتُم القمح فلا تُفرِغوه من سنابله حتّى لا يتعفّن، ولا يأكله سوس الأرض، فإنّما تخزنون لسبعٍ سنواتٍ قادماتٍ بعدها يأكُلَنّ كلّ ما خزنتموه، فإنّ الله يمنع الغيثَ من السّماء، وإنّ ماء النّيل لينضبُ شيئًا فشيئًا حتّى يُخالط ماءَه الطّين، فيُشرَب الوَشَل، وإنّ المجاعة ستُصيبُ أهلَ الأرضِ كلّهم، وإنّهم ليأكلون الثّرى من الجوع، وورقَ الشّجر إنْ ظلّ على الشّجر ورقٌ من الفاقة، ولن يكون في معمور الأرض وفرةٌ في الطّعامِ إلاّ في مصر، فمصر يومئذٍ تحكم العالَم بما لديها من غِذاء، ومصر يومئذٍ شبعى في أقطارٍ جائعة، ومصر يومئذٍ آمنة في بلدانٍ خائفة، ومصر يومئذٍ سيّدة الأرض، سوفَ تأتيها القوافل تمتار من قمحها مقابل ما لديها حتّى لا يكون قصيّ أو غريبٌ إلاّ ويهوي إلى أرضِ مصر الطّيّبة، ثُمّ تمرّ السّنوات السّبع العِجاف، ويموتُ أناسٌ كثيرون خارجَ مصر، وينتهي أقوامٌ، وتزول بلدان، ولا يقف في وجه المجاعة والزّوال خيرٌ من هذا البلد إذا أُحسِنَ فيها التّدبير، وسياسة توزيع الغِلال. ثُمّ إذا أيسَ النّاس في أرجاء الأرض، وكادَ الموتُ يفتكُ بكلّ مَنْ يدبّ على وجهها يبعثُ الله حينئذٍ سحابًا ثِقالاً، وغمامًا كثيفًا، وريحًا سائقةً؛ فيهطل المطر، ويرتوي النّاس من عطش، وتُخصِبُ الأرض من جدب، ويستمر انهمار الخير من السّماء عامًا كامِلاً، فيعصُر أهل مصر التّراب فيسيل ماء، والشّجر فيسيل ثمرًا، والنّخل فيسّاقطُ رُطبًا، والزّرع فيشتارُ

عَسَلاً». ثُمّ سكت. وسكتَ السّاقي واجِمًا، وربطَت الدّهشةُ لِسانه، واعتنقَ يوسفَ طويلاً، وبكى، وقال: «هذه المرّة سأخبر الملك بكلّ شيءٍ، وسأحدّثه عنكَ طويلاً». «لا حاجةَ لي بذلك، فإنّني أوّلتُ الرّؤيا من أجل مصر لا من أجل المَلِك، ومن أجل الله لا من أجل الجاه». وقبّله السّاقي مرّة أخرى، وخرج.

واجتمع أهل السّجن كلّهم حول يوسف، يقبّلون رأسه، وقالوا له: «لو كُنّا مكانكَ لاشترطْنا على الملك ألاّ نؤوّل رُؤياه حتّى يُخرجنا من السّجن». «السّجين مَنْ سجَنَتْهُ شهوتُه، وإنّ الله أخلصني بخلاصي منها». «ولكنّ القُضبان تنغرز في صدورنا أيضًا». «الفرج قريب، وإنّ أمرَ الله ماضٍ، ما يأتي لا يُمكن إيقافُه، وما يمضي لا يُمكن استرجاعُه، ولسوفَ تزول هذه الجُدُر كُلُّها، وستخرجون آمنين، فثقوا بالله ولا تعجَزوا».

ووقف السّاقي بين يدي الملك: «أيّها الملك؛ إنّ أمر هذا الرّجل لعجيب، وإنّه رسالة الله إلينا، وإنّه مُنقِذ مصر، وإنّنا لولاه لهلكْنا». «فأخبِرْني أيّها السّاقي، فإنّ حيرة الفؤاد لتكاد تذهبُ بعقلي». «إنّها سبعٌ وسبع، فازرع في الأولى من أجل الثّانية، وستأتيك الأرضُ صاغرة، ثُمّ سنجتاز هذه المجاعة حتّى يعمّ الخير كلّ الأرض». وأخذه الملك من يده، وانتحى به بعيدًا عن أعين الوزراء والحرس، وقال له: «أخبِرْني بالأمر كلّه».

ونادى يعقوبُ: «يا بنيامين». «لبّيك». «فأينَ إخوتُكَ لا أراهم؟!». «إنّهم مشغولون في تدبير شؤون البيت يا أبي». «فأيّ شيءٍ

من شؤوننا شَغَلَهم عنّي؟!». «لقد جفّتْ ضروع الشّياه، ويبستْ ضروع الزّرع يا أبي». «فما كان ذلك إلاّ بذنوبٍ أذنبناها يا بُنيّ؛ فإنّ الذّنب ماحق». وتلمّس وجه ابنه: «أكادُ أفقدُ ما تبقّى لي يا بُنيّ». وصمتَ بنيامين وأدار وجهه بعيدًا عن أبيه، يداري دموعه، وسأله أبوه: «أما من خبرٍ عن يوسف يا بُنيّ؟» وتحسّس قميصَ بنيامين، فازدادتْ دموعه انهمارًا، وردّ: «ومن أينَ يأتينا خبرٌ عنه، وقد غاب عنّا ما يقربُ من خمسةِ عقود؟!». «يا بُنيّ لو غابَ عنّي خمسةَ قرون فلن أيأس من أنْ يُعيدَه الله إليّ؛ إنّ الّذي حاكَ القميص المنخرق لقديرٌ على أنْ يُعيده إلى ما كان». «وكيفَ ذاكَ يا أبي؛ كيف يعود الموتى؟ كيف يرجعُ الغائبون؟ إنّه غيابٌ لا أمل من أوبته». «لا تقلْ ذلك يا بُنيّ... لا تقلْ ذلك... مَنْ وصلَ إلى الله فلنْ يجدَ مكانًا آخرَ يذهبُ إليه؛ فلا تجعل الشّيطان يتسلّل إلى قلبِك... القلوب العامرة بالله تثق به، وتثقُ بوعده...». ونهض، وتلمّسَ وجه بنيامين، وقبّله: «يا بُنيّ إنّ الدّم ليجري في قلوبنا بأمر الله دون إرادةٍ منّا، أفلا يُعيد الله لي ابني دون انتظارٍ أو توقّع...؟! والآن خُذني إلى مسجدي».

ونادَى المَلِكُ أُمّه، وأخلى قاعة العرشِ إلاّ منه ومن السّاقي، وقال له: «أخبِرْها ماذا قال يوسف في تأويل رؤياي». وهتفت الأمّ قبل أنْ تسمع: «يوسف... يوسف... لعلّه خادم قطفير». فهتفَ السّاقي: «هو يا مولاتي، لقد خدمتُ معه فترةً في قصر قطفير قبل أنْ أتشرّف بخدمتكم». وهزّت الملكة رأسَها، وهتفتْ: «هيه... أمُصابٌ أنتَ بلعنته يا بُنيّ؟ وماذا يُمكن أنْ يقول فاتنُ النّساء، وآسِرُ قلوب العذارى، أنّى له بأمور الغيب والرّؤى... هل درسَ الكَهَنوت في المعابد؟! السّجن

مرتعٌ لراقصات الخَيال؛ شَرِبَ من ماءٍ عَكِرٍ وتبحثُ عنده عن الصّفاء؟!!».

وقال الملك للسّاقي: «ائتِني به أجعلْه مُستشاري». وأسرعَ السّاقي إلى السّجن، ودخل إلى يوسف وهو يصيح: «البُشرى... البُشرَى يا يوسف... الملك عفا عنكَ ويريدُ اتّخاذَكَ مُستشارًا له». وأقعده يوسفُ على المصطبة، وقال له: «أيّها السّاقي... إنّني لستُ مُذنِبًا حتّى يعفو الملك عنّي، وإنّ مصطبتي هذه الّتي يأكُل العفنُ حجارتَها لأحبُّ إليّ من كلّ قصور الأرض، فارجعْ إلى الملك فقُلْ له إنّني أرفضُ الخروج». «ولكنْ يا يوسف... إنّها مكرمة الملك». «إنّ الّذي أكرمني هو الله لا الملك، وما لقيتُ من الملوك إلاّ الأذى، فاسألْه ما سببُ سَجْنِه لي طوال اثنتي عشرة سنة». «إنّه لا يدري من أمركَ شيئًا، ولعلّه لا يعرفُ عن سجنك هذا، وإخال أنّه لم يركَ في حياته». «بل رآني في قصر أبيه، عندما كانَ دون العاشرة، ولكنّه ينسى، الملوك ينسَون، ماذا يهمّ الملوك غير الاستمرار في الجلوس على كراسيهم؟!». وشهق السّاقي: «هل رآكَ حقًّا؟». «لن أخرجَ من هنا إلاّ إذا اعترفَ ببراءتي أمام الأشهاد. ارجعْ إليه فاسألْه عن اتّهام زليخة إيّاي، ومراودة نساء مصر لي». «زليخة؟ لقد رمتْها الأقدار في الأسواق تتسقّط ما يُليه لها النّاس من فَضَلاتِ طَعامهم». «أهذا ما آلتْ إليه بعدَ العِزّ؟!». «نعم». «ونساء مصر؟». «جِئنَ قبل سنين إلى الملك يَتشفّعْنَ فيك». «فما فعل الملك معهنّ؟». «طردَهنّ». «خيرًا فعل». «والآنَ؟». «عُدْ إليه، وأخبِرْه بما سمعْتَ منّي». واجتمع إليه السُّجناء وقد ازدادوا عجبًا من أمره: «أما والله لو كُنّا مكانَكَ وجاءنا بالعفو لابتدرْنا الباب، وَجَرَيْنا كما تجري الخُيول

الجامحة نملأ أعيُننا من النّور، وتخلّصْنا من هذه القيود الّتي برعمتْ على أيدينا وأرجُلِنا». «إنّني أريدُ أنْ أتخلّص منها على طريقتي!».

وقال الملك للسّاقي: «قُلْ له إنّنا أنفذْنا كُلّ ما يقول، فإنْ شاءَ جِئناه إلى السّجن فأكرمْناه، وإنْ شاء جاءنا وله الفضل في الحالَين». فقال يوسف: «أنا آتي الملك». ودخل عليه، وقد ملأ الملك منه قلبَه وروحَه، فلمّا رأى شخصه يدخل من باب قاعة العرش رأى النّور، وحلّ النّور في كلّ شيءٍ، بل في قلب الملك، وقامَ نحوه، ولم يُطِقْ صبرًا على أنْ يصل إليه، فالتقاه في منتصف القاعة، وعانقه طويلاً: «أنتَ صديقي إذًا؟». «هو أنا». «في اليوم الّذي لم تركعْ فيه للملك؟». «أنا هو». «وقلّدتُكَ القِلادة». فأخذها يوسف من عنقه فعرضَها عليه: «هي ذي».

وضحك الملك، وسارَا معًا حتّى أجلسَه عن يمين العَرش، ونظر إليه فدُهِشَ من جَماله، وهتف: «مَعذورات». وسكتَ وعيناه تلمعان. فقال يوسف: «مَن؟».

«زليخة ونساء طيبة، إنّه لا تعريف للجَمال أكثرَ مِمّا أنتَ عليه». «إنّه لا ينفعُ جمالُ بَدَنٍ دون جمال قلب».

«إنّكَ لحكيم، وقد عرفتُ رؤياك فعرفتُ أنّه لا يؤوّلها إلاّ رجل من أهل الباقية لا الفانية؛ أولئك الّذين اطّلع الله على سرائرهم فأعطاهم من فيوض علمه». «إنّها النّبوّة أيّها الملك». «فبأيِّ إلهٍ جئت؟». «بالله الواحد الأحد». «إنّكَ تدعو إلى توحيد الآلهة إذًا مثلي؟». «إنّني أدعو إلى الله لا إلى توحيد الآلهة، الله الّذي خلقَ كلّ شيءٍ فقدّره تقديرًا». «الله الّذي أضاءَ الشّمس؟». «وأضاءَ كلّ شيءٍ». «وأنا آمنتُ بما آمنْتَ به».

«سيحاربُكَ كهنةُ المعبد». «أعرف، ولكنْ سنحاربهم معًا». «لا تُسرِعْ إلى معاداتهم، فإنّ الأحمق إذا ظهرتْ له منكَ عداوةٌ اهتاج، فآذاكَ هياجُه، وإنْ صبرْتَ عليه، ونقبْتَ الأرض من تحتِ بنيانه دون أنْ يُحسّ انهار». «إنّكَ لحكيم». «دَعْنا نُنْهِ أمر زليخة والنّسوة». «أفعلُ ما وعدتُ».

وأمرَ الملك جُندَه أنْ يبحثوا عن زليخة في الأسواق ويأتوا بها، وأنْ يَدْعُوا كلّ نساء طيبة اللّواتي حضرْن مجلسَ السَّمَر يوم تقطيع الأيدي، مع أولئك اللّواتي تشفّعْنَ في يوسف. وجِئْنَ وقد علمْنَ بخروج يوسف يُمنّين أنفسهنّ بنظرةٍ ولو يتيمةٍ منه.

وجلسَ يوسف في العرش عن يمين الملك، ودخلتْ أوّل ما دخلتْ زليخة، وقد بليَ جمالُها، وذهبَ حُسنها، ورقّ جِلدُها، ووهنَ عظمُها، واحدودب ظهرُها، ورثّت ثيابُها، واغبرّ وجهها، فلمّا رآها يوسف حَزِن، ولمّا رأتْه فرحت، ولمّا أعاد فيها النّظر بكى، ولمّا أعادتْ فيه النّظر بكتْ؛ أمّا هو فرِثاءً لحالها، وأمّا هي فطلبًا لغُفران ذنبها. ثُمّ دخلتْ نِساء طيبة، وما أقْلَعْنَ عن عادتهنّ في التّبختر والتّقصّف، فاجْتمعْن في القاعة ينظرْن إلى يوسف وقد ثبتتْ عليه أبصارُهنّ فلا تَتحوّل عنه كأنّما عُلّقتْ بحبال مشدودةٍ إليه، وأخذْنَ يتهامَسْن ويتضاحَكْن، ورفعَ الملك يده، فصمتْن، وصمتَ كلّ مَنْ في القاعة، ومنعتْ إشارة يده الكلام فانقطع، ولكنّها لم تمنع نَظَر النّساء إلى ملاكهنّ، وقال الملك: «ماذا كان من أمركنّ إذْ راودْتُنّ يوسفَ عن نفسه؟». فلم يَحِرْنَ جوابًا، وانشغلْنَ عن الكلام به، فقالتْ زليخة: «الآنَ حصحصَ الحقّ، واستبان الأمر، واستقام المُعوجّ، ولم يعدْ لغير

الصّدقِ موضع، إنّه لَخيرُ أهل الأرض، وإنّه لأفضل مَنْ دبّ على قدَمين في هذه البلاد، وإنّه لطاهرٌ عفيفٌ، وإنّني أنا الّتي أردْتُه عن نفسه فأبى، وطلبْتُ منه أنْ يقع منّي موقع الرّجل من زوجته فاستعصَم، وإنّني أعترفُ بهذا لكي أرتاح، فإنّني مذ أمرتُ بسجنه ما هنئ لي نَوْم، ولا لذّ لي عيش».

فَعَلا هِياج النّساء، وهمستْ واحدة: «الفاجرة تتوب». وقالتْ أخرى: «الشّيطانة تَعِظ».

وتتابعَتْ الهَمَسَات: «تابتْ بعدَ أنْ أيستْ». «أرادتْ أن تستغفره بعد أنْ ذوتْ شهوتُها». ولكزتْ واحدةٌ مِمّن عَزّ عليها ذلّ زليخة الّتي بجوارها بكوعها، وهمستْ: «إنّها لمدرسةٌ في العِناد والإصرار؛ إنّها لمّا خاطبتْه بالإشارة فلم يستجبْ خاطبتْه بالعبارة فأبى، ثُمّ لمّا لم يُغنِ التّمليح لجأتْ إلى التّصريح، فلمّا نفرَ عنها وشهد الرّضيع ضدّها لم تستسلم في غايتها الظّفر بيوسف وجسده فطلبتْ له السّجن حتّى لا يبعد عنها، فلمّا أشعْنا خبرَها عاقبتْنا بتقطيع الأيدي، فلمّا أُلقي في السّجن صارتْ تبعثُ للسّجن كلّه بالطّعام، وإنْ كان لا يعنيها من العشرات فيه إلاّه؛ لتقول له إنّني ما زلتُ آمُل في تحقيق بُغيتي، وأطمع في نَوال مُرادي، فهل يرق قلبُكَ لي؟ وكأنّ الطّعام رسولُ شوقِها إليه، فلمّا بطش الملك بها وبزوجها، صارتْ تتعرّض لموكبه في الأسواق؛ أهذه امرأةٌ طبيعيّة؟ أهذا قلبُ امرأةٍ يُشبه قلوبَنا؟».

ورفعَ الملك يده من جديد. فسكن الصّوت، وسادَ الصّمت، وسأل: «وأنتنّ أيّتها المُتقصّفات قصفَ الله أعمارَكُنّ؛ أسمع وشوشاتِكُنّ

فما أمركنّ مع يوسف، هل أساءَ لواحدةٍ منكنّ؟ هل راودَها عن نفسها؟». فقُلْنَ بصوتٍ واحدٍ: «كلاّ، ما عَلِمْنا عليه من سوء، لقد كان رجلاً تطلبه كلّ امرأة، ولم نكنْ نحنُ استثناءً، فسقطْنا في حَوْمتِه، ورتعْنا في حَوْبتِه، ولئن حرّكَتْنا الشّهوة يوم تقطيع الأيدي، فلقد حرّكتْنا الرّحمة والحبّ من بعد، فإنّنا رأينا أنّ من كان يجب أنْ يُكرَم قد أُهين، ومَنْ كان يجب أنْ يرفَع على الأعناق ألقي في غياهب السّجون». فرفعَ الملك يده مرّة أخرى، فانخمدَ الصّوت، وتوجّه إلى يوسف، فسأله: «وأنتَ ما تقول يا يوسف؟».

فقال: «الآن وقد اعترفْنَ بما كان منهنّ فقد سامحتُهنّ، وغفرتُ، فإنّ الحكيم ليعفو إذا قَدِر، فكيفَ بنبيّ؟!».

وأشرقَ وجه الملك، فهتف: «أمّا أنا فآمُر أنْ تُخرِجوا أصحاب يوسف في السّجن من السّجن، فإنّه لا يعيشُ أحدٌ مع هذا الرّجل الصّالح إلاّ صَلُح، فما الغاية من إبقاء كلّ هؤلاء المساجين هنالك، وأمّا أنتنّ...» ثُمّ سكتَ قليلاً إذ توجّه بالحديث للنّساء، قبل أنْ يُتابع: «وأمّا أنتنّ؛ زليخة والنّساء، فقد أمرتُ بإلقائكنّ في السّجن الّذي أُلقِي فيه يوسف». وانتشر اللّغط، وساد الهرج، وأسرع الحرس إلى تنفيذ أمر الملك.

وقال يوسف: «كنتُ أريدُ أنْ تُقرّعهنّ، لا أنْ ترميهنّ في السّجن». «كان عليّ أنْ أؤدّبهنّ». «فزليخة». «ما شأنها؟». «إنّها عَجوز ولا تحتمل وحشة السّجن، وأخشى أنْ تموتَ فيه». «فماذا ترى؟». «اعفُ عنها». «قد فعلْنا كرامةً لك». «أحسنَ الله إلى الملك». «والآن، ما العملُ بشأن

الرّؤيا؟». «علينا أنْ نُسارع في الأمر». «ولْيكنْ». «اجعلْني على خزائن الأرض، فأقومَ على تدبير شؤونها». «هي لك، لا يُنازِعكَ فيها أحدٌ». وقال يوسف: «قد عطشتُ». فقرّب الملك إليه صُواعه الفضّيّ، وهتف: «اشربْ». «أأشربُ من صُواع الملك؟». «نعم، لا يشربُ فيه غيرُنا أنا وأنتَ».

وقالتْ له أمّه: «قال قطفير قبل زمنٍ بعيدٍ: إنّه مُستشاري، وتقول أنتَ اليوم: إنّه مُستشاري، وَلَعَمْري لَيَثُورَنَّ عليكَ كَهَنَةُ المعبد حتّى يخلعوا الكرسيّ الّذي تجلسُ فوقه!!».

(٤٠)
إنّ الشّفرةَ الحادّة لَتُغرى بالعُنُق اللّيّن!!

وقال يوسفُ: «ائتوني بأصحابي؛ فلْيدخلوا عليّ هذا القصر». وجاؤوا من ظلمة القَبو، من عتمة السّجن، قبل أنْ تُبرعمهم الشّمس، ويستحمّوا بضيائها فيزول عنهم عفنُ السّنين القاحلات، ويضربوا في الأرض كأنّهم وُلِدوا من جديد. وها هم مُشقّقةٌ أثوابُهم، باليةٌ أسمالهم، قد أُذِنَ لهم أنْ يدخلوا القصر كما يدخل الملوك، فوطئوا بأقدامهم المُتشقّقة الطنافس وفُرُشَ الحرير، ولطّخوا بأيديهم المليئة بطمي النّيل ووَحْل التّعب أعمدة القصر الشّامخة، فدخل الطّين في أفواه الأفاعي والكلاب المنقوشة، والملك ينظر إليهم ويبتسم، ويسمع أمّه تهمس، وهي تكزّ على أسنانها: «لقد جُنّ ولدي، لم يبقَ في مصر إلاّ أنْ يُدخل الحمير والقرود إلى القصر بعدَ أنْ أدخل العبيد؟!!». وصاحتْ: «يا هَيبة المُلك!!». وانتفضتْ أفاعٍ كثيرةٍ تختبئ خلف جدران القصر، وفوق أعمدته لصيحتها. واستقبلهم يوسف في قاعةٍ اتّخذها مركزًا لعمله، وقال لهم: «الحرّيّة عمل، الحرّيّة أنْ تبذل روحكَ من أجل فكرة، من أجل غايةٍ نبيلة، وإنّ وراءَنا أُممًا جمّة وشعوبًا غفيرة لتنتظر منّا أنّ ننقذها من الموت والجوع، ونحنُ الأمناء اليومَ على حياتها، نحن سنرحل والبلادُ ستبقى، نحن سنموت والبِلادُ ستحيا، فهلمّ بنا نعملْ لأجلها». وقالوا: «نحن لك». ووزّعهم على أنحاء مصر، يُشرِفون على زراعتها،

وجَنْي محاصيلها، وكان عدد الّذين اصطفاهم ثلاثة عشر سجينًا أداروا ثلاثةَ عشر مخزنًا ضخمًا للحبوب في ثلاث عشرة ولايةً من ولايات مصر العظيمة!

وفار تنّور الحقول بالحبوب، وامتلأت المخازن بالقمح، وجُعِلتْ عليها الحراسات حتّى لا تمسّها يدٌ بغير حَقّ. وقال الملك: «إنّني من أمركَ ما أزال في عجب». فردّ عليه يوسف: «فاعجبْ من أمر الله، إنّ زَغَب سنبلةٍ واحدة ليُحيي الله به أرواح بشرٍ كثيرين، إنّ هذا الخيط الرّفيع في هذا الزّغَب ليصل به اللهُ خيطًا أرفع في الرّوح، فيحميه من أنْ ينقطع!».

وقال الملك: «مصرُ لي». فردّ يوسف: «مصر لله». «فأنا أحكمها». «إنّ الأرضَ كلّها تحت حُكم الله لا تخرج من سُلطانه. فانظر خلفكَ إلى أسلافك مِمّن صنعوا من أنفسهم آلهة، أو صنعتْهم كهنةُ المعبد، أو صنعتْهم شعوبُهم، انظر إليهم في البعيد في الجانب المُظلِم من الأرض؛ إنّهم منفيّون منبوذون ملعونون؛ إنّ الأرضَ لا تُقدّسُ أحدًا؛ إنّما يُقدّسُ المرءَ عَمَلُه». «إنّهم ما زالوا يُلهَج بأسمائهم في المعابد». «ستلعنهم عمّا قريب، حينَ تأتي كلّ أمّةٍ فتلعنُ أختَها». «وأنا؟ ألستُ سُلطانَ هذا الزّمان». «لن يكون لكَ سُلطانٌ على الأرض ما لم يكنْ لكَ من نفسِكَ على نفسكَ سُلطان». «فكيفَ سيذكرني قومي؟». «لن يكونَ لكَ ذِكْرٌ حَسَنٌ إلاّ إذا كنتَ له». «فمن يكون؟». «الله». «فأنا له».

ونادى يعقوب في الظّلمات: «يا الله». فقال الله: «سَلْ تُجبْ». فقال يعقوب: «فأينَ يوسف؟». فقال الله: «إنّه لقريبٌ، وإنّه في قلبكَ اليوم

وفي عينكَ غدًا». ونادي يعقوب بِنيامين: «لم يبقَ لي غيرُك يا بُنيّ». «فهؤلاء العشرة من إخوتي؛ كلّهم مثلي يفدونك». «لقد سلبوا منّي أعزّ أبنائي وألصقهم بقلبي وأعلقهم بروحي». «فها هو يهوذا يا أبي قد أَقبَل». «يا يهوذا؟». «لبيّكَ أبي؟». «ما فعلتَ بيوسف؟!».

وقال الملك: «إنّكَ أفضْتَ الغِلال في أرضِ مصر». «بل أفاضَها مَنْ شاء لها أنْ تفيض». «وإنّني سأُركّع الأمم تحتَ قدَمي». «إنّ ذا السُّلطة تُهلكه السُّلطة، وذا الشّهوة تُهلكه الشّهوة». «أريدُ أنْ أرى الأمم تنضوي راياتُها تحت راية مصر العالية في أسرعِ وقت». «المُتعجّلون لا يَصِلون». «أنا خائف». «إنّ الحِفاظَ على المُلك أَصعبُ من المُلكِ نفسه». «أنا أخشى سطوة الكهنة الّذين يملكون رؤوس النّاس بالخرافة». «لأنتَ أجدرُ أنْ تخشى الخُرافَة الّتي تعيشُ في رأسِك». «كيفَ أخافُ وأنا أملك كلّ هذه البقاع والأصقاع، وأحكم كلّ هذه الأمم والشّعوب؟». «إنّ الخوفَ ليزداد كلّما ازدادت السُّلطة». «إنّني أشعر بأصواتهم تكاد تنفجر في جمجمتي». «إنّ السُّلطةَ لظاهرةُ المُتعة باطنةَ الرُّعب، إنّ صاحبها ليجلسُ إلى مائدةٍ تنبسطُ عليها أشهى الأطعمة وألذّها، وفوقَها سيفٌ مُرهَفٌ صقيلٌ معلّقٌ بشعرةٍ امرأة، فكلّما ذاقَ حلاوة الطّعام نغّص عليه الخوف من انقطاع الشّعرة أنْ تهوي على عُنُقِه فتقتلُه في الحال؛ إنّ الشّفرةَ الحادّة لتُغرَى بالعُنُق اللّيّن». «ولكنّهم يهتفون باسمي، ويطالبون بإقامة تماثيلَ لي في كلّ الميادين». «إنّ أصواتَ الدّهماء إذا ما داعبتْ أحاسيس العُقلاء ودغدغتْ مشاعرهم فعليهم أنْ يفتّشوا عن أخطائهم؛ ما أسهلَ أنْ تُمدَح! ما أسهلَ أنْ تُقدَح! ما أصعبَ أنْ يكون الأمر في الحالَين صادِقًا!». وهذّب الملكَ طولُ الحديث مع

يوسف؛ ومَنْ مثل يوسُفَ معلّمًا!!

وكان يوسفُ يطوف في الأسواق في موكبٍ من مساعديه، يطمئنّ على أحوال النّاس، وأرزاقهم: «مَنْ يملكْ غِذاءَه يملكْ أمنه». النّاس لا تُفكّر أنْ تحمل السّيف في سُلطانِها إلاّ إذا حاربَها في لُقمة عيشها، احْكمْني بما شِئت ولكنْ لا تُجِعْني؛ إنّ البطنَ الفارغ لمستعدٌّ أنْ يضرب بالسّيف أقربَ النّاسِ إليه، ويُغامر بكلّ شيءٍ إذا ما مسّه الجوع، ولم يجدْ في صبحه أو مسائه ما يسدّ به رَمَقَه!

وكان يركبُ في الموكب يتفقّد سَيْرَ جَنْي المحاصيل وتخزينها وتوزيعها في كلّ أسبوعٍ مرّة، وكانتْ زليخة تعرفُ موعدَ خروجه في النّاس، فتتهدّى الطّريقَ الّتي يسير فيها كي تراه، ولو من بعيد، وكان قطفير قد انمحى أثرُه، فلم يعدْ يعرفُ أحدٌ أحيٌّ هو أم ميّت؟!!

فإذا كان اليوم الّذي يخرج فيه بموكبه، عَرَضَتْ له في الطّريق، وصاحتْ يسمعها: «سبحان مَنْ جعلَ المُلوكَ عبيدًا بمعصيته، والعبيدَ ملوكًا بطاعتهم». فانتبه لها يوسف، وهتف: «مَنْ تقول مثل هذا الكلام؟ إنّه لا يصدر إلاّ عن جُرح؛ فائتوني بصاحبته». فأتَوا بها إليه، فشامَها يوسف فلم يتبيّنْ على وجه الدّقّة مَنْ تكون، إذ كان وجهُها قد اسودّ من طول البكاء، والحُسن قد غار لطول العهد، وأحدثت السّنين في روحها شرخًا عميقًا لم يُصلحه حسنُ التّعزّي، فقال لها وهو يسمع في صوتها نبرة الماضي الّذي لا يعود: «فمن تكونين يا امرأة؟». فقالت: «أنا الّتي كنتُ أخدمكَ على صدور قدَمَيّ، وأُرجّلَ جُمّتَكَ بيدَيّ، وتربَّيْتَ في بيتي، وأكرمْتُ مثواك، لكنْ لفرطِ جهلي ذهبَ مالي،

وتضعضع رُكني، وطال ذُلّي، وعَمِيَ بصري، وها أنا كما تراني أتكفّف النّاس فمنهم منْ يرحمني ومنهم من يردّني...» وأوقفها نشيجُها، فضربتْ بيدها على صدرها، وتابعتْ: «مثل الأسماك الصّغيرة الّتي قرّرت الانتحار فرمتْ نفسَها على الشّاطِئ الرّمليّ روحي، مثل المدينة الخالية من ساكنيها الفارغة من أصواتِ فَرَحِها قلبي، مثل الشّجرة الّتي تساقطتْ أوراقها الخضراء في ليل الخريف جسدي... فهل أنتَ بعد ما كان منّي تغفر لي ذنبي؛ فإنّني لا أريدُ بعد اليوم من العمر إلاّ هذا؟».
ورجفَ إشفاقًا، وثقبت الكلماتُ حُزنَه، وأسالتْ عينَيه، فدارَى دموعه أمام جنوده، ومسح ما تقاطَر منها، وهتف: «هل بقي من حُبّكِ ليوسفَ شيء؟». فقالت: «والله لَنَظْرَةٌ إلى وجهكَ أحبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها». فردّ وأثر النّشيج في الكلمات: «ائتِنا نُكرِمْكِ؛ فقد عفا الله عمّا سلف». فقالتْ: «إنّما أنا عجوزٌ عمياءُ فقيرة، وماذا يفعل الحطّاب بالشّجرة العقيمة؟ يقطعها، ثُمّ يُلقمها للنّار؛ وإنّه إنْ تكنْ سامحتَني فتلك غايتي، وإنْ تكنْ وهبتَ لي خطيئتي فتلك بُغيتي، والله لا أسفَ على الدُّنيا من بعدُ». ثُمّ أعطتْه ظهرها، كأنّها تريدُ أنْ تقول: لم يعدْ بوسعي أنْ أحزنَ أكثر، أنا خَزَفٌ مُهشَّم، ومضتْ تاركةً تاريخًا من العشق الْمُعتّقِ ينزفُ خلفَها!!

وجمع الغِلال من بقاع مصر الخصيبة، وبنى لها الأهراء والصّوامع، فضاقتْ عنها لكثرتها، وفاضتْ حتّى ما وجد لها يوسف موضعًا يخزنها فيه، وما وجد النّاس لها سبيلاً من طعامٍ أو إعادةٍ في الأرض للزّرع، وشبع النّاس سبعَ سنين كامِلاتٍ شبعًا لم يكنْ لهم به عهدٌ فيما مضى من حياتهم.

وقال يوسفُ للّذين يُديرون صوامع الغِلال: «أكرِموا عُمّالَكم». فكانوا يقولون: «إنّنا نضع أمامهم الطّعام، فيأكل الواحدُ منهم بعضَه، ويبقَى خلفه منه شيء». فقال يوسف: «أعلم؛ ولكنْ إنْ حدثَ غيرَ هذا فأعلِموني». فَقَدِمَ ذاتَ يوم إلى إحدى مخازنه، فقدّم الطّعام إلى العُمّال، فأكل كلّ واحدٍ منهم ما قُدّم له كلّه ولم يُبقِ منه شيئًا، فقطّب يوسُفُ جبينه، وضيّق عينَيه، وقال: «هذا أوّل يومٍ من السّبع الشّداد».

ثُمّ كأنّ الجوع رمادٌ ذُرّ في سماء مصر، فأصابَ كلّ ما فيها، حتّى جاعت الدّوابّ والشّجر والحجر والبشر، وأتربَ كلَّ ذي حاجة. ووجدَ أهل مصر ما خَزَنه يوسف لهم، ولم تجد الأمم الأخرى والبلدان ما تأكل، فقد نفدت الحبوب، وفني القمح، وخبزوا الشّعير فما أشبع، والتّمر فما ملأ، وما تُخرجُ الأرض فما أغنى؛ فجاءت إلى مخازن أهل مصر تستجدي لتبيع وتشتري!

وكان الجوع خَلْقًا بَيِّنًا يمشي بين النّاس في بداية السّنوات السّبع الماحِقات، كنتَ تعرفه في ألفِ وجهٍ ووجه، وتلتقيه في ألف طريقٍ وطريق، وتقابله في ألفِ مرتعٍ ومرتع، وخلا له الجوّ ففعل بالنّاس الأفاعيل، وبَقَرَ وألوى وأفقرَ وأحزنَ وأماتَ وأشقى!

وأمر يوسُف لمّا علم بداية سنوات الجوع ألاّ يزرعَ أحدٌ شيئًا، فإنّ الأرض لا تُنبت، وإنّ الماء لا يروي، وإنّ النيل سيدهمه الجَفاف، فلا يبقى فيه إلاّ ما يبقى من الثّمالة في الكأس. واستجاب النّاس، وسحَب الجوع رداءَه عليهم، فلم يُبقِ أحدًا إلاّ ألبسه. وصار الواحد يمشي في الأسواق وهو يصيح: الجوع... الجوع... وصار النّاس يأكلون ما

يجدون ولا يشبعون، فكان ذلك أوضحَ العلامات على تلك السّنوات، وجاع الملك، وفي قصره الطّعام، فكان جسده النّحيل لا يشبع، وصار الملك يأكل كلّ ما يُقدّم له فلا يقوم عن الأكل إلاّ وقد ازداد جوعًا، ولم يظهر أثر الطّعام على جسده، فظلّ بيّن النّحول كأنّه ساق ذرةٍ جوفاء. وشكا الملك إلى يوسف ما يُصيبه من الجوع رغم ما يأكل، فقال له: إنّ هذا بَدْء الجوع في مصر كلّها، وإنّه لن يزول عنكَ ولا عن النّاس ما أصابهم إلاّ أنْ تمرّ السّنة الأولى.

ونقبَ الجوعُ أهراء مصر، فأفرغ ما فيها من الحنطة والشّعير والقمح عامًا بعد عام، ودخل إلى بطون النّاس فأفرغها، وإلى أسواقهم فجعلها خاويةً على عروشها، وظلّ يوسف يدفع الجوع عن مصر بما كان قد خزنه، وجعل لأهلها أهراء (سقارة)، وجعل أهراء الولايات الأخرى لجوعى الأرض، وسمع النّاس أنّ بمصرَ عزيزًا يملك مخازنَ للغذاء لا تنفد، ولا تنتهي ولو أكل منها أهل الأرضِ كلّهم، وشاعَ فيهم أنّه سَمْحٌ عَدْلٌ لا يمنع مَنْ جاءَه، ويبيع القمح بالسّويّة، وبثمنه الّذي كان قبل أنْ تحلّ المجاعة في كلّ مكان.

وشكا يهوذا: «إنّه لم يبقَ للدّواب من عصف الأرض ما نعلفها به». فردّ لاوي: «وهل بقي لنا نحنُ من ذلك شيءٌ حتّى نأكله؟!». وتأوّه نفتالي: «سنأكل ورق الشّجر». ونخر شمعون: «سنأكل رَوْثَ الدّوابّ». وهَزِئ روبيل: «إنْ أخرجتْ لكم الدّواب هذا الرَّوْث!!».

وملأ السّواد أرضَ كنعان من فلسطين، ولاحَ شبحُ الجوع يرقصُ في الأفق قادِمًا من الغيب، فمرّ بالشّجر فأسقطَ ما عليه من ثمر،

وأحرق ما فيه من ورق. ومرّ بالأنعام فيَبّسَ ضروعَها وأخذَ صوتَها إلاّ من ثغاءٍ هزيلٍ هنا، أو رُغاءٍ هامدٍ هناك. ومَرّ بالحجر فأحدثَ فيه شقوقًا حتّى تكسّر ورمَى عليه الرّماد حتّى سوّده، ومرّ بالنّاس فأضمرَ بطونهم، وأهزلَ أبدانهم، وجفّف ماءَهم، فما تراهم إلاّ في بيوتهم خامدين ينتظرون قدر الله.

وصحا فيهم حُبّ الحياة وكراهية الموت، وتعالى في أعماقهم نِداءُ العيش، فخرجوا يطلبونه خارجَ قُراهم وأحيائهم، فمنهم من ماتَ في الطّريق، وكثيرون لم يعودوا، وبعضُهم وجد في سبيله نُجعةَ ماء فشرب فحمى الشعلة من أنْ تنطفئ ولو إلى حين، فلمّا نثر الجوع رماده عليها من جديدٍ أطفأها.

وهبّ النّاس يبحثون عن خيط الحياة، بيد مَنْ يكون هذا الخيط، فقال قومٌ: إنّه في النّهر المُقدّس في الأردنّ ولو أنّنا ألقينا فيه نذورنا لفاض، ولأُغِثنا؛ فألقَوا فيه نذورهم فما زاده ذلك إلاّ غُؤُورًا. وقال آخرون: إنّها في النّيل، ولو ألقَينا فيه عروسًا جميلةً لفاض، ولأُغِثنا؛ فألقَوا فيه العروس فابتلعها ولم يُعِدْ لهم إلاّ الطّين، وقال يوسف: «أنا عندي طعام أهل المعمورة، فمن جاع كفيتُه، ومن عطشَ سقيتُه، وإنّ النيل والأردنّ خَلْقان، فلا تلقوا إليهما شيئًا، بل ألقوا إلى الله وائتوني». وهتف: «إنْ كان داء الجوع قد أخذ بأعناق البلاد والعباد فإنّ في مصر دواءَه». وصاح: «يا أهل الأرض؛ هلمّوا إلى خيرات مصر». فأتته الأرضُ مُنقادة!!

(٤١)
أشواقُ السّنين

وقال روبيل: «يا أبي، ما نصنع؟ ها أنتَ ترى ما آلَ إليه حالُنا؟ وإنّنا إذا احتملْنا الجوعَ نحن الكبار لم يقْوَ على احتماله الأطفالُ والرُّضّع من الأحفاد وأبنائهم». وقال يعقوب: «إنّ في مصر مَلِكًا عادِلاً، تناقلتْ عدله الرّكبان، وشاعَ أمرُه بين النّاس، فشدّوا رِكابكم إليه فلعلّكم تُصيبون منه خيرًا. وإنْ كان معكم قليلٌ من المال فادفعوه إليه لِقاء القمح والحنطة والشّعير». فقالوا: «نفعل».

فجهّزوا أحدَ عشرَ بعيرًا للسّفر من أرض كنعان إلى مصر، ووقفَ أبوهم يومَ خروجهم على رؤوسهم، فسأل روبيل: «فيمَ جهّزْتُم أحدَ عشرَ بعيرًا؟». «لأنّ عددنا أحدَ عشر أخًا». «كلاّ، يبقى بنيامين معي وتذهبون أنتم العشرة». «ولكنّنا نريد أنْ نحمل على البُعران كلّها حتّى لا نجوع، ويكفينا حِمْلُها السّنةَ كلّها». «فإنْ أخذتُم بنيامين فمَنْ يبقَى ليخدمني؟». «إنّ زوجاتنا كلّهنّ خدمٌ لك». «كلاّ. اذهبوا واتركوه عندي؛ فإنّ فيه بقيّةً مِمّن ذهب، وأنا لا أقدر على أنْ يُفارقني». فتدخّل يهوذا، واستعجلَ الرّكبَ: «اشبعْ به». وقال لاوي: «نأخذ بعيره معنا نحملْ عليه مِيْرتَنا وإنْ لم يأتِ معنا». «فافعْلوا إنْ شئتم». ونفضوا أيديهم، وسار عشرتُهم يضربون البِيد إلى لقاء العزيز تراودهم أحلام الشّبع من بعد جوع.

إنّها قافلةٌ صغيرة؛ أحدَ عشر بعيرًا وعشرةٌ من الإخوة الأشدّاء، ورِحالٌ خاليةٌ، وبعضُ الدّراهم، وقليلٌ من الطّعام، وكثيرٌ من الأحلام، وصحارى مُهلكة، ومفاوز مُقفرة، وغاياتٌ بعيدة، ولكنّ هذه القافلة الصّغيرة الّتي كانتْ تذرع رمل سيناء اللّاهب كانتْ تخطّ بأخفاف إبلها سِفْرَ التّاريخ!

ومرّوا في رحلتهم على البِئر؛ ذات البِئر الّتي ألقَوا فيها يوسف، وهتفَ روبيل: «نرتاحُ قليلاً على هذا النّشز، ونريدُ أنْ نشربَ من البِئر». فردّ يهوذا وهو يحرّك عنقه بعيدًا عن الجهة الّتي يقع فيها البِئر: «اشربْ منها وحدك، أنا لا أقدر على ذلك». «لِمَ؟». «إنّني أُحِسّ أنّ نِبالاً تنغرز في قلبي كلّما تذكّرتُ ذلك اليوم». فسخر منه روبيل: «ماذا؟ أجاءتْكَ الصّحوةُ بعد السّكرة؟». «يا أخي لا تَقْسُ عليّ، كنتُ في ميعة الشّباب، فائر الدّم، سريعَ الغضب، ولا أدري كيفَ فعلْنا ما فعلْنا؟». «الآن بعدَ ما يقرب من أربعينَ عامًا تقول هذا؟». «اذهبْ... أنا سأبقى هنا».

وبقي الآخرون مع يهوذا، وذهب روبيل وحده إلى البِئر، وتحرّكتْ في قلبِه مشاعرُ مُعتّقة، قديمة، خفيّة، غامضة، كأنّ الزّمن خطفه من لحظته الرّاهنة وعادَ به هذه العقود الأربعة إلى الوراء، ولمّا اقتربَ من البِئر، خُيّل إليه أنّه يسمعُ صوتًا قادِمًا من هناك فارتجف، وتوقّف للحظاتٍ، ونفضَ رأسه، وهمس مُهدّئًا اضطرابَه: «إنّكَ تتخيّل يا روبيل». ولكنّ الصّوت عاد، فهمس مرّة ثانية: «إنّه صوت يوسف... كلاّ، يوسف..؟!! يوسفُ لم يعدْ هنا... ماذا حدث لعقلي...؟». واستمرّ ينفض رأسَه، واقترب أكثر، فأحسّ بنسماتٍ خفيفةٍ تهبّ من

جهة البِئر تُداعب خَدّيه، وحدّث نفسه: «إنّها ذات الحِجارة، ذات التّراب، ذات الحِبال، ذات الفوهة، ذات الرّائحة... أيكون قد عمرتْ هذه البِئر بعدنا؟». واقتربَ أكثر، لم يبقَ بينه وبين البِئر إلاّ خطوة واحدة، تجمّد مكانه، أغمضَ عينَيه، وفتح ذراعَيه للرّيح، وتخيّل المشهد نفسه الّذي مرّتْ عليه كلّ هذه السّنوات، هنا قال لهم ارحموا ضعفي، فما رَحِموه، هنا قال لهم اتركوا لي القميص أقي به نفسي شدّة البرد أو أجعله كفني إذا متّ فما تركوه، هنا نظر في أعينهم يستغيثُ بهم واحِدًا واحِدًا فما أغاثوه... وتداعى جسد روبيل وهو يتذكّر هذه المشاهد الغابرات، وكاد يسقطُ على الأرض، لكنّه تمالكَ نفسه، واقترب الخطوة الأخيرة، ووضع باطن كفّيه على حجارة الفوّهة، واستجمع شجاعته لينظر في البِئر، وأمال رأسه المرفوع إلى باطن البِئر، وفتح عينَيه المُغمضتَين، وأرسلَ نظراته، فإذا هو ظلامٌ كثيفٌ، ليلٌ عميق، بردٌ قارسٌ، كلّ شيءٍ هامدٌ كأنّما ينتظر قدرًا غامِضًا، وصوتُ ذئابٍ كثيرةٍ، كثيرةٍ جِدًّا تعوي. وجفل، وتراجع على الفَور، وركضَ عائدًا إلى إخوته وهو يهذي: «ما فعلْنا بيوسف لن تغفره السّماوات ولن ترضى عنه الأرض...». ووصل إلى إخوته وأنفاسه تتقطّع من اللّهاث، وهزّه يهوذا من كتفه: «ما بالُك؟ ماذا أصابك؟ ألم تشربْ من البِئر؟». وأجاب وهو يشهق: «كلاّ... كلاّ... البِئر مليئةٌ بالذّئاب الّتي تعوي، والأفاعي الّتي تصلّ، وليس فيها قطرةُ ماء واحدة». «حَقًّا!!». «يوسف لم يسامحنا». «أينَ أنتَ من يوسف؟ أخذتْه الأقدار حيثُ شاء الله». «كُنّا نحن أقدارَه، أقدارَه السّيئة». «بل كان قَدَر نفسه السّيِئ، وما كُنّا إلاّ أدوات، لماذا حكم الله له بهذه المحبّة حتّى نحسده هذا الحسد؟!». «ولكنْ ألم

تكنْ لنا قلوبٌ تعقل؟ ألَم يكنْ فينا رجلٌ رشيد؟ ما أشدّ سوءَتنا؟! وما أقبحَ فِعلتنا؟!». وسقطَ على الأرض منهارًا، وأنهضه يهوذا ولاوي، وقالا له: «لا تعذّبْ نفسكَ يا أخي، ولا تعذّبْنا، قد خرجنا من ديارنا وخلّفْنا وراءَنا أبانا العَجوز وأمَّنا وزوجاتِنا وأطفالنا جَوعى من أجل أنْ نعود لهم بالطّعام، فلا تنشغل عن هذه الغاية بغيرها». ونفضَ روبيل كَتِفَه من ذراعَيها، وجثا على رُكبتَيه، ونثر التّراب على رأسه، وصرخ: «وا أسفا على يوسف». وسارت القافلة!

ومن بعيدٍ بدت قمم الأهرامات الثلاثة تصعد باتّجاه السّماء كأنّها تتحدّى الزّمن أنْ يهزمها، وبدت تلك القمم تموج في ضبابٍ من سرابٍ على وهج الشّمس، وعاندوا ذلك الوهج ليظفروا بالنّدى ولو بعدَ حين. ومَضَوا تحدوهم الغاية، وتقودهم صِنّارة الأمل. وسمعوا جلبةً عالية، فإذا أسواقُ مصر عامرة، وإذا النّاسُ فيها قد تجمّعوا من كلّ صَوب، وإذا فيهم سبعون لغة، كلُّ لُغةٍ لِقومٍ، وإذا فيها المُترجِمون، والبائعون، والمُشترون، والسّائِمون، والمُستبشرون، والغادون، والرّائحون... وإذا النّاس يَصْفِقُون في الأسواق صَفْقًا، وإذا تراب كنعان، ورمال بِيدها تبدو هنا في مصر ذهبًا، حتّى قمحُها يلمع، وإذا مصر حاضرة الدّنيا والكون يومئذٍ، وأخذتْ ألبابَهم أسوارُها، ومعابدُها، وحاراتُها، وأزقّتها، وحوانيتُها، ونساؤُها، ودروبُها، ونقوشُها، وآثارُها، وكلّ شيءٍ فيها... وكانوا قد احتاجوا لأمرين: وقتٍ كي يبتلعوا الدّهشةَ ممّا رأوا، ومكانٍ يبيتون فيه ليلتهم من أجل أنْ يشدّوا رِحالهم في اليوم الثّاني إلى قصر العزيز، فإنّهم عشرة، وكلّ واحدٍ منهم يعضُد الآخَر في رأيه وجسده حتّى كأنّهم جيشٌ يريدُ أنْ يقابل

فاتِحًا فيُدِلّ عليه بعدَدِه وبقوّته.

وناموا ليلتهم في خانٍ اكْتَرَوه على عشرين درهمًا، ودفع روبيل الدّراهم لصاحب الخان، وتذكّر يومَ باعوه بعشرينَ درهمًا، وحدّث نفسه: «لم يكنْ أخونا إذًا يساوي أكثر من مبيتِ ليلةٍ واحدةٍ في خانٍ صغيرٍ في بلدٍ غريب!!». وتنهّد وهو يعدّ النّقود قبل أنْ يدفعها للرّجل.

وفي اللّيل، قامَ فاعتزل إخوته، وخرجَ إلى فِناء الخان، وباغتَه الهَمّ، وأحاطَ به الحُزن، وأرادَ أنْ يطلبَ من أحدٍ؛ أيّ أحدٍ أنْ يسامحه ولكنّ الفِناء كان خالِيًا، واللّيل كان مُحايِدًا، والصوت كان ميّتًا، فلم يجدْ أحدًا ليطلب منه ذلك، وودّ لو أنّه يجد كتفًا يُسند عليه رأسه ويطلب منه الغُفران، لكنّه لم يكنْ هناك حتى ظلُّ شَبَح، وراودَتْه أحلامٌ كثيرة، وذكرياتٌ أكثر، وغَلَبَه النّعاس، فودّع السّماء، وأوى إلى فِراشه، وسقطَ في النّوم.

وقال الحاجب: «إنّهم عشرةٌ يا سيّدي، يقولون إنّهم إخوةٌ، وإنّهم جاؤوا من أرضِ كنعان، وإنّهم يأملون أنْ تترفّق فتُقابلهم». وسقطتْ كلمةُ الحاجب (أرض كنعان) على قلبَ يوسف فانتبه، وسأل الحاجب: «قلتَ لي كم عددهم؟». «عشرة». «وهل هم إخوة؟». «إنّهم يدّعون ذلك». «دَعْهم يدخلون». ودخلوا من بابٍ واحدٍ، ورأوا العزيز، يلمع التّاج فوقَ رأسه، سيّد الزّمان والمكان، وصاحب الرّفعة والسُّلطان، يقفُ حوله الوزراء والأمناء ينتظرون لفتةً واحدةً منه، ويخضعُ كلّ مَنْ في القاعة لهَيْبته، ويأتمر كلّ مَنْ في القصر بأمره، أيّ جلالٍ لهذا الملك العظيم، وحدّث روبيل نفسه: «إنّنا لمحظوظون إذْ قبل هذا الملك أنْ

يسمح لنا بالدّخول عليه؛ ما أشدّ تواضعه!!». ووقفَ يوسفُ ينظر إليهم مليًّا، ويتفحّصهم واحِدًا واحدًا. وهتف: «هذا روبيل أكبر إخوتي... يااااه... لقد أكلَ الشيبُ من رأسه»، وكادَ يجري نحوه ليحضنه، إنّ فِيّ أشواق السّنين الماضِيات كلّها، ولكنّه ملكَ نفسه، ونظر إلى الثّاني: «هذا يهوذا... الّذي دفعني فأسقطني في البئر... يبدو أنّ ذقنه قد ازدادتْ صِغَرًا... وبعضُ التّجاعيد قد جرحتْ جفنَيه». وكادَ يبكي إذ رآه، وكتمَ دمعه، ونظر إلى الثّالث: «وهذا شمعون... هذا الّذي طلبَ أنْ ينزع القميص عنّي... قد ازدادتْ كُبّة الشّعر فوق رأسه وابيضّتْ، واحدودب ظهرُه...». ورثى لحاله، وهمّ أنْ يصرخ، فاستعاضَ عن الصّرخة بشهقةٍ عاليةٍ جذب بها انتباه إخوته فنظروا إليه مُستغربين، ولكنّه واصل التّحديق فيهم: «وهذا لاوي... إنّ لديه كبرياء وضعفًا... أعرفه من نظرته...». ثُمّ تابعَ النّظر فيمن تبقّى من إخوته، وهاله فِعْل الأيّام فيهم، ومرور الزّمان على صفحات وجوههم، وأثر النّحْتِ على هيئاتِهم... وودّ لو أنّه يخلع التّاج، والقِلادة، وسرير المُلكِ ويعود إلى صفوفهم واحدًا منهم، فينظر في عيونهم طويلاً، ويستمع إلى دقّات قلوبهم، ويُلقِي برأسه على صدورهم، ويأكل معهم في الإناء نفسه، ويشرب معهم من الكأس ذاتِها، ويأنس بحديثهم والجلوس إليهم! لكنّ الأمور لا تجري على هذا النّحو. وسألهم: «أأنتم عشرة؟». «فقالوا ها نحن كما ترى عشرة!». فقال: «أعني أنتم هنا كلّكم أمْ بقي أحدٌ منكم في بلادكم؟!». «نحن أيّها العزيز اثنا عشر أخًا، سُلالةُ نبيٍّ كريم، ورسولٍ عظيم، عشرةٌ منهم نحن الّذين نقفُ بينَ يديك، وأمّا الحادي عشر فقد تركْناه عند أبينا يُؤنِسه ويقوم على خِدمته،

وأمّا الثّاني عشر فقد فقدْناه، خرجَ إلى البرّيّة ليلعبَ مَعنا فأكله الذّئب». فشهق يوسفُ، وسمعوا شهقتَه، فسأله روبيل وهو يحني رأسَه: «هل أحزنَ العزيزَ أمرُنا أم أمرُ أخينا الّذي أكله الذّئب؟!». فقال: «بل أمرُ أخيكم... ولكنْ كيفَ تركتموه للذّئب يأكله، ألم يكن الأجدر بكم أنْ تحموه منه؟!». فوجموا، وتبرّع يهوذا للإجابة: «لقد كان شقيًّا كثير الحركة، ما أقام معنا كما أمرْنا، ولا حرسَ أمتعتنا كما طلبْنا، وانفلتَ منّا فعرّضَ نفسَه للوحش، ولو سمع لنا وأطاع لما أصابَه مكروه». وعبرتْ يوسفَ موجةٌ من الألم مثل سيلٍ من ماءٍ حميمٍ يسري في جوفه دُفعةً واحدة، وهزّ رأسه، وأردف: «وأين أخوكم هذا الّذي تركتموه وراءَكم، فإنّني أريدُ أنْ أراه؟». «إنّه مع أبينا، لا يستطيع مفارقته يتسلّى به عن أخينا الّذي أُكِل». «فائتوني به». «لا نقدر أيّها العزيز». «فمنْ يشهد على صِدْق كلامكم من أهل مصر؟». «إنّنا غرباء هنا أيّها العزيز ولا أحدَ يعرفنا». «فإذًا لزمتْكم». «ماذا؟». «أنْ تأتوا به حتّى أتبيّن صِدْقكم». ونصبَ روبيل صدره: «كلاّ. لا شأنَ لكَ بأخينا». وتغيّرتْ فجأةً لهجةُ يوسف، ونادَى بصوتٍ جادّ على رئيس جنده، وأمر فأُغلِقتْ أبواب القاعة، وشُرعتْ رِماحُ الحرس، ونظر الإخوة حولهم فألفَوا أنفسهم قد حُبِسوا وهُدِّدُوا، ثمّ هتف: «أرأيتَ هؤلاء إنّهم يزعمون أنّهم قدموا من أرضِ كنعان، وأنّ لهم أخًا غيرهم عند أبيهم، وأنا أرى أنّ لسانهم يختلفُ عن لساننا، وهم كثرةٌ تعاضدوا على أنْ يُبرِزوا أنفسهم كأنّهم يتباهَون بقوّتهم، فلعلّهم جواسيس بُعِثَ بهم إلينا ليعرفوا مواضع الأهواء ومقاديرها ويعودوا بها إلى ملكهم فيجرّد علينا سيفَه». فنبر رئيسُ الجند: «هل ألقيكم في الحبس؟». وهتفَ روبيل مُستدرِكًا: «تاالله

إنّنا لَصادِقون؛ ماذا تريدُ أكثرَ من أنّنا عرّفناك نسبَنا وعَدَدْنا حالَنا؟».

«أريدُ أنْ أرى أخاكم حتّى أطمئنّ لحقيقتكم، وأعرفَ صِدْقَ مقالكم». ثُمّ لانتْ لهجتُه: «وإنّني إنْ فعلْتُم سأُكرمكم، وسأُحسِنُ وِفادتكم إكرامًا لأبيكم، وسأسخّر كلّ حَرَسي وجُندي ووزرائي لخدمتكم». ثُمّ خفضَ لهم الرّماح، وفتحَ لهم الأبواب، وصرفهم.

فتولّى أمرَهم أهلُ القصر، فأسكنوهم أحسنَ الغُرَف، وأطعموهم أحسنَ الطّعام، وأولَوهم أحسنَ الرّعاية، حتى دُهِشوا، وتملّكهم العَجَب، ثُمّ لمّا صار وقت توزيع الطّعام، رأوا الجُند يزيدون في المقادير لهم، ويملؤون رِحالهم كلّها فتفيضَ عن جوانبها، وكانوا يكيلون لهم أجودَ القمح، وأعادَ العزيز معهم النّقود الّتي جاؤوا بها ليدفعوها إليه، جعلها في البضاعة لا يعرفون عنها إلاّ حينَ يفتحونها، وقال لهم وهم يهمّون بالرّحيل وقد اغتبطوا: «إنّنا على الوَعْد، إنْ جئتم في المرّة القادمة بأخيكم، فسأعطيكم أضعاف ما أعطيتُكم اليوم». فقال له يهوذا: «سنحاول». فردّ: «المحاولة لا تفي بالغرض». «فماذا ترى؟». «اتركوا أحدكم عندي رهينةً حتّى أضمن عودتكم». «إنّكَ تكلّفنا فوق ما نستطيع». «الكيل بيني وبينكم، إنْ لم تفعلوا فلن أبعثَ معكم حبّة قمحٍ واحدةٍ». فأطرقوا، وهتفَ روبيل: «فلْيكنْ أيّها العزيز. خذني أنا رهينة». ونظر الإخوة بعضُهم في وجوه بعضٍ وعرتْهم دهشةٌ بالغة، وردّ يوسف: «كلا؛ أنتَ عُدْ معهم، ألستَ أكبرهم؟». «بلى». «فلعلّ رأيك يكون نافِعًا لهم. ولكنّني آخذُ هذا رهينةً حتّى تعودوا إليّ ثانيةً». وأشار إلى شمعون. وابتسم شمعون، ونظر في وجوه إخوته، ورأى الحيرة في عيونهم، وهتف: «وأنا قبلْتُ».

(٤٢)
بضاعتُنا رُدّتْ إلينا

وَرَمَلَتِ العِيسُ في الصّحراء، كانتْ تمشي مسرعةً، كأنّ شوقَها إلى أرضِ كنعان يحملها على أنْ تغذّ السّير، وتخفّ الخُطا. وأقبلتْ عليهم نسائمُ فلسطين، إنّ فيها لأنبياء ما يزال عِطرهم يملأ أجواءَها، وينثر الطّيب والمِسك على رِمالها. وقال روبيل: «دعونا نمرّ بالبِئر». فردّ يهوذا: «حتّى تعودَ إلينا مصروعًا؛ لا والله لا يكون». «البِئر يوسف». «البِئر غيابُه». «البِئرُ ذكراه». «البِئرُ حتفُه». «البِئر أخونا». البِئرُ خطيئتُنا». وصرخ روبيل: «أريدُ أنْ أتطهّر من ذنبي بإلقاء نفسي في البِئر ولو لساعة». «أمجنونٌ أنت؛ في البِئر ألقيناه، وإلقاؤه جريرة». «في موضع الصّخرة الّتي أقام عليها بركة، أريدُ أنْ أتبرّك بموضعه، أريدُ أنْ أشمّ رائحته، أنْ ألمسَ طيفه». «هَبِلْت، لا بدّ أنّ الخَرَفَ سرقَ عقلَك، هيّا». وشدّه يهوذا من كتفه، وأردف: «لئن لم تعد قسرتُكَ على ذلك». ومضَوا إلى أبيهم، وزوجاتهم وأطفالهم وذراريهم، وقد كثُر الخير بين أيديهم.

ودخلت القافلة الحيّ، وهزجت النّساء، وصاحَ الأطفال، وعمّتِ الفرحة، وقال يعقوب وهو يتلمّسُهم واحِدًا واحِدًا: «أينَ شمعون؟». «استبْقاه العزيزُ عنده». «استبقاه؟!! لِمَ؟!!». «أراد أنْ يرى أخانا بنيامين، فاستبقى شمعون ليضمنَ عودتنا». واضطرب جفنُ يعقوب، ونظر إلى خيالاتهم تتهادَى ببطء، والتفتَ قلبُه إلى بنيامين الّذي كان

يقف إلى جانبه، فأدار جذعه إليه، ولفّ ذراعَيه عليه كمن يُريد أنْ يحميه من أنْ يُؤخذ منه، وهتف: «كلاّ، لن تأخذوه منّي... ماذا سيتبقّى لي إنْ أخذتموه؟». وهتفَ لاوي: «دعونا الآن نوزّع الغذاء على البيوت، ونخزن الزّائد منه، ونرتاح، ومن ثَمّ يمكن أنْ نتحدّث في الأمر».

وقال يعقوب لبنيامين: «لن يصلوا إليكَ ما دام لي جفنٌ يطرف، إنّني أحسّ النّغمةَ نفسَها الّتي سمعتُها منهم قبل أكثر من أربعين عامًا حينَ قالوا أرسِلْه معنا». وحضنه من جديد، كأنّ ابنه سيُسرَق منه، وقال له: «يا بنيامين، لا تسمع إلاّ لي». فقال: «لبّيك». وقال له: «نم اللّيلة في فِراشي؛ فإنّني أخشى أنْ يغافِلوك وأنا نائمٌ فيحملوك من غدهم إلى حيثُ يريدون فيقتلوني». «كلاّ يا أبي، أنا لن أفارقك». وشدّ يعقوب بيده المُرتجِفة ذات العروق النّافرة، والغضون المُتشعّبة على يد ابنه، وسرى في جسدهما ماءُ الرّحمة. ونام تلك اللّيلة في فراش أبيه.

فلمّا أصبحوا، اجتمعوا ثانية، ونادَوا أباهم فحضر إلى فناء البيوت، وعرضوا عليه ما جاؤوا به من مصر، فإذا العزيز قد بالغَ في إكرامهم، وقال يهوذا، وهو يضع النقود بين يدي أبيه: «انظر يا أبي، لقد أعاد معنا الثّمن الّذي اشترينا به هذه البضاعة، والأَقِط». وتساءَل روبيل: «لماذا أعطانا البِضاعة وأعطانا نقودَنا؟». وضيّق يعقوب عينَيه: «لكي تعودوا إليه بهذه النّقود». وسكتَ قليلاً وهو ينظر في البعيد: «إنّ هذا الرّجل لحكيم». «لقد حَمَلَنا على أحسن ما تكون الضّيافة». وقال أحد الصّغار: «لقد بِتنا في قصره». «لقد أكلْنا في صِحافه». «لقد نِمنا على إستبرقه». وراحوا يُعدّدون كرم العزيز، وانبرى يهوذا ليقول بأرقّ صوتٍ صدر

من حنجرته منذ ليالي البئر الأولى: «ها أنتَ ترى بعينَيك يا أبي، بِضاعتُنا رُدّتْ إلينا، أموالُنا، أقِطُنا، وإنّنا لحريصون على أخينا بنيامين، فأرسِلْه معنا كي نشتري بهذه النّقود بضاعةً جيّدةً، ونقايض بهذا الأقط، ولسوفَ نحفظ أخانا في قلوبنا». «كلاّ، إنّ دمه أهونُ عليكم من دم يوسف». وشهقَ الإخوة، وتودّد إليه يهوذا من جديد: «لا تنسَ يا أبي أنّ أخانا شمعون ما زال مرتهنًا عند العزيز». وتقرّب روبيل إليه: «فنستعيد به أخانا المُرتَهَن». فردّ عليه: «ويأخذ منّي ابني هذا، إذا كان قدري أنْ أفقد أولادي واحِدًا واحِدًا فلن أجعل ذلك يحدث أمام ناظرَيّ وبيدي!!». «يا أبي إنْ جاء معنا أخونا بنيامين، فلسوفَ يبالِغُ العزيز في إكرامنا، وسنعود بقمح يكفي أرضَ كنعان، فنتصدّق به على مَنْ لم يجدْ ما يسدّ به رمقَه». وأطرقَ يعقوب، وصرَفَهم بإشارةٍ منه، وهتف: «اذهبوا واتركوني يومَين أفكّر في الأمر». وقال له بنيامين: «أحبُّ أنْ أرى مصر». وردّ يعقوب: «لقد قال كلمةً شبيهةً بها أخوك، أُحبّ أنْ ألعبَ معهم، وإنّني لأخشى أنْ يسير الزّمن بك إلى فُقدانك كما أفقدني أخاك». «ولكنّ إخوتي تغيّروا». «إنّ الله وحده يعرفُ ما إذا كانوا تغيّروا حقًّا». «ألا ترى إلى صوتِ يهوذا؟». «إنّني لا أثق بصوته، لا تستمع إلى صوتِ أحد، بل استمع إلى فِعله، إنّ فِعل كلّ واحدٍ منّا هو صوتُه الحقيقيّ، صوتُ ندائه الدّاخليّ الّذي لا يستطيع معه التّنكّر له». «كما ترى يا أبي». «نَمْ هذه اللّيلة في فِراشي».

وقال يوسف لشمعون: «فما اسمُ أبيكم؟». فردّ: «يعقوب؟». «فما حالُه اليوم؟». «إنّه لَعَجوزٌ طاعنٌ في السّنّ، أحنتِ الأيّام قوسَه، وثلمتْ سيفَه، قد أكله الحُزن على ابنه يوسف». «ولكنْ؛ قلتَ لي متى وقعتْ

هذه الحادثة؟». «حادثة يوسف؟». «نعم». «قبل أكثر من أربعين عامًا». «أربعين عامًا؟ حَقًّا؟ أَلَمْ ينسَ؟». «كلاّ، إنّه ليزدادُ له تذكّرًا كلّما مرّ الزّمن، كأنّ الحزن يرقّ بالسّنين، ويشفّ بتقادم العمر». وأدار يوسفُ وجهه بعيدًا، وهتف: «وا أبتاه!».

واجتمعوا في بيتِ أبيهم، والتمّ شملُهم حوله، وبدأ يهوذا القول: «فما ترى يا أبي؟». «لن أبعثه معكم، أنا عند رأيي». «ولكنْ، ما نفعل إنْ عُدْنا ولم يَكِلْ لنا، ولا أعادَ لنا أخانا شمعون». «إنّه فعلَ ما فعلَ ليأتي إليه ببنيامين، وماذا يريدُ هذا العزيز منّي ومن بنيامين؟ أنا لن أُريه وجهه ولا وجهي!».

«وماذا لو رأى وجهه؟ إنّ وجه العزيز لعزيز، وإنّ ملكه لعزيز، وإنّه إنْ رأى بنيامين فلعلّ أنْ يكونَ في رؤياه خيرٌ، فيزيد لنا في الكيل، ويُكرِمَ لنا الرّفادة، ويُعيد لنا أخانا المُرتهَن».

وقامَ يعقوب فلوى عنقه، وأرادَ أنْ يُغادر مجلسهم، فتلقّاه روبيل بين يدَيه: «يا أبي، إنّنا عشرة، وإنّنا أبناؤك المُحبّون لك، فلا تدعْ ذكرى أخينا يوسف تصرف عنّا الخير، أنا أكبرُ إخوتي، وأشهدُ أنّهم صدقوا فيما زَعَمُوا، وأنّهم لا يريدون إلاّ الخير والزّيادة فيه، فإنْ كان لي عندكَ بقيّةٌ من حُبّ، أو بقيّة من فضل، فأرسِلْ معنا بنيامين». فلان جسدُ الشّيخ، وقال: «مَنْ يضمنُ لي عودته؟».

فقال روبيل: «الله، ثُمّ أنا». فَلانَ أكثر. «ومَنْ يحميه من الغوائل؟».

فقال يهوذا: «أنا». «ومَنْ يمنع عنه الأذى؟».

فقال لاوي: «أنا». «وَمَنْ يُنسيه الهَمّ إذا اشتجر؟».

فقال نفتالي: «أنا». فقال يعقوب: «وما تقول يا بنيامين؛ هل ستتركني؟».

فقال بنيامين: «أنا لن أتركك يا أبي، ولكنّني إذا فتّشتَ عن قلبي لأُحبّ أنْ أرافقهم في هذه الرّحلة، فإنّ مصر مهوى الأفئدة اليوم، وإنّني لمتشوّفٌ أنْ أراها». فلانَ أكثر، وأَجْلَسهم في مقاعدهم، وجلسَ إلى مقعده، وعن يمينه روبيل، وعن يساره بنيامين، وهتف: «ردّدوا خلفي» فتأهّبوا: «لقد عاهدْنا أبانا أنْ نحمي بنيامين، وندافع عنه بأرواحنا، ونفتديه بأنفسنا، وألاّ نتخلّى عنه، إلاّ إذا مِتنا بين يديه، أو هلكْنا دونه، أو غُلِبْنا في معركةٍ لم نكنْ أكفياء لها، وعلى هذا أخذَ أبونا منّا عهدَ الله وميثاقَه».

فردّدوا الوعدَ خلفه كلمةً كلمةً وحرفًا حرفًا. ثُمّ جمعوا أيديهم إلى يَديه، وشدّوا عليها، وأعطَوا على ذلك عهدهم!

ونظر يعقوب في وجوههم، وكان قد رقدَ وجعُه بوجودهم حوله، وأحسّ أنّ النهايات أقربَ مِمّا يظنّ، وأراد أنْ يُفرِغ ما في قلبه مرّة واحدة: «يا بنيّ؛ عشتم معي كلّ هذا، ورأيتم ما كان وما صار، وصنع الله على أيديكم ما لم يكنْ يحلم به لِداتكم من أبناء النّاس، وابتلاني وابتلاكم، واطّلع على سرائركم فما خفي عليه منها شيءٌ، وغدًا أنتم صائرون معي بين يديه، فما يدفع عن المرء إلاّ حُسن نيّته، وصفاء سريرته، أيّها السّاكنون فِيّ، كنتم جِدارًا يستعصي على النّاقب فلا يكن النّاقب منكم. ويدًا لا يكسرها إلاّ عدوّ، فلا يكن الكاسر منكم. وظهرًا لا ينوء ولو حُمّل أثقال الدُّنيا كلّها ولا ينحني، فلا يكن الحاني منكم!! يا

بنيّ؛ إنّه لن يزول من نفسي على يوسف شيءٌ حتّى أراه، فلا تلوموني على كثرة ذِكري إيّاه، فإنّ العين بالنّور تُبصِر، وإنّ القلبَ بالدّم يجري، وإنّ الرّوح بالسّكينة تحيا، ووالله – وافعلوا ما بدا لكم – إنّه نور عيني، ودم قلبي، وسكينة روحي، ومَنْ لِيمَ فيما لا يملك فقد ظُلِم!! يا بنيّ: إنّما أنتم بضعةٌ منّي، سَتَقْدُمون مصر، وإنّ أهلها ليسوا منها، وإنّهم أخلاطٌ، هَوَوْا إليها من كلّ صِقْعٍ وبُقعة، وإنّ فيهم ذا العين، وذا الحسد، ومن فرغ قلبُه إلاّ من مراقبةِ النّاس، وإنّ فيهم السّحرة، وفيهم أهل الخطيفة، يخطفون اللّبّ بمعسول الكلام، وإنّ فيهم النّساء الغاويات، وإنّ فيهم من أجناس النّاس ما تعلمون وما لا تعلمون، فإذا صرتم إليها فاحفظوا أنفسكم، فإنّ الغريبَ تتخطّفه الأعين، وإذا دخلْتم قصر العزيز فلا تدخلوا من الباب الّذي يدخل هو منه، فإنّ عيون الجُند والحرس تقنص الطّير في سمائه، ولا تدخلوا من بابٍ واحدٍ، وأنتم عشرةُ رجالٍ أشدّاء فادخلوا من أبوابٍ متفرّقة، وإنّني أقول ذلك لأنّني أجدُ أنّ في الجماعة كلّ الخير إلاّ في هذا، ولا تنسَوا أنّ لكم أبًا أحنت السّنون ظهره، وقضم فمُ الدّهر عُمره، وأنشبتْ يدُ السنين نابَها في قلبِه، فلا تُبطِئوا العودة إليّ، فإنّ فراق الأب أبناءَه مُرّ، وإنّني لم يعد لي بالمزيد منه، فعجّلوا عودتكم، وبرّدوا فؤاد أبيكم بالبُشرَى...». وبكى. وقامَ إليهم فاحتضنهم واحِدًا واحِدًا، ثُمّ استبقَى عنده بنيامين، وقال له: «نَمْ هذه اللّيلة في فِراشي، فإنّني أشعر أنّها ستكون الأخيرة».

وعلا نشيجُه. واحتضنه بنيامين، وهدّأ من رجفة جسده: «سنحاول أنْ نعودَ سريعًا». ورجاه أبوه: «اذكرْني في دعوتك؛ فإنّني يا بُنيّ قد هرمْتُ حتّى لم أعدْ قادرًا على أنْ أحمل كلّ هذا».

وفي الصّباح ودّعهم، وسار معهم إلى أطراف الحيّ، وقال قبل أنْ يُفارِقوه لروبيل: «إنّ عهد الله غليظ، وإنّ الإنسان كان عنه مسؤولاً، فإيّاكَ وإخوتكَ أنْ تحنثوا به».

فأعطاه روبيل الوعد على ذلك، وساروا، فلمّا غابوا عن عينَيه، أظلمَ فيهما كلّ شيءٍ. وتهدّى الطّريق إلى الحيّ، وقادتْه (لِيا) وهو يتّكئ عليها، وبَدَوَا غريبَين قادَمين من بلادٍ بعيدةٍ قد نثرَ غُبار السّفر بياضَه على كلّ شبرٍ من جسدَيهما المَحنِيَّيْن!

(٤٣)
يُسترقّ منْ سَرَق

ودخلوا مصر من أبوابها الأربعة، ومصر يومئذٍ تفتح ذراعَيها لكلّ جائع، وتمهّد الدرب لكلّ محزون، وتأخذ بيد الضّعيف، وتحنو على ذي الفاقة. وهالَ بنيامين ما يرى من كثرة النّاس، وتألّبهم، واجتماعهم في الأسواق. ورأى العَرَبات المُذهّبة، والخيول المُسرَجة الّتي تتقدّم المواكب، والحوذيّ الّذي يصنع من إيقاع العجلات على الطّرق المرصوفة مع صوته أنغامًا حلوة. وخطفتْ عينَيه الأبنيةُ المُشيّدة العالية، والأعمدة الرّاسخة، والنّقوش البهيجة، والألوان الزّاهية، ولمعتْ صحراء أرضِ كنعان في خياله، والآفاق الممتدّة لا يقومُ فوقها شيءٌ فَدَهِش!!

وقال يهوذا: «إنّ العزيز لغريب». فردّ روبيل: «وما الغريبُ فيه؟». «أكرمنا في المرّة السّابقة إكرامًا يبعثُ على الحيرة؟». «إنّ الكريم إذا أعطى فلا يَسْأل». «ولكنّه أخذ أخانا شمعون». «أحبّنا». «أحبّنا ونحن لم نبتْ عنده إلاّ ليلة». «إنّما الحبّ نظرة». «دَعْكَ من هذه التّرّهات يا أخي. هل أذن لنا الحاجبُ بالدّخول عليه؟». «إنّه ينتظرنا مُذ غادرْناه في المرّة الأولى». «إنّنا لسنا بُغيتَه على ما يبدو!». «فما بُغيته؟». «بنيامين... ولكنّني أتساءَل لماذا أصرّ على أنْ نأتيه به؟!». «لقد قلتَ إنّه غريب». «هو كذلك؛ ليسَ لدينا النّهار بطوله يا أخي، فهلمّ بنا نستأذن حاجبه».

ودخلوا على العزيز، وكان ينتظرهم وقد وضع التّاج، وجلسَ على العرش، ولبسَ أغلى الثّياب، وشذّب ذقنه، ورجّل جُمّته، وأرسلَ نحوهم نَظَراتِه الفاحصة يرقبُهم وهو مضطرب الجَنان، صوتٌ ما في أعماقه يقول له: «كيفَ تصبر على رؤية بنيامين دون أنْ تحضنه بكلّ أشواق السّنين الأربعين الماضِيات؟». وقَلْقَله اضطرابُ هذه المضغة في صدره، ووضعَ يده ليقول له: «لم يدخل بعدُ فأجّلْ هذا القلق إلى حينه». وبدؤوا يظهرون من الباب، ونَظَرُه مُنصَبٌّ عليهم يبحثُ فيهم عنه، ودخل روبيل، دخل الأكبر، وخفقَ له جَنانه، ثُمّ دخل يهوذا، فرمقه وهو يستعيدُ ذكرياتٍ لم تمحُها طعناتُ السّنين، ثُمّ دخل لاوي، ثُمّ الأصغر فالأصغر، فعلمَ أنّ بنيامين سيكونُ آخرَهم دخولاً، فَعَبَرَتْهم نظراتُه كما يعبرُ الخَيال مشاهد متتابعة بصورها دون النّظر إلى ألوانها، ثُمّ توقّف المشهد عند الصّورة الأخيرة، إنّه هو، ها هو أخوه، ها هو شقيقه، ها هو الّذي كانوا يقولون إنّه أشبههم به، ها هو الّذي جعله أبوه عِوضَه، ولمّا عبرَ الباب بخطواتٍ وئيدة ينظرُ صوبَ العزيز مندهشًا، انخلعَ له قلبُ يوسف، وشعرَ بأنّه يكاد ينفطر، فلم يحتمل الجلوس، فوقفَ على قدَمَيه، وحانتْ من بنيامين نظرةٌ نحو أخيه، والتقتْ عيناهما، فغاصَ فيهما، إنّ هاتين العينَين ودودَتان، لقد رآهما من قبلُ لكنّه لا يدري أين، ولا متى. إنّه متأكّدٌ تمامًا من أنّه رآهما، ولكنّ ذاكرتَه خانتْه، وغاصَ أكثر فيهما، وعاد بالزّمن سريعًا إلى الوراء، سريعًا كلمعِ شهابٍ خاطفٍ، وعبرَ آلافَ العيون، وتجاوزَها كلّها، حتّى اصطدمَ بهما، عَرَفَهما!! أمعقولٌ أنهما عيناه؟! كيفَ يُمكن أنْ تكونا له وذلك الّذي كانتا له غابَ في الجبّ ولم يعرفْ له أحدٌ بعدَ الجُبّ خبرًا؟! وسأل نفسه:

وافْرِضْ أنّهما له، فهل يمكن أنْ يتحوّل فقيرٌ إلى مَلِك، وشريدٌ إلى عزيز؟ كلاّ. ولكنْ أين أهربُ منهما؟! وتذكّر مشهد اللّيلة الّتي قال له فيها: «عندما ستكبر ستعرفُ كلّ شيءٍ». أمّا العزيز فقد تخيّل نظرته الأخيرة إليه يومئذٍ، وقابلَ بها نظرته اليوم فداخ، وأحسّ بالدّوار، ومال جسدُه، وكاد يسقط لولا أنّه اتّكأ على أحد الأعمدة، وتنفّس عميقًا ليستعيدَ توازنه، ووقف من جديد، وهتف يهوذا: «ها قد جِئناكَ به». ولم يسمعْه، لأنّه كان عنه في شُغُل، وقال له روبيل: «لقد وفينا بوعدنا» ولم يسمعْه هو الآخَر. وهتف لاوي: «يجلس معك يومًا أو اثنين، ثُمّ يعود معنا، إنّ أباه لا يحتمل غيابه الطّويل». وقال نفتالي: «أينَ شمعون؟». وقال يشجر: «أيّها العزيز». وصفّق دان بيديه، لم يسمعْ أيًّا منهم، كان في عالمٍ آخر، ولكنّ يهوذا هذه المرّة صرخ بصوتٍ عالٍ: «أيّها العزيز هل تسمعنا؟». وانتبه يوسف على صُراخ يهوذا، وأشار للحرس بأنْ يُقرّبوا إليه بنيامين، واقتربَ بنيامين من العزيز، فلمّا صار قريبًا جدًّا منه هَمّ يوسف بأن يهوي فيحضنه، ويُقبّل وجهه ورأسه ويبكي، ولكنّه نظرَ في عينَيه، وقال له: «أنتَ بنيامين؟». فردّ: «نعم». «إنّكَ لم تتغيّر كثيرًا». «هل تعرفني أيّها العزيز؟». «إنّكَ وسيمٌ». واضطربَ بنيامين، وراوَدَتْه خيالات اللّيلة إيّاها، ولكنّه لم يكنْ قادِرًا على التّصديق.

وهتفَ يوسف برئيس الخدم: «إن لدينا ضيوفًا أعزّاء، فأكرِموهم. هيا اذبحوا لنا بقرةً، وأعدّوها شواء، ثم جهزوا لنا المائدة وقت الظّهيرة». وتهامَسَ الإخوة: «لا بُدّ أنْ في قلب الملك شيئًا، إنّه لمن الصّعب أنْ تتنبّأ بما في قلبِ ملك!».

وامتدّت المائدة في طول القاعة، ونُضّد عليها الطّعام والشّراب، وكانت الكراسيّ حولها اثنَي عشر كُرسيًّا، ستّة من كلّ جهة، فأقبلَ عليهم العزيز فدعاهم إلى طَعامه، فجلسَ كلّ واحدٍ من العشرة إلى أخيه، وجلسَ بنيامين وحده، والكرسيّ الّذي يُقابِله فارِغًا، وهمسَ يهوذا: «على ابن راحيل أنْ يكون منبوذًا». وهمسَ بنيامين: «لو كان أخي يوسفُ حيًّا لجلسَ قبالتي». ودمعتْ عيناه. وأقبلَ العزيز على الكرسيّ الفارغ، فقال لبنيامين: «أليسَ لكَ أخٌ يجلسُ قُبالَتك؟». «لقد كان». وصمت. وبادرَ الملك: «فهل تسمح لي أنْ أجلسَ أنا مكانه؟». «وهل معقول أنْ يستأذنني الملك؟ بالطّبع!». وجلسَ العزيز في الكرسيّ، وانشغلَ كلّ واحدٍ من العشرة بطعامه، وسرحَ بنيامين في خيالاته، وأحزنه ألاّ يكون إليه أخٌ يُحادثه كما يفعل بقيّة إخوته. وقال الملك له: «لماذا لا تأكل؟ ألم يُعجِبْك الطّعام؟». وانتبه بنيامين من شروده، وهتف: «كلاّ... كلاّ... إنّه شهيّ». وقدّم له الملك شيئًا من الطّعام بيده فخجل، وقال الملك: «قال إخوتُك إنّ أخاكَ الشّقيق قد أكله الذّئب؟ هل هذا صحيح؟». «مَنْ يدري، هم رَوَوا ذلك إلى أبي». «وأبوك؟ هل صدّقهم؟». «كَلاّ». «وأنتَ؟». «لا أدري، أحسّ أنّه ما زال حَيًّا». «حَيًّا في بطن الذّئب؟». «لا أدري». «ولكنْ هل تتذكّره؟». «يوسف؟». «نعم». «قليلاً؛ خيالات تظهر وتختفي، وتغيبُ أكثر مِمّا تحضر». «ماذا تتذكّر منه؟». وصمتَ بنيامين طويلاً، واستعادَ صورةَ أخيه، عينَيه الدّعجاوَين، شَعره الكثّ الأسود، وجهه البدريّ، وشامَته الّتي تحتَ جفنه الأيمن، وغابتْ معظم الصّور وبقيت الشّامة، وقال بعد تردّد: «أكثر ما أتذكّره منه شامةٌ سوداء كانتْ تستقرّ تحت جفنه». فابتسم

العزيز، ومال بجذعه إلى الأمام نحو بنيامين، وقال بصوتٍ لا يسمعه سِواه: «أهي مثلُ هذه؟». ونظر بنيامين إلى وجه العزيز، وشهق، وراحَ صدره يعلو ويهبط، وسارع العزيز بوضع يده على فم بنيامين: «لا تقلْ شيئًا، إنّه ليسَ أنا!!». وعادَ إلى مجلسه الطّبيعيّ، ونادَى كبير الخدم، وهتفَ به: «اسقِ العِطاش».

وقاموا جميعًا من عنده ينتظرون أنْ يكيلَ خدم العزيز لهم في أحمالهم ما جاؤوا من أجله. وقال يهوذا لشمعون: «كيفَ كانتْ إقامتك هنا؟!». «حُبِسْتُ في النّعيم». وضحك. وأردفَ يهوذا: «ألمْ تُلاحِظْ شيئًا ونحن على مائدة الغداء؟». «مَنْ لم يُلاحِظْ». «لقد جلسَ العزيزُ قُبالةَ بنيامين، وكان يهمسُ في أذنه كأنّه صديقُه الحميم! لماذا أبناء راحيل دائمًا لهم الحُظوة عند الأنبياء والملوك؟!».

وقال المَلِك: «بِيْتُوا اللّيلة عندي، واجعلوا في الصّباح رحيلَكم». وباتوا ليلتَهم تلك، وقال: «اثنان... اثنان... في كلّ غرفةٍ... قد جُهِّزَتْ». وفعل الأشقّاء ما فعلوا، فاختار كلٌّ واحدٍ منهم شقيقًا لينام معه في الغرفة ذاتها، وقال بنيامين ليهوذا: «نَمْ في غرفتي». ونظر إليه يهوذا ساخِرًا: «أنا؟! كلاّ، بل ادعُ أخاك يوسف ليبيتَ معك، ألا يكفيكَ جلوسَ الملك ونجواه معك في الغداء!». ومضى. وأووا إلى فُرُشِهم. وطرق الملك باب الغرفة، وقال بنيامين: «مَنْ؟». فردّ: «أنا الملك». وفزّ بنيامين من فِراشه: «أيستأذن الملك الدّخول على عَبدٍ من عبيده؟». وفتح الملك الباب: «أردتُ أنْ أطمئنّ عليك». وجال بنظره في الغُرفة وهتف: «أنتَ وحدكَ كما يبدو!». «لم يقبلْ يهوذا أنْ يبيت معي». «هل

هو قاسٍ على أخيه الأصغر دائمًا؟!». وردّ بينامين: «لو كان أخي يوسفُ حَيًّا لباتَ معي، ولكنْ أينَ أنا من يوسف؟». وتراجع العزيز إلى الوراء، وأدار ظهره، ودارَى دُموعه، ثُمّ مسحها، وعادَ بوجهه إلى بنيامين، وقال: «فأنا أبيتُ معكَ اللّيلة؛ هل تقبل أنْ أكونَ أخاك بدلاً من أخيكَ يوسف؟!». وبكى بنيامين، وهتف: «ومن يجدُ أخًا مثلك، ولكنْ لم يَلِدْكَ يعقوب، ولا راحيل». وعانقه الملك وقال: «لعلّ الله يجمعكَ به». وقبلَ أنْ يولَد الفجر كان الملك قد صنعَ ما اللهّ صانِع!

وقبلَ أنْ تعلن الشّمسُ عن رأدِ الضُّحى، كان الأحدَ عشر أخًا، قد ساقوا عِيْرَهم ومِيْرَتهم، وهَمّو بالرّحيل من أرضِ مصر، وهم يحملون أجمل الذّكرى عن مَلِكها، وأهلها، وتضجّ قلوبهم بالفَرَحِ والأمل؛ وَلِمَ لا؟ ومَنْ عادَ بالطّعام للجائعين فقد عادَ للموتى بالحياة!!

وقال روبيل: «أيّها الرّكب.. شدّوا». وهتفَ يهوذا وهو يضربُ أكفال الإبل: «هيّا إلى أرضِ كنعان، إنّ الأرضَ لتشاقُ لنا». وغَذَّت القافلة الصّغيرة الخُطا، وما كادتْ تسيرُ قليلاً، حتّى هتفَ رئيس الجند: «توقّفوا توقّفوا... أيّها اللّصوص». والتفتَ الإخوة حولَهم، وظنّوا أنّه يُخاطِبُ سِواهم، لكنّه لم يكنْ في الدّرب المتوجّهة إلى فلسطينَ غيرُهم، وجاءهم الصّوت منذرًا: «أيّها اللّصوص، إلى أينَ تذهبون؟». وركضَ عَشَرات الحرس، وأحاطوا بالقافلة، وأشار روبيل إلى إخوته أنْ يقفوا. وأقبلَ على رئيس الجند: «يا عاليَ المقام، ماذا حدث؟». «لقد سرقتُم». «نحنُ؟». «نعم، سرقْتُم صُواع الملك الفضّيّ». وضحكَ روبيل وإخوته في أعماقهم، وهتف: «نحن أبناء نبيّ، ولا نسرق، وما جِئنا إلاّ لغاية

العودة إلى أهلنا بالطّعام، وقد دفعْنا ثمنَ ما اشترَيْنا». وهتفَ صوتٌ آخَر، كان يركضُ من جهة القَصْر وصلَ على حِصانه لاهِثًا: «إنّ الملك يقول إنّه مَنْ يأتي بالصّواع فله بعيرٌ كاملٌ مُحمّل بالقمح». وهتفَ روبيل من جديد: «نحن لسنا لصوصًا، نحن كِرامٌ من كِرام». ووصل الملك في تلك اللّحظة، وركعَ له رئيس الجُند والحرس، وسمع قولة روبيل الأخيرة: «لسنا لصوصًا؟». وكان قد اجتمع عددٌ كبيرٌ من النّاس على الهياج الّذي حدث، وتلفّت الإخوة حولهم فرأوا جمهرةً من النّاسِ تراقبُ وتسمع، وهالَهم أنْ تكون عيونهم تنظر إليهم مُتّهمةً إيّاهم، مُستنكرةً فِعلَهم. وسمعوا رئيس أحد القوافل الّتي شهدت الجلبة، يقول لهم: «ألستم العبرانيّين الّذين أكرمهم الملك وفضّلهم علينا، أهذا جَزاء الإحسان، تسرقونه؟». وعمّ اللّغط، وقال صوتٌ ثانٍ: «لا يسرقُ إلاّ لئيم». وثالث: «مَدُّوا أيديهم بالسّوء إلى مَنْ مَدّها لهم بالخير». ورابع: «نُكران الجميل لا يليقُ بالرّجال». وتتابعتِ الأصوات، ورفع يهوذا يده في وجوهم، وصرخ بصوتٍ ملأ الفضاء: «اخرسوا أيّتها الجِراء العاوية... نحن لم نسرقْ، والّذي اتّهمنا بالسّرقة عليه أنْ يُقدّم الدّليل». وقال الملك: «فإنّ ثبتَتْ عليكم السّرقة». فردّ يهوذا بكلّ ثقة: «فاسترقّ السّارق ليكون عبدَكَ الذّليل، فهذا جزاؤه، ونحن لن نرحمه». وهتف الملك: «إذًا علينا تفتيشَكم». وردّ يهوذا: «فلْتَفْعلْ؛ نحن لا نخشى شيئًا، والواثق من نفسه لا شيءَ عنده ليُخفيه». وقال رئيس الجُند: «أأُفتّشهم أنا يا مولاي؟». وردّ العزيز: «كلاّ، أنا سأفعل ذلك بنفسي».

وبدأ بوعاء الأخ الأكبر روبيل، وأفرغَ جوالقه على الأرض فراحَ

القمح ينثال فيختلطُ بالرّمل، وركضَ يهوذا على القمح يتلقّفه، وقال الملك: لا تخشَ، سأملأ لكم الجوالق بقمحٍ أجودَ من هذا، وألقى الملك نظرة فاحصةً على القمح المصبوب على الأرض، وهتف: «الأكبر بريء». وثنّى بيهوذا، وراقبَه يهوذا بعينَين مُتحدّيتين، ورفعَ الملك الجُوالق الفارغ بيدَيه ونفضه، وهتفَ يهوذا في نفسه: «ماذا؟ هل تفتّش عن الصُّواع في تلافيف الخيش؟ هل الصّواع حبّة قمح؟!». والتقتْ عينا يهوذا بعينَي الملك، ولمح الملك فيهما انتِصارًا وتشفّيًا. ثُمّ ثلّثَ بِلاوي، وهكذا واحِدًا واحِدًا، ينسكب القمح، بحبّاته على التّراب، ولا أثرَ لِصُواعِ الملك، ولم يبقَ إلاّ جوالق بِنيامين، وتوقّف الملك عنده، ولم يفتحْه، وقال وهو يزمّ شفتَيه كمن أيقنَ بالهزيمة: «لا أظنّ أنّ أصغركم هذا فَعَلَها، يبدو أنّكم بريئون من التّهمة الّتي أُسنِدَتْ إليكم». ولكنّ يهوذا، تقدّم من الملك وقال: «لِمَ لا تُفتّش جُوالقه؟ نحن نريدُ منك أنْ تفعلَ ذلك». «كلاّ، سأجعل جنودي يُوقِفون بقيّة القوافل للتّفتيش عن الصّواع في جُواليقهم». «أنا مُصرٌّ أنْ تفتّش جُوالق بنيامين، حتّى لا يقول أحدٌ من إخوتي، أو من العابرين، أو مِمّن شهدوا هذه الهيعة أنّكَ تُحابيه، ثُمّ حتّى لا يبقى في صدركَ مِقدار ذرّةٍ من شَكٍّ في براءتنا من التُّهمة الظّالمة الّتي ألصقتموها بنا». فقال الملك: «لكَ ذلك»، ثُمّ حمل الجُوالق إلى منتصف حلقة النّاس، ليشهدوا على الأمر، ثُمّ فتَحه، ورفعه رويدًا، وكَبّ ما فيه، فإذا الصُّواع الفضّيّ يلمع على ضوء الشّمس، وصُعِقَ بينامين، وصُعِقَ روبيل، وصُعِقَ يهوذا، وصُعِقَ الإخوة، وصُعِقَ بقيّة النّاس، وقال الملك: «فماذا تقول في هذا يا يهوذا؟». ولم ينبسْ يهوذا بكلمة، ونظرَ في عينَي بنيامين غيرَ مُصدّق، وأرادَ أنْ يقول له: «لم أكنْ

أعرفُ أنّكَ لصّ، لو كنتُ أعرفُ ذلك لحبستُكَ في غرفتي حتّى لا تأتي بأيّة رِيبة». ورفع الملك الصّواع فتلألأ، وقال للنّاس: «ها هو الصّواع لقد وجدْناه في جُوالِق هذا الفتى العبرانيّ الّذي يُدعَى بنيامين». ثُمّ توجّه إلى إخوته بالسّؤال: «فما جزاء السّارق؟». لكنّ أحدًا منهم لم يُجِب. وتابع العزيز: «جزاؤه العبوديّة كما أقررْتُم قبلَ قليلٌ». ونظر الملك في عيونهم جميعًا، وتوقّف عند عينَي يهوذا اللّتَين كانتا تنظران من طَرْفٍ خفيّ، وهو ينغض رأسه، ثُمّ رفع يهوذا رأسه ببطءٍ نحو الملك، وأراد أنْ يصفعَ أخاه أمامه، لكنّه بلع ريقه، واستعاضَ عن ذلك بمخاطبة الملك: «والله ما كانت السّرقةُ غريبةً عليه، إنّ أخاه يوسفَ من قبلُ قد سرق». واستنكر الملك: «أخاه يوسف؟». «نعم». «فماذا سرق؟». «سرقَ حِزامَ جدّه إسحق». «إنّكم لشرّ أهل الأرض على ما يبدو، تسرقون وتُنكِرون، وتُعطَون فلا تشكرون، وتأكلون ولا تشبعون». وأشاحَ بوجهه مُغضبًا، ثمّ هتفَ برئيس الجند: «أيّها القائد خُذْ هذا إلى القصر، وألحِقه بالخِدمة مع العبيد». واقتربَ منه رئيس الجُند فأجفل، فرفع الملك يده: «انتظر، يبدو أنّه لم يعتدْ على حياة العبودية، أريد أن أُطمْئِنه». واقتربَ منه، ودون أنْ يَسمعَها أحد، قال له: «إنّي أنا أخوك، فلا تحزنْ». ونظرَ بنيامين في عينَي الملك، وهتف: «إنّهما عيناك». وهزّ الملك رأسه موافقًا. وتلمّس بنيامين الشّامة تحت جفن الملك، وهتف: «إنّها شامتك». فهزّ رأسه أيضًا، وقال بنيامين للملك: «عندما أكبر سأعرف». وهزّ الملك رأسه للمرّة الثّالثة، وانكبّ بنيامين على الملك فاعتنقه، وبكى، وقال يوسف: «إنّه يبكي لأنّه سيصير في خدمتي، لا بأس، إنّه صغيرٌ، وليس له بالرّقّ عهد». ومضى الملك ببنيامين إلى

القصر، وقال الملك لجُنده: «أعيدوا لهم القمح مُضاعفًا».

وما كاد الملك يَقفِل، حتّى ناداه وربيل: «أيّها الملك... أيّها الملك». وتوقفَ الموكب، واستدار الملك بعربته: «ماذا هنالك يا روبيل؟». واقتربَ روبيل منه، وجثا على رُكبتَيه، وتوسّل إلى الملك: «خُذْ أحدنا مكانه». «كلاّ». «أنا أَقدرُ على الخِدمة منه؛ خُذني مكانه». «كلاّ، لا نأخذ إلاّ مَنْ وجدنا الصُّواع في رَحْلِه». «أيّها العزيز إنّكَ لكريم، وإنّ إحسانَك قد بلغَ من الكمال حتّى سمع به أهل الأرضِ فلا تَسُؤنا في أخينا هذا». وهتف الملك من جديد: «كلاّ، لن أكون ظالِمًا، إنّ من كمال الإحسان أنْ أحكم بالعدل فلا آخذ في صَكّ العبوديّة مَنْ لم يسرق، إنّما الجزاء يقع على السّارق». وجثا يهوذا بجانب أخيه: «نتوسّل إليكَ أيّها العزيز، إنّ أباه شيخٌ كبيرٌ». «كلاّ». «إنّ أباه سينحدر إلى الموت لو علم أنّنا لم نعدْ به». ولم يقبل الملك، ودفنَ يهوذا رأسه في الرّمال، وجثا شمعون بجانب أخويه: «سامِحْنا أيّها الملك، إنّنا مُقرّون بذنبنا، معترفون بخطيئتنا، فهب لنا أخانا، وخُذْ من تشاءُ منّا، بل خُذ نصفَنا مكانه إنْ شِئت، لكنْ أعدْه إلى أبيه، فإنّ قلبَ أبيه الشّيخ لن يحتمل». «كلاّ لن أكون عادِلاً كلّ السّنوات السّابقات، وأظلم اليوم. يُسترَقّ مَنْ سَرَق». وجثا لاوي: «بحقّ الله الّذي جعلَ لكَ كلّ هذا السّلطان. ارحمْ ضَعفَ أبيه». «كلا». وجَثَوا جميعًا على رُكَبِهم أمامه، وهتفوا بصوتٍ واحدٍ: «بقي لنا رجاءٌ أخيرٌ وأملٌ في عطفكم، اسأله، اسألْ بنيامين إنْ كان يقبلُ أنْ نفديه بواحد منّا، ويعود هو إلى أبيه سالمًا آمنًا غانمًا». ونظر يوسف في وجوههم وقد ركعوا أمامه عن بَكْرتهم، وأراد أنْ يُعطيهم ظهره، ويأمر جنده بطردهم، لكنّه تراجع، وهتف: «سأفعل، إنّها فرصتكم الأخيرة،

ولن أسمع منكم بعدها كلمةً واحدة في الأمر، سأخيّره بين أنْ يعود إلى قصري عبدًا، أو يعود معكم إلى أبيه حُرًّا». فقالوا كلّهم: «قبلْنا... قبلْنا...». وقال لهم: «قفوا». فوقفوا. وقال له: «قف في مواجهتهم». فوقف. وقال لهم الآن أسأله، والآن نسمعه، واقتربَ الملك من بنيامين، وسأله: «يا بنيامين إنّ هؤلاء إخوتك قدموا من بلادٍ بعيدةٍ، وإنّهم عائدون اليوم إلى أبيهم في أرضِ كنعان، وإنّه جرى في قانونهم أنّ السّارق يُستعبَد عند مَنْ سَرَقَ منه، وإنّني عفوتُ عنك في هذا، وأُخيّرك، بين أنْ تختار جِوراهم أو تختار جواري؟». وسكت الملك، وسكتَ كلّ مَنْ في المكان، وخمدتْ حتّى حركة الطّيور في السّماء المُظِلّة لهم، وتوقّفتْ حتّى الرّياح عن الجريان في الأجواء المُحيطة بهم، وأرهفتْ القلوب الشّاهدة في الموقف آذانَها، لتسمع ما سيقوله بنيامين، ونظر الأخ الأصغر في وجوه إخوته، فتوسّلتْ إليه عيونُهم ورموشُهم ولِحاهم، وغُضونهم، وقلوبُهم، وكلّ شيءٍ فيهم. ثُمّ دار بوجهه إلى الملك، وابتسم ابتسامة هادِئةً، قبل أنْ يقول: «بل أختار جِواركَ أيّها الملك». ونزلت الكلمات على إخوته كالصّاعقة. وأُغمِيَ على روبيل، وأسنده أحد إخوته قبل أنْ يسقط، وغامت الدّنيا في وجوههم جميعًا، وحاولوا أنْ يفتّشوا في قَرار أخيهم على ما يُمكن أنْ يكون خِلافًا لِما سَمِعوه، فلم يعثروا على ما يُريدون، وأُسقِطَ في أيديهم، وهتفَ العزيز وهو يبتسم، وفرحة الانتصار قد أشرقتْ على وجهه: «الآن لم يعدْ لكم من الأمر شيءٍ، هيّا عودوا برحالكم إلى دِياركم».

(٤٤)
لو حفظتَ لسانَك لحفظتَ أخاك

وسارت القافلة ذاهلة، يُخيّم عليها الوجوم، وينقر قلبَها طائر الحُزن، وما كادوا يقطعون شيئًا من الأرض حتّى طلبَ منهم روبيل أنْ يمكثوا قليلاً للتّشاور. وأوقفوا العِيْر، وأناخوها، وجَمَعَهم، ثُمّ قال: «إنّنا لَنُهلِك أنفسَنا ونُهلِك أبانا». ثُمّ عرفوا في صوته الغضب، فصاح: «كيفَ رضينا على أنفسنا أنْ يأخذ أخانا أمام أعيننا ونحن ننظر إليه». وزفر، ثُمّ أخذ صدره يرتجّ ثُمّ علتْهُ سَوْرَةُ الغضب، حتّى اقشعرّ لها جسدُه، فنبزتْ شعراتُ صدره كأنّها المَسالّ. فلمّا رأى أخوه يهوذا ذلك منه، أصابَه ما أصابَه، ومَسّه طائفٌ من الغضب، فانتفخ له صدره ووقفَ له شَعْرُ رأسه، وصرخ: «نحن أبناء يعقوب، لا يُلعَب بنا كالدُّمى، وإنّنا لأشدّ النّاس بأسًا، وإنّ النّاس لا تدري ما لنا من قُوّة، ولنُهيّجن عليهم شُواظَ النّار حتّى نحرقهم، ولنهدمنّها فوقَ رؤوسهم أو يعودَ أخونا معنا». وتملّكهم غضبٌ لا يُحدّ، فاهتاجوا كلّهم، وقال يهوذا لإخوته: «إذا كَفَيتموني المَلِك ومَنْ معه أكفكم أهل مِصر كلّهم، أو اكفوني أهل مصر أكفكم الملك وجُندَه». فقالوا له: «بل اكفِنا الملك وحَرَسه نكفِكَ أهل مصر». واكتَروا خانًا يربطون فيه عِيْرَهم، ورجعوا إلى مصر، وعرفوا أنّ أسواقَها تسع، فوزّعوا أنفسهم على الأسواق لِيُقاتِلوا حرسَ الملك وجُندَه وحاشيته ومن وقف مع مُسترِقّ أخيهم.

وذهبَ يهوذا إلى الملك، فأذن له، فقال: «أيّها الملك؛ لَئِنْ لم تُعِدْ لنا أخانا الّذي سَرَقْتَه لأصيحنّ صيحةً لا يبقَى لكَ رُكنٌ في هذا القصر إلاّ انهدم، ولا حاملٌ فيه إلاّ أسقطتْ». وقال يوسف: «إنّكَ لرجلٌ لا تَعِي ما تقول، ولئن غرّكَ بأسُك فلقد غدر بكَ جهلُك». فغضبَ يهوذا، ونفرتْ شعرات صدره كأنّها الإبر، ومشى إليه الملك، فأخذ بيده، وشدّ عليها فلواها، وضربه بجُمع يده على صدره فطرحه أرضًا، فدُهِش يهوذا، وهتفَ في نفسه: «لا تكونُ قُوّة كهذه إلاّ في نسلِنا؛ فمن يكون هذا الملك؟ أفيه مِنّا خَلّة؟!». ونهض، وغادر على عجل القصر، والتقى إخوته يهمّون بالدّخول إلى الأسواق ليُذعروا أهلها، ويُحدِثوا في الأسواق حدثًا يثأرون به لأخذ أخيهم منهم، فصاح بهم: «عودوا إلى دياركم، فوالله إنّ في قصر الملك لخيطًا مُتّصلاً بإبراهيم، وإنّنا لن نقدر عليهم ما دام فيهم هذا الملك. عودوا إلى أبيكم وأنبِئوه النّبأ فانظروا ما يقول». وثَنَوا سواعدهم، وأداروا للأسواق ظهورهم، ورجعوا إلى الخان فشَدّوا على إبلهم، وأسرعوا يحثّون رواحلهم.

وسعتْ إبلٌ بكّاءةٌ في الصّحراء، كان لونُها قد اندمج مع لون الرّمال فما عادتْ تُرى منها إلا بُقعٌ سوداء لأجسامٍ هامدةٍ فوقها، كأنّ ما فعله الملك بأخيهم كان حُلُمًا. وهبط اللّيل، وأناخوا رِحالهم، وأوقدوا النّار، فلمعتْ وجوهم على ضوئِها شاحبةً قد سربَلها الأسى، وظلّوا صامتين، ينقرون بعصيّ صغيرة التّراب حول النّار. ووقفَ روبيل فجأة، وهتف في وجه يهوذا: «إنّكَ لأخٌ فَظّ». ونظر إليه يهوذا وقد بدّل لباس الحزن إلى الذّهول: «تقصدني؟». «ومَنْ غيرُكَ جرّ علينا كلّ هذه المصائب؟». ووقف يهوذا على رجلَيه، وعقد ذراعَيه على وسطه،

وسخر: «ماذا لديكَ هذه المرّة؟». «لو لم تُصرّ على العزيز لَمَا فتّش رَحْلَ بنيامين». «وما أدراني أنّه سارق؟». «لو حَفِظْتَ لِسانَكَ لحفظْتَ أخاكَ، ولكنّكَ مُوكّل بالمصائب؛ إذا هي لم تأتِ أتيتَ أنتَ بها». وبصقَ على الأرض، فأسرع إليه يهوذا، وأخذ بعنقه: «لو كنتَ تقوم بدورك لما دلَّلْتَه كما فعلَ أبوه، وها هي نتيجة الدّلال، سرقَ صُواع الملك، لم يجد إلاّ صُواع الملك ليسرقه؟!!». وفصلَ بينهما شمعون: «اهدآ». ووقف بيهم لاوي: «الأمور لا تُحَلّ بهذه الطّريقة». وأصلح روبيل قميصه، وقال بصوتٍ مجروح: «إنّني لا يُمكن أنْ أرى وجه أبي. لقد أخذ علينا عهد الله وميثاقه أنْ نعودَ له ببنيامين إلاّ أنْ تكون حربٌ أو داهية، وإنّنا فرّطْنا فيه، ومن قبله في يوسف. كيفَ يُمكنني أنْ أنظر في عينَي أبي حينَ يسألني مرّة: ألمْ أعهدْ إليك أنْ تحفظَ أخاكَ فكيفَ ضيّعْتَه؟ ولئن مرّت الأولى فلن تمرّ الثّانية. وإنّني لن أتركَ هذه الصّحراء، حتّى تصلوا إلى أبيكم فتستأذنوه أنْ أعودَ إليه، أو أنْ أموتَ هنا، أو أن تأكلني الوحوش والسّباع...». ثُمّ جلسَ على الأرض وهتفَ بهم: «أطفئوا النّار وامضوا». وهبطَ إليه لاوي: «هل جُنِنْتَ؟». «سأُجنّ بالفعل لو عُدتُ معكم... أنا أكبركم وأنا آمركم أنْ تتركوني وحدي.. ستجدونني في البِئر الّتي صنعْنا فيه خيبَتنا الأولى إذا أخذتُم من أبي الإذن بأنْ أعود إليه، وإلاّ فاتركوني أهيمُ على وجهي».

وسرت القافلة، وحنّت الإبل، وبكت النّجوم، وأغطش اللّيل، وعوت الذّئاب، وانتهى إليه العِلم، ودخلوا على أبيهم، فتلمّس وجوههم واحِدًا واحِدًا بأصابع يَديه وهتف: «أينَ يوسف؟». فلم يُجبْه أحدٌ. «أينَ بنيامين». فلم يُجبْه أحد. «أين روبيل؟». فردّ يهوذا: «إنّه أبى

أنْ يعودَ إلاّ أنْ تأذن له».

وبكى يعقوب. وانزوى وحيدًا في معبده. وقال لزوجته: «لا أريد أنْ أرى أحدًا. دعوني وربّي». وعشّشتْ في روحه غمامةٌ كثيفةٌ من الحزن. ونحل جسده. ووهنَ عظمُه، ورَقّ جِلدُه، وأنكرَ بنيه، وبكى. بكى كما لم يبكِ أبٌ على ابنٍ من قبل، كأنّ دموع الآباء جميعهم الّذين فقدوا أبناءهَم في التّاريخ كلّه قد تجمّعتْ في مآقيه، فظلّ الدمع يجري منها سَيّالاً دون توقّف، وكانتْ كلّ ليلةٍ يُطيل فيها البُكاء تأخذ شيئًا من نور عينَيه، حتّى إذا كانتْ ليلةٌ ذكر فيها يوسف وأخاه أشدّ ما يكون الذِّكر، وطعنه الشّوق إليهما أشدّ ما يكون الطّعن، بكى حتّى نام، فلمّا صار الصّباح استفاق، فرأى السّواد في كلّ شيءٍ وتلمّس الطّريق فلم يهتدِ، وعثر بحذائه فسقط، وتأوّه من الوجع، وسمع صوتَ امرأته لِيا تقول: «إنّه الضُّحى». لكنّه لم يرَ الضّحى، ولا النّور، ولا الشّمس، ولا جدران معبده، كان كلّ شيءٍ أسود كأنّه القطران، مُظلمًا كأنّه سُجفة اللّيل، وقال لها: «هل أنتِ هنا؟!». واقتربتْ منه، وقال: «أسمع وَقْع خُطواتِك.. أشعر بأنفاسِك.. لكنّني لا أراكِ... هل أنتِ هنا؟!». وبكتْ لِيا، وبكى كلّ شيءٍ في معبده، وانهارتْ بجنبه تنشج: «لماذا تفعل كلّ هذا بنفسك؟».

وعاد روبيل، وقال له يهوذا: «إنّه في عُزلته. أطفأ البُكاء عينيه». «عَمِي؟». «نعم». فاحتضنَ أخاه وارتجّ جسده وهو يُرخي برأسه فوق كتفَيه. وهدّأه. وقال روبيل: «اجمعْ إخوتكَ كلّهم، وهلمّ بنا إليه نقبّل قدمَيه، ونطلب منه الغُفران». ودخلوا عليه، فإذا هو في عالَمه قد زَهِدَ

بكلّ شيءٍ. وابتدأ روبيل فهوى على أبيه وقبّلَ قدمَيه ويدَيه، وقال: «لم يكن الأمر بأيدينا يا أبي فاعفُ عنّا». وهتف يهوذا: «اغفرْ لنا». وشمعون: «اصفحْ عنّا». ولاوي: «أخطأنا». ونفتالي: «لم نكنْ ندري أنّ كلّ هذا سيجري». ودان: «لقد حلّتْ بنا لعنة». ولم يقلْ يعقوب شيئًا، ظلّ رافعًا رأسه وبياضُ عينَيه من العمى يُبرزهما، كأنّما ينظر إلى لا شيء وإلى لا وجه. وصمتوا هم كذلك. وقطعَ الصّمت روبيل: «يا أبي أعطيناكَ العهد، وأنا ضمنتُه كأكبر إخوتي، ولكنّ الله يشهد أنّ ابنكَ سرق، ولم نكنْ ندري أنّه فعلها أو كان ينوي أنْ يفعلها، وسرقَ والله صُواع الملك، ولعلّ الملك لو سرقَ غير صُواعه لسامحه، ولكنّه أبى إلاّ أنْ يكون المسروق صُواعه الخاصّ. وإنّني لأدري أنّنا غير مُصدَّقين عندكَ منذ حادثة الذّئب، ولكنّنا وربّ آبائنا كلّهم لم نزدْ على هذا حرفًا، وإنْ شِئت جِئناكَ بالقوافل الّتي رأتْ الملك يُخرج الصُّواع من رَحْل بنيامين، فطلبْنا منهم أنْ يُخبروكَ، واسأل القُرى الّتي كانت في الطّريق، والإبل الّتي رملتْ في الصّحراء، والذّئاب الّتي عوتْ في البِيد، بل فاسألْ مَنْ شِئتَ يُخبِرْكَ بصدق مقالنا وحالِنا، وإنّنا والله ما أردْنا إلاّ أنْ نُعيدَه إليكَ سالِمًا، وإنّنا والله لصادقون، ولكنّ الله أجرى في اللّوح عنده في الغيب ما لم يكنْ لنا به عِلمٌ أو قُدرة». وظلّ يعقوب صامِتًا. وطال الصّمت، وانقطع حبلُ الصّمت بسؤال روبيل: «هل صَدّقْتَنا يا أبي؟».

وأدار يعقوب رأسه باتّجاه الصّوت: «كَلاّ».

ودخل رُمح الكلمة في صدورهم فطعنهم جميعًا. «فماذا نفعل حتّى تُصدّقنا؟!».

«اذهبوا فابحثوا عنهما». وردّ يهوذا: «أينَ نبحثُ عن يوسف؟ أين نبحثُ عن بنيامين؟ لقد استرقّه الملك ولا ندري إلى مَنْ باعه؟ وعند أيّ بيتٍ من بيوت مصر أو غيرها يخدم اليوم؟».

وشدّ يعقوب على كلماته: «اذهبوا فتحسّسوا أخبارَهما، وابحثوا عنهما ولا تفقدوا الأمل في أنْ تعودوا بهما إليّ. والآن اخرجوا من عندي، لا أريد أنْ أراكم حتّى أراهما».

(٤٥)
أنا أُحبُّ مِصْر

وضربَ روبيل في الأرض كالمجنون، قال لإخوته: «أيّ ذنبٍ جِئناه حتّى يحلّ بنا كلّ هذا؟! والله ما أصابَنا خيرٌ مُذْ خرج معنا يوسف في ذلك اليوم، ليتَ أمّي لم تلدْني». وهامَ على وجهه. لم يكنْ يلبسُ إلاّ قميصه الّذي عاد به من مصر؛ من سفره الطّويل، وها هو يذهب إلى سفرٍ أطول لا يدري متى يعود منه!

ولوّحَتْه الشّمسُ في اليوم الأوّل، وهو يركبُ ناقته، يسأل كلّ من لَقِيه في الطّريق: «هل رأيتُم يوسف؟». «يوسُفُ أيّها النّاس... إنّه يوسف... أما لقيتُم يوسف؟». ومرّ ببيوتِ شَعْرٍ فأناخَ ناقته، ودخل إليهم، فلم يجدْ إلاّ امرأةً عجوز، فسألها: «أينَ يوسُف؟». فلمْ تسمعْه، وسأل مرّة أخرى: «أينَ يوسُف؟». فنظرتْ في وجهه دون أنْ تنطق بحرف، وظلّتْ صامتة، حرّك جذعه يمنةً ويسرة، ولكنّها لم تحرّك رأسَها، ولم تطرفْ عينُها، وخرجَ من عندها وهو يلجّ: «إنّها عمياء صمّاء». وضربَ في الأرض.

ثُمّ أخذتْه الدّروب إلى كلّ مكان ولا مكان. ورحلت الشّمس. وخفّتْ حرارةُ الجوّ. ودخل الضّبّ إلى جُحره. وكفّت الأفاعي عن الفحيح. وهبطَ اللّيل. وتحرّكَ بعضُ النّسيم. ولمعتْ بعضُ النّجوم. وعوتْ بعضُ الذّئاب. ووضع روبيل كفّيه وجعلهما مثل البوق أمام

فمه، وعوى: «يوسُف... يووسف... يووووسف...». وضاعَ صوتُه في الظّلام. وشعرَ بإعياء، فألقى جسده على الأرض، ونام على جنبه بعد أنْ ربط خِطام النّاقة تحت ساعده. وفي اللّيل حُلمَ بالذّئب، بالأطحل، كان الأطحل يتشمّم الأرض كأنّما يبحثُ عن شيءٍ، وظلّ يقتربُ منه، ويسير نحوه، حتّى وقفَ على رأسه، ولم يشعر روبيل بالذّعر، لأوّل مرّة يجد الذّئبَ كأنّه صديق، وتشمّمه الذّئب كما كان يفعل بالأرض، ولم يُحرّك روبيل ساكِنًا، فتحَ عينَيه فقط، وأقعى، وأقعى الذّئب معه، قال له روبيل: «هل رأيتَ يوسف أيّها العزيز؟». وسمع الذّئب يتحدّث بلسانه: «مرّ على هذا السّؤال أكثر من أربعين عامًا، لقد تأخّر كثيرًا». «إنّنا نادِمون». «لقد مرّ على هذا النّدم زمنٌ طويل». «هل تعرفُ مكانه؟». «إنّه في بطني؛ ألم تقولوا إنّني أكلتُه». وضحك الذّئب. وشعر روبيل بالغيظ، وقال بحنق: «إذًا أقتلك، وأشقّ بطنَك وأستخرج أخي منه». وضحك الأطحل أكثر: «بالطّبع، فأنتم قَتَلة، وخائنون، وليسَ في قلوبكم رحمة، ونحن لسنا مثلَكم». وصرخَ في وجهه يشتمه: «أنتَ وحشٌ مُفترس». وردّ الذّئب: «البشر مليئون بالرّذائل». وظلّ يضحك حتى استلقى على ظهره من الضّحك وارتفعتْ قوائمه وصارتْ تتحرّك في الهواء. ومدّ روبيل يده إلى السّيف يريد أنْ يقتل الذّئب، فتحوّل السّيف إلى خشب، ثُمّ إلى طين، ثُمّ إلى رماد، وتناثَر على الأرض، ولم يبقَ في يده إلاّ مقبضه، وظلّ الذّئبُ يضحك حتّى ذاب مع ضحكاته، وصحا روبيل من نومه مفزوعًا: «إنّه الشّيطان!!». كانت الشّمسُ قد ارتفعتْ. ونهض، ومضى. وأصابه عطش. فشرب. وتذكّر والماء ينزل إلى جَوفه يومَ طلبَ منهم أنْ يسقوه فأبَوا، وغصّ بالماء،

وتوقّف عن جَرْعه، ومسح أطرافَ فمه، ومضى. قرّر أنْ يذهبَ باتّجاه البِئر الّتي ألقَوه فيها، وحلّت الشّمسُ قبّة السّماء، ولم يصل إليه، كان يتوقّع أنْ يكون عنده قبل منتصف النّهار. وظنّ أنّه أخطأ الوجهة، فحوّل ناقته إلى وجهةٍ أخرى، وركضتْ أمامه الشّمس، وكادتْ تغيب لولا أنّ حجارة البِئر بدتْ له من بعيد، وحثّ ناقته على السّير: «أمعقول أنْ يجد فيها يوسف؟!». وتيقّن أنّه جُنّ. ووصل إلى البِئر، لكنّها ليست البِئر الّتي ألقَوه فيها، كان التّعب قد أخذ منه مأخذه، وقال: «لقد ضللت». ونظر في البِئر فوجد فيها رافوعة. ونظر أكثر فتراءى له على خيوط الشّمس الرّاحلة أنّ فيها عُيونًا كثيرة، أكثر من مئة زوجٍ من العيون الّتي تقدح شررًا، وفزع، وحدّث نفسَه: «عيونُ ذئاب... بل ضِباع... بل جِنّ». وتراجع إلى الوراء، وشعر بالرّعب، وركبَ ناقته يريدُ أنْ يبحثَ عن بِئرٍ أخرى، ورملتْ ناقته، فرأى بِئرًا قريبةً من الأولى، فنزل عندها، فرآها كثيرة الأشواك، لا يُوصَل إليها، فتركها، وذهب إلى بِئرٍ ثالثة، وكانت الشّمس قد رحلتْ تمامًا، ورأى الشّفق مثل النّار، وشعر أنّ حممه ستسقطُ فوقَ رأسه، فركض، ونظر في المدى على ما تبقّى من ضوءٍ قبل أنْ يُعتمَ كلُّ شيءٍ؛ فرأى مئات الآبار الّتي تُحيطُ به، وشعر بضربةٍ قويّة على أسه، ولم يُمهله الدّوار كثيرًا، فسقط عن ناقته، واستقرّ على الأرض جُثّةً هامدة تنزف!

كان اللّيل قد سافرَ بعيدًا في رحلته عنها استيقظ، شعر بالعطش، نظر حوله فلم يجدْ ناقته، فَزِع، نهض، شعر بألمٍ في كتفه، لم يُبالِ، راحَ يركضُ كالملسوع، لكنّه لم يدرِ إلى أيّ جهةٍ سيركض. توقّف قليلاً، ثُمّ قرّر أنْ يمضي باتّجاه الجنوب، ويجعل النّجم خلفَ ظهره، ومضى يبحثُ

عن ناقته، وعن نفسه، وعن يوسف.

وقطع اللّيل كلّه، وشعر أنّ حلقه قد تشقّق مثلما يتشقّق جلد الجدي اليابس، وأَذِن الفجر بالطّلوع، فرأى سوادًا يلوح في الأفق، فأتاه فإذا هم قومٌ رُحّل، فطلبَ الماء فسَقَوه، وحدّث نفسه من جديدٍ وهو يشرب: «لقد طلبتُ من الغرباء فسقوني، وطلب أخونا منّا فمنعناه!!». وسألهم: «هل رأيتُم يوسف؟». فقال كبيرهم: «مَنْ يوسف؟». «أخونا». «وكيفَ لنا أنْ نرى أخاك؟». «إنّه فتًى وسيم، وسيمٌ جِدًّا». «وأينَ فقدتموه؟». «في البئر». «أيُّ بِئر؟». «جُبّ الأردنّ». وتنهّد الرّجل، وقال: «ليستْ في هذا الاتّجاه. ولكنْ متى فقدْتُموه؟». «قبل أربعينَ عامًا». وضيّق الرّجل عينَيه، وأطال النّظر في وجه روبيل، ثُمّ التفتَ إلى صحبه، وهتف: «إنّه مجنون... مسكينٌ هذا الرّجل، دعوه يأكل، ثُمّ ابعثوا معه أحدَكم يدلّه على أوّل الطّريق لكي يعود إلى أهله». ووقف، وهمسَ في أذن رجلٍ آخر: «لقد عانَى كثيرًا!».

وقال أخناتون ليوسف: «أنقذْتَ مصر». فردّ يوسف: «أنا نبيّ مصر». وقال أخناتون: «حميتَ أهلَها من الجوع». فردّ يوسف: «يُجري الله الخير على يد الأمناء، لو سرَقَ حاكمُ مصر لجاعَ أهلُها». قال أخناتون: «أعطيتَ مصرَ قلبَك وعقلَك». فردّ يوسف: «أنا أُحبُّ مِصر». وضحك الملك: «ولكنّكَ عانيتَ فيها من السّجن؟». وضحك يوسف هو الآخر: «ولكنّ المَلِكَ أجلسني على العَرش في النهاية». فقال الملك: «أَجلسكَ على العرش ذكاؤك وحِكمتُك». فأمّن يوسف: «ولكنّ العِبرةَ بالخواتيم!».

ورأى نجم الشّمال فصحا عقلُه. إنّه دليلهم يومَ كانوا يأتون من مصر، ديار بني يعقوبَ في هذه الجهة، ورفع يُمناه، وشكّل بإصبعَيه إشارتَي الدّليل، وعرف فابترَدَ قلبُه، وحدّثَ نفسَه: «أنامُ الليلة في موضعي، وأشدّ إلى ديار أهلي في الصّباح». وأتاه الذّئب في النّوم ثانية، وقال له: «لم يقتلِ الإنسانَ مثلُ الإنسان!». فردّ عليه روبيل: «لستُ جاهِزًا لحكمتك الآن، ربّما لو قلتَ شيئًا عن يوسف فسيُصغي لكَ قلبي». «يوسفُ أنت. صورتُكم». فانتبه. فأكمل الأطحل: «كان أنتم، لو أنّكم رفعْتُم أنفسكم إلى عَلْيائه لشرفتم بما قَسَمَ الله له، أخلدْتُم بذنوبكم إلى الأرض، ولم يكنْ له ذَنْب». «حسنُه كان ذَنْبُه». «وهل يكونُ الحُسْنُ ذنبًا؟». «عند الجاهلين». «كلّ شيءٍ يجري على حِكمةٍ بالغة، مُشكلتكم أنّكم لم تفهموا هذه الحِكمة، أعني لم يكنْ لديكم استعدادٌ لفَهْمِها؛ هذا هو الجَهل بعينه». «هل من توبة؟». «الزّمن لا يعود إلى الوراء». «ولكنّه عند الله يعود إلى الوراء». «ولا عند الله، إلاّ أنْ تُزيلوا الثّقوب السّوداء الّتي ملأتُم قلبَ أبيكم وأخيكم بها». «إنّكَ تُصعّبُ الأمور». «إنّني أدلّكم على الطّريق؛ لا أقصدُ كيف تعودون إلى بيوتكم، بل كيفَ تعودون إلى قلوبكم». ومدّ الذّئبُ يده إلى روبيل: «انهضْ فقد آنَ لي أنْ أُريك الطّريق!».

وقالتْ زوجات الإخوة: «يا عَمَّنا، يا نبي الله؛ أولادُنا يموتون من الجوع». فتولّى عنهنّ. وقلْنَ: «أبناؤكَ لا يعودون من حقولهم بشيءٍ». فتولّى عنهنّ. وقلنَ: «الماء طينٌ». فتولّى عنهنّ. وقلن: «أبناؤُك يغضبون لأتفه الأسباب ويضربون أبناءَهم بلا أدنى سبب». فتولّى عنهنّ. وقلْنَ: «غطّى البردُ ضلوعَنا». «يبّسَتْ قلّة الزّاد ضروعَنا». «أسَحّتِ المُصيبة

دموعَنا». «أطفأتِ الرّيحُ شموعَنا». «نحن نموت...». فتولّى عنهنّ.

واجتمعَ حولَه أبناؤه: «لم يبقَ لنا شيءٌ يا أبي». «ذهبتِ البركةُ من بيوتنا». «لا نجد اللّقمة الّتي نسدّ بها رمَقَنا». وعلا لَغَطُهم، وقال يعقوب: «وا أسفا على يوسف». ومرّتْ سنواتٌ في العمى لم يكنْ يرى فيها إلاّ الله.

ولْوَلت النّساء. وجأرْنَ بأصواتٍ عاليةٍ أمامه، وسَئِمْنَ القِيام على خدمته وهو في عُزلته، وجادلْنَ في حاله أزواجَهنّ، ونَهَرْنَ ونُهِرْن، ثُمّ أتَيْنَه حاسِرات الرّؤوس، حافِيات الأقدام، بالِيات الأسمال، وبكَين من الشِّدّة، وبكى هو وصاح: «وا أسفا على يوسف». وعلا صِياح أبنائه، وضجيجُ أحفاده، وبَكَوا من القهر والقِلّة، وبكى هو وصاح: «وا أسفا على يوسُف».

وأَتوا له بطبيب، فعايَنه، وَجَسَّ عِرْقَه، ونظرَ هُزالَه، فبكى الطّبيب لحال النّبيّ، وقال: «إنْ أسلمَ نفسَه للحزن أسلمَ معه روَحه». وقال له روبيل: «علّمْتَنا الصّبر فَلِمَ جَزِعْتَ؟!». فردّ: «إنّما أشكو إلى الله جَزَعي». وقال يهوذا: «هَلَكْتَ فلا تُهْلِكْنا معك، أما وقد ذهبَ يوسف، فإنّ لك فينا عنه عِوضًا». فقال: «لا والله ما عنه عِوض، ولا عن أنفاسِه يومَ كانتْ أنفاسُه بيننا بديلٌ، وما أتسلّى عنه بشيءٍ، ولا يُبرِئُني من ألم فَقْدِه شيءٌ!». وردّد: «وا أسفا على يوسف». وقال له لاوي: «عَمِيتَ فهل بعدَ العمى أذى؟». فردّ عليه: «إنّما ألجأ إلى الله لكي يُنصِفني». وقال له شمعون: «تَلِفَ بَصَرُك، تَلِفَ عظمُك، تَلِفَتْ قُوّتُك، تَلِفَ قلبُك». فقاطعه يعقوب: «صدقتَ، إلاّ قلبي فإنّ فيه يوسف!». وقال له

دان: «أبكيتَ الشّجر والحجر على حالك فارْحَمْ نفسَك». فردّ عليه: «بكى لحالي الشّجر والحجر إلاّ البشر». وهتف بحرقةٍ تُلهِب الماء: «وا أسَفَا على يُوسُف!». وقال له نفتالي: «مَسَّتْنا شِدّةٌ أفقرَتْنا، وأجاعتْ أطفالَنا، وأهلكتْ حرثَنا ونَسْلَنا، وأنتَ في محرابكَ تبكي ولدًا رَمَّ عَظْمُه». فقال له: «استغفرْ وإخوتكَ ذنوبَكم، مَنْ جرّأكَ على مثل هذا القول إلاّ الذّنْب؟! وما شكوتُ إلى أحدٍ فيكم، إنّما أشكو بَثّي وحُزني إلى الله، فإليكمْ عنّي». ومدّ ذراعَيه في الهواء، وصاح: «يا لِيا، قولي لأولادكِ ألاّ يعودوا إليّ، فإنْ عزموا فلا يعودوا إلاّ بيوسف!». وخرجوا من عنده أيتامًا!

(٤٦)
مَسَّنا وَأَهْلَنا الضُّرّ

وقال روبيل: «ما تبقّى لدينا من المال يا يهوذا؟». «لا شيءَ». «فما تبقّى من الزّرع». «قليلٌ لا يكفي». «فلنذهبْ بهذا القليل إلى ملك مصر، ونتوسّلْ إليه أنْ يُعطينا من الخير الكثير الّذي عنده، ونعود بالطّعام إلى زوجاتنا وأبنائِنا وأهلنا قبل أنْ يُهلِكهم الجوع، فإنّني أرى الأطفال صاروا على كفّ الموت». فقال يهوذا: «أنا معك». وقال الإخوة: «نحن معكم».

وساروا إلى مصر، فلمّا أذن لهم العزيزُ بالدّخول، ركع روبيل بينَ يديه، وهتف: «أيّها الملك». «أنا أسمعك». «مَسَّنا وأهلَنا الضُّرّ». «فما شأني؟ تأخذون نصيبكم كغيركم». «إنكَ لكريم، وإنّ الّذي أحسنَ وِفادَتنا في الأولى ليُحسِنها في الثانية». «أجِئتُم تطلبون الطّعام لبطونكم لا لأخيكم لأبيكم، أهكذا هانَ بنيامين عليكم؟!». «والله ما هان علينا، ولكنّكَ حرَمْتَنا منه، وإنّ الجوع ليُعمي البصيرة، وإنّ الشّدّة لَتُذهِبُ العقل». «فأينَ كان عقلُكم يومَ تركْتُمْ أخاكم للذّئب؟!». فَخَجِلوا. ثُمّ قال: «الذّئب أم البِئر؟!». فحميَ جِلْدُهم. ثُمّ قال: «الذّئبُ أم البِئرُ أم البَيْع؟!». فذُهِلوا عمّا جاؤوا من أجله، ووقفوا ينظرون في هذا الّذي يُحدّثهم بأسرارهم، يُحدّقون النّظر فيه مذهولين، ثُمّ لم يُمهلْهم فرفع الصُّواع الفضّيّ أمام أعيُنهم، وهتف: «هذا الصّواع يتكلّم، وإنّني أفهم

لُغتَه؛ فهل أسأله عن أخبارِكم، وعن شأنكم في قديم عهودكم؟!».
فخارتْ رُكَبُ بعضِهم، وساحتْ أجسادُهم، واستندَ بعضُهم على أقربِ الأعمدة إليه حتّى لا يقع، فلم يُمهلْهم، وأمرهم: «تعالَوا، اقتربوا، فلدى الصُّواع ما يقوله». وشعروا أنّ أقدامهم هي الّتي تسحبهم باتّجاه العزيز الجالس على عَرشِه، واقتربوا رغمًا عن إرادتهم، فلمّا صاروا قريبين جِدًّا، رفع الصّواع من جديدٍ أمام أعينهم، ونقَر عليه نقرةً، فسرى طنينُه، ثُمّ قرّب أذنه منه وقال: «إنّ هذا الصُّواع يقول إنّه ليسَ على قلبِ يعقوبَ من هَمٍّ ولا غَمٍّ ولا حُزنٍ إلاّ بسبب هؤلاء الواقفين أمامك». فشُدِه الإخوة. ثُمّ نقَرَ عليه نقرةً أخرى فعلا طنينُه، فقرّبه من أذنه: «إنّ هذا الصُّواع يقول إنّكم أخذتُم لكمْ أخًا صغيرًا ونزعْتُموه من أبيه، وأتلفتمْ أباه بذلك». فقال روبيل: «أيّها العزيز استُرْ علينا سَتَرَ الله عليك». فردّ الملك: «انتظروا، ما زال لدى الصُّواع ما يقوله». ثُمّ نَقَرَه من جديد، وقرّب أُذُنه: «إنّ هذا الصّواع ليُخبِرني أنّ الذّئبَ بريءٌ من دم أخيكم، وأنّكم ألقيتموه في البِئر، ثُمّ بِعْتُمُوه بيعَ العبيد، وأسرَعْتُم في بيعه حتى تتخلّصوا منه، وتقاسَمْتُم ثمنَه مسرورين». ثُمّ نقرَ نقرةً رابعة، وهتف: «إنّ هذا الصُّواع ليُخبرني أنّكم أذنَبْتُم ذنبًا منذُ ما يزيدُ عن أربعين سنةً لم تتوبوا منه». ثُمّ نَقَرَ نَقْرَةً خامسة، وقال: «إنّ هذا الصُّواع ليُخبرني أنّ أخاكم الّذي زعمْتُم لأبيكم أنّ لحمَه اختلطَ في جوف الذّئب سيخرج من الجوف وسيُخبر بكلّ ما حدثَ معه». فتداعى أكثرُهم، وسقطوا على الأرض، وزحفَ إليه شمعون، وقال: «اكْتُمْ أمرَنا؛ فإنّ الفضيحة لَزِمَتْنا». فأشار إليه: «ما زال لدى الصّواع ما يقوله». ثُمّ نَقَرَه نقرةً سادسة، وقال: «إنّ هذا

الصُّواع يقول لو كان هؤلاء الإخوة الّذين أمامكَ أنبياءَ أو بني أنبياءَ ما كَذَبُوا، ولا عَقُّوا أباهم». ثُمّ نهضَ على قدَمَيه وقال: «ائتوني بالحَدّادين أُقَطّعْ أيديهم وأرجلهم، وأجعلهم نكالاً وعِبْرة». فما بقي أحدٌ منهم إلاّ رجفتْ كلّ شعرةٍ في جسده، ورعشتْ كلّ ذرّةٍ في بدنه، ثُمّ قالوا: «صدقْتَ أيّها الملك، إنّ كلّ ما قلتَ لصحيح، وإنّنا لو وجدْنا أخانا يوسف حَيًّا لكُنّا طَوْعَ يدَيه، وتُرابًا يطأ علينا بِرِجلَيْه». وسَحّتْ من عيني الملك عَبْرة، ودَاراها بأنْ أدار وجهه، ثُمّ قال: «الآنَ قِفوا». فوقفوا خاشعين من الذُّلّ. ومدّ الملك يده إلى جيبه، وأخرجَ صحيفةً رقيقةً من الجِلدِ قد دُبِغَتْ باللّون الأحمر، وفتحها، وقرأ على مسامعهم: «هذا ما اشترى مالك بن ذُعَر من بني يعقوب، وهم فُلانٌ وفُلانٌ مملوكًا لهم بعشرين دِرهمًا، وقد شَرَطوا أنّه آبِق، وأنّه لا ينقلبُ إلاّ مُسَلسَلاً مُقيّدًا، وأعطاهم على ذلك عهد الله». فلمّا سمعوا ذلك صاحوا صيحةً ارتجّتْ لها جَنَباتُ القصر، ولم يبقَ أحدٌ فيه إلاّ سَمِعَها، وشهقوا قبل أنْ يقولوا بصوتٍ واحدٍ، كأنّ لهم فمًا واحِدًا: «إنّكَ لأنتَ يُوسُف». فأشرقَ وجهُ الملك، وقال: «أنا يوسف». وأشار من طرف القاعة، فدخل أخوه بنيامين: «وهذا أخي». وخلعَ يوسف تاجَ المَلِك عن رأسِه، فتيقّنوا منه، وانقلبَ خوفُهم إلى انشداه، ثُمّ إلى سرور، واستبقَهم للعِناق، وابتدرَ بأخيه الأكبر روبيل، فاحتضنه طويلاً، وارتجَّ جسدُهما من شدّة البُكاء، وتجمّع الآخرون عليهما، والتفّتْ أجسادُهم وهم ينشِجون، وقال روبيل: «اغفِرْ لنا يا أخي». فوقفَ في وسطهم، ونظرَ إليهم واحِدًا واحِدًا من خلال دموعه، وقال: «قد غفرتُ لكم». ووضعَ روبيل يده في جيبِ قميصه، وأخرج كيسًا صغيرًا ففتحه، ومدّ أصابعه فالتقطَ ما

فيه، ورفعهما أمام عينَي يوسف، فقال له يوسف: «ما هذا؟». «أريدُ أنْ أهبَهُما لك، لعلّكَ تعفو عنّي». «أتعطيني درهمَين قديمَين، وعندي كلّ هذا الذّهب والفِضّة والمُلْك والمال والجاه». فقال روبيل: «إنّهما حصّتي من جسدك يا أخي. إنّهما نصيبي من العشرين درهمًا الّتي بِعْناكَ بها، قد احتفظتُ بهما لمثل هذا اليوم». وضحكَ يوسف، وضحكَ إخوته، وقال له مازِحًا: «وهبتُهما لك مع عفوي». وقال روبيل: «كيفَ صرتَ نبيًّا وقد ألقيناكَ في البِئر؟». وقال يهوذا: «كيفَ صرتَ مَلِكًا وقد بِعْناك عبْدًا؟». وقال شمعون: «كيفَ صرتَ عزيزًا وقد سلّمناك للقوافل السّيارة ذليلاً؟». وقال لاوي: «كيفَ صار لك كلّ هذه الهيبة والعَظَمة وكنتَ شريدًا وطريدًا». فقال يوسف: «من اتّقى مَلَك، ومن صَبَر غَنِم».

وقالوا له: «كيفَ ننسَى؟!». فردّ: «بالانشِغال بالعَطاء، إنّ العَطاء ليُعظِم الخير في القلب ويمحو الشّرّ». «أما والله إنّ الماضي لا يُنسَى، فإذا خَلَوْنا إلى أنفُسِنا وفكّرْنا في الفظاعة الّتي أوقعناها بك تمزّقتْ أبدانُنا، وتقطّعتْ قلوبُنا، أما إنّها تزيدُ عن أربعين سنةً، والله ما غفرنا لأنفِسنا ولا سامَحْناها، وإنْ كان يبدو علينا غيرُ ذلك». «أمّا أنا فقد نسيتُ يا إخوتي، نسيتُ من أجلكم، من أجلِ أن تنسَوا أنتم أيضًا». «ما أصعبَ النّسيانَ إذا كانت الذّاكرةُ نفسُها تلوذُ به!!». «وعفوتُ من أجلِ أنْ تعفوا عن أنفسكم يا إخوتي». «أما إنّ عفوًا مثلَ هذا ليقتُل، ولو عاقبْتَنا لارتَحْنا». «إنّ أبلغَ عقابٍ لمن فعل الشّرّ أنْ يكون قد فعلَ الشّرّ حقًّا، وقد فعلْتُم فذلك عقابُكم. انظروا إلى قلوبكم، لقد مسحتُ عليها لتعودَ صافيةً، ولتبدؤوا حياتكم، وأبدأ هذه الحياةَ معكم من جَديد».

ثُمّ قال له لِداته من إخوته: حَدّثْنا قِصّتَك؟». وقال دان: «يا ليتكم ألقيتموني في البِئر مثله، لعلّني أصيرُ مَلِكًا». وضحكوا. وقال يشجر: «لو كُنّا جميلين مثلك هل كانتْ امرأة العزيز ستفعل معنا ما فعلتْ معك؟».

وشاع خبر الإخوة في مصرَ كلّها، وعرفوا ما كان منهم ومنه، فأَجَلّهم النّاس، وأكبروهم لإكبارهم للملك. وقال يوسف: «امكثوا في مصر بضعة أيّام، أسواقُها لكم، أهلُها يخدمونكم، وخيراتُها بين أيديكم، لا يمسّكم أحدٌ بسوء، ثُمّ عودوا إليّ من أجل أبي أَقُلْ لكم ما تفعلون». وفرحتْ مِصرُ كلّها لفرح الملك!

وضَرَب الإخوة في الأسواق. والتقَى يهوذا في السّوق بامرأتَين كانتا تشتريان من دُكّان، وكانتا تُقلّبان أقمشةً في جهةٍ من الدُّكّان وتُعطيانِه ظَهْرَهما، فَغَمَزه التّاجر صاحبُ الدّكّان لمّا عَلِمَ أنّه أخ الملك، وهمسَ في أذنه: «إنّهما من نسوة المدينة اللّواتي قَطّعْنَ أيديهنّ من أجل أخيك». وضحك يهوذا وسأله: «هل هُما من اللّواتي مُتْنَ في حُبّ أخي؟». وضحك التّاجر بدوره: «بالطّبع لا، وإلاّ لما كانتا أمامكَ اليوم». والتفتتِ المرأتان خلفهما تُريدان سؤال التّاجر عن القِماش، فبدا وجهاهما ليهوذا قمرَيْنِ مُنيرَين رغم مرور السّنين على تُربتَيهما، فسأل بشيءٍ من السّخرية: «أنتما من صويحبات يوسف؟». فمسَحَتاه بأنظارهنّ مستخفّاتٍ بهيئته الرّعويّة، وسألتْهُ إحداهما هازِئةً: «ومَنْ تكونُ أيّها الشّحاذ؟». «شَحّاذ!! أنا أخوه، أما والله إنّكنّ لفاسقات». فردّتْ عليه: «أمعقول أنّه أخوك، لمْ أكنْ أعرفُ أنّ للملاكِ أخًا بَغْلاً!!». فشاطَ

رأسُه، وأراد أنْ يبطش بها، ولكنّه كفّ يده وقال مُنكِرًا: «أردُتنّ مواقعتَه في حرام!». فردّتْ وهي تغنج: «أردْنا له اللّذّة وأردتم قتلَه، أردْنا له حياة الهناءة وأردتم له مِيتة السّوء، فشتّان ما بيننا وبينكم!».

وقال لهم يوسف: «إنّ كربَ أبينا لشديد، وإنّني لفي شوقٍ لبقيّتكم». وقال روبيل: «أنّ أبانا قد عَمِي». فقال: «إنّ الله يردّ له بَصَرَه، سأعطيكم قميصَ إبراهيم لكي تُلقُوه على وجهه، فإذا سَرَتْ رائحة أبينا الأكبر في عينَيه النّائمتَين صَحَتا». «وإنّه قد ضَعُف». «القميص سيردّ عليه شيئًا من قُوّته، ثُمّ إنّني سأبعثُ معكم أحسنَ جِياد مصر لكي تأتيني بكم جميعًا، أبانا وأمّنا، وزوجاتكم وأبنائكم وكلّ ذرّيّة يعقوب». وكان يوسُف قد خَبَأ القميص لهذا اليوم، فإنّ القُمصان الّتي تمسّ أجساد الأنبياء الطّاهرة ليستْ مجرّد قُمصان، إنّها مُعجِزات.

وعادَ الرّكبُ غيرَ الرّكب، والقافلةُ غيرَ القافلة، والقلوبُ غيرَ القلوب، والدّروبُ غيرَ الدّروب، فإنّ الطّريقَ الّتي تمشيها بالفرح غيرُ الطّريق الّتي تمشيها بالأسى، وإنّ الصّحراء الّتي تقطعُها بالأمل غيرُ الصّحراء الّتي تقطعها باليأس. ولّما صارتْ مصرُ خلفَهم، وصار آخر رمل سيناء الّذي رافقهم يُزمِعُ تركَهم لأوّل فلسطين، سرتْ رِيْحٌ طيّبة، فَعَبَرَت السُّهوب، حتّى دخلتْ بيوت يعقوب، وقصدتْه دونَ سِواه، فانتعش، وانتبه، وتلمّس المكان حوله، ثُمّ صاحَ بصوتٍ عالٍ: «لِيا... لِيا...». وأقبلتْ لِيا، ملتاعةً، وصاحتْ لصيحتِه، واجتمعت عنده الذّرّيّة كُلُّها، وهتف: «يا لِيا، إنّي لأجدُ رِيْحَ يوسف، إنّها تُقبِلُ من أرضِ مصر». وأطرقتْ لِيا ببصرها إلى الأرض، وأردفَ يعقوب: «وإنّ

يوسُفَ أو شيءٌ منه سيكون هنا قبل أنْ ينقضي هذا اللّيل». وكان صوتُه من الفرح نَدِيًّا كأنّه صوتُ شابٍّ في العشرين، وقال: «إنّه لَيُوسُف». وضرَبَتْ نِساء أبنائه بأكفّهن الهَواء، وقالتْ إحداهنّ مُشفِقةً على الشّيخ الّذي نَعُمَ صوته فجأة: «إنّ هذا الشّيخ لَخَرِف». وقالتْ أخرى: «إنّه مُودِّعٌ دُنيانا اليومَ أو غدًا». وقالتْ ثالثة: «إنّه في ضلاله القديم». وخرجْنَ وهنّ يهزُزْنَ رؤوسهنّ مُتأسّفاتٍ لما آلَ إليه حالُ عمّهنّ الشّيخ!

(٤٧)
هل يَعودُ الموتى؟

وانقضى اللّيل، ولا شيءَ غيرُ اللّيل، ولم يعدْ أحدٌ من مصر، لا القميص، ولا الأبناء، وجلست النّساء في خدورهنّ حاسِرات الرّأس، وانتظرتْ كل واحدةٍ خبرَ عمّها يعقوب: «إنّه ميّت». «لعلّه وجدَ ريح يوسف في الجنّة». «سيأخذه إليه قريبًا». «مسكين، سيغادر الدُّنيا ولم يتحقّق أملُه الّذي عاش أكثر من أربعين عامًا وهو يركُض خلفَه؛ أنْ يراه». «هل يعودُ الموتى؟». «هل يُمكن أنْ يخرج ميّتٌ من القبر لمجرّد أنْ يُحقّق لكَ أمنيتَك في رُؤيته؟ ما لِهذا الشّيخ يهرف؟!!». «هل يكفي الشّوق والحُبّ والذّكريات الغالية لتُوقِظ الموتى من نومهم الطّويل؟!». «هل يعرف الموتى ما فعلوا بالأحياء؟ لو كان يوسف يعرفُ ما حلّ بأبيه من الكرب، لقال لربّه أنْ يُعيده إلى أبيه ولو ساعةً من أجل أنْ يكون موتَه مُريحًا». «إنّ الشّيخ ليدعو إلى الشّفقة!!».

ومرّتْ سبعُ ليالٍ، ولم يفدْ أحدٌ من مصر ولا من غيرها، ولم تكنْ واحدةٌ من الزّوجات تعرف إلى أينَ ضربَ أزواجُهم في الأرض، وإلى أيّ البِلاد شَدُّوا رِحالَهم؟ ولم يكنْ لديهم إلاّ التّكهّن بوجهتهم. أو لعلّ كلّ واحدٍ منهم غادر إلى جهةٍ من الأرض غير الّتي غادر إليها أخوه يبحثون عن أرزاقهم.

ومرّتْ تسعُ ليالٍ، وهُجِرَ يعقوب إلاّ من زوجته، ولم يعدْ يسمع –

ولو من بعيد – أصواتَ أحفاده ولا زوجاتِ أبنائه، ولا صوتَ كلاب الحيّ، ولا صوتَ أحدٍ، باستثناء عُواءٍ مُتقطّع، يأتي من بعيدٍ لذئابٍ ليس لها وطن. وكانتْ لِيا إذ تدخل عليه، يقول لها: «إنّه سيصل في أيّ لحظةٍ، فماذا أعددتُم له من الطّعام؟». فتقول له: «الخير كثير». ولم يكنْ في البيت إلاّ الحصى!

حتّى إذا كانت اللّيلة الحادية عشرة، وقبل أنْ تغرب الشّمس، سمع يعقوب جلبةً عالية، وصوتَ أطفالٍ يصيحون، وإذا أحد أحفاده يصرخ: «لقد وصل أعمامي، كلّهم وصلوا». وقفز قلبُ يعقوب بينَ جنبَيه: «يوسفُ عمّ هذا الولد أيضًا، وبنيامين أيضًا؛ فهل يكونان ضمن الواصلين». واستند على فِراشه، ونادَى: «لِيا... لِيا...».. وأتته مُسرعةً: «هل صحيحٌ أنّ يوسف عاد؟». وردّتْ: «أبناؤكَ عادوا، ولم يصلوا إلى الحيّ بعدُ، ولا أدري إنْ كان يوسفُ بينهم». وخرجَ يعقوب يمشي. وعجبتْ لِيا لهذا الشّيخ الّذي لزم الفراش سنواتٍ، كيفَ دبّت القُوّة في رِجلَيه فصار يمشي عليهما دون عَصا. وخرجَ يتهدّى الطّريق، وهو يقول: «ألمْ أقلْ لكم... ألمْ أقلْ لكم... إنّ الأنبياء إذا حدّثوا بحديثٍ صدقوا، وإنّ الله ليُبطِئ مقالتَهم، لكنّه لا يُفسِدها، وإنّ نبوءتهم لتتحقّق ولو بعدَ قرون». وخرجَتْ وراءه النّساء والأطفال، وقالتْ له بعضُهنّ: «سامِحنا يا عمّ». فردّ: «إنّني لم اسمع منكنّ سوءًا». «فهل سامحْتَنا؟». «بالطّبع». واستقبلَهم في فم الحيّ قد عادوا وجِمالهم تنوء بما تحمله فوقَ ظهورها من الطّعام. وعلتْ زغاريد النّساء. وقالتْ لِيا: «احملوا أباكم». وهتفَ بها وبهم: «إليكم عنّي، أنا بخير، أينَ يوسف؟». وقال له روبيل: «عندي خبرُه، فهيّا بنا إلى الدّور أخبرك». فاضطربَ جسدُ يعقوب،

وهتف: «أهو حيّ؟!». فقال له روبيل: «كلّ خبره عندي، فهيّا إلى الدور لأقول لكم كلّ شيءٍ». «بل ستقول هنا؟ أهو حَيّ؟». ونشج، وبكى، وبكَوا لِبُكائه، وهتف: «هل يذكرنا أم نسينا؟ أينَ يعيش؟ ماذا حلّ به؟». فردّ روبيل: «إنّه حيّ، وإنّه يعيشُ في القصر، وإنّه صارَ مَلِكًا». وفرحت النّساء، وفرح الأحفاد، ولم يُصدّق أحدٌ ما يسمع، وضجّت أرجاء السّماء بالزغاريد، وقاطَعهم يعقوب: «اسكُتْنَ أيّتها النّساء، كُفّوا أيّها الأولاد عن صياحكم، دعوني أسمعْ ما حلّ بابني». وأرجعَ السّؤال إلى يعقوب: «قلتَ لي صار مَلِكًا؟». «نعم يا أبي، وهو القائم على أمر مصر وأمنها وطعامِها». «وما ينفعني إنْ صار ملكًا؛ فكيفَ دينُه؟». «إنّه على التّوحيد يا أبي». ففرح، ورقصَ صوتُه: «الآنَ تمّتِ البُشرَى».

ودخلوا الدُّور، وكان اللّيل قد بدأ رحلته، وجلسوا بين قدَمَي أبيهم، وقالوا: «يا أبانا اغفرْ لنا». فلم يقلْ شيئًا. وقام يهوذا وهو يحمل قميصَ يوسف، وقال: «أما يا أبي فإنّني كنتُ أشدَّ إخوتي ذنبًا؛ فأنا الّذي جِئتُكَ بالخبر السيِّئ حين كنتُ أجرأ إخوتي على الكذب، وقلت إنّ الذّئبَ أكله، وإنّني اليوم أريدُ أنْ أكفّر عن ذنبي، فأكون أوّل مَنْ يحمل بِشارةً خاصّة من يوسف: «إنّ معي قميصَه». ورفع يعقوب عنقه إلى مصدر الصّوت، وهتف: «ألمْ أقلْ لكم». وأردفَ يهوذا: «وإنّ يوسف قال إنّ فيه شِفاء عينَيك من العمى، وإنّني سألقيه على وجهك حتّى يعود إليهما نورُهما». وتقدّم حتّى صار فوقَ رأسه، وقال يعقوب: «إنّي لأجُد رِيح يوسف. إنّه قميصُ إبراهيم، أنجاه الله به من النّار، وأنجى به ابني يوسف من البِئر، ويُنجيني اليوم من الأسى». وأسدله يهوذا برفقٍ على رأسِ أبيه، ثُمّ رفعه، فإذا عينا يعقوب تريان كلّ شيءٍ! ودار

برأسه ينظر إليهم، ويُطيل النّظر في وجوه أبنائه، وسرتْ فيه موجةٌ من الحبور، وتهلّل وجهه، وضحك، وقال: «ها أنتم، ها أنتَ ذا يا روبيل، ها أنتَ يا يهوذا...» ووقفَ على قدَمَيه، ومسحَ بيدَيه على رؤوسهم واحِدًا واحِدًا، مرّ على مئةِ نفرٍ من أبنائه وزوجاتهم وأحفاده، ثُمّ هتفوا كلّهم أمامه بصوتٍ واحدٍ: «يا أبانا استغفرْ لنا». فقال: «سوف أفعل». ومضى اللّيل، حتّى إذا جاء السَّحر، قام في محرابه، وقد عادتْ إليه روحه، وصَحَّ بدنُه، وصفا رأيُه، فدعا لهم. حتّى إذا ضَحِكَتِ الشّمس، شدّوا رِحالهم على الجِياد والنّوق إلى مصر، فلم يبقَ في الحيّ أحدٌ.

(٤٨)
يا مُذهِبَ الأحزان

وقال يوسف لخاصّته، مهّدوا الدّروب، وجهّزوا الرّواحل، وأجروا السُّقاة على الطُّرُق من أوّل مصر إلى هنا، إنّ نبيًّا عظيمًا سيُشرّف أرضَ مصر، وإنّ مصر كلّها يجب أنْ تحتفي بقدومه. وفرحتْ مصر كما لم تفرح من قبل، وطربَ قلبُ أخناتون لقدوم النّبيّ، سيكون على أرض مصر نبيّان، وقال لزوجته: «اصنعي طعامَهما بنفسك، هل يمكن أنْ تتخيّلي أنّكَ تُعدّين الطّعام لنبيّين معًا بيدَيك؟! أيّ بركةٍ ستحلّ علينا بسببهما!!».

وقال الملك الفرعون: «أنا حريٌّ مثلُكَ بأنْ أخرجَ لاستقبالِ أبيك؛ إنّ أباكَ أبونا». وخرج في حاشيةٍ مُزركشةٍ وجيادٍ مُطهّمةٍ، وراياتٍ مرفوعةٍ، وأنغامٍ صادحةٍ، وكانوا آلافًا، تبرق البِيض والخُوذ فوقَ رؤوسهم، وغَنّوا ابتِهاجًا بقدوم المُنتَظر. وقالتْ له أمّه: «هذا أوانُ هَلاكك، إنّه لا يُستقبَل بهذه العَظَمة إلاّ فرعون أو إمبراطور، أمّا أنْ تَستقبلَ راعيًا جاوز عمره المِئة من أجل ابنه الّذي كان عبدًا، وبهذه الأعداد، فهذا أوانُ حَيْنِك!». ثُمّ ولولَتْ، واعتكفتْ في غرفةٍ من غُرَفِ قصرها، وصرختْ: «وا أسفا عليكَ يا بُنيّ!!».

واقتربتْ قافلة يعقوب، قافلة إسرائيل وبنيه، تتهادَى فوق الكُثبان، حتّى بدتْ قمم الأهرام الكِبار، وكأنّها تُحيّي الكبار القادمين من أرضِ

كنعان، وكان هذا أوّل عهد بني إسرائيل بنزولهم مصر، فقالتْ لهم الأرض، وقالتْ لهم البيد، وقالت لهم الرّمال: «ادْخُلوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنين». ولم يَرُعْهم أحدٌ، بل حفّ بهم كلّ مَن في الطّريق، واحتفى بهم كلّ مَنْ رآهم، وحيّاهم كلّ مَنْ مرّ بهم، والتقوا في مهيع من الأرض، فنظر يعقوب إلى الّذين جاؤوا يستقبلونه، فإذا هو موكبٌ لا تُرى نهايته، وإذا هي عَرَباتٌ مُذهَبة، وإذا الأبواق تَنفُخ طربًا، وإذا للخيل هَمْلَجَة، وإذا للسّيوف صَلْصَلة، وإذا للنّساء زَغْرَدة، وإذا للحُليّ وسوسة، وكان يتّكِئ على ذراع يهوذا، فقال له: «يا يهوذا، ليسَ هذا ابني، إنّما هذا موكبُ فرعونُ مصر وعساكره». فقال له يهوذا: «إنّ فرعون مصر اليوم ليأتمر بأمر ابنك، وإنّ يوسف ذاك». وأشارَ إليه، عرفه من التّاج والقِلادة، وضيّق يعقوبُ عينَيه، وأَحَدّ نَظَره، واضطرب، وهتفَتْ كلّ جارحةٍ فيه: «يوسف... يوسف... يوسف». وهَمّ أنْ يركض نحو ابنه، لكنّ قُواه خارتْ، وتهدّجَ صوتُه: «يا يهوذا، خُذني إليه». واتكأ في الجانب الأيسر على روبيل، وسارا به، حتّى إذا صارَا قريبَين، نظر في وجهه مرّةً أخرى، فرأى فيه يوسف الطّفل، يوسف الّذي تركه قبلَ ما يقربُ من خمسينَ عامًا، خمسينَ عامًا فعلتْ كلّ هذا، خمسين عامًا صنعتْ في قلبِه عَجَبًا، واستطاع أنْ يُمسِكَ بصورة ذلك الطفل الّذي كان عمرُه اثني عشر عامًا حينَ فارقَه، ولم تختلف الصّورة كثيرًا رغم اختلاف السّنين، إنّه جميل كما كان، وسيمٌ على عَهْده، شامتُه لم تُفارقه، نُوره لم يَخْبُ، ضوءُ عينَيه هو هو، ودَعَجُهما على سَواده، ولؤلؤ أسنانه لم تسقط منه لُؤلُؤة، بل زادَ نصوعًا. واحتضنه، وبكى، وقال وهو يُرخي رأسه على كتفِ يوسف: «السّلامُ عليكَ يا بُنيّ، السّلام عليكَ يا مُذهِبَ

الأحزان، السلامُ عليكَ يا نبيّ الله». وبكى يوسف، وبكى إخوته، ومسحَ فرعون دمعةً ظلّتْ تنحدر رغمًا عنه على خدّه، وفي البعيد في الغرفة القصيّة من قصرها، بكتْ أمّه أيضًا!!

وسار الموكب إلى القصر، وسرتْ أنفاسُ الأنبياء في ربوع مصر فطيّبَتْها بعد أنْ خبّثَتْها أنفاس الآلهة الكثيرة من عصورٍ سحيقة. والتمّ الشّمل، والتقى الشّتيتان، وقد ظنّ أهلُ الأرض أنهما لن يلتقيا أبدًا.

أمّا زليخة فقيل إنّها خرجتْ مع عامّة أهل مصر تستقبل النّبيّ الأب، وقد كانتْ تدبّ دبيبًا، وقيل إنّ أحدهم شاهدها وهي تهوي على قدم يعقوب، وتقول له: «سامحْني». ثُمّ لم يكنْ لها من بعدُ أثر. ذابتْ مثل كثيرين ذابوا من قبلُ ومن بعدُ، طوى التّاريخ قصّتها إلاّ في موقفَين، يومَ دعتْه إلى مخدعها وقالتْ له: «هيتَ لك»، ويوم دعت النّسوة إلى رؤيته لكي تحرق قلوبهنّ كما حرقَ قلبَها فزادتْهُنّ إلى حريق القلبِ تقطيعَ الأيدي.

وأمّا مالكُ بن ذُعَر، فقيل إنّ أحدهم رآه على على كثيبٍ خارجَ مصرَ يوم دخول يعقوب وذريّته، يصفق رأسَه، وهو يهذي كالمجنون: «أنا مُشتري الأنبياء وأنا بائِعُهم... أنا مُشتري الأنبياء وأنا بائعهم». ثُمّ يصمت برهةً ليقول: «والله لقد رافقتُه في الصّحراء يوم اشتريتُه أفلا أكون رفيقه في الجنّة؟». ثُمّ يُمسك بكتفِ أحدهم ويهزّه: «سيُسامحني، أليس كذلك؟». ثُمّ يذهب، وينتقل إلى غيره، والنّاس لا تشكّ أنّه فَقَدَ عقله.

وأمّا قطفير، فخرج إلى الخَلاء، ولم يعرفْ له أحدٌ موضعًا يُزارُ فيه،

وقيل إنّه مات بعد أنْ تاه في الصّحراء عشرةَ أيّام، وقيل إنّه صارَ راهِبًا أو راعِيًا أو ناسِكًا، وقيل إنّه جُنّ، وقيل إنّ طيرًا كبيرًا هبطَ من السّماء واختطفه، وقيل إنّه رمى نفسَه من شاهقٍ، وقيل إنّه اعتكفَ في بِئرٍ شبيهةٍ بالّتي أُلقِيَ فيها يوسف، وكان يَسمعُ صوتَه، وكان يعيشُ على فُتاتٍ من الطّعام تلقيه طيورٌ خُضْرٌ من مناقيرها في كلّ مساء. ولم يُصدّقْ أحدٌ فيه خبرًا أو يُكذّبه.

وأمّا إسرائيل فأقام عشرين سنةً في مصر، يُكرّمه أهلُها، ويبذلون له كلّ ما يملكون، وكَثُرَت ذُرّيته، وولدَ له المئات، ثُمّ صاروا آلافًا، ولمّا جاء أحدُ أحفاده الّذي سُمّي (موسى) تناسَلوا حتّى غَطّوَا جميع الأرض، وزادوا على كلّ ملّةٍ فيها، وخرجَ موسى بذرّية بني إسرائيل من مصر وكانوا يفوقون الرّمل والبحر والنّجوم عددًا. ولمّا مات يعقوب، أوصى يوسف: «إنّ أَوانِي يا بُنيّ قد حان، وإنّني لا أرتاح إلاّ إلى جوارِ أبي إسحق، وإنّ أبي مدفونٌ بالشّام، فإذا فاضتْ روحي، فألْحِقْني به هُناك».

ثُمّ مات فِرعون، وجاء فرعونٌ آخَر، فقال له يوسف: «إنّ سلفكَ كان يوحّد الله». فقال: «لقد كان الأحمقَ المُطاعَ في قومه». فدعاه يوسف إلى ما دعا إليه أخناتون، فأبى، وقال له كَهَنة المعبد: «خلّصْ مصر من رجسِ أمنحوتب الرّابع». فقال: « وما أفعل؟». فقالوا: «مجِّدِ الآلهة الكثيرة الّتي عبدَها أسلافُنا، وامحُ اسم أخناتون من كلّ المعابد، وأعِدْ إليها اسم آمون الّذي مُسِحَ على عهد هذا الّذي ادَّعى أنّه نبيّ، وأنّه مُرسَل من الله، فما هو إلاّ رجلٌ جميل أكل عقول النّاس بادّعائه تفسير

الرّؤى، ولئن صدقَ مرّة لقد كذب فيها عداها، والنّاس اليوم تريد أنْ تعود إلى ما كان يعبدُه آباؤها وأجدادُها». فقال: «صدقْتُم». وأُزيل اسم الإله الأوحد، وأرجعت أسماء الآلهة الكثيرة، ونُقِشتْ رُسومُها، ولهج النّاس بذِكرها، وعادوا إلى سالفِ عهدهم، ورجع الباعة يبيعون الآلهة المنحوتة أمام المعابد من الخشب أو الخزف أو الحديد، وضجّتْ مصرُ بآلهةٍ لا حصرَ لها، فكأنّ زمن يوسف هو زمن الاستثناء في فرعونيّة مصر، الزّمن الّذي أشرقتْ فيه تلك البلاد بنور التّوحيد، ثُمّ لمّا ذهبَ ذهبَ معه كلّ شيءٍ!!

ومضى العُمر، مضى كلّ شيء، مثلما يمضي أيُّ شيءٍ على هذه البسيطة. أكل الزّمن أهلَها، وأعزّ قومًا، وأذلّ آخرين، وحكم من حَكَم، وسادَ مَنْ ساد، وقضى مَنْ قضى، ولم يبقَ إلاّ الأحاديثُ والأخبار يتناقلها النّاس، ورمى الدّهر على جسد النّبيّ لِباسه كما رماه على آبائه، ومَنْ سلفَ منهم، وجاءتْ لحظة القدر، وأقبلَ الموتُ على الجميل، وماتَ يوسف، وكان لا يزال أهل مصر يحبّونه، فتنازَعوا بينهم؛ كلٌّ يُريد أنْ يدفنه عنده، وفي محلّته، حتّى أُشهِرَت السّيوف، وأُشرِعت الرّماح، فاتّفقوا أنْ يدفنوه في أوّل النّيل، في الجزء الّذي يمرّ به ماؤه، ثُمّ يتفرّق عنه إلى سائر أنحاء مصر، فكان الماء يسيل حتّى يمسّ قبره، ثُمّ يلتفّ عنه ويُتابع سيرَه فيُصيبُ أرضَ مِصر كلّها. وصار النّاس بعدَ سنين يُقدّسون التّابوت، ويقدّسون صاحب القبر، وكانوا يُقيمون عنده النّذور، ويذبحون الذّبائح، فلمّا أتى موسى، رأى الشّرك فيما يفعلون، فحَمَل القبر وسار به إلى الشّام ليدفنه إلى جوار أبيه يعقوب، ولكنّ فرعون أتْبَعَه، ولحقَ به إلى البحر، ولمّا نجا بالتّابوت إلى الضّفّة الأخرى،

وجدَ هو وقومه الصّحراء أمامهم، فَتاهَ القومُ كُلّهم، ولما وضعوا التّابوت في وسط الصّحراء، وقد عَطِشوا إلى الحقيقة، أخنى عليهم ليلٌ ثقيل، فذهبَ بعضُهم فعبد الآلهة الّتي كان يعبدها الفراعنة، وذهبَ بعضهم فعبدَ العِجل، وذهبَ بعضهم فعبدَ التّابوت... ووقفَ الأطحل على نشزٍ من الأرض، ورأى النّاس كأنّهم الغربان يطوفون حول التّابوت، فعوى حتّى سمعه أهل الأرضُ كلّهم، وصاح: «وا أسفا على يوسف!». وكان ليلاً طويلاً، وعواءً مُستمرًّا لم يتوقّف إلى اليوم!!

انتهتْ

أيمن العتوم

عمّان

٢٠١٨/١٢/٧

الفهرس

(١) لا جَزاء للصّبرِ غيرُ الفَوْز.. ٥
(٢) لا يُهاب إلا مَنْ كان ذا زَهط.. ٩
(٣) للأنبياء قلوبٌ لا تَنام.. ١٥
(٤) قِسْمة القَلب.. ٢١
(٥) الشّذى النّبويّ.. ٢٨
(٦) القميصُ لي!.. ٣٣
(٧) الحُبّ رِزق.. ٣٧
(٨) العَشاء الأخير.. ٤٣
(٩) الفوزُ بِقَلبِ الأَب.. ٤٩
(١٠) بربّك ما الّذي تُخبّئه عَيْنا نبيٍّ مِثلِك؟!!».. ٥٧
(١١) القتلُ ليس له تَوبة.. ٦٤
(١٢) الأجلُ حَتْف.. ٧٢
(١٣) اتْبَعِ الذّئب يدلّكَ على الطّريدة.. ٨١
(١٤) قلبي مَعَك!!.. ٨٧
(١٥) المُلطّخة أيديهم بالدّم تفضحُهم عيونُهم.. ٩٢
(١٦) هل ترى؟!.. ١٠١
(١٧) لا تَخَفْ.. ١٠٧
(١٨) الحُزنُ لا يُعيدُ الفائِت.. ١١٣
(١٩) هذا الذّئب يقول الحقيقة!!.. ١١٨
(٢٠) كِلانا يَبكي فَقْدَ صاحِبه.. ١٢٥
(٢١) إنّ الله إذا دعا أحدًا لبّى.. ١٣٤
(٢٢) الطّمع شَرَكٌ قاتلٌ.. ١٤٣
(٢٣) هل هو حقيقيّ؟!.. ١٥٤

(٢٤) لا غالبَ إلاّ الله ١٦١
(٢٥) مَعذُورٌ مَنْ كانَ أَعْمى ١٦٦
(٢٦) انظُرْ في قلبك ١٧٣
(٢٧) مَنْ يصيدُ الذّئب؟ ١٨١
(٢٨) هَيْتَ لَكَ ١٨٦
(٢٩) أيّها الذّئب؛ أَعِدْ لنا أخانا ١٩٥
(٣٠) أفعى بعشرين رأسًا!! ٢٠١
(٣١) السّجنُ أَحَبُّ إليّ ٢١٢
(٣٢) يا لَفِعْلِ الأيّام في الذّاكرة!! ٢٢٠
(٣٣) السّجنُ مدرسة ٢٢٧
(٣٤) مِنَ الطّينِ إلى الطّين ٢٣٧
(٣٥) الإيمانُ أَمان ٢٤٥
(٣٦) الأحلامُ تلزمُ أصحابَها ٢٥٢
(٣٧) لولا هَيْبة المُلوك لأساءَ النّاسُ الأدب ٢٦٢
(٣٨) اتّهم بِعِنَبِ الشّام ٢٦٩
(٣٩) مِنْ أَجْلِ مِصر لا مِنْ أَجْلِ المَلِك! ٢٧٦
(٤٠) إنّ الشّفرةَ الحادّة لَتُغرى بالعُنُق اللّيّن!! ٢٨٦
(٤١) أشواقُ السّنين ٢٩٤
(٤٢) بِضاعتُنا رُدّتْ إلينا ٣٠٢
(٤٣) يُستَرَقّ مَنْ سَرَق ٣٠٩
(٤٤) لو حَفِظْتَ لِسانَكَ لحفظْتَ أخاك ٣٢٠
(٤٥) أنا أُحِبُّ مِصْر ٣٢٦
(٤٦) مَسّنا وَأَهْلَنا الضُّرّ ٣٣٣
(٤٧) هل يَعودُ الموتى؟ ٣٤٠
(٤٨) يا مُذهِبَ الأحزانِ ٣٤٤

AYMAN AL-OTOOM

أنا يوسف

" الإِخْوةُ صَفٌّ ". " الإِخْوةُ نَزفٌ ". " كلّا... يَنْهَدُّ جدارُ البيتِ ولا يَنْهَدُّ جدارُ الإخْوة... كُلُّ جدارٍ غَيْرُ جدارِ الإخْوة زَيْفٌ ". " يَنْهَدُّ على أَضْعَفِهِمْ . الأَجْملُ ضَعْفٌ. الأَجْملُ مَحسودٌ مُذْ خَلَقَ اللهُ الحُسنَ عَلَى صُورَتِهِ... الأَجْملُ لا يَحْمِلُ سَيْفٌ... والأَجْملُ حَتْفٌ ".

9 789777 641241

دار المعرفة للنشر والتوزيع

القاهرة - أمام مسجد عليش - خلف جامع الأزهر

هاتف : 01008584820 (002) - 01111322668 (002)

البريد الإلكتروني: elmarefa@hotmail.com